مُذكّرات
أميرة عربية

بقلم

السيّدة سالمة بنت السيّد سعيد بن سلطان

سُلطان مسقط وزنجبار

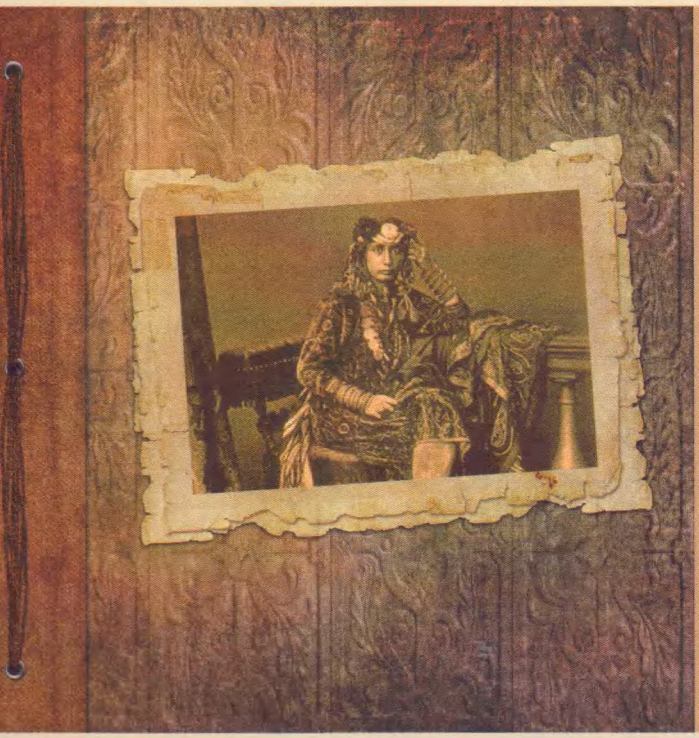

ترجمة

عبد المجيد حسيب القيسي

مُراجعة

إسماعيل بن أحمد بن هارون الزّدجالي

الطّبعة العاشرة

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

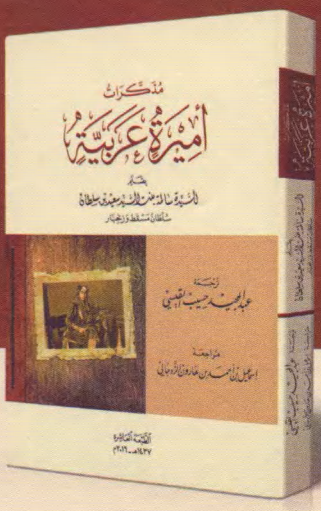

تكتسب هذه المذكرات أهمية خاصة وقيمة نادرة، فالمؤلفة وهي ابنة القصر السلطاني والعالمة بدخائله وخفاياه فتبسط الحديث عن نظام القصر ومراسمه وتقاليده وأسلوب العيش فيه ولا تقتصر على وصف الحياة السياسية ومظاهر الحياة الاجتماعية وتقاليدها السائدة آنذاك في زنجبار مما يعتبر ثروة قيمة لدارسي علم الاجتماع وعلم الاجناس وعلم التاريخ.

مُذكرات

أميرة عربية

حُقوق الطَّبع محفوظة
لوزارة التُّراثِ والثقافة
سلطنة عُمان

الطبعة العاشرة
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

سلطنة عُمان - ص.ب.: ٦٦٨ مسقط، الرمز البريدي: ١٠٠
هاتف: ٢٤٦٤١٣٠٠ / ٢٤٦٤١٣٢٥، فاكس: ٢٤٦٤١٣٣١
البريد الإلكتروني: info@mhc.gov.om
موقع الوزارة على الإنترنت: www.mhc.gov.om

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أو الإلكترونية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي أو سواه وحفظ المعلومات واسترجاعها - إلا بإذن خطي من الناشر.

مُذَكَّرَاتُ
أَمِيرَةٍ عَرَبِيَّةٍ

بِقَلَمِ

السَّيِّدَةِ سَالِمَةَ بِنْتِ السَّيِّدِ سَعِيدِ بْنِ سُلْطَانَ

سُلْطَانِ مَسْقَطَ وَزَنْجِبَارَ

تَرْجَمَةَ

عَبْدِ الْمَجِيدِ حَسِيبِ الْقَيْسِيِّ

مُرَاجَعَةَ

إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ هَارُونَ الزَّرْدَجَالِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

السيدة سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان (إميلي روث)

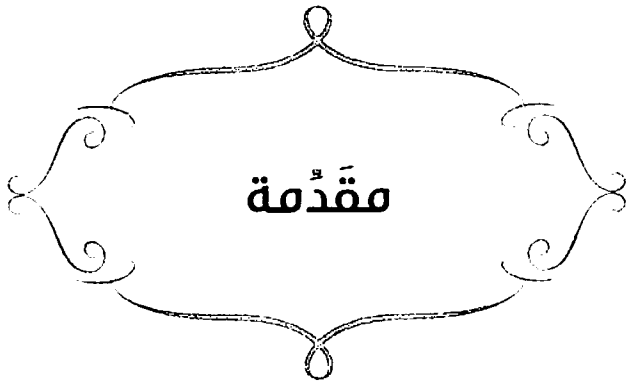

بقلم: عبد المجيد القيسي

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

أَميرة شرقية عربية وابنة سلطان عربي كبير تَخْرج قبل أكثر من مائة عام على تقاليد قومها فتتزوج شاباً ألمانياً وتهجر من أجله وطنها ومُلك أبيها وتترك حياة العزِّ والقصور لتطوح بها الأقدار في ديار الغربة بين لندن وبرلين، وتستبدل حياة الاختلاط والسفور في أوروبا بحياة الحريم والحجاب في الشرق وباسمها العربي السيِّدة سالمة بنت سعيد إسماً أعجمياً هو البرنسيس إميلي روث، ثم تضيق بها الحياة بعد عشرين عاماً، أو تضيق هي ذِرعاً بالحياة الأوروبية فتحنُ إلى الرجوع إلى وطنها الأول، ولكن أبواب العودة تُغلق في وجهها فتعكف تكتب باللغة الألمانية قصة حياتها وتجاربها وتستعيد ذكريات بلادها وبَني قومها.

هذه القصة الغريبة النَّادرة التي تكاد أن تشبه قصص الخيال والتي نَدَر من سمع بها في الشرق رغم شيوعها في الغرب هي موضوع هذا الكتاب

الذي نقدِّم إلى قرّاء العربية ترجمته اليوم. والأميرة هي السـيِّدة[١] سالمة ابنة السيد سعيد بن سلطان، سلطان عُمان وزنجبار (١٨٠٤ ـ ١٨٥٦) وحفيد الإمام أحمد بن سعيد مؤسِّس السلالة الحاكمة في عُمان.

وقد حدت بنا إلى ترجمة هذا الكتاب ونَشـره أسـباب عـدَّة تدور في معظمها حـول طابع «الندرة» الذي يسـم هذا الكتـاب ومؤلِّفته وموضوعه. وحول غرابة الظروف التي أَمْلَت على مؤلِّفته كتابته.

فعدا عن ندرة من سـمع بهذه القصة بين القـرّاء العرب وندرة من قرأها بين العالِمِين بها، فالكتاب بحد ذاته وبجميع طبعاته في اللغات الثلاثة التي صَدَر بها، نادر الوجود مفقود الأثر، بعد أن مضى على نشـره أول مرة زهاء قرن من الزمان. وقد كنَّا نقع على مقتطفات منه واستشـهادات به وإشـارات إليه وإلى مؤلِّفته في كثير مما يقـع تحت يدينا من الكتب الغربية الباحثة في تاريخ عُمان وزنجبار عامة وعن تاريخ عائلة البوسعيد حكَّام تلك البلاد منذ نيف ومئتين عام خاصة. ولكننا لم نسـتطع العثور له علـى أثر في غير دور الكتب الكبـرى، وعبثاً ذهبت جهودنا في التفتيش عنه في أسـواق الشـرق والغرب، حتى إذا مـا فقدنا أمل الحصول عليه، عثرنـا في صدفة طيبة على نسـخة منه عند أحد باعـة الكتب المتجولين في شـوارع بيـروت ممن لا يدركون قيمته وندرته فابتعناه منه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودات[٢].

ومن عوامل الندرة في الموضوع كتابة السـيرة بحد ذاتها. ذلك أن كتابة السِّـيَر الذاتية والمذكرات الشـخصية فن أدبـي رائع عرفـه الغربيُّون على اختلاف أُممهم وفي كل عصورهم وبرعوا فيه حتى زخرت به آدابهم وأصبح

(١) يطلق لقب السـيد في عُمان على الرجال الذين يعود نسـبهم إلى الإمام أحمد بن سعيد، وعلى النساء منهم لقب السيدة.

(٢) كانت هذه نسخة من الترجمة المطبوعة في نيويورك عام ١٩٠٥م.

تراثـاً فكرياً بارز المعالم شـاهق البنيان. وكما كان هذا التـراث رافداً غزيراً أَخصـب آداب تلك الأُمم بآثار أدبيـة رائعة فقد كان أيضاً مَنهـلاً ثرياً أغنى الدراسـات التاريخية والاجتماعية بأوفر المعلومات وأدقّها مما أَعان دارسي تاريخ تلكـم الأُمم وأحوالها على جلاء جوانب غامضة هامة ما كان ليتيسـر لهم الكشف عنها في غياب هذا التراث الضخم.

لكن الأقلام العربيـة الأصيلة على وفرة إنتاجها وروعة آثارها وشـمولها للكثير من المعارف والفنون، لم تعنَ بهذا الفن الأصيل ولم تَعرف قبل القرن العشرين كتابة السِّـير الذاتية والمذكرات فنّاً مسـتقلّاً قائماً بنفسه وإنما عرف بعضها شذرات متناثرة أو نتفاً عابرة في بطون الكتب وطياتها بحيث لا يتيسَّر الوصول إلى مظانّها إلا لأهل الخبرة والدراية، لا نسـتثني من ذلك ـ على ما نعرف ـ إلا قلّة نادرة تُعد على أصابع اليـد الواحدة خلفت في هذا الفن آثاراً قيّمة شامخة تسـتوفي جميع خصائص كتب المذكرات التي برع بها الغربيون وتضاهيها أصالة فكر ونفاسة مادة وجودة عرض وروعة أسلوب ولكنها ـ مع الأسف ـ تكاد لقلة عددها أن تضيع في خضم التراث العالَمي الكبير[1].

---

(١) أروع هذه المذكرات وأحراها بالذكر هي:

أ ـ سـيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة: تأليف داعي الدعـاة الفاطميين المؤيد في الدين الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م. حقق الكتاب ونشـره الدكتور محمّد كامل حسين ـ دار الكاتب المصري ـ القاهرة ١٩٤٩.

ب ـ كتاب تبيان الحادثـة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطـة، لمؤلفه الأمير عبد الله بن زيـري الصنهاجي من ملـوك دول الطوائف في الأندلـس وقد حقّق الكتاب المستشـرق بروفنسال ونشرته دار المعارف في القاهرة تحت اسم مذكرات الأمير عبد الله.

جـ ـ كتاب الاعتبار: تأليف الأمير أسامة بن منقذ وقد حقق الكتاب وقدّم له بمقدمة بليغة ضافية الدكتور فيليب حتّي ونشرته جامعة برنستون وأعادت مكتبة المثنى ببغداد طباعته ونشره.

د ـ تاريخ حياة ابن خلدون بقلمه والمسمى «التعريف بابن خلدون» وقد حقّقه ونشره الأستاذ محمّد بن تاويت الطنجي وظهرت له في مطابع القاهرة وبيروت عدّة طبعات.

وإذا كان أدب التراجم في لغة الضـــاد على هذا الحال من الندرة في أدب الرجال على وفرته، فهو في أدب النساء ـ وهو في حد ذاته نزر قليل ـ بحكم المعدوم أصلاً. وعلى هذا فاكتشـــاف أي أثر عربي من هذا القبيل يعتبر، ولا شك، إضافة قيمة إلى تراثنا النزر في هذا الميدان، خاصة إذا كان هذا الأثر قد كتبته أَميرة عربية من نســـاء الشرق في القرن التاسع عشـــر، عاشت في بيت أبيها السلطان في أقصى بقعة حكمها العرب وهي زنجبار فجربت حياة النعمة والجاه وخبرت مراسم القصر السلطاني وآدابه، كما خبرت حياة الحريم وكيد النساء ودسائس الرجال فجاءت تروي طرفاً من كل ذلك في مذكراتها هذه!

ومن هنا تكتســـب هذه المذكرات أهمية خاصة وقيّمة نادرة في الكشف عن جوانب هامة من الحياة السياسية والاجتماعية في زنجبار في تلك الحقبة من الزمان، فالمؤلِّفة، وهي ابنة القصر الســـلطاني والعالمة بدخائله وخفاياه، تتبسَّط في الحديث عن نظم القصر السلطاني في زنجبار ومراسمه وتقاليده وأســـلوب العيش فيه، فتقدّم عن الحياة الداخلية فيه صـــوراً فريدة نادرة فيها المتعة والطرافة وفيها الفائدة الجلّى للراغبين في دراسة هذه المواضيع.

والمؤلِّفة فـــي هذه النقطة بالذات أول امرأة، بـــل أَميرة، عربية كتبت في هذا الموضوع عن مشاهدة وعِلم واطلاع، ولا نعرف لها نظيراً في هذا الباب إلا الشـــريفة مصباح حيدر التي كتبت مذكراتها عن الحياة في بيوت شـــرفاء مكة في إســـتانبول ومكّة المكرَّمة في مطلع هذا القـــرن[1]. وليس مما ينقص من شـــأن كتابي هاتين الأميرتيـــن ألا يكونا عربيّ اللســـان طالما كانا عربي المصدر والروح والسِّمات.

على أن مذكـــرات أميرتنا العُمانيـــة لا تقتصر على وصـــف حياة القصر

(١) HRH. Princess Musbah Haider: Arabesque - London. 1945.

فحسب، بل تتعداه إلى وصف مظاهر متعدِّدة للحياة والتقاليد الاجتماعية السائدة في زنجبار آنذاك، مما يعتبر ثروة قيّمة لدارسي عِلم الاجتماع وعِلم الأجناس. كما وتزخر مذكراتها بعد هذا بالإشارات الكثيرة إلى بعض الأحداث التاريخية وقصص المؤامرات وأساليب الحكم والإدارة، كما تَزخر بالصور الوصفية للسلطان السيد سعيد وخلفائه من بعده وبعض حريمه وأبنائه ووزرائه، وبهذا تلقي المؤلِّفة أضواء جديدة على شخصيات هؤلاء الحكام وخلفيات حياتهم، وبطبيعة الحال فهي في كل هذا تعرض من الصورة الجانب الذي تراه أو تفهمه أو يوافق هواها وقد يجانبها الحق والصواب بعض الأحيان، لكن آراءها وأفكارها تبقى رغم هذا علائم مهمَّة لدراسة التاريخ الإجتماعي لتلك البلاد.

ومما يزيد في أهمية ما تضمنته هذه المذكرات من أخبار وآراء أنها تتعلَّق ببلد عربي قلّ منا مَن يعرف من أخباره شيئاً وقلّ من يعرف أن هذا البلد ظل عربيّاً حتى عام ١٩٦٤م حيث فقدناه في مأساة دامية أُضيفت إلى مآسي العروبة في الأندلس والإسكندرية وفلسطين، بل وأكثر من هذا فإن علمنا بتاريخ عُمان، التي كانت زنجبار جزء منها ثم انفصلت عنها، ظل مجهولاً حتى الأعوام الأخيرة حيث خرجت عُمان من عزلتها وعاد اتصالها القديم بالعالَم.

ولهذا فلعلنا لا نخرج عن مقتضى الحال ـ كما يقول البلاغيون ـ إذا ما استطردنا إلى الإلمام السريع بتاريخ العرب في عُمان والجزر الأفريقيا ثم تاريخ البوسعيد في مسقط وزنجبار.

وليس من اليسير أن تلم عجالة كهذه بتاريخ القوم والبلاد، وهو تاريخ طويل الأمد حافل بالأحداث الجسام زاخر بالبطولات والمآسي وبالإشراق والكسوف، ولهذا سنحاول أن نتوقف على الأحداث البارزة وأسبابها في هذا التاريخ مما له علاقة بخلفيات هذا الكتاب.

(٢)

كان الأزد القحطانيون النازحون من اليمن أول من سَكَن بلاد عُمان ثم شاركهم سكناها أخوة لهم من عرب الشمال العدنانيين، وظلَّت هاتان الفئتان تُعرفان على مرّ القرون بأسماء عدَّة منها القحطانية والعدنانية أو الأزد والنزارية أو الهنائية والغافرية.

وقد اعتنق أهل عُمان الإسلام فيمن اعتنقه من العرب، وشاركوا إخوانهم المسلمين في البلاء الحَسَن في الفتوحات الإسلامية في العراق والشام ثم دفعت بهم ذيول «الفتنة الكبرى» التي عمَّت المسلمين بعد مقتل الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفَّان ﷺ، إلى الانكفاء إلى بلادهم والعيش فيها في عزلة تامَّة عن إخوانهم العرب وفي حذر وريب منهم.

وقد انتمى جل أهل البلاد إلى المذهب الإباضي، وعكفوا على دراسته ورعايته، فازدهر بينهم فقهه وتبلور إلى نظرية متكاملة في أمور الدين والدنيا، وكانت نظريته السياسية في الحكم تقتضي بوجوب وجود إمام في البلاد تنتخبه الجماعة ليهديها في أمور دينها ويتولى حمايتها والدفاع عن البلاد ضد كل فاتح أو معتدٍ[1].

وبعد حروب بين أهل عُمان وبين جيوش الخلافتين الأموية والعباسية تحقَّق لهم استقلالهم، وانتخبوا أول إمام لهم وهو الجلندى بن مسعود في حوالي النصف الأول من القرن الهجري الثاني، وتتابعت بعده أعداد من الأئمة الأفاضل يحكمون البلاد بالتقوى والورع ويذودون عنها بالسيوف

---

(١) للوقوف على شرحٍ وافٍ عن الإباضية انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة الإباضية «بقلم لويسكي».

وانظر كذلك الإباضية في موكب التاريخ (٣ أجزاء) تأليف علي يحيى معمر ـ القاهرة.

والأرواح، عدا فترات متقطعة من «الشغور» حتمتها ظروف خاصّة في البلاد، كالاحتلال الأجنبي للبلاد أو قيام «الجبابرة»[١] بالانفراد بالحكم فيها.

❁ ❁ ❁

وظلّت الأمور تسير على هذه الحال حتى ظهور البرتغاليين في البحار الشرقية ثم ما كان من احتلالهم لجزر أفريقيا الشرقية ومتابعتهم من بعدها سيرهم الباغي إلى المياه العربية، فاحتلوا هرمز في الخليج العربي وانتقلوا منها إلى احتلال عُمان وبعض المُدُن الساحلية الأخرى، وكان الاستعمار البرتغالي عاتياً باغياً مدمِّراً، لقي منه أهل البلاد شر أنواع العذاب والبلاء مدّة قرن ونصف القرن. ولكن الله قيّض للبلاد بطلاً منقذاً في شخص الإمام ناصر بن مرشد اليعربي الذي تولّى الإمامة عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م، فوحّد الكلمة والجهود وبدأ جهاداً مقدّساً ضد البرتغال الغزاة حتى حرَّر سواحل عُمان من آثارهم وحاصرهم في قلعتيهم في مسقط. ولكن المَنية عاجلته وهو ابن ست وأربعين عاماً فمات عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٨م قبل أن تكتحل عيناه برؤية النصر الأخير. فبُويع بالإمامة بعده ابن عمه سلطان بن سيف اليعربي فأتم الجهاد وحرَّر مسقط وأَجلى آخر جندي برتغالي من أرض العرب عام ١٦٥١م[٢].

إلا أن الأمر لم يستقم لهؤلاء الأئمة في عُمان فقد ولي الإمامة بعد المؤسسين العظام عدد من الأئمة الضعاف[٣] الذين انغمروا في منازعات عائلية وفتن محلية أنهكت البلاد واستنزفت دماء أبنائها، حتى بلغ الأمر

---

(١) الشغور في اصطلاح الفِقه الإباضي الفترة التي لا إمام للجماعة فيها والجبابرة هم الملوك الذين يحكمون البلاد دون إمام.

(٢) تختلف الروايات اختلافاً بيّناً في تعيين التاريخ الحقيقي لخروج البرتغاليين من مسقط، فمنها من تنزل به إلى سنة ١٦٤٥م ومنها من ترتفع به إلى سنة ١٦٥٨م.

(٣) كان الأئمة اليعاربة أول من نقل الإمامة إلى نوع من النظام الوراثي العائلي.

بأحد الأئمة المتأخرين إلى أن يستعين بجيوش الفرس لاحتلال بلاده، وأن يعترف لهم بالسيادة عليها من أجل نصرته على المنافسين له على الإمامة من إخوته وبني عمومته.

وقد أجابت جيوش الملك الفارسي المغامر نادر خان نداءه، فاحتلت أجزاء كثيرة من أرض عُمان وعاثت فيها بغياً وجوراً وحاربت أهلها وأساءت معاملتهم، فانتشرت الفتن والحروب وعَمَّت الفوضى أنحاء البلاد.

وكان الفرس قد ضربوا حصاراً طال أمده حول مدينة صحار وكان واليها آنذاك هو أحمد بن سعيد البوسعيدي، وكان رجلاً من عامة أبناء الشعب اشتهر هو وأهله بالتجارة ولكنه كان رجلاً شجاعاً قوي الجنان عالي الهمَّة.

وقد برزت مواهبه في القيادة والتنظيم وفي الجرأة والإقدام في حُسن الدفاع عن المدينة حتى رفع عنها الحصار وأزاح عن أسوارها الأعداء. ودفعه نجاحه والتفاف الناس حوله إلى المضي في حرب الفرس، فاستطاع أن يوحِّد الكلمة ويجمع القلوب حوله، وأن يوحِّد بالتالي جميع البلاد تحت قيادته، ومن ثم أن يفني الجيش الفارسي ويحرِّر أرض عُمان منه.

❁ ❁ ❁

واعترافاً بفضله في تحرير البلاد وتوحيدها وإنقاذها من الفرس ومن الفوضى والصِّراع فقد نُودي به إماماً للجماعة[1]، وبذلك استطاع أن يؤسِّس

(١) تختلف الروايات في تاريخ تولي الإمام أحمد بن سعيد الحكم في عُمان، فيرجع بعضهم تاريخ توليه إلى عام ١٧٤٤م ويرى البعض الآخر بأنه تولي الإمامة عام ١٧٤٩م، ويرتفع البعض الآخر فيما يتعلق بتاريخ قيام دولة البوسعيد إلى عام ١٧٥٢م.
وكذلك يختلف الرواة في تاريخ وفاته مع أنه لا موجب للخلاف في هذا الموضوع فتاريخ وفاته ثابت على شاهد قبره في الرستاق وهو ١٩ محرم ١١٩٨ وهو يوافق ١٥ ك١/ ١٧٨٣م.

الملك في عائلته، وكان رأس السلالة الحاكمة التي ما زالت تتبوأ عرش عُمان حتى هذا اليوم، والتي ظلَّت تَحكم زنجبار حتى عام ١٩٦٤م.

ولما توفي الإمام أحمد في عاصمته الرستاق عام ١١٩٨هـ/١٧٨٣م خلف بعده أولاداً سبعة وثلاث بنات، فأما الأولاد فهم هلال وسعيد وقيس وسيف وسلطان وطالب ومحمَّد. وكان لكل من هؤلاء الأولاد وأولادهم وأحفادهم من بعدهم أدوار مهمَّة في تاريخ البلاد الداخلي، أما البنات فلم يحفظ لنا التاريخ إلا اسم واحدة منهن فقط هي السيِّدة موزة التي فرضت بقوة شخصيتها وصلابة عزمها وإرادتها اسمها على التاريخ كما سيأتي ذكر ذلك في محله[1].

وكان هلال الابن الأكبر للإمام فَقَد بصره في أخريات أيام أبيه فانصرف الحكم بعد وفاة الإمام أحمد إلى ابنه الثاني سعيد الذي ورث أيضاً لقب الإمام، ولم يكن لسعيد شيء من صفات القيادة والإدارة، أو من الطموح وعلو الهمة فاستطاع ابنه حمد بالدهاء والحزم أن يسلب المُلك من أبيه ويستأثر به ويصبح الحاكم الفعلي للبلاد ويتخذ مسقط مركزاً له.

وكان حمد رجلًا هماماً مقداماً حازماً عَدلاً، سار في الرعية سيرة مرضية وإن لم يخل عهده من نزاع مستمر بينه وبين عمّه سلطان الابن الخامس للإمام أحمد.

وكان سلطان من الجانب الثاني رجلاً بطلاً وقريناً لحمد ونظيره في البطولة وقوة البأس وعلو الهمَّة والحَزم والإقدام. وكان كل منهما يشهد

---

(١) أجمع المؤرخون على اسمها هذا ولم يشذ منهم إلاَّ السيد صاحب كتاب جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار (وهو مخطوط تحت الطبع) إذ أسماها السيِّدة فاخرة. والدكتور جمال زكريا قاسم فقد سماها السيِّدة معاذة ولعل الدكتور وجد الاسم في تاريخ جيان الفرنسي فقربه إلى أقرب الأسماء إلى العربية لفظاً وهو معاذة. انظر: كتابه دولة بوسعيد ص٢٤٢ (القاهرة ١٩٦٨).

للآخر بذلك، وكاد النزاع بينهما أن ينعطف منعطفاً خطراً لو لم تحسمه يد المنون المباغتة التي أودت بحمد عام ١٧٩٣م إثر إصابته بمرض الجدري، فخلا الجو لسلطان واستطاع بيسر يسير أن ينزع السلطة من يد أخيه سعيد ويستأثر بها لنفسه ولأبنائه من بعده تاركاً له لقب الإمامة متخذاً لنفسه ولأولاده من بعده لقب السيِّد.

❁ ❁ ❁

ويعتبر عهد سلطان ١٧٩٣ ـ ١٨٠٤ من أزهى عهود عُمان، كما يعتبر سلطان نفسه من أبرز الحكَّام العرب، ولو لم تعاجله المنية لكان لتاريخ عُمان شأن آخر ربما جنَّبها الكثير مما شهدته من الويلات. ففي عهده تغيَّرت الأوضاع في الداخل والخارج وطرأت عليها عوامل جديدة لم تكن في الحسبان، وكان أبرزها ـ في الداخل ـ فقدان الإمامة لسلطانها المؤثِّر، بسبب قبوع الإمام سعيد في الرستاق وإهماله واجبات منصبه، ثم انفصال الحكم السياسي عن الإمامة، فانتقال العاصمة إلى مسقط، وما استتبع ذلك من انفتاحها التجاري الواسع ودخول الأجانب من أوروبيين وهنود إليها مع السماح لهم بممارسة عاداتهم الاجتماعية وتقاليدهم الدِّينيَّة مما يعتبره الفكر الديني بدعة وضلالة، هذا بالإضافة إلى أطماع الطامعين في العرش والمتربصين به الكيد وكثرة فتنهم وثوراتهم.

وكان أبرزها في الخارج ظهور النيَّات البريطانية للسيطرة على البلدان الواقعة على طريق الهند، وتأتي عُمان وسواحل الخليج العربي في مقدمتها، ثم اشتداد التنافس الفرنسي والبريطاني لتثبيت النفوذ في المنطقة، مضافاً إلى ذلك انطلاق الوهابيين في نجد في سياسة توسعية كانت عُمان من بين أهدافها الأولى.

وليس هنا مجال الشرح والتفصيل لهذه التطورات والمشاكل ولغيرها

التي لم نذكرها، وإنما المهم أن نعرف أن السيِّد سلطان استطاع أن يعالجها بحكمة السياسي المحنَّك وإقدام القائد الشجاع وكفاءة الإداري القدير. ولكن المنية عاجلته قبل أن ينتهي من إرساء قواعد دولته على أُسس متينة، فقد توفي عام ١٨٠٤م في معركة بحرية بطولية في الخليج العربي، تاركاً وراءه دولة تتهددها الأخطار وَوَلَدَين اثنين صغيرين أكبرهما سالم وعمره خمس عشرة سنة وثانيهما سعيد وهو في الرابعة عشرة من عمره، وقد اختير منذ البداية الابن الأصغر سعيد لخلافة أبيه لأنه أَكثر نباهة وأَوفر نشاطاً وأَقوى خؤولة من أخيه سالم الذي لم يعارض في هذا الأمر مطلقاً وظل مخلصاً لأخيه يشاركه أعباء الحكم حتى وفاته المبكرة بالفالج عام ١٨٢١م.

❁ ❁ ❁

وكان من الطبيعي أن ينتهز الطامعون من رؤساء القبائل وأَفراد الأسرة البوسعيدية فرصة وجود هذين الصبيين لاغتصاب الحكم منهما واقتسام البلاد بينهم، وأن تصبح البلاد بالتالي في حال من الفوضى والتفكُّك يهدِّدان بانهيار الدولة. وكان أول خَطَرين داهمين شهدتهما البلاد إثر وفاة السيِّد السلطان هما:

١ ـ ثورة في صحار بقيادة قيس، الابن الثالث للإمام أحمد وعم الصبيين الوريثين، يسندها عمهما الآخر الإمام سعيد القابع في الرستاق، وقد زحفت جيوشهما حتى أصبحت على قيد أميال من تخوم مسقط.

٢ ـ جيش سعودي يقوده السيِّد بدر بن سيف الابن الرابع للإمام أَحمد، وكان بدر قد خرج على عمه السيِّد سلطان ولكنه فشل في حركته ففرَّ إلى الدرعية عاصمة الأُمراء السعوديين الوهابيين واعتنق الوهابية وعاد منها بقوة سعودية للاستيلاء على الحكم ولما وافت المنية عمه كان هو وقوته السعودية قد توغلوا في زحفهم إلى داخل البلاد.

وتجاه هذيـــن الزحفين الداهمين كان لا بد للحكم مـــن قيادة قوية قادرة على دفع الأخطار عن البلاد والحفاظ على العرش المهتز لابني سلطان، وقد دفعت الظروف إلى مسرح الأحداث بالســـيدة موزة بنت الإمام أَحمد وعمة الصبيين الوريثين فعقدت لها الوصاية على ابني أَخيها وتولَّت مقاليد الحكم فاستطاعت بقوة شخصيتها وصلابة عزمها وحُسن قيادتها وشجاعتها وحنكتها أن تدفع الخطر عن مسقط وأن تحتفظ لابني أخيها بمُلك أبيهما.

وقد رأت بثاقـــب بصرها أن تحالف أحد الخصميـــن فتضرب به الآخر. حتى إذا وَهنت قوته انقضَّت عليه، وتخلَّصت منه. ولما كان أخوها قيس على أبواب مسقط وكان السعوديون بقيادة بدر بعيدين عنها بعض الشيء. لذا فقد آثرت الخطر السعودي الآجل على الخطر العاجل، فكتبت إلى ابن أخيها بدر تستدعيه للإسراع لإنقاذ مسقط مقابل توليه الوصاية على العرش. فأسرع بدر بالموافقة وترك جيشه واتجه نحو مسقط. فلما تبيّن لقيس ذلك وأنه لا قبل له بمواجهة قوات بدر الســـعودية، وأن اســـتمراره بالحرب قـــد ينتهي باحتلال السعوديين مسقط، وهو خصمهم اللدود، كما تبيَّن له أن أخته السيِّدة الوصية قد اســـتطاعت أن تســـتميل بالمال إلى صفها بعض قوات جيشـــه، فقد آثر الصلح والانسحاب مقابل بعض المكاسب المادِّيَّة والإقليميَّة.

أما بدر فإنه أُعطي مُلكاً فلم يُحسن سياسته، فقد سوَّلت له نفسه اغتصاب العرش من وريثيه الغلامين الصغيرين فأبعدهما إلى داخل البلاد في مدينتين متباعدتين وبدأ يتصرَّف وكأنه الحاكم الدائم. وزاد على ذلك بأن كشف عن ميوله الوهابية الواضحة وبدأ يســـدِّد للســـعوديين ثمن أفضالهم عليه، فأوثق الصِّلات بهم وأَفسح لهم مركزاً ممتازاً في سدَّة الحكم. فأثارت أعماله عليه نقمة جمهور الأمة من الإباضيين وغضب الشعب عامة.

وقد أحسَّ السيِّد سعيد باقتراب الخطر منه وأن بدراً لا بد وأن يزيحه من

الطريق ليخلو له الجو، فنظم مكيدة انتهت بقتل بدر في عام ١٨٠٦م وعودة سعيد إلى مسقط وتوليه مقاليد الحكم الفعلية فيها[١].

❁ ❁ ❁

ولم يَدُرْ بخلدِ أحد أن العهد سيطول بهذا الغلام اليافع في بلد مثل عُمان اشتهر بالفتن والثورات وأن يقدر على قيادة سفينة دولته التي تتلاطمها الأمواج وتتقاذفها الأنواء في عباب بحر يعج بشتّى التيّارات والدوامات. لكنه وخلافاً لكل التوقعات استطاع على المدى الطويل أن يكون الربان الماهر والقائد الناجح والسياسي المحنّك فاستمر على أريكة عرشه خمسين عاماً، وترك في تاريخ عُمان والخليج العربي وشرق أفريقيا آثار إنجازاته العديدة، ولما ذهب إلى لقاء ربه ترك بلاده عُمان في أَحسن عهود تاريخها رفعة مقام وبُعد صيت واتساع رقعة وازدهار تجارة وكثرة رخاء.

❁ ❁ ❁

ولكن ما أن استوى السيِّد سعيد على أريكة الحكم حتى بدأ يواجه العديد من المشاكل والأزمات والفتن والحروب التي استغرقت كل أيام حكمه الطويل. ونبيح لأنفسنا التمهّل قليلاً لاستقصاء هذه المشاكل وتعدادها لأنها وعقابيلها ظلت تعمل في البنية العمانية وهناً وسقماً حتى أوشكت بها على الزوال، وهي:

١ ـ كانت أول مشاكله هي تحديد علاقته مع السعوديين الغاضبين عليه لمقتل حليفهم بدر والطامعين دوماً في الاستيلاء على عُمان. وقد وقعت أول حرب بين الطرفين عام ١٨٠٨، وظلّت الحرب تتكرر سجالاً بين الطرفين بين

---

(١) هناك أربع أو خمس روايات تحكي قصة هذا الحادث بتفاصيل مختلفة. انظر: كتاب عُمان لمؤلفه وندل فيليبس ص١٣٩ و١٤٢.

الحين والآخر طيلة حكم السيِّد سعيد لا يقطعها إلا انشغال السعوديين بالهجوم المصري عليهم أو الفتن العائلية بينهم، ودون أن يسجل أحد الطرفين انتصاراً حربياً حاسماً على الطرف الآخر.

٢ ـ وكانت ظروف المنطقة قد تمخضت عن ظهور قوة عربية جديدة في المنطقة هم القواسم وكان مركزهم جلفار (رأس الخيمة)، وكانوا قوة بحرية عظيمة استطاعت أن تسيطر على مياه الخليج وبحر العرب وبعض مياه البحر الهندي، وكانت العلاقات بين القواسم والسيد سعيد تتأرجح دوماً بين التحالف المؤقت والخصومة اللدودة، وقد استنزفت خصومتهم له الكثير من وقته وجهده وماله طيلة حياته مما لا مجال للإسهاب ببحثها في هذا المقام.

على أن لظهور قوة القواسم جانباً آخر جديراً بالذِّكر لتأثيره على مجرى التاريخ في المنطقة وهو أن ظهور قوة بحرية ذات بأس وقوةٌ تسيطر على مياه المنطقة وتعرِّض سلامة طريق الهند للخطر قد أَزعجت بريطانيا وعرَّضت خططها في المنطقة إلى الخلل والفشل، كما أَنها رأت أن تحالف القواسم (في أكثر الأحيان) مع القوَّة العربية السياسة الجديدة ـ أي: الوهابيين ـ قد يؤدي إلى تكتل عربي قوي في البر والبحر قد يمد سيطرته الكاملة على جميع المنطقة وهذا ما يخالف سياستها القائمة على التجزئة والتقسيم، لذلك فقد قرَّرت بريطانيا وأْد هذه القوة البحرية والقضاء عليها، وقد تذرَّعت إلى تحقيق أَهدافها بحجَّة مكافحة القرصنة وهي حجَّة لا تثبت مع التمحيص الدقيق.

٣ ـ ومن المشاكل الدولية التي واجهها السيِّد سعيد أول تبوئه الحكم هي وجوب تحديد علاقاته بالقوتين المتنافستين وهما إنجلترا وفرنسا التي بلغ النزاع بينهما أشدّه في أوروبا، وكانت كلتا القوتين على مقربة منه ففرنسا

تحتل بعض الجُزر في المحيط الهندي وتبسط نفوذها على ممتلكاته في شرق أفريقيا وعلى طرق مواصلاته معها، في حين تربض إنجلترا في الهند تتطلع إلى السيطرة التَّامَّة على المنطقة.

وكانت فرنسا قد وطَّدت لها علاقات طيِّبة مع الوصي السَّابق السيِّد بدر فمن الطبيعي أن لا ننظر بعين الارتياح إلى مقتله ولا بعين الاطمئنان إلى خليفته، في حين لم تكن إنجلترا بطبيعة الحال أيضاً راضية على علاقات بدر مع فرنسا فأراد السيِّد سعيد أن يرضي بريطانيا فعرض عليها صداقته، ولكن حكومة الهند رفضت عرضه لأنها رأَت وراءه رغبة من السيِّد سعيد في حمايتها له من الخطر السعودي، وإقحامها في النزاعات الداخلية بين الإمارات العربية، الأمر الذي لم تكن تريده آنذاك.

ولذا توجَّه السيد سعيد إلى الفرنسيين يؤكد لهم استمراره في حفظ العلاقة بينهم وبين مسقط، وقد بلغ من نجاح مسعاه معهم أن عقد معاهدة صداقة بين فرنسا ومسقط عام ١٨٠٧ كانت ولا شك نصراً لفرنسا على إنجلترا في مسقط، لكن حكومة نابليون في باريس تلكأَت في التصديق على المعاهدة واستمرَّت في مفاوضات عقيمة وقبل أن تنتهي المفاوضات كانت إنجلترا قد احتلت الجزر الفرنسية في المحيط الهندي وأَجلت فرنسا عنها.

٤ ـ وإذ خرجت فرنسا مدحورة من الشرق العربي فقد انفردت إنجلترا في الميدان وأصبحت سيِّدة الموقف في المنطقة كلها لا ينازعها فيها أحد.

ورأى السيد سعيد أنه لا قِبَلَ له بالوقوف في وجه هذه القوة المتعاظمة ومنعها من تحقيق أهدافها في المنطقة، عدا أنه هو نفسه في حاجة إلى قوة كبرى مثل بريطانيا تحميه وتقف وراءه وتؤيده في مشاكله الداخلية وفي

حروبه مع جيرانه العرب، وفي تحقيق طموحه في السيطرة على الخليج العربي والبحرين من جهة، وعلى توطيد ملكه في شرق أفريقيا من جهة أخرى، لذلك لم ير بدّاً ولا ضيراً من صداقة بريطانيا «والتعايش» معها.

وكان محور السياسة البريطانية في الشرق هو الحفاظ على سلامة طريقها إلى الهند، وكان طريقها هذا ذا اتجاهين، الأول يمر على رأس الرجاء الصالح فالساحل الإفريقي الشرقي فعُمان ثم الهند، وهنا تبرز أهمية ميناء مسقط محطة وسطاً في هذا الطريق، والطريق الثاني يبدأ من موانئ البحر الأبيض المتوسط فإلى العراق والبصرة ثم الخليج العربي فالهند، وهنا أيضاً تكوَّن سواحل الخليج وعُمان جزءاً أساسياً في هذا الطريق.

وفي سبيل سلامة هذا الطريق اندفعت إنجلترا للسيطرة على البلدان المهمة التي يمر بها، وتقسيمها وتفكيكها مع عدم السماح لها بالوحدة أو القوة ثم عدم السماح بظهور قوة بحرية تنازعها السيادة في المياه القريبة من الهند. وكان هذا الهدف هو دافعها إلى محاربة قوة القواسم البحرية بحجَّة منع القرصنة، وكانت تلك بداية قصتها الطويلة التي استمرت ماية وخمسين عاماً مع بلدان هذه المنطقة.

وتنفيذاً لهذه السياسة وإحساساً من بريطانيا بحاجة السيد سعيد إليها فقد سَلَكت معه سياسة مكيافيلية ملتوية تؤمن بقاءه في فلكها وتمنعه في الوقت نفسه عن تحقيق ما يخالف مصالحها وسياستها، وقد استطاعت نتيجة هذه السياسة الملتوية أن تربط السيد سعيد بمعاهدات عديدة وأن تحصل منه على العديد من الامتيازات.

وقد دخل السياسة البريطانية في أوائل الثلث الأول من القرن الماضي عامل جديد استطاعت بسياستها الملتوية أن تفرضه على السيد سعيد ذلك

هو مكافحة تجارة الرقيق وهو أمر ظاهره نزعة إنسانية كريمة ولكن كان في باطنه الوبال الوخيم على أبناء السيد سعيد من بعده وبخاصة في زنجبار حيث أودى باستقلالهم وملكهم العظيم هناك، وقد عقدت معه لهذا الغرض أولى معاهدات مكافحة الرقيق عام ١٨٢٣ وعُرفت بمعاهدة مورسبي.

٥ ـ وفي داخل بلاده واجه السيد سعيد الكثير من حركات الانفصال من عمومته وأبنائهم والكثير من ثورات القبائل، وكان أعظمها شأناً وأوسعها نطاقاً ثورة بني بو علي عام ١٨٢١ التي اشترك الإنكليز مع السلطان في القضاء عليها فمنيا بفشل كبير وخسائر جسيمة وقد أبدى فيها السيد سعيد الكثير من ضروب الشجاعة والإقدام حتى أنه أُصيب بفخذه بطلق ناري وهو يحاول إنقاذ أحد ضباط المدفعية من موت محتم[1]، وقد عاد الإنكليز في السنة التالية بحملة كبيرة قضت على التمرد.

إضافة إلى ثورة السيِّد حمود بن عزان بن قيس بن الإمام الذي استغل انشغال السيد سعيد بن سلطان في شرق أفريقيا، فقام من مقره في صحار بثورة عنيفة ضده عام ١٨٢٩، كانت من أَعنف الثورات وأطولها أمداً.

٦ ـ إلا أن هذه المشاكل والمهام لم تشغل السيد سعيد عن طموحه لبسط سلطانه على الخليج العربي والجزر المنتشرة فيه، ومحاولاته المتكرِّرة من أجل ذلك لاحتلال البحرين، وبالتالي مواجهاته المستمرة مع إيران بسبب ذلك.

إلا أن الطموح الأكبر للسيد سعيد كان في التطلُّع نحو الشرق الإفريقي وتثبيت نفوذه فيه وتوسيع رقعة ملكه هناك، وقد تحقَّق له ذلك بعد جهود

---

(١) وقد ظلَّ الطلق الناري في فخذ السيد سعيد يعاوده بالألم والالتهاب وكان سبباً من أسباب وفاته. وفي هذه المعركة بالذات نعي للسيد سعيد موت أخيه سالم في مسقط.

مضنية وحروب طويلة، وما أن استتب له الأمر فيها حتّى نقل مركز حكمه ومحل إقامته إليها ومنها شاع ذكره وانتشر خبره.

ولكن قبل أن نبدأ قصة السيد سعيد في أفريقيا، يجدر بنا أن نعود إلى الوراء قليلاً لنتابع قصة العلاقات بين عُمان والشرق الإفريقي منذ البداية.

❁ ❁ ❁

من الثابت في التاريخ أن نزوح العرب من جنوب حزيرتهم إلى القارة الأفريقيا وجزرها الشرقية بدأ منذ آلاف السنين، وكانت اليمن وعُمان مصدري الهجرة إلى القارة السوداء، ولبروز أهل عُمان في ركوب البحر وتفوقهم في الملاحة فقد أصبحوا المصدر الرئيس لأكثر الهجرات العربية إلى تلك البلاد، تدفعهم إلى ذلك عوامل شتى منها الفرار من الاضطهاد السياسي أو الهروب من مغبة الفتن والحروب، ومنها طيب المناخ وكثرة الثروات في تلك الجُزُر وما يقابلها من قسوة الجو وفقر الأرض في عُمان.

واستمر النزوح العربي إلى تلك الديار بقصد البقاء والاستقرار أو الكسب والاتجار حتى تجمَّعت في الساحل الإفريقي الشرقي وجزره جاليات عربية كبيرة امتدت من الشمال حتى الجنوب، وكانت أهم تجمعاتهم في مقديشو وبراوه ولامو ومالندي ومباسا وبمبا (الجزيرة الخضراء) وزنجبار وموزمبيق.

وكان العرب في تلك الديار باعتراف الغربيين أنفسهم على مستوى رفيع من رخاء العيش في مسكنهم وملبسهم ومأكلهم، وكانت مُدُنهم تضاهي مُدن أوروبا في النظافة والتنظيم وحُسن العمران[1].

وظل العرب على هذا الحال من الرخاء والاستقرار حتى دهمتهم أساطيل

---

(١) انظر: كتاب «شرق أفريقيا وغزاتها» تأليف كوبلاند الفصل الثاني ص٢٤، لندن ١٩٦٨.

البرتغال في القرن الخامس عشر للميلاد غازية باغية عاتية مدمّرة تهلك الحرث والنسل وتحرق الأخضر واليابس، وقد احتل البرتغال جزر أفريقيا الشرقية وبعضاً من البر الإفريقي فلقي أبناء هذه البلاد وغالبيتهم من العرب شر أنواع البغي والاضطهاد والعدوان من الفاتحين الجُدد فلجأوا إلى الوطن الأم عُمان يطلبون منها النجدة والخلاص.

وقد أثارت استغاثتهم النخوة العربية في قلب الإمام سلطان بن سيف اليعربي محرر مسقط وعُمان، فصمَّم على نجدتهم وتحرير بلادهم من قبضة البرتغال فابتنى أسطولاً ضخماً وهاجم الجزر وحرَّرها الواحدة بعد الأخرى وترك في كل منها حامية عربية من أبناء القبائل العُمانية وعيَّن فيها حاكماً تابعاً له من أبناء تلك القبيلة فأسند إدارة زنجبار إلى الحرث وممباسا إلى المزاريع وبتة إلى النبهانيين. وكان السلطان في الجزر الأفريقيا لسكانها العرب وغالبيتهم عُمانيون تربطهم بأبناء عمومتهم في الوطن الأم روابط الدم والعقيدة والولاء.

واستمرت الجزر الأفريقيا تدين بالطاعة والولاء للأئمة اليعاربة في عُمان ما استمر هؤلاء الأئمة حكاماً أقوياء لهم من المكانة والمهابة ما يفرض سلطتهم على رعاياهم، فلما انقسمت الأسرة اليعربية على نفسها ووهنت بُنية الإمامة بدأت الأطماع تساور أبناء الجزر بالانفصال عن الوطن الأم.

فلما زاد تدهور الأمور وتردِّيها في عُمان وانتهت الأحداث فيها إلى ظهور أَحمد بن سعيد على مسرح الأحداث وانفراده بالحكم والإمامة، أَعلن أحد المزروعيين في ممباسا وهو محمَّد بن عثمان انفصاله التام عن عُمان وعدم اعترافه بالحاكم الجديد.

ولم يفت الإمام أَحمد ما يعنيه انفصال ممباسا من خطر أكيد على ممتلكاته الأفريقيا، ولكنه لم يكن بوضع يسمح له بالحرب والمجابهة فعمد

إلى الحيلة والمكيـدة ودبَّر مؤامرة انتهت باغتيال محمَّد بن عثمان وسـجن أنصاره وتشريدهم، وبتعيين وال جديد من أقارب الإمام.

إلا أن الحركة لم يكتب لها النجاح فقد استطاع علي بن عثمان أخ القائد القتيل أن يفر من سجنه وأن يُعلن الثورة على والي الإمام حتى أَجلاه وقواته عن الجزيرة، وأعلن اسـتقلالها التام عن عُمان وذلك في عام ١٧٤٦ ولم يحذُ حذوه إلا آل نبهان في جزيرة بته.

وظل الحال ـ بوجه عام ـ على هذا المنوال حتى عهد السيد سعيد، وقد قلنا إن مشاكله الجمَّة لم تشغله عن التطلُّع نحو أفريقيا الشرقية ومحاولته مد سيطرته عليها.

ولم يجد السـيد سعيد كبير عناء في بسط سـيطرته على جزيرة زنجبار، فقد ظلت على طاعتها لعُمان لم تنقضها ومـا يصدق على زنجبار من حيث هدوء الحال واسـتمرار الولاء يصدق أيضاً على جزر كلـوه وبته وبمبا (أو الجزيرة الخضراء كما يسميها العرب).

لكن التحدي الإفريقي الأكبر للسيد سـعيد كان جزيرة ممباسا وحكامها المزروعيين، فقد ظلت وظلوا لسنين طوال الهم الذي يقض مضاجعه والعقبة الكأداء الذي تحول دون تحقيق طموحه في أن يؤسِّس ملكاً واسعاً في شرق أفريقيا.

ولم تكن موارد عُمان النزرة ومشاكلها الكثيرة لتسمح له بالقيام بمجازفة كبرى يضع فيها حدّاً لهذا التحدي الكبير، فلم يكن له بد من الصبر والترقُّب واتباع ما برع فيـه من سياسـة ودهاء في فـن التهديد والإلهـاء أو الوعيد والإغراء.

وفي هذه المرحلة وفي شـدَّة اليأس والجزع، ألقى المزروعيون بأنفسهم

في أحضان بريطانيا متنازلين لملكها عن جزيرتهم مقابل حمايته لهم من السيد سعيد، إلا أن حكومة الهند لم تستجب لإلحاحهم المتكرّر لعدم معرفتها بالأهمية العسكرية والسياسية لجزيرة ممباسا ولعدم رغبتها في إغضاب حليفها السيد سعيد، ولكن هذا الرفض زادهم تشبُّثًا في مطلبهم فلجأوا إلى ملاح بريطاني مغامر هو الكابتن أوين مرَّ بجزيرتهم في نطاق جولاته التفتيشية لمكافحة تجارة الرقيق، فطلبوا منه الحماية البريطانية فأجابهم إليها ورفع العلم البريطاني في الجزيرة.

ولكن سرعان ما خاب أمل المزروعيين من هذه الحماية بعد أن تبيّنوا أنها سراب خادع لا نفع فيه، كما أثار عمل الكابتن أوين حفيظة السيد سعيد على حلفائه الإنكليز وفي نفس الوقت وجدت حكومة الهند في هذا العمل المتسرّع مفاجأة محرجة لها وإقحاماً لها في نزاعات ومشاكل لم تكن مستعدة لها، لذلك بادرت بريطانيا بإلغاء الحماية عام ١٨٢٦ وتركت ممباسا تواجه قدرها المحتوم مع السيد سعيد.

وكان بودّ السيد سعيد أن يسرع إلى الإجهاز على المزروعيين لولا انهماكه بحرب القواسم من جهة والاستعداد لزواجه من أَميرة فارسية من جهة ثانية، فلم يجد لهذا وذاك بدّاً من الانتظار حتى عام ١٨٢٠، حيث قاد في أخريات هذا العام أول حملاته على ممباسا فحاصرها بأسطوله ثم بدأ الهجوم عليها واستمر القتال بين الطرفين أسبوعين، لكن بسالة المزروعيين في الدفاع عن بلدهم أعجزت السلطان عن فتحها فلجأ كدأبه دوماً إلى المداورة والمفاوضة، فأعلن وقف القتال ورفع الحصار عنها واسترضى حاكم الجزيرة وشيوخها بوافر الهدايا وجميل الاعتذار ثم أبحر إلى زنجبار فوصلها مع أخريات عام ١٨٢٩، وكانت هذه أول زيارة له إلى زنجبار، ومنها أرسل حملة ناجحة فتحت له مقديشو.

ولا شك أن السيد سعيد قد أعجب بزنجبار وارتاح إليها وودَّ لو يطول مقامه فيها ولكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى استدعي إلى مسقط في نيسان من عام ١٨٣٠ لمواجهة ثورة عارمة في عُمان تقودها السيِّدة جوخة بنت محمَّد بن الإمام أَحمد انتصاراً لأخيها هلال الذي ألقى به السلطان في الحبس قبل سفره من عُمان.

وقد قامت السيِّدة خوخة باحتلال السويق وأعلنت التمرُّد في الباطنة وانضم إليها حمود بن عزان بن قيس، فاستولى من جهته على صحار ومُدن أُخرى. ومرة أخرى تظهر السيِّدة موزة بنت الإمام وعمة السلطان على مسرح الأحداث فتقف وأخوها طالب مع نائب السلطان وهو محمَّد ابن أخيه سالم وتسيطر على الموقف من جديد حتى إذا وصل السيد سعيد إلى عُمان أطلق سراح هلال واسترضى أخته جوخة ثم قاد حملة تأديب ضد حمود بن عزان انتهت بفشل السلطان وتراجعه فعاد ولجأ إلى أساليب الإغراء والإرضاء والإلهاء واستطاع بها إنهاء التمرُّد والعصيان واطمئن إلى نوع من الهدوء والاستقرار في عُمان.

وما أن انتهت الأمور في عُمان عند هذا الحد حتى انصرف من جديد إلى التفكير في إتمام خططه في أفريقيا، فعاد وأبحر إليها في أوائل عام ١٨٣٢ على رأس أسطول كبير، وبعد أن نصب مكانه في مسقط هيئة وصاية تتألَّف من ابنه البكر هلال ومن محمَّد ابن أخيه سالم ومن سعود بن علي وهو ابن أخ لبدر بن سيف الوصي السابق.

وقد وصل بأسطوله إلى ممباسا وضرب حولها الحصار وبدأ معها القتال، وكان واضحاً لكلا الطرفين أن لا قبل لأحدهما بالآخر فاتفق الطرفان على المفاوضة والتفاهم ووقَّعا اتفاقاً أقر فيه السلطان ببقاء حكم ممباسا بيد الشيخ سالم حاكم الجزيرة وورثته من بعده وبقائهم في قلعة الجزيرة، واعترف فيه

الشيخ سالم بالسيادة الاسمية للسلطان على الجزيرة وبأن يقاسمه وارداتها وأن يسمح ـ فوق هذا ـ للسيد سعيد أن يترك في القلعة خمسين جندياً من جنوده.

وعلى هذا غادر السيد سعيد ممباسا منتصراً أو شبه منتصر وتوجَّه منها إلى زنجبار فوصلها في ربيع عام ١٨٣٢، وفي نيته أن يخلد فيها إلى الراحة والهدوء، ولكن سرعان ما وصلت إليه الأنباء من عُمان أن قريبه سعود قد ألقى القبض على ابنه وابن أخيه وأودعهما السجن وأنه سار يستولي على الحصون والبلاد، وقد انضم إليه ثانية حمود بن عزان فسار من جهته يضم إليه البلاد كما انضم إليهما سلطان بن صقر شيخ القواسم فاستولى على خورفكان ودبا.

وأطبق الثلاثة على مسقط يريدون احتلالها بعد أن لم يعد فيها من يحكمها أو يدافع عنها. وهنا، وفي هذه المحنة بَرَزت السيِّدة موزة مرة أخرى فتقلَّدت شؤون الحكم والوصاية واستطاعت بقوتها وتدبيرها وبجيشها البالغ عدده ألف وخمسماية جندي أن تقبض على الأمر بإرادة من حديد، فاستطاعت أن تفتدي من السجن هلالاً ومحمَّداً بفدية كبيرة وأن تصد الهجمات عن مسقط وأن تسترضي القبائل التي بدأت تتململ، حتى وصل السيد سعيد إلى عُمان في شهر أيلول من عام ١٨٣٢ حيث استطاع بطرقه في الإرضاء والإلهاء إنهاء هذا الصراع.

لكن هذا الصراع أطمع فيه الوهابيين أيضاً فزحفوا إليه، وكادوا أن يطبقوا على عاصمته مسقط لو لم يشتري عودتهم عنها بمبلغ من المال كبير.

وما أن استقرَّت له الأمور في عُمان حتى وردته الأخبار عن تمرّد المزروعيين في ممباسا وقتلهم نائبه فيها. وهكذا قدر لهذا الرجل أن يتأرجح بين شقي مملكته فإذا استقرت له الأمور في أفريقيا اضطربت في عُمان، وإذا

اســتقرَّت له عُمان تمرَّدت أفريقيا وهو لن يربح أحد القســمين إلا بخسارة القسم الآخر.

وقد أحسَّ هو ولا شــك بهذا الواقع المؤلم، ولعلَّه لــو مُنح الخيار بين شــقي مملكته هذه لتاقت نفســه إلى الإنصراف عن البر العربي ومشــاكله الشائكة الدائبة إلى الجزر الأفريقيا وهدوئها وصفائها، فلا ريب في أن عوامل الاستقرار وراحة البال أوفر عدداً وأيسر منالاً هنا منها في عُمان. ولعله وصل إلى هذا القرار في قرارة نفسه أو على الأقل خَطَرت له فترة انتقال إلى زنجبار والإقامة الدائمة فيهــا بدليل أنه ابتنى له في زيارتــه الثانية لها قصر المتوني وهو أول قصوره فيها وأكبرها.

لكن الانتقال إلى الشرق الإفريقي والاســتقرار الدائم فيه يقتضيانه أولاً وقبل كل شــيء إحكام ســيطرته التامة على ممباســا دون منازع له فيها أو شريك، وإلا فإن بقاءه في زنجبار وممباســا في أَيدي المزروعيين كبقائه في عُمان ومســقط بيد الوهابيين، وقد صَمَد المزروعيون لأحابيل سياســته فلم تنطل عليهم وصمدوا لجيوشه فلم تستطع أن تحقِّق نصراً عليهم، لذا فقد قر عزمه على فتح ممباسا وإخضاعها بأي ثمن كان تخلُّصاً من المتاعب التي ما فتئت تسبِّبها له وتحسُّباً لخطط المســتقبل الإفريقي الذي بدأ يحلم به، لكن تجاربه السَّابقة علَّمته بأنه لن يســتطيع أن ينال من المزروعيين وطره إلا إذا وجد حليفاً يشد به أزره.

وتلفت يبحث عــن هذا الحليــف بين القــوى المحليــة والأجنبية في المنطقة، وقد أخرج الإنكليز من حســابه لأن حكومة بومباي سبق أن أوصته بأن لا يشتد ويقسو مع المزارع ويكفيه منها أنها أطلقت يده في الأمر، وهو لا يستطيع الاتفاق مع الفرنسيين لأن حكومة الهند حذَّرته من ذلك.

ولذا فقد هداه فكره إلى جزيرة مدغشقر وهي أكبر جزر المنطقة مساحة وأكثرها سكاناً وأشدها بأساً. وإذ لم يكن في وسعه أن يحتلها فلا أقل من أن يحتال عليها ويسلك معها سلوك الملوك فيضمها إليه عن طريق الزواج والمصاهرة، فإذا ما تحقَّق له ذلك استطاع أن يطبق على ممباسا بقوة وعدد لا قبل للمزروعيين بالصمود أمامهما. وكان ملك الجزيرة قد توفي من قريب، واعتلت عرش الجزيرة بعده أرملته الملكة رانا فولوتا ماتجاكا وكانت امرأة ذات بأس شديد وبطش عنيف، فأرسل إليها السلطان عام ١٨٣٣ وفداً كبيراً يحمل مع نفائس الهدايا عرضاً بالزواج منه وتجهيزه بالرجال المقاتلين لكن الملكة الأيم اعتذرت منه عن الزواج بتقاليد بلادها التي لا تجيز زواج الملكة الأرملة، ولكنها عرضت عليه أن تزوجه إحدى الأميرات اليافعات وطلبت منه بالمناسبة عقداً من المرجان الثمين. ولا ندري إن كانت قد جهزته ببغيته من الجنود أم لا.

وإذ لم يكتب له النجاح في هذا الأمر فقد ولى وجهه شطر قوة تجارية وسياسية دولية جديدة نامية، تلك هي الولايات المتحدة الأمريكية التي بدأت سفنها التجارية تجوب البحار بحثاً عن التجارة والنفوذ بما عُرف عن أبنائها من الاندفاع وحب المغامرة، وكانت سفنها التجارية تصل زنجبار والسواحل الأفريقيا الشرقية فاستطاع عن هذا الطريق أن يعقد عام ١٨٣٣ مع رئيس الولايات المتحدة المستر أندرو جاكسون (١٨٣٢ ـ ١٨٣٦) معاهدة صداقة وتجارة[1]، حاول السلطان أن يستغلها لكسب تأييد الدولة الجديدة ومساعدتها العسكرية له في مساعيه لإخضاع ممباسا، ولكن الولايات المتحدة اكتفت بمكاسبها التجارية واعتذرت عن التدخُّل العسكري في المنازعات السياسيَّة المحليَّة.

---

(١) كانت هذه ثاني معاهدة تعقدها الولايات المتحدة مع بلد عربي أما المعاهدة الأولى فكانت مع سلطان مراكش عام ١٧٨٧.

وتجاه فشل خطتيه هاتين لم يبق له من سبيل للاستيلاء على ممباسا إلا الاعتماد على بأسه ودهائه.

❁ ❁ ❁

وكان السيد سعيد يعلم علم اليقين أنه لن يستطيع بالبأس والقوة أن ينال من المزروعيين منالاً، ولكنه كان على يقين أيضاً أنه يستطيع أن يحقِّق بالدهاء والمخاتلة ـ وكان أستاذاً ماهراً في هذه الفنون ـ ما لا يستطيع تحقيقه بالقتال والمنازلة.

وشاء سوء حظ المزاريع أن تنفرط وحدتهم وأن ينقسموا شيعاً وأحزاباً فهيئوا بأنفسهم الظروف المواتية لنجاح السيد سعيد، فقد توفي حاكم ممباسا الشيخ سالم عام ١٨٣٦ واشتد النزاع على خلافته بين إخوته وأبنائه، وانقسم القوم إلى فئات متناحرة كاد أن يصل الأمر بينها إلى حد الاقتتال ودام الحال عاماً كاملاً على هذا المنوال.

واستعان فريق منهم بالسيد سعيد يدعوه للتدخل فاغتنمها فرصة مواتية وأرسل أسطوله استجابة لنداء هؤلاء، ولكنه كان يعلم أن أسطوله لا ينفع في شيء تجاه بسالة المزروعيين وصمودهم لذلك عَمَد إلى المال يشتري به ذمم الناس ويدفعه ثمناً لانفضاض القوم عن المعركة.

فلما رأى الشيخ راشد بن سالم حاكم الجزيرة انفضاض قومه عنه وأنه لا قبل له بمقابلة سلاح الذهب بمثله أجاب سعيداً إلى المفاوضة، واتفق الطرفان على أن تبقى سيادة الجزيرة للشيخ راشد مقابل جلائه عن القلعة فقط لتحتلها جيوش السيد سعيد وكان ذلك في شهر شباط من عام ١٨٣٧.

لكن السيد سعيد لم يطمئن إلى هذا الحل فدعى الشيخ راشد ووجوه قومه إلى زنجبار واستقبلهم ببالغ الحفاوة والإكرام، وأغراهم بشتى

العروض للتنازل عـن جزيرتهم إليه فرفضوا عروضه شـاكرين ولكن بعزم وإباء.

وبعد شهرين أوفد السيد سـعيد ابنه خالداً إلى ممباسا في مهمة ظاهرها الوداد وباطنها الغدر المبيت، ففي خدعة شـائنة اسـتطاع خالد تنفيذ الخطة التي وضعها له أبوه بأن يلقي القبض على حاكم الجزيرة وثلاثين من أعيانها وشيوخها وأن يرسل بهم إلى سفينته التي أبحرت بهم في الحال إلى زنجبار، ومنها أمر السـيد سـعيد بسـجنهم في بندر عباس في الخليج العربي. وفي عرض البحر بين زنجبار وبندر عباس نفّذت بهم أوامر السـيد سعيد فجرى تقتيلهـم وإغراقهم ولم يصل منهم إلى سـجن بندر عبـاس إلا بضعة أنفار دخلوا السجن ولم يسمع بعدها عنهم شيء.

أما بقية المزروعيين في ممباسـا فقد جلوا عنهم إلى البر الإفريقي اتقاء لانتقام السيد سـعيد، حيث ظلوا يناصبون حكم البوسـعيد الحرب والعداء حتى أخريات القرن الماضي.

وإذ خلصت ممباسا للسيد سـعيد فقد حقّق هدفه واستراح باله ودان له الشـرق الإفريقي دون منازع، وبدأ يطيل إقامته في زنجبار حتى جعلها محل إقامته الدائم تاركاً عُمان ومشـاكلها إلى ابنه ثويني (١٨٢١ ـ ١٨٦٦) لا يزورها إلا لماماً حين تقتضيه دواعي الخطر الداهم أو ظروف الحرب[1].

❁ ❁ ❁

وانصرف في زنجبار إلى الزراعة والتجارة وجَلَب من جزيرة موريشيوس شجر القرنفل ونشـر زراعته في زنجبار بالإكراه والإرغام، فحقّق بذلك ثورة زراعيـة في البلاد لـم يتقبّلها الأهالي بـادئ الأمر قبولاً حَسَـناً ولكنها في

(١) يقال إن السيد سعيد قضى ثلثي وقته منذ عام ١٨٣٠ حتى وفاته إما في عرض البحر أو في زنجبار.

النتيجة عـادت عليهم بثروة عميمة ورزق وفير وأصبحـت زنجبار من أغنى البقاع بسبب زراعة القرنفل وتجارته.

وكان السيد سـعيد إلى جانب كونه سلطاناً ورجل سياسـة، تاجراً ماهراً ورجل أعمال ناجحاً، فنظم تجـارة بلاده مع العالَم الخارجـي وابتنى لهذا الغرض أسـطولاً ضخماً كان يقايض بتجارة زنجبار فـي الموانىء الأوروبية والآسيوية حتى وصلت إحدى سفنه إلى نيويورك.

وإذا استثنينا عُمان ومشاكلها الدائمة فقد كانت فترة حكم السيد سعيد في زنجبار فترة هدوء سياسـي ورخاء تجاري. فاشتهر ذكر زنجبار وعلا اسم السـيد سـعيد وحين توفاه السـيد سـعيد عام ١٨٥٦ بعد حكم دام خمسين عاماً كانت سلطته تمتد إلى جميع الجزر الأفريقيا الشرقية وكان نفوذه في القارة نفسها يمتد شمالاً وجنوباً وغرباً إلى أواسط القارة، حتى قيل إنه إذا ضرب السيد سـعيد طبله في زنجبار رقصت عليه كل غابات أفريقيا.

❁ ❁ ❁

لكن وفاته رحمه الله كانت إيذاناً بالفرقة والانقسـام بين أبنائه وبالتدهور والانحلال في ممتلكاته وأفول نجمها، إذ لم يكن أبناؤه من طينة المؤسسين العظام أمثال أبيهم سعيد أو جدهم سلطان أو جدهم الأكبر الإمام أَحمد.

وكشفت بريطانيا عن أطماعها في بلاد السيد سـعيد ولعبت دوراً مزرياً في سبيل تفكيك إمبراطوريته العظيمة وانحلالها، وقد تألّبت الدول الأوروبية على هذه المنطقة طامعة في خيراتها مستغلة ضعفها فلم يكن أمام حكام هذه المنطقة إلا الارتماء في أحضان بريطانيا من أجل حمايتهم من الدول الأخرى فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وكان أول حدث بعد وفاة السيد سعيد هو انفصال زنجبار عن مسقط. فقد أعلن السيّد ثويني نفسه حاكماً في مسقط بدل أبيه كما أعلن السيّد ماجد نفسه سلطاناً في مسقط ولم يكن من الممكن ولا من المتصور أن تستقيم الأمور بين الأخوين، ودخلت الأسرة في دوامة صراع مرير فانضم برغش وإخوته الناقمون على السيّد ماجد إلى ثويني في حين أخذ ماجد يمد تركي والباقين من إخوته بالمال للثورة على ثويني.

وقد تحرك ثويني في أسطول ضخم بغية مهاجمة أخيه ماجد واسترجاع زنجبار منه، إلا أن الأسطول البريطاني اعترضه في عرض البحر واضطرّه إلى الرجوع.

ورضي الأخوان بتحكيم بريطانيا وبعد دراسة طويلة أصدرت قرارها بإقرار الوضع الراهن؛ أي: قيام حكومتين إحداهما في عُمان تحت حكم السيّد ثويني والثانية في زنجبار تحت حكم السيّد ماجد على أن يدفع السيد ماجد إلى أخيه ثويني مبلغ ٤٠ ألف دولار نمساوي سنوياً.

وقد رحب السيّد ماجد بهذا القرار وقبل بدفع المبلغ على أساس المعونة لأخيه في حين اعتبره السيّد ثويني إتاوة يدفعها ماجد دلالة التبعية والولاء: وهو تفسير رفضه السيّد وأوقف الدفع بسببه فأوقع عُمان في ضائقة اقتصادية شديدة، وقد انشغل ثويني كما كان شأن عُمان دائماً في مناوشاته مع الفرس والوهابيين والقواسم وفي خلافاته مع إخوته وأبناء عمومته وفي تأليب المتآمرين على أخيه ماجد، وقد كان ثويني أقرب أولاد السيّد سعيد إليه رجاحة عقل وشدة دهاء وقوة جنان وشجاعة في الحروب، وكان طيباً مع أتباعه محبوباً من رعيته، إلا أنه انتهى مع الأسف نهاية مفجعة لا يستحقها إذ سطا عليه في نومه ابنه الأكبر سالم وأنهى حياته بطلقتين من مسدسه وكان ذلك في عام ١٨٦٦.

ولم يستقم الحكم طويلاً لسالم إذ ثار عليه ابن عمه عزان بن قيس حفيد قيس بن الإمام، وبعد حروب دامت سنتين هجم عام ١٨٦٩ على مسقط واستباحها قتلاً ونهباً وتدميراً، ففر سالم وعائلته بأنفسهم لا يملكون شروى نقير إلى أحد سفنهم التي نقلتهم إلى الهند حيث استقر هناك حتى مات بعد أربع سنوات (سنة ١٨٧٤).

أما عزان فقد كان رجل دين وتقوى فسرعان ما التف حوله «المطاوعة» ونادوا به إماماً، وبدأوا يشتطون في طلباتهم عليه حتى اضطروه أن يستبدل بالعلم المسقطي البوسعيدي الأحمر اللون علم الإمامة الأبيض، فأثار بعمله ثائرة السيّد تركي بن السيّد سعيد وكان يسكن الهند ويتلقى المال والعون والإغراء من أخيه ماجد سلطان زنجبار، فزحف سرّاً واحتل مسقط وتولّى الحكم فيها بعد أن وضع بالسيف حدّاً لحكم الإمام عزان وحياته (١٨٧١).

وبهذا انتقل الحكم في مسقط إلى السيّد تركي وظل في أبنائه وأحفاده حتى يومنا هذا. فقد ورث تركي (١٨٧١ ـ ١٨٨٨) ابنه فيصل (١٨٨٨ ـ ١٩١٣)، وجاء من بعده تيمور بن فيصل (١٩١٣ ـ ١٩٣٢) الذي تنازل لابنه سعيد بن تيمور (١٩٣٢ ـ ١٩٧٠) والذي خلفه ابنه جلالة السلطان قابوس.

وليس هنا مجال القول في ما آلت إليه أحوال عُمان من فوضى واضطراب ومن تدهور وخراب، فقد أفل نجمها وضاع صيتها واشتد بها الفقر وخلت خزائنها من المال وركبتها الديون وعصفت بها الفتن والثورات، فانغلقت على نفسها وانعزلت عن العالَم حتى هيأ السيد سعيد لها السلطان قابوس الذي أخرجها من الظلمات إلى النور ومن العزلة إلى الانفتاح وبَعَث فيها دماً جديداً وروحاً جديدة.

❁ ❁ ❁

أما في زنجبار فقد كانت المصيبة أعظم والبلية أعم والمأساة أكثر شمولاً وأبعد أثراً، فقد تولى السلطنة بعد السيد سعيد أكبر أبنائه ماجد، وكان رجلاً رقيق الطبع طيّب الخلق، وكان عليلاً ضعيفاً لا يستطيع أن ينهض بكل أمور الدولة فاستغل أعوانه ثقته بهم واعتماده عليهم لمصالحهم الخاصة فأثاروا عليه نقمة العامة وسخطهم، وثار به أخوه برغش ومعه بعض رؤساء قبيلة الحارث مدفوعين بالفرنسيين المتربصين في زنجبار بالإنكليز الدوائر. إلا أن الثورة لم تنجح وظل ماجد على عرش أبيه حتى وفاته عام ١٨٧٠ وهو دون الأربعين من عمره، وخلفه أخوه السلطان برغش بن سعيد الحكم في زنجبار.

❁ ❁ ❁

وكانت حجّة بريطانيا التقليدية للتدخُّل في شؤون زنجبار هي غيرتها المزعومة على مكافحة تجارة الرقيق، وقد اشتدت حملات تحرير الرقيق عنفاً وضراوة في عهد السيِّد برغش، ونزعت بريطانيا قناع الصداقة المزعومة عن وجهها فبانت أطماعها الاستعمارية وتكالبت معها الدول الأوروبية الأخرى على اقتسام القارة السوداء وما يقع في شرقيها من جزر.

وكان الرقيق هو عماد الزراعة في زنجبار، والزراعة عماد الثروة والرفاه فيها، لذا فإن إلغاء الرقيق معناه إخلاء المزارع من العاملين فيها وتبديد حاصلها وإهلاك مزروعاتها والقرنفل منه خاصة.

ولكن بريطانيا لم تكن تأبه لكل هذا، وكانت تزيد في ضغطها على السلطان ليزيد ويشتد في إجراءات إلغاء الرقيق ومنع تجارته، وأمام هذين العاملين كان السلطان يقول للبريطانيين: «إن هناك حربة مصوبة إلى كل من

عيني، وعليّ أن أختار إحداهما لأطعن فيها؟»، وقد اختار السلطان أن يُطعن في العين الوطنية فضحّى بها واستبقى لنفسه العين الأجنبية.

وقد تزيت الأطماع الأوروبيـــة في أفريقيا أزياء أخرى، فاســـتجدت إلى جانب مكافحة الرقيق حركتان جديدتان ظاهرهما إنســـاني نبيل وفي باطنهما الجشع والطمع وهما حركة الاكتشافات الجغرافية وحركة التبشير.

ففي هذه الفترة نشـــطت حركة واسعة لاكتشـــاف مجاهل القارة الأفريقيا فتوافدت جماعات المكتشفين وتوغلت في أنحاء هذه القارة السوداء. ورغم ما صحب هذه الاكتشافات الجغرافية وما تبعها من سَلب ونَهب لخيرات هذه القارة واســـتعمار لأرضها واســـترقاق لأبنائها، فنحـــن لا نملك إلا الإجلال والإعظـــام لتلك الجهـــود العلمية الرائعـــة ولتلك الانتصـــارات التي حققها المكتشـــفون العظام الذين تحملوا أقســـى ظروف العيش فـــي أدغال أفريقيا ومجاهلها بغية الكشف للبشرية عن أرضها وشجرها وإنسانها وحيوانها.

أمـــا حركة التبشـــير فكانت نوعـــاً من الصليبيَّـــة السياســـيَّة التي تجري جرثومتها في دمـــاء الأوروبيين، وكانت بالتالي قناعاً ووســـيلة للاســـتعمار الأوروبي لأفريقيا.

وقد سارت هذه الحركات الثلاثة ـ الرقيق والاكتشاف والتبشير ـ يداً بيد، واتخذها الغرب الأوروبي وســـائله المباشـــرة لإتمام ســـيطرته علـــى القارة الأفريقيا. إذ أدَّت نتائج هذه الحركات الثلاث إلى تنبيه الذهن الأوروبي إلى خيرات هذه القارة فتكالبوا عليها واقتسموها أســـلاب ومغانم، وكان هدفهم الأول هو تحطيم الحكم العربي في أفريقيا والمنبثق من زنجبار.

وإذ لم يعد الحكـــم العربي في زنجبـــار ذا يد في تدوير شـــؤون البلاد الداخلية فأحرى ألا تكون له يد أو رأي في السياسات الدولية حول المنطقة،

ولهذا اقتصر النزاع عليها بين بريطانيا من جهة والدول الأخرى وعلى رأسها فرنسا وألمانيا. وكانت ألمانيا قوة دولية جديدة ولكنها مؤثِّرة في السياسة العالمية واستطاعت أن تنتزع من إنجلترا بعض الأقسام الأفريقيا العربية. وقد استغلت السياسة الألمانية مؤلفة هذا الكتاب في لعبتها السياسية ضد أخيها السلطان برغش.

ويطول بنا الكلام لو تتبعنا هذه القصة بكل أجزائها وتفاصيلها، وهي قصة مأساة لم تتناولها الأقلام العربية بعد ونرجو لها أن تفعل ذلك قريباً[1]، ويكفي أن نعلم من القصة نهايتها وهي أن السيِّد برغش رحل عن هذه الدنيا عام ١٨٨٨ وهو لا يملك من ملك أبيه الواسع العريض إلا جزر زنجبار ومباسا ورقعة صغيرة من البر الإفريقي تحيط بمدينة دار السلام التي بدأ أخوه ماجد بعمرانها.

وبويع بالسلطنة بعده أخوه السيِّد خليفة بن السيد سعيد (١٨٥٥ ـ ١٨٩٠) وكان شخصاً غريب الأطوار، فقد قضى في سجن أخيه برغش ست سنوات ثم أطلق سراحه وأسكنه في عزلة تامة بالريف لا يتصل بأحد ولا يتصل به أحد. فأثرت العزلة على ذهنه ولم يعد قادراً على تقييم الأمور تقييماً صحيحاً.

ففي أيامه تحركت بلجيكا والبرتغال وإيطاليا لاقتطاع أجزاء جديدة من أملاكه فلما احتج على ذلك أسكته الإنكليز، ولما سكت ثار عليه العرب محتجين فلما أراد استعمال الشدة معهم منعته بريطانيا من ذلك فلم يحظ بحب العرب أو الزنوج أو برضاء الإنكليز واشتدت الشكوى منه حتى تقدم

---

(١) رغم كثرة المؤلفات الإنكليزية خاصة والأوروبية عامة عن الحكم العربي في زنجبار فإننا لا نعرف عن الموضوع إلا مؤلفين باللغة العربية أحدهما مترجم والآخر موضوع وكلاهما لم يعالجها الموضوع حق علاجه.

وفد من أعيان أهل زنجبار برئاسة أخيه السـيِّد علي بن السيِّد سعيد يريدون تنحية هذا السـلطان الضعيف، وتشـاء الصدف أن يكون السـلطان في هذه الأثناء في مزرعته فيخرج لتفقدها فيصاب بضربة شـمس فيفقد الحياة على أثرها وهو في السادسة والثلاثين من عمره وبعد حكم دام سنتين.

ومهما يكن من عنصر العمد أو محض المصادفة في هذا الأمر فقد نودي بالسيد علي بن السيد سعيد (١٨٥٥ ـ ١٨٩٣) سـلطاناً بدل أخيه، وكان السيِّد علي شاباً عليلاً ضعيف الشـخصية وصل إلى الحكم على أساس الاستعداد «لوضع أنفسنا تحت تصرف الحكومة البريطانية لتفعل ما فيه صالحنا»، لهذا فلا عجب أن تجهز بريطانيا على البقيـة الباقية من مظاهر الحكم العربي في زنجبار. فأقدمت على إعـلان الحماية البريطانية على الجزيـرة ورفع العلم البريطاني إلـى جانب العلم البوسـعيدي الأحمر اللون، وعلـى تعيين أحد رجالها المستر ماتيوز وزيراً أول للسـلطان ثم أقدمت على إلغاء الرقيق إلغاء تامّاً وتخفيض راتب السلطان.

وبعد وفاة السيِّد علي عام ١٨٩٣ حاول السـيِّد خالد بن برغش وكان في الثامنة عشـرة من عمره أن يتولى السلطنة إلا أن السـلطات البريطانية كانت شـديدة الكراهية له لنفوره الواضح من البريطانيين وقوة شـخصيته والتفاف العرب حوله، فلـم تمكنه مـن الوصول إلى العـرش وإنما نصبت السـيِّد حمد بن ثويني ـ حاكم مسقط ـ ابن السـيِّد سعيد سلطاناً على زنجبار، وكان أول عمل قام به السـيِّد حمد القسـم على القرآن الكريـم «بالولاء لصاحبة الجلالة ملكة بريطانيـا وحلفائهـا باعتبارها وإياهم أصحاب السـيادة على محمية زنجبار»... إلخ.

وقد ظل الرجل وفياً لقسمه رغم شـعوره بالإذلال المهين لضياع كل أثر من آثار السلطة والسلطان، حتى توفي في أغسطس عام ١٨٩٦ فاتحاً من جديد

باب النِّـزاع على العرش علـى مصراعيه، وقـد ولجه للمـرَّة الثانية وبعزم وتصميم السـيِّد خالد بن برغش فقد رأى نفسه أولى بالعرش من غيره وأيَّده في ذلك جمهور السـكَّان والعسـاكر وكان تأييدهم له يحمل معاني السخط والاحتجاج على السياسة البريطانية لما عُرف عن السيِّد خالد من تطرُّف في مناوئة الإنكليز وشجب لسياستهم، ولهذا فمن الطبيعي أن لا يرضى الإنكليز بتنصيبه سلطاناً. وقد استولى خالد على قصر الإمارة واجتمع إليه فيه سكان البلد وأعيانه وبايعوه سلطاناً.

وصبر الإنكليز على خالد يومين حيث اسـتدعوا خلالها بعض السُّـفن الحربيَّة التي ما إن وصلت إلى شاطئ زنجبار حتى بدأت بإطلاق النَّار على قصر السلطان فهدمته وقتلت من أتباع السـلطان حوالي الخمسماية نفر وفرَّ الباقون في حين لجأ خالد إلى القنصلية الأَلمانية[1].

ونـادى البريطانيـون بالسـيد حمود بـن محمَّد بن سـعيد سـلطاناً (١٨٩٦ ـ ١٩٠٢) وكان رجـلاً بدين الجسـم متقدماً في العمـر، وقد لبث في الحكم ثمان سنوات ولم يكن وجوده على العرش ليقدم أو يؤخر شيئاً فيما تقرره الحكومة البريطانية.

وفي سـبيل حمل الدولة البريطانية على الاعتراف بولده الوحيد السـيد

---

(١) أما بقية قصة السـيِّد خالد بن برغش فإنه بعد أن التجأ إلى القنصلية الألمانية نقلته باخرة ألمانية إلى دار السـلام وكانت آنذاك تحت حماية الألمان وعاش هناك مكرَّماً حتى سـنة ١٩١٧ حيث احتلت القوات البريطانية دار السـلام وألقت القبض على السـيِّد خالد وبدأت مأساة هذا الشاب الكريم. فقد نفته السلطة البريطانية إلى سانت هيلانة واستمر بها إلى سنة ١٩٢١ ثم بعثت به إلى جزائر سيشـل، وبعد ثلاثين سنة من التشـرد والفاقة والمرض قطع على نفسـه عهداً ألا يعود للمطالبة بالعرش فسُـمح له عام ١٩٢٥ بالإقامة في ممباسا حيث وافاه الأجل فيها عـام ١٩٢٧ ومع هذا فقد منعـت أمه العجوز وزوجه التعسـة من دخول زنجبار حتى بعد وفاته!!

علـــي (١٨٨٦) خليفة له من بعده بدلاً من أخيه الســـيِّد خالد بن محمَّد (وهو طبعاً غير خالد بن برغش) فقد وافق الســـيِّد حمود على إلغـــاء الرقيق إلغاءً كاملاً في زنجبار، وكان عمله هذا ضربة قاضية أتت على ما تبقَّى من الرخاء. إذ إن تحرير العبيد كلية قد أَخلى المَـــزَارع كلية من عمَّالها فهلك الزرع وهو مورد العيش الوحيد للناس فعمَّ الجزيرة فقر شديد لم تشهد له مثيلاً من قبل.

وتوفي السيِّد حمود في ١٩٠٢ بالفالج عن خمسة وخمسين سنة، ونُودي بابنه السيِّد علي ســـلطاناً على البلاد محلّه وكان في السابعة عشرة من عمره، فنصّب وزيره الأول المستر روجز وصيّاً عليه حتى بلوغه سن الرشد في عام ١٩٠٥.

وكان الســـيِّد علي قد نال بعض تعليمه في إنجلتـــرا وكان ضعيف البنية رقيـــق الصحَّة ومُصاباً بصـــرع خفيف فكان يقضي أكثر مـــن نصف وقته في أوروبا للعلاج والاستشـــفاء، ولم يكن راغباً في مســـؤولية الحكم والسلطان ولا ميّالاً إلى الأبهة والمظهر لذلك ففي شـــهر مارس عـــام ١٩١١ التمس من جلالة الملك جورج «إعفاءه من عبء لم يعد قادراً على تحمّله»[١].

وفي نفس اليـــوم نودي بزوج أخته الســـيِّد خليفة بـــن حارب بن ثويني سلطاناً على البلاد.

وكان الســـيِّد خليفة خير الســـلاطين المتأخرين وأقواهم شخصية، وكان رضي الخلق طيـــب الطبع كريماً ومحبّـــاً لرعيته ومحبوباً منهم وقد أكســـبه حكمه الطويل ١٩١١ ـ ١٩٦٠ خبرة وحكمة وتفهُّماً للأمور.

وفي العقد الأخير من حكمه بـــدأت في البلاد حـــركات عنصرية مريبة بدأها الســـواحليون والزنوج وتهدف في مجموعها إلى التخلّص من العنصر العربي في البلاد واعتباره عنصراً دخيلاً على الجزيرة.

---

(١) توفي السيِّد علي في باريس عام ١٩١٨.

ولم يتفق العرب على رأي موحَّد في هذا النزاع بل تفرَّقوا شيعاً وأحزاباً حسب ما تدفعهم إليه مصالحهم الذاتية وأنانياتهم الشخصية فكانت النتيجة الوبال الوخيم والقضاء المُبرم عليهم.

وقد مات السلطان السيِّد خليفة فخلفه ابنه السيِّد عبد الله وظل حوالي العام فخلفه ابنه جمشيد بن عبد الله.

ولا يتسع المجال هنا لشرح التطورات السياسية في هذا الجزء من العالَم في هذه الفترة، ويكفي أن نعلم أن بريطانيا انسحبت من الجزيرة في شهر ديسمبر (كانون الأول ١٩٦٣) وأعلنت زنجبار مملكة مستقلَّة وبعد خمسة أسابيع انفجر بركان الحقد وقام الزنوج بثورة استهدفت القضاء على كل ما هو عربي، فاستطاع السلطان جمشيد وبعض حاشيته أن يفروا من النهاية الفاجعة وبذلك انتهى حكم البوسعيد في زنجبار وحكم العرب فيها فقد وضع الزنج السيف برقاب أشراف العرب واقتادوا النساء العربيات نحو الأَسْر والذل والاغتصاب وباعوهن بسوق النخاسة بأبخس الأثمان بيع الرقيق فسبحان مغيِّر الأحوال!!.

ورحم الله محيي الدين القرطبي حين نعى الأندلس فقال:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

❁ ❁ ❁

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر تبكي وهي عيدان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت لها وبالكفر عمران
حيث المساجد قد أمست كنائس ما ... بهن إلا نواقيس وصلبان
فلو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب طفل وأم حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان

وغادة ما رأتها الشمس بارزة كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج عند السير صاغرة والعين باكية والقلب حيران
بمثل هذا يذوب القلب في كمد إن كان في القلب سلام وإيمان

نعم بمثل هذا يذوب القلب في كمد والنفس في حسرة والعقل في حيرة إذ يجد بعض الدول العربية تسارع إلى الاعتراف بالوضع الجديد بعد ٢٤ ساعة فقط وكأنما كانت معه على ميعاد.

(٣)

وبعد هذه الإلمامة السريعة بتاريخ القوم والبلاد نعود إلى الكلام عن المؤلِّفة وحياتها. ولقد بان لنا أن المؤلِّفة هي السيِّدة سالمة ابنة السيد سعيد سلطان عُمان ومؤسِّس حكم البوسعيد في زنجبار، وكان كما رأينا عاهلاً عربياً جليل القدر عالي المقام، وكان في بيته ـ كما تحدِّثنا ابنته في مذكراتها ـ أباً عطوفاً على أبنائه رفيقاً بهم في غير لين شديداً عليهم في الحق وصارماً معهم في واجبات التربية والتعليم وحسن الانضباط. ولكن وفرة مشاكل السياسة والحكم وكثرة الحروب والفتن واضطراره للانتقال بين شقي سلطته لم تدع له الوقت الكافي للعناية الدائبة بأمر العشرات من بنيه وبناته. وتنمية روح الأخوة الحقَّة بينهم فأخذت الأُمهات القياد فكان أن غرسن في نفوس الأخوة والأخوات بذور الغيرة والحقد ونقلن إلى أولادهن جو التنافس والحسد السائد بين الضرائر والرابات وأرضعنهم روح النفرة والشقاق وتولى الأغوات والعبيد تربية الأمراء والأميرات وتنشئتهم فتعهدوا بالرعاية والنماء ما غرسته الأمهات في نفوس أطفالهن الأبرياء من بذور الكراهية والبغضاء فنشأوا متباعدين يكره بعضهم بعضاً ويكيد له ويمكر به شر الكيد وأسوأ المكر، لا يرعون لرابط الأخوة حرمة ولا عهداً.

وفي هذا المحيط نشـأت كاتبتنا تحت ظل أُمها الشركسـية وكانت كما تصفها لنـا صلبة الرأي قوية العزيمـة كما كانت كثيرة الـورع والتقوى طيبة الخلق وديعة صبوراً سـموحاً تتقبل الأمور باستسـلام تـام للقضاء والقدر، وكانت ـ كما يجب أن تكون ـ شـديدة الحنو على وحيدتها وافرة الحب لها ولذلك كانت عاطفة الأمومة تطغى عندها على صلابتها وقوة شـكيمتها فلا تصمد كثيراً أمام رغبات ابنتها وطلباتها أو لعلها لم تشـأ أن تكون وحيدتها أقل دلالاً من بقية بنات السلطان وبنيه.

ويبدو لنا أن المؤلِّفة قـد ورثت عن أُمها قـوة الإرادة وصلابة العزيمة، ولكنها لم ترث عنها الوداعـة والطيبة، فقد كانت فـي طفولتها ميَّالة للعب والإنطلاق كثيرة النشـاط جمَّة الحيوية عنيدة في رأيها، مولعة بإتيان الغريب من الأعمال وكأنهـا تريد أن تثبت بروزها بين الآخريـن وأن تجلب الأنظار إليها وتشد الاهتمام إليها. فهي تركب الخيل وتحمل السلاح وتبارز بالسَّيف، وهي تصعد الأشـجار العالية وتتعلَّم الكتابة سـرّاً وتقوم بغير هذا وذاك من أعمال الشيطنة والشـقاوة الطفولية، ولعل طباعها هذه هي مفتاح شخصيتها التي تفسّر لنا تصرفاتها في مسـتقبل حياتها والتي تكمن وراء ما تعرضت له من أحداث انتهت بها إلى الغربة والتشرُّد.

وقد نشـأت مؤلِّفتنا في هذه البيئة، وكان لها من حماية أبيها ورعاية أُمها ما يكبح جماح طبعها ويعصمها عن الشـطط. ويبدو لنا مـن كتابها إعجابها الشـديد بأبيها السـلطان، وإكبارها الوفير له فهي لا تنقـل عنه إلا الجوانب الخيِّرة والصور الزاهية.

وهي شـديدة الحـب والإعـزاز لأُمها حتى جـاءت صورتهـا في هذه المذكّرات مثال الطيبة والخُلق الحميد، وهي بعد ذلك تخص بالمدح والثناء اثنيـن من أَفـراد عائلتها هما أخوهـا ماجد الـذي تولَّى السـلطنة بعد أبيه

(١٨٥٦ ـ ١٨٧٠) وأختهـا خولة. وقد وصفت أخاها ماجد بأنه مثال السـماحة والطيبة وسمو الأخلاق وهو الوحيد من أَفراد عائلتها الذي لم يتنكر لها رغم أنها جحدت معروفه وتآمـرت عليه ولكنه مع هذا لم يبخـل عليها بالصفح والغفران.

أما أختها خولة فقد سيطرت على مؤلفتنا بحسنها الفائق وجمالها الفتّان وبقوة شخصيتها وصرامتها، وكانت عاملاً من عوامل نكبتها فقد تكشف هذا الحسن الخارق عن روح حاقد وغل دفين.

وقد توفي السـلطان سـعيد ولم تتم مؤلّفتنا الثانية عشرة من عمرها، ثم تلته أُمها بعد بضع سـنوات فظلّت بعدهما وحيدة نفسها ليس لها مَن يرعاها ويوجّهها غيـر أختها خولة، وقد ترتَّـب على وفاة السـلطان ظهور تغييرات جديدة بين أفـراد عائلته ونَمط حياتهـم فقد تغيَّرت أبعاد الصـورة القديمة وتغيّرت أدوار الأفراد فيها وظهرت للسـلطان الجديد حاشية جديدة احتلت مقام الصدارة محل الحاشية القديمة، وصارت نسـاء السلطان سعيد اللواتي كن يمارسن السلطة عن طريق زوجهن مجرد أرامل لا حول لهن عند السلطان الجديد، وهكذا الأمر مع الأبناء والبنات الذين فَقَدوا صفتهم هذه ولم يعودوا غير أخوة طماعين في العرش. وكان لهـذه التغييرات أثرها المذهل في نفس فتاتنا المراهقة التي لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد، فاشتركت بمحض الصدف ـ أو هكـذا تدعي ـ وبتأثير مـن أختها خولة في مؤامـرة مع أخيها برغش ضد السلطان الجديد ماجد «أخيها الحبيب» ـ كما تصفه دوماً ـ .

وقد نالها من هـذه الحركة الرعنـاء الإرهاق والقلق وخسـران الصحَّة والمال وجفوة الأهل والأصحـاب، فنزحت إلى أملاكها فـي الريف متعبة نادمة وعاشـت فيه فترة مبعدة منفية ثم عادة إلى المدينـة وصالحها أخوها ماجد وصَفَح عنها، فعادت بينهما علاقات يمكن وصفها «بالرسمية» دون أن

يعود إليهما ما كان يربطهما منـذ طفولتهما من إخاء عميق وود صاف متين. ولكن «عـودة العلاقات» هذه أثارت ضدها ضغينة شـركائها فـي المؤامرة وعلى رأسـهم برغش وخولة، وكان تأثير الأخيرة عليها كبيراً، والظاهر أنها وهي لما تزل في حدود الثامنة عشـرة من عمرها قد حـارت في أمرها ولم تعد تعرف ما يجب أن تعمل وكيف تتصرَّف فاعتزلت أهلها وأصدقائها وفي غمرة هذا الحال النفسـية العصيبة والقلق الفكري التقاها تاجر ألماني شاب يعمل في زنجبـار فتعلق به قلبها وبادلها الحب واتفقـا على الزواج، ولعلنا نجد في هذا التصرُّف الغريب أثراً من نحيزة طبعها المتميز بالإتيان بغرائب الأمور واصطياد أوابد الأفعال في محاولة لإثبات وجودها وتوكيد شخصيتها بعد الذي لقيته من الإهمال والجفاء. وإذ لم يكن زواجهما ممكناً في زنجبار فقد هربت منها إلى عدن حيث لحق بها صاحبها بعد شـهور ثم سافرا معاً إلى ألمانيا حيث ظنَّا أن المقام سيسـتقر بهما هناك ويحالفهما الحظ وهناء العيش.

لكن الأقدار كانـت لهما بالمرصـاد، فقد توفي زوجهـا بعد وصولهما بثلاث سنوات في حادث اصطدام تاركاً لها أطفالاً ثلاثة وتبعة ثقيلة انحطت على كاهلها. وكانت ضربة القدر الثانية وفاة أخيها السلطان ماجد الذي كانت تطمع في أن يعينها في مصيبتها أو أن يسـمح لها بالعـودة إلى بلادها. وقد تولى عرش السـلطنة بعده أخوها برغش الذي كانت شريكته في المؤامرات والثورات ضد ماجـد، لكنه لم يغفر لها مصالحتها مـع ماجد. وعادت ثانية وحيدة مفردة في بلاد غريبة عنها وبين أناس لم تألف سـجاياهم وطبائعهم تحمل على كاهلها عبء تنشئة ابنها وابنتيها.

ولم تذكر لنا المؤلِّفة شـيئاً كثيراً عن حياتها في ألمانيا بعد وفاة زوجها وعن تجاربها وموارد رزقها، ولكن يبدو لنا من الإشـارات العابرة أنها مرَّت

بتجارب قاسية ولَاقَت آلاماً كثيرة فهي حين تمر بذكر هذه الأحداث نشعر بما تحسّه من مرارة وغصة، ولا نستبعد أنها حملت معها من زنجبار مبالغ معقولة من المال بعد أن باعت هناك قبل السفر كل أملاكها، كما حملت معها مقداراً لا بأس به من حليها وجواهرها. وقد استعانت بهذا المال في تربية أولادها وإعاشتهم ولا بد أنها تعرضت في ألمانيا إلى بعض أعمال النصب والاحتيال فقد خسرت أموالها ثم مرّت بعد ذلك بظروف معاشية صعبة جداً[1]، وكانت هذه الظروف وحنينها الدائم إلى بلادها مصدر إلحاحها للعودة إلى زنجبار لتستقر وأولادها فيها أو على الأقل لتسترجع ثرواتها وأموالها.

ولكن أخاها السلطان الجديد السيّد برغش ١٨٧٠ ـ ١٨٨٨ كان قاسياً غليظ القلب شديد البغض لها لسبب صلحها مع أخيهما السلطان السابق ماجد بعد مؤامرتهما عليه، ناقماً عليها تنصرها وزواجها من أجنبي. لذلك لم يسمح لها بالعودة.

لكن الأميرة بعنادها ودأبها حقّقت رغبتها بزيارة زنجبار فزارتها عام ١٨٨٥ زيارة قصيرة أثارت قلق الإنكليز والسلطان ففرضا عليها رقابة صارمة وحصاراً مُحكماً، وأثارت لدى أهل الجزيرة حماساً وفضولاً.

وفي هذه الفترة بالذات ازداد النفوذ البريطاني في زنجبار واشتدت قبضته على مقاليد الأمور كما رأينا من قبل، وفي هذه الفترة بالذات أيضاً اشتد التنافس بين بريطانيا وألمانيا على استعمار أفريقيا الشرقية واستغلال ثرواتها. وكانت كلتا الدولتين قد وجدتا مواضع قدم لهما في القارة السوداء وكانتا تحاولان الزيادة والامتداد.

---

(١) كويلاند ـ استقلال أفريقيا ص ٢٣٦ لندن ١٩٣٩.

ويبدو لنا من سياق القصَّة وسَير الأحداث أن الحكومة الألمانية قد أولت هذه الأمير العربية المشرَّدة بعض العناية والاهتمام، حتى تهيأ لها أن تحصل على لقب «برنسيس» وأن تكون موضع عطف الإمبراطور الألماني نفسه ومستشاره بسمارك[1]، ولعلنا لا نسيء الظن إذا ما ذهبنا إلى أبعد من هذا وقلنا إن الحكومة الأَلمانية ربما استغلت وجود هذه الأميرة على أرضها أداة في التنافس الاستعماري على أفريقيا بين الإمبراطوريتين، ولربما انساقت الأَميرة إلى هذا المصير دون وعي أو إدراك منها لما يراد بها، أو ساعدت فيه مدفوعة برغبتها الشديدة في العودة إلى بلادها أو الانتقام من أخيها الحاكم في زنجبار أو لمجرد حب البروز والإتيان بغرائب الأفعال لإثارة الاهتمام بها، وهو ـ كما رأينا ـ طبع أصيل فيها.

ولعل هذا هو السر الكامن وراء رفض الإنكليز طلبها بالتوسُّط لها بالصلح مع أخيها السلطان، ووراء رفض السلطان نفسه ـ وخلفه الإنكليز ـ السماح لها بالرجوع إلى وطنها وهو نفسه سر الارتياب والقلق الذي ساوَرَ السلطات الحاكمة في زنجبار عند زيارتها المفاجئة لزنجبار ـ وهو الآخر عمل من أعمال الفجاءة والتحدي ـ في حماية الأسطول الأَلماني. فلم تكن زيارة الأسطول الأَلماني هذه زيارة ود ومجاملة بل كانت مناورة عسكرية تهدف إلى تخويف السلطان وتهديد الإنكليز ليرضخا لمطالب الأَلمان، لهذا

---

(١) كتبت مرة إلى أخيها السلطان برغش تنصحه بفك ارتباطه مع بريطانيا ومصادقة الألمان جاء فيها:

«أخي أريدك أن تفهم أن البريطانيين يرغبون في تحطيم اسمك وسلطانك وهم ينتظرون الوقت المناسب لابتلاع زنجبار كما ابتلعوا مؤخراً مصر.

إن حاكم ألمانيا وكل عائلته يعطفون عليّ وقد ذهبت لزيارتهم عدَّة مرَّات فإذا تريدني أن أعمل لك شيئاً مع الإمبراطور الألماني فإني أقدر أن أذهب إليه شخصياً وأكلمه عنك...».

كويلاند: استقلال أفريقيا ص٤٣٧ لندن ١٩٣٩.

كان وجود أخت السلطان مع الأسطول يحمل في طيّاته معنى الإذلال والإهانة للسلطان الذي لو تعرّض لها بأي سوء فإن الحملة الألمانية تجد مبرّراً للتدخل بحجّة حماية مصالح أحد الرعايا الألمان.

لكن هذه الزيارة على ما يظهر لم تحقّق غرضاً سياسيّاً ملموساً للحكومة الألمانية ولا نفعاً شخصياً للأميرة. ولعل الألمان قد أهملوا أو قلّلوا من اهتمامهم بشأن هذه الأميرة بعد أن سَاد الود والتفاهم بين الحكومتين الإنكليزية والألمانية في السياسة الخارجية.

❁ ❁ ❁

وهنا تنتهي هذه المذكرات الشيّقة فلم نعرف بعدها عن مصير هذه المرأة المغامرة شيئاً إلا ما يتناثر من أخبارها هنا وهناك.

ومن هذه الأخبار أن مكتبة هامبورج في ألمانيا تحتفظ بأَوراق الأَميرة سالمة وفيها رسائلها إلى أصدقائها أو أجوبة هؤلاء الأصدقاء على رسائلها، وأن هذه المجموعة ما تزال تُعتبر سرّيّة[1].

وكل الذي نعرفه بعد هذا أن ابنها سعيد رودولف روث ألّف كتاباً عن جدّه السلطان سعيد ونَشَره بالإنكليزية في لندن عام ١٩٢٩، وقبل هذا وفي صيف عام ١٩٢٠ زار لندن السيّد خليفة بن حارب بن ثويني سلطان زنجبار آنذاك فأقامت له الجمعية الآسيوية حفلة تكريم ألقى فيها سعيد الحفيد هذا محاضرة قيّمة عن تاريخ البوسعيد في عُمان وزنجبار، من غرائب الصدف أن يكون المحاضر هو الحفيد الأول للسلطان سعيد ويكون السلطان المحتفى به هو الحفيد الثاني.

---

(١) أدلى إلينا بهذه المعلومات الأخ الزميل الدكتور محمد مرسي عبد الله مدير مكتب الوثائق والدراسات في ديوان سمو رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة في أبو ظبي.

وجاء في كتاب «جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار» وهو كتاب مخطوط[1] أن السلطان خليفة زار لندن مرة أخرى عام ١٩٣٧ وكان معه مؤلف المخطوطة فزاره سعيد ابن عمته ورد السلطان له الزيارة في بيته، وقدّم سعيد روتي للسلطان قهوة بنية ومكثا يتحدثان طويلاً.. «وفرّجنا على محله ورأينا معه كتباً عربية وصور سادات عرب عُمان وزنجبار... ونظرنا في مخلفات والدته: مكحلة فضة وشال أخضر وفنجان ذهب وفنجان صيني ووجدنا في بيته كتاب تحفة الأعيان في سيرة أهل عُمان وغيرها من الكتب العربية»، ثم يستطرد مؤلّف المخطوطة إلى القول «وأَخبرنا أن عمره ٦٨ سنة وأن والدته توفت منذ ١٥ عاماً».

وعلى ما يثير ذكر مخلفات المؤلّفة من شجى وحنين فإن الذي يعيننا من هذا الخبر هو التواريخ الوارِدة فيه لنصل منها إلى تاريخ أحداث الكتاب.

وأَهم ما يعيننا من هذه التواريخ هو تاريخ ميلادها وتاريخ رحيلها من عُمان وتاريخ وفاتها. فأما تاريخ ميلادها فنستطيع تخمينه بين سنتَي ١٨٤٤ و١٨٤٥. نستدل على ذلك من قولها إن عمرها كان في حدود التاسعة حين غادر أبوها زنجبار في رحلته الأَخيرة وكان ذلك في الرابع من شهر مايو عام ١٨٥٤، وأنها لم تكن قد أتمّت الثانية عشرة من عمرها عند وفاة أبيها في أخريات عام ١٨٥٦.

أما تاريخ خروجها من عُمان فقد كان يوم ٢٦ آب ١٨٦٦ وهو ما اتفقت عليه الروايات وما أَيّدته المؤلّفة حين ذكرت أن عودتها إلى زنجبار كانت بعد تسع عشرة سنة من مغادرتها لها، وعلى ذلك نستطيع القول أنها كانت عند خروجها من زنجبار في حدود العشرين من عمرها، وأنها كانت في حدود الأربعين من العمر حين عادت إلى زيارة زنجبار عام ١٨٨٥.

---

(١) هو كتاب حقّقه مترجم هذه المذكرات ويأمل في نشره قريباً.

أما وفاتها فيستدل من رواية ولدها أنها كانت حوالي عام ١٩٢٢ وكانت في حدود الثمانين من عمرها.

وعلى هذا تكون المؤلِّفة قد عاشـــت عمراً طويـــلاً حافلاً بالأحداث فقد تتبعت ولا شك أخبار مسقط وزنجبار وتقلُّب الأحوال فيهما، وسَمعت بوفاة أخيها برغش وبالمصير الأَليم الذي حلَّ بابنه خالد ولا نعلم شيئاً عن طبيعة علاقتها بإخوانها الســـلاطين وأبنائهم من بعدهم، فلعلَّها أن تكون قد التقت مع السلطان الســـيِّد خليفة في زيارته إلى لندن عام ١٩٢٠ وفي زيارته الأولى عام ١٩١١ والتقت بمن ســـبقه من ســـلاطين زنجبار من إخوتها وأبناء إخوتها ممن اعتادوا على زيارة لندن بين حين وآخر.

كما شهدت في أخريات أيامها انهيار أَلمانيا الإمبراطورية وتشرّد أصدقائها أعضاء عائلتها المالكة. ولا نعلم شيئاً عن هجرة ابنها إلى لندن وما إذا كانت قد هاجرت معه أم ظلَّت في ألمانيا. وكلها أمور تستحق البحث والاستقصاء.

(٤)

وننتقل الآن إلى البحث عن الكتاب وتاريخه:

نشـــرت هذه المذكرات أول مـــرة باللغة الأَلمانية في برليـــن عام ١٨٨٦. وتعترف المؤلِّفة في مقدِّمتها أنها انتهت من كتابـــة فصول الكتاب قبل ذلك بتسع ســـنوات ولم تضف إليه بعد ذلك إلا فصله الأخير عن سفرتها الأخيرة إلى زنجبار، كما تعترف المؤلِّفة أيضًا أنها لم تكن تنوي طبع هذه المذكرات ونشـــرها ولم تفعل ذلك إلا بإلحاح من أصدقائها، وأن الهدف الأول لها من كتابة هذه المذكرات اطلاع أولادها على قصة حياتها وظروف نشأتها وتاريخ عائلتها وأحوال بلادها.

ويخيَّل إلينا أنهـا وقد فرغت من أعباء تربية أولادها بعد عشـرين حولاً قضتها ولا شك في ألَم وعذاب وجهاد مسـتمر من أجل تنشئتهم وتعليمهم، قد مالت إلى شيء من الراحة بعد النَّصَب وتيسَّر لها بعض الفراغ في الوقت فثارت في نفسـها كوامن الحنين والاشتياق إلى بلدها ومرابع طفولتها والتي لم تكن تجد مجالاً للظهور أيام العمل والجهاد، فلم تجد ما تبل به شـوقها وتشـغل به حيويتها العارمة ونشـاطها الوافر إلا الانكباب علـى كتابة هذه المذكرات، ثم رضيت بنشـرها على الملأ تذكيراً لبني قومها بها وبوجودها على طريقتها في الظهور والبروز عن طريق المفاجآت والتحدي ولربما كانت حاجتها إلى بعض المال سبباً آخر في نشر هذه المذكرات.

ومهما يكن دافعها إلى الكتابة والنشـر فقد أحسنت وأجادت وتركت لنا ذكريات ممتعـة وأخباراً طريفة ومـادة قيِّمة عن الحيـاة وتقاليدها في القرن الماضي في ذلك الصقع النائي الذي لا نملك من أخباره إلا ما نقله الغربيون لنـا، ولا نملك في هـذه الحال إلا الإعجـاب بقدرة هذه المـرأة وحيويتها ونشاطها فقد استطاعت أخيراً أن تنجح في ما كانت تحاوله طيلة حياتها وهو خلود اسمها وبروز شخصيتها.

وقد تميَّز أسـلوب هذه المذكرات بالسـهولة والبسـاطة وتميَّز عرضها بالصدق والعفوية وهي لا تخلو عن روح ساخر خفيف ومن قسط من القدرة على السـرد القصصي، كما وأنها تتميز بصور شـعرية رائعـة ورؤى طفولية حلوة وخاصة حين تسترجع المؤلِّفة ذكريات طفولتها وصباها، وحين تتكلم عن والديها وعن أخيها ماجد وأختها خولة.

ويحسُّ كاتب هذه السـطور بصـدق المؤلِّفة في عرضهـا لصور الحياة الاجتماعية في زنجبار في القرن الماضي كوصـف البيوت والزيارات وحياة الجواري والضرائر وطرق الطهي والطعام وسـيطرة الآغـوات والعبيد وغير

ذلك، بما يجده من شـبه وتناظر كبيرين بين وصفها هـذا وبين نمط الحياة التي ألفها فـي طفولته في البيوتات الكبيرة في مدينـة البصرة في مطلع هذا القرن، وقد يكون هذا نمطاً عاماً للحياة الشـرقية عنـد وجهاء القوم في كل المدن العربية أو قد يكون أثراً من آثـار العلاقات الوُثقى بين البصرة وعُمان على مر القرون.

ومما يجب ألا يغـرب عن البال أبـداً أن المؤلِّفة كتبت هـذه المذكرات للجمهور الأَلماني خاصة والغربي عامة، لتعريفـه ببلادها وأحوال بني قومها ولم يكن هذا الجمهور في القرن الماضي ـ وما نظنّه بأحسن حالاً الآن ـ على علم بأحوال الشرق وتقاليده وطقوس عباداته. لذلك جهدت المؤلِّفة في إيضاح ذلك وشرحه مما قد يراه القارئ العربي سرداً مملّاً لأمور مألوفة لديه.

ومما يجب أن يذكر بالشـكر والامتنـان لهذه الكاتبـة العربية أنها رغم تنصّرهـا وحياتها الطويلة في بـلاد الغرب وتنكّر أهلها لهـا فقد ظلت وفية مخلصة لأهلهـا وبلادها ودينها الأول، فخورة بهم دومـاً كما يظهر ذلك من ثنايا كتابها، فهي إذا ما اضطرت إلى ذكر شـأن من شـؤون الشـرق مما لا يستسـيغه الغربيون كحجاب المرأة أو تعدد الزوجات أو تملك الرقيق مثلاً، نراها تنبري للدفاع عن الفكرة وتبريرها دفاعاً شديداً لا ينقص من نُبل قصدها اتسامه أحياناً بالبراءة والسذاجة.

وكان من أثر تربيتها الشـرقية ومتانتها أن حياة الغرب لم تؤثّر فيها فقد حكمت عليها الظروف للعيش بينهم كل حياتها، ولكنها كما يظهر من كتابها لم تستسغ قط نمط حياتهم وتقاليد مجتمعهم.

وقد يقسـو البعض في حكمهم على هذه المرأة فهي قد خرقت ولا شك تقاليد قومها وأساءت إلى سـمعة بيتها الكبير وهَجَرت بلدها وتَرَكت دِينها، ولكن لعل لها عذراً وأنت تلوم، ويكفي أنها دفعت ثمن خطيئتها حياة طويلة

في الغربة والتشرُّد والكفاح المرير من أجل العيش لها ولأبنائها، ولعل كتابة مذكراتها هذه ما هو إلا مظهر ندامة وتكفير عما صَنَعت.

❁ ❁ ❁

وقد صدرت هذه المذكرات في الألمانية أول مـرة عام ١٨٨٦ وتُرجمت عام ١٨٨٨ إلى اللغة الإنكليزية ثم تَلَتها بعد عام واحد ترجمة فرنسية، وأُعيد ترجمتها إلى الإنكليزية ثانية ونُشرت في نيويورك عام ١٩٠٥. وهذه الطبعة هي التي وقعـت بين أيدينـا أول مرة. ثم تفضـل أخ زميل مفضال فأرسـل لنا مشكوراً نسخة مصوَّرة من الطبعة الأولى[1].

وعن هاتين الطبعتين ترجمنا ترجمتنا العربية هذه.

والترجمة الإنكليزية الأُولى أكمل وأَوفى فقد وجدناها تُسهب في الكلام عن بعض المواضيع التي تتجنَّب الترجمة الثانية الكلام عنها أو تختصره اختصاراً.

وقد جاءت الترجمـة الأولى بـ ٣١ فصـلاً في حين جـاءت الثانية بـ١٦ فصلاً، نتيجة ضم بعض الفصول إلى بعضها أو تفريقها عن بعضها وقد أبحنا لأنفسنا حداً وسـطاً فجعلنا ترجمتنا ٢٦ فصلاً. وعدا عن هذه الفروق الشكلية وفروق طفيفة غيرها فإن هناك فَرقاً أساسـياً بيـن الترجمتين هو أن الترجمة الثانية قد أغفلت تماماً ذكر الفصلين العاشـر والرابع عشـر، على ما للفصل الأخير من أهمية بالغة في رسم ملامح جانبية لبعض أبناء السلطان وبناته.

والمترجمان ـ بعـد ـ لم يتعرفا على الحياة العربية والإسـلامية فجاءت بين سطور كتابيهما بعض الأخطاء في التعبير والأداء لا نظن أن الكاتبة وهي العربية الأصيلة تقع في مثلها. وقد أبحنا لأنفسنا أن نصحِّح هذه الأخطاء وأن

(١) هو صديقنا الدكتور محمّد مرسي عبد الله مدير مكتب الوثائق والدراسات.

نستبدل بالألفاظ والتعابير الواردة في الترجمتين تعابير عربية أصح وأصدق دلالة على المعنى المقصود كقولنا صلاة الفجر بدل صلاة الصباح أو الوضوء بدل الاغتسال لأغراض الصلاة إلى غير ذلك من المصطلحات.

كما استعملنا في الترجمة بعض الأمثال والحِكم العربية التي يكثر الاستشهاد بها في لغتنا العربية لاعتقادنا أن المؤلِّفة وهي العربية المَولد والنشأة والتي تيسَّر لها أن تحفظ من القرآن الكريم ثلثه، لابد وأنها كانت على اطلاع على هذه التعابير الشائعة ولا بد وأنها قصدت إليها في نصّها الأَلماني الأول، فأما أن القدرة قد خانتها على ترجمتها بدقَّة، وأما أن المترجمين التالين لها أخذوا المعنى ووضعوه بلغاتهم في قوالب أخرى فضاع أصله العربي.

وكان بودِّنا أن نستقصي تاريخ هذه المؤلِّفة وسِيرة حياتها استقصاء كاملاً، لولا ضيق فسحة الوقت وكثرة ضغط العمل وندرة هذه المراجع وبُعدنا القاصي عن مظان وجودها في المتاحف ودُور الكتب الكبرى، وعن غيرها من مصادر البحث والدِّراسة التي يتيسَّر فيها الاطلاع على هذه النصوص النادرة.

ولعلنا نستطيع أن نكمل هذا النقص إذا ما أسعفتنا ظروف أَيسر وموارد أَغزر وفراغ أَوفر.

وعسى أن يتم ذلك في وقت قريب إن شاء الله تعالى...

عبد المجيد القيسي
أبو ظبي في ١٩٧٤/٨/١

مقدمة المؤلِّفة

أنهيت منذ تسع سنوات كتابة قصة حياتي هذه، وكنت قد قرَّرت كتابتها ليقرأها من بعدي أولادي حين يكبرون، فلم يكونوا في ذلك الوقت في سن تسمح لهم أن يعرفوا شيئاً عن ماضي حياتي وأصل منبتي وعن وطني زنجبار وقومي العرب. وكنت في حال من الوهن والسقم والإرهاق، لم أكن أتصور معها بقائي على قيد الحياة أمداً يكفي لأن أروي لهم بنفسي سيرة حياتي.

ولهذا وذاك لم يكن نشـــرها يخطر لي على بال وما وافقت على نشـــرها مؤخراً إلا نزولاً عند رغبة الأصدقاء وإلحاحهم. ولم أضف إليها جديداً سوى الفصل الأخير عن زيارتي الأخيرة لزنجبار.

فعسى أن يكون كتابي هذا رســـول صداقتي ومودتي إلى جمهور جديد من الأصدقاء القـــرَّاء الذين لم يســـعدني الحظ بالتعرُّف إليهـــم وأن تحظى قصتي مكتوبة بالتقدير والفهم الذي حظيت به صاحبتها وهي تحياها، تشقى أو تسعد بها على مسرح الحياة.

البرنسيس إميلي روث

أصلاً

السيدة سالمة بنت سعيد بن سلطان

برلين ١٨٨٦

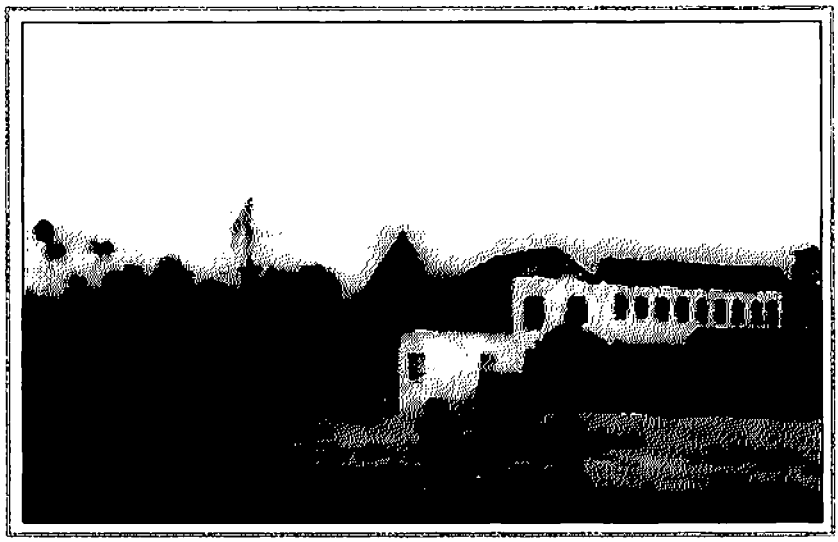

بيت المتوني

الفصل الأول
بيت المتوني

في بيت المتوني[١] أقدم قصور أبي في جزيرة زنجبار خرجت إلى هذه الدنيا واكتحلت عيناي بنورها لأول مرة. وفيه عشت أسعد أيام طفولتي وأجملها حتى بلغت السابعة من عمري.

ويبعد هذا القصر زهاء الخمسة أميال عن مدينة زنجبار ويقع في مكان ساحر على شاطئ البحر، ويقوم بناؤه وسط ساحة واسعة الأرجاء بعيدة الأطراف تنبسط بعدها حدائق غنّاء تزدهر فيها أجمل الورود رونقاً وأبهاها ألواناً ثم تحيط بها بساتين كثيفة متشابكة ترتفع فيها سامقة شاهقة أشجار النخيل والمانجو والنارجيل وغيرها من الأشجار الاستوائية الضخمة العود الفارعة الطول.

وقد أخذ هذا القصر اسمه من نهر المتوني، وهو نهر صغير ينبع في مكان غير بعيد عن القصر ثم يجري نحوه ويخترق بساتينه ثم ما يلبث أن يتفرع داخلها إلى جداول صغيرة متعددة تنساب صافية رقراقة إلى مختلف الاتجاهات تحت ظلال الأشجار الكثيفة الشاهقة أو في مروج الحديقة التي

---

(١) يقع شمال زنجبار، اشتراه السيد سعيد بن سلطان بعد انتقاله إلى زنجبار عام ١٨٣٢م، ثم شرع يضيف إليه، وقد هجره سكانه بعد وفاة السيد سعيد بن سلطان، ثم تهدم في عام ١٩١٩م بعد اندلاع حريق فيه لم تعرف أسبابه، وهو اليوم أطلالاً مهدمة.

طرَّزتها الورود والأزهار بمختلف الألوان ثم تنتهي مياهه جميعها لتصب في ذلك الخضم الأزرق الهادىء الجميل الذي يفصل زنجبار عن القارة الأفريقية.

وكان القصر مكوَّناً من العديد من الأَجنحة والبنايات التي أُضيف بعضها إلى البعض الآخر في أَزمنة مختلفة متباعِدة فجاءت متباينة في التصميم والطِّراز وطريقة البناء مما أَفقد المنظر العام للقصر جمال المنظر وحسن الاتساق. وكان مما يشد الوالج الجديد إلى هذا القصر العدد اللامتناهي من المسالك والممرَّات المتعرِّجة المتقاطعة التي لا يَسلم من التّيه في تعرُّجها وتشابكها إلا من طال سُكناه في القصر أو كثر تردده عليه. وقد استحدثت هذه المسالك لتصل بين أَجنحة القصر المتباينة المتباعدة.

وكانت مخيلة الطفولة تصور لي وكأن أجنحة القصر وأقسامه ودهاليزه وممراته من الكثرة والتنوُّع بحيث لا يحصرها عدد ولا إحصاء. وقد غابت عن ذهني الآن أشكالها ومواقعها إلا واحداً منها ما زلت أذكره بكل وضوح وهو جناح الاستحمام.

ويتكوَّن هذا الجناح من أكثر من اثنتي عشرة غرفة تصطف منفردة متجاورة في طرف بعيد عن ساحة القصر حتى أننا لبُعدها كنا نضطر إلى استعمال المظلات إذا ما رغبنا في التنعُّم بمتعة الاستحمام في الأيام المطيرة. وكان ما كنا نسميه «الحمَّام الفارسي» ـ وهو في الحقيقة حمام تركي ـ في معزل عن البقية وكان في الواقع هو الحمَّام الوحيد من نوعه في زنجبار من حيث الهندسة والبنيان.

وكان هذا المستحَم مراح القوم ومغداهم لا تنقطع عنه وفود الرائحين والغادين منذ الساعة الرابعة صباحاً حتى منتصف الليل، فيقصده كل فرد من سكان القصر ومنهم من اعتادوا أن يقضوا فيه الساعات الطوال في اللهو والنوم والمرح فمنه يصرفون أعمالهم وفيه يؤدون صلواتهم ويقومون بما

يترتب عليهم من واجبات الكتابة أو القراءة ويتناولون أثناء ذلك كله ما يتيسَّر من الطعام والشراب.

والداخل إلى إحدى غرف الاستحمام هذه وكلّها ـ عدا الحمَّام الفارسي ـ على طراز واحد، يجد دكة على يمينه وثانية على شماله وقد فُرش على كل منهما حصير نظيف دقيق الصنعة يُستعمل للجلوس والصلاة. وليس في الغرفة شيء من مظاهر الترف والبذخ كالسجاد والرسوم فهي أشياء مكروه وجودها حيثما يؤدي المسلمون صلاتهم. وصلاة المسلمين تؤدَّى في أي مكان وفي منتهى البساطة ولا يُشترط إلا أن تكون البقعة التي تؤدَّى فوقها الصلاة نظيفة طاهرة، كما ويفترض أن يضع المصلّي على رأسه طرحة نظيفة طاهرة، يفضل أن تكون بيضاء اللون وأن لا تستعمل ـ حرصاً على استمرار نظافتها ـ لغير أغراض الصلاة. لكن الواقع أن هذه القاعدة الأخيرة لا يتقيَّد بحذافيرها إلا غلاة المتدينين.

ومن هذا المكان يدلف المرء من فتحة واطئة صغيرة إلى مكان أوسع يحجبه عن صفاء السماء الزرقاء قبة زجاجية شفافة، ويضم المكان حوضين كبيرين متقابلين سعة الواحد منهما أربع ياردات طولاً وثلاث عرضاً وينزل المستحم درجتين حجريتين قبل أن يصل إلى قعر الحوض حيث يغطي الماء الرجل المتوسط الطول حتى كتفيه.

وكل غرفة من هذه الغرف مستقلة عن الأخرى وتفصل بينهم قناطر حجرية مقوسة تتسلَّقها النباتات والأعشاب ولكل غرفة روّادها المعينون من فئة من فئات القصر، والويل كل الويل لمن يتخطى حدوده فقد كانت الطبقية مَعْلَماً بارزاً في بيت المتوني يلتزم بها الجميع كباراً وصغاراً.

ولم يكن هذا كل ما في جناح الاستحمام بل كانت هناك أشجار البرتقال ـ وهي بارتفاع أشجار الكرز في ألمانيا ـ تملأ الساحة أمام الجناح بشكلٍ

كثيفٍ، وكم كنا نحن الأطفال الصغار نجد بين أغصانها العطوفة الحانية ملجأ لنا وملاذاً يخفينا عن رقابة مربيتنا الصارمة المرعبة.

وكان هذا المكان يعجُّ بالناس والحيوان معاً يتعايشون بمحبة ووئام لا يعكر أحد الفريقين صفو الفريق الآخر مطلقاً، فكانت هناك الغزلان والنعام والببغاوات والطواويس والغرانيق وديوك الهند والروم والبط والوز والغراغر تتهادى في سبيلها بألوانها الزاهية أو ريشها الملوَّن حرة آمنة، وكنا جميعاً صغاراً وكباراً نحترم هذه الصداقة بين الفئتين فكنا نلاعب هذه الحيوانات ونطعمها بمحبة ووداد، وكانت متعتنا نحن الصغار في أن نتحرى عن البيض التي تتركه الطيور ـ وخاصة منه بيض النعام الكبير الحجم ـ ونجمع ما تيسر منه لنقدمه إلى كبير الطهاة ليعمل منه أطباقاً شهية وليكافئنا جراء جهدنا هذا بأصناف الحلوى والشكولاته. وكان لنا نحن الأطفال الذين جاوزنا الخامسة من أعمارنا درسان في ركوب الخيل كل يوم، أولهما في الصباح الباكر وثانيهما في المساء، وكنا نمارس هذه الرياضة المحببة لنا برفقة أحد الخدم وفي هذه الساحة نفسها. ولكن دون أن نعكِّر صفو الحياة على أصدقائنا الحيوانات فيها. وكان إذا ما برّز أحدنا في هذه الرياضة منحه أبونا مطياً خاصاً به وكان للبنين منا حق اختيار إحدى الخيول العربية العتاق التي تزخر بها اصطبلات السلطان وكانت البنت تُمنح بغلاً عُمانياً أبيض مزركشاً بالزينة الغالية ومثقلاً سرجه بالحلى النفيس.

وعدا عما في ركوب الخيل من رياضة للجسم فقد كانت دروس الفروسية تسلية ممتعة لنا في بلد تنعدم فيه المسارح والحفلات، كما كانت السباقات العامة للخيل نادرة فيه جدّاً وإن جرت فمن النادر ألا تنتهي بحادث مؤلم أو كارثة محقَّقة.

وقد كاد سباق الخيل مرة أن يكلفني حياتي، ففي غمرة حماسي وأنا أحاول أن أسبق أخي حمدان غفلت عن أمري فوجدت نفسي فجأة أمام جذع

طويل بارز يسد عليّ الطريق ويكاد أن يحطم رأسي، ولو لم أرم في غمرة الفزع والذهول بنفسي أرضاً لما نجوت في اللحظة الأخيرة من كارثة محقّقة.

❁ ❁ ❁

ومن المظاهر المتميزة في بيت المتوني كثرة السلالم وغرابة تصميمها، فأما عن كثرتها فحدِّث ولا حَرَج. وقد نجد تبريراً لذلك في سعة القصر وتعدد أبهائه وأجنحته. أما وجه الغرابة فيها فهو علوها غير المتناهي وانتصابها الشاهق المخيف ثم ارتفاع المسافة بين درجات السلم الواحد حتى ليخيل إليّ أنها بُنيت للجن أو العمالقة. فإذا كتب لك أن ترقى إحداها فإنك تصعد وتصعد عمودياً دون عطفة في السلم أو في مكان للاستراحة فيه ودون ما جدار للاستناد عليه، حتى تنقطع أنفاسك وتنهار قواك، أما إذا استعنت بالدرابزين الخشبي فستجده واهياً ركيكاً يكاد أن ينهار بين يديك، فإذا انتهيت منه بعد هذا كله سالماً فقد وجب عليك الحمد لله حمداً كثيراً. وإذا هان الصعود فإن النزول عليها أكثر مشقة وأكثر رعباً، فالواقف على رأس السلم العمودي الانحدار يصيبه الدوار ولا شك إذ يجد الأرض عنه بعيدة نائية وهو لعمودية السلم لا يستطيع أن يتبيّن درجاته أمامه أو تحت قدميه. وأشبه ما يكون حاله بمن يحاول أن يرمي بنفسه إلى البحر من صارية شاهقة الارتفاع في مركب شراعي.

وكانت درابزينات السلالم كما قلتُ من الخشب وكانت جميعها لكثرة استعمالها واهية مضعضعة لا ينفع فيها التصليح المستمر.

ومن الصور التي لا أنساها صورة الفزع الهائل التي تملك سكان جناحنا حين استيقظوا صباح أحد الأيام ووجدوا أن جهتي الدرابزين في سلمنا قد انهارتا أثناء الليل. وما زلت حتى اليوم أعجب كيف مرَّ الأمر بسلام مع كثرة الصاعدين والنازلين على ذلك السلم في كل دقيقة من دقائق الليل والنهار.

ولم يكن علم الإحصاء معروفاً في زنجبار، لذلك فلا أحد يعرف بالضبط عدد السكان في بيت المتوني. ولكن إذا كان لي أن أجازف بتقدير هذا العدد فما أظنني مبالغة أبداً إذا ما قدرت عددهم بألف نسمة على الأقل. وليس هذا فحسب فإن بيت الساحل وهو قصر أبي في المدينة كان في الواقع أكثر ازدحاماً من بيت المتوني ولا يستغربن القارىء هذا العدد فإن ضخامته ستتضاءل أمام عينيه إذا أخذ بالحسبان أن من مظاهر السيادة والإمارة في الشرق أن يحيط الناس أنفسهم بأفواج من الخدم والعبيد.

❁ ❁ ❁

وكان من عادة أبي أن يقضي في البيت الأول ثلاثة أيام من كل أسبوع ويقضي الأربعة الأيام الباقية عندنا في بيت المتوني حيث كان يحتل فيه الأجنحة الكبرى المطلة على البحر وتشاركه سكناها زوجته الشرعية الوحيدة وهي إحدى قريباته البعيدات.

وكان أبي السيّد سعيد يحمل لقبَي إمام مسقط وسلطان زنجبار. والإمامة لقب ديني لا يُمنح للسلاطين لكننا ورثناه عن جدي الأكبر الإمام أحمد بن سعيد وظل اللقب وراثياً في أسرتنا يحق لكل ابن من أبنائها أن يلحقه باسمه.

ولأني كنت من أصغر أطفال السيّد سعيد فلم تتسنى لي رؤيته إلا في شيخوخته وعلى هذا فإني لا أتذكر صورته إلا بلحيته البيضاء الوقور، وكان طويل القامة نحيل القوام وقور السمت مهيباً. وكانت تقاسيم وجهه تطفح بالرقّة والحنان ولكنها في الوقت نفسه تفرض الهيبة والاحترام. ورغم أنه كان من رجال الحرب والقتال ويجد متعته بالغزو والفتوح فقد كان لنا جميعاً مثلاً أعلى والداً وأميراً. وكانت العدالة مبتغاه والمساواة في المعاملة ديدنه وقد فرضها في بيته وبين رعيته، وكان لا يتأخر عن إيقاع العقاب بأعز أبنائه إذا ما ثبت تقصيره حتى ولو اشتكاه أصغر الخدم.

وكان أمام الخالق مثال الخشوع والورع والتقوى كما كان ـ على العكس من كثيرين غيره من الملوك والسلاطين ـ بسيطاً متواضعاً بعيداً بطبعه عن التعالي والكبر والجفاء ولكم كنا نشهده ممتطياً جواده متجهاً إلى دار أحد عبيده ليهنئه وأهله بالأفراح أو ليواسيهم في الأحزان وليغدق عليهم مع هذا أو ذاك الهدايا والعطاء الجزيل.

وكان من عادة أبي أن يناديني «بيبي»؛ أي: السيدة العجوز وذلك لأني كنت مغرمة بنوع من حساء الحليب وهو الأكلة المفضلة للعجائز الدرداوات[1].

❁ ❁ ❁

أما أمي فقد كانت شركسية بالولادة، عاشت طفولتها مع أبويها وأختها وأخيها عيشة هادئة آمنة في إحدى مزارع أبيها، لكن حبل الأمن ما لبث أن اختل ونشبت الحرب فجأة وامتلأ المكان بأفواج المغيرين فالتجأت عائلتها الصغيرة إلى مكان تحت الأرض كما كانت تصفه أُمي وهي تعني على الأرجح القبو أو السرداب ولم يكونا معروفين في زنجبار يومئذٍ، لكن الغزاة المغيرين اكتشفوا المخبأ واقتحموه وقتلوا الوالدين وتناهبوا الأطفال الثلاثة الصغار وحملوهم على ظهور خيولها. ولم تسمع أمي منذ ذلك الحين شيئاً عن أختها وأخيها، ولم تكن كثيرة الكلام عنهم. والواقع أنها لا تذكر من الحادث وما قبله إلا أطيافاً شاحبة فقد كانت آنئذٍ طفلة صغيرة في حدود الثالثة أو الرابعة من العمر، ولكنها إذا ما ذكرت أهلها اكتسب صوتها نبرة شجو وحنين تكشف للسامع تواً عما يضطرم في حنايا ضلوعها من حزن عميق وأسى دفين لم يبددهما مرّ السنين.

ولا بد أن أُمي دخلت بيت أبي وهي في سن صغيرة جداً لا تتجاوز السابعة فقد خلعت أولى أسنانها اللبنية في بيته، وفيه نشأت وترعرعت رفيقة

---

(١) الدرداوات جمع درداء؛ أي: التي فقدت أسنانها.

لاثنتين مـــن أخواتي كن يقاربنهـــا عمـــراً، ومثلهن ومعهن تعلمـــت القراءة والكتابة وهـــو أمر ذو بال في مجتمعنا ظلّ في مســـتقبل أيامهـــا يميّزها عن نظيراتها من ســـراري أبي اللواتي كن يدخلن عصمته بعد ســـن السادسة أو الثامنة عشـــرة حيث يكن قـــد فقدن الطمـــوح للتعلم أو يأنفن من مشـــاركة الأطفال بالجلوس على مقاعد الدراسة.

ولم تكن أُمي جميلـــة ولكنها كانت طويلـــة القامة قوية بنيان الجســـم، وكانت بيضاء البشرة ذات عينين ســـوداوين جميلتين وشعر أسود ناعم طويل ينسدل حتى ركبتيها. وكانت رقيقة الطبع حلوة الخلق ذات نفس سَمِحة طيبة ولهذا كانت ظاهرة البســـاطة والتواضع منظراً ومخبراً. ولم يكن يستهويها في الحياة شـــيء مثل عمل الخير وبذل العون للسائل والمحتاج. وكثيراً ما كانت تزور المرضى من سكان قصرنا بل وكانت تحرص على تمريض البعض منهم بنفسها إن اقتضى الحال ذلك. وما زلت أذكر صورتها وهي تنتقل من مريض إلى آخر وفي يدها كتاب الله تقرأ منه عليهم ما يشجعهم أو يواسيهم أو يسليهم وتدس لهم ما تيسر من الهدايا والعطاء لتدخل على قلوبهم البهجة والسرور.

وقد أكســـبها طبعها الرضي وسجيتها السَّـــمِحة صداقات الكثيرين من سكان بيت المتوني رجالاً ونساء وهو أمر يندر حدوثه لامرأة في قصور الحريم العربية.

وكانت أمي ربّة بيت ماهرة دقيقة في أداء واجباتها حَسَنَة الذَّوق والترتيب محبة للنظام وكانت لها مهارة ملحوظة في أعمال الإبرة والتطريز، ولكن لم تكن لها هوايات ثقافية متميزة غير الـــدأب المتواصل على قراءة القرآن وهو كتابنا السماوي المقدَّس. وفي الحق أني لم أشهد طيلة حياتي امرأة أكثر منها تقًى وورعاً وإيمانـــاً بالله وطاعة له. وإني لأذكر الآن إحـــدى الليالي المقمرة شديدة الريح وقد شبَّت فيها نار قوية في جناح الإصطبلات، وكان أبي وكبار إخوتي غائبيـــن عنا فارتبـــك الخدم وحاروا فـــي أمرهم فاشـــتد لهيب النار

وهدَّدت بالامتداد إلى القصر وبلغ الذعر بأحدهم أن أنذرنا خطأ بأن النار قد علقت في القصر فعلاً، وطلب إلينا الخروج منه طلباً للنجاة فلم يكن من أمي إلا أن حملت كتاب الله في يمناها وحملتني في يسـراها وخرجت من أبهاء القصر غير حافلة بما تركته خلفها من نفائس المال والمتاع.

أما بالنسـبة لي، فقد كانت أبداً ودوماً الأم الطيبة المحبة الحنون، وكنت وحيدتها وكل أملها في الحياة بعد أن فقدت طفلتها الأولى قبل مولدي بقليل، وإن لم يمنعها هذا من إنزال العقاب عليّ حين يبدر منّي ما يستحق العقاب...

❁ ❁ ❁

وكان لأُمي مقام ملحوظ عند أبي السلطان. فكان لا يرفض لها طلباً وإن كانت هي من جانبها وبطبيعتها قليلة الطلبات لنفسها وإن تقدمت إليه بشيء منها فليس لنفسـها وإنما مما يكلفها به الآخرون. وكان أبـي يقدِّر لها هذه الميزة. وكان من مظاهر تقدير السـلطان لها نهوضـه إليها من مقعده وتقدّمه إليها خطوة أو اثنتين وهو امتياز ذو دلالة كبيرة على الحب والتقدير لا يحظى به إلا البعض القليل من زوجاته الكثيرات.

وعلى قدر ما أتذكر. فلم يكن لأبي السـلطان طيلة حياته أو منذ مولدي على الأقل إلا زوجة شـرعية واحدة. أما الأخريات وقد ترك منهن عند وفاته خمساً وسبعين فقد كن من الجواري والإماء اللواتي كان يشتريهن أو يتملكن بين الحين والآخـر. وكان لفظ الزوجـات يُطلق عليهن تجـاوزاً ومن باب التعميم ولا يقصد به على كل حال معناه الشرعي الدقيق.

وكانت زوجته الوحيدة هذه، هي عزة بنت سـيف من فرع بيتنا المالك في عُمان وكان لهـا الحكم المطلق والكلمـة العليا في بيتـه. ورغم ضآلة حجمها وقلَّة حظها من الجمال فقد كانت لها السـيطرة المطلقة على زوجها بحيث أنه يتبنى عن طيب خاطر كل آرائها وطلباتها. وكانت معاملتها لزوجاته

الأخريات ولأولاده جميعاً تتسم بالعجرفة والتشـامخ وتسقّط الأخطاء، وقد كنا نحمد الله على أنها كانت عقيماً، فلو أنها رُزقت بطفلٍ لزاد علينا ولا شك عتوها وجبروتها. ولقد كنا، نحن أبناء السلطان وكان عددنا عند وفاته خمساً وثلاثيـن ـ جميعنا من أبناء الجـواري وعلى هذا فقد كنا متسـاوين في كل الحقوق لا تمييز بيننا البتة بسبب الدم أو اللون.

وكانت عزة تختص وحدها بلقب السـيدة ـ ويقابلها كلمة بيبي في اللغة السـواحلية وهو يسـاوي لقب «الأَميرة» أو يعنيه ولا يطلق إلا على سليلات البيـت المالك، ولكنها إلى جانـب ذلك كانت تحظى بالمقت الشـديد لها والخوف الكثير منها من جميع من في البيت من كبير أو صغير في السن أو المقام ولا أذكر أحداً في بيتنا شـذ عن هذه القاعدة. وإني لأذكر اليوم مقدار عبوسـها وشـموخها حين تمر من أمامنا دون أن ينطلق فوها بكلمة أو تحية ودون أن تنفرج شـفتاها عن بسـمة أو يختلج عضو في وجهها بالبشـر أو الرقة... وأذكر عظم الفارق بينها وبين أبينا الشـيخ الرقيق العطوف، الذي لم يكن يمر على أحد سـواء كان من علية القوم أو من أدنـى الخدم إلا ووجد كلمة طيبة أو تحية حلوة يلقيها إليه بكل ابتسام وبشر.

وكانت رابتي[1] المتعاظمـة المتكبرة تعرف كيف تفـرض على الجميع مقامها وهيبتها فما كانت تأذن لأحد بالمثول أمامها إلا أن تستدعيه هي. كما لم تكن تسمح لأحد أن يطيل المكوث عندها ولا أذكر أنها خرجت مرة إلى ساحة القصر إلا محاطة بالعديد من المرافقات والخدم اللَّهُمَّ إلا حين تذهب مع أبي إلى جناح الاسـتحمام لينفردا هناك وقتاً طويلاً بعد أن يخلى المكان من كل أحد. أما داخل القصر فإن على من يصادفها أن يقف جانباً ليخلي لها الطريق وكأنه جندي صغير وقد صعق إذ وجد نفسـه فجـأة في حضرة القائد

(١) الرابة ـ زوجة الأب.

العام. وقد استطاعت بهذا الأسلوب أن تفرض نفسها على الجميع وفوق الجميع وأن تحفظ لها المقام السامي الذي تريده لنفسها. ولكننا ـ نحن الصغار ـ لم نكن نعدم وسيلة لإظهار تمردنا عليها، فقد كان العُرف الجاري في بيتنا أن نذهب ـ كل الأخوة والأخوات ـ إليها مبكرين صبيحة كل يوم لنلقي إليها بتحية الصباح ولكننا لكرهنا لها كنا نتعمد التأخير في الذهاب إليها حتى يحين وقت الإفطار الذي كان يقدّم عادةً في جناحها، وبهذه التصرفات الطفولية وأمثالها استطعنا أن نقلّل من الهالة التي كانت تريد أن تحيط بها نفسها. ومع كل هذا فإن الحق يقتضيني أن أعترف أن وجودها لم يكدّر كثيراً صفو الحياة وجمالها في بيت المتوني.

❁ ❁ ❁

وكان بعض كبار إخوتي وأخواتي يسكنون معنا في بيت المتوني وكان منهم من يكبرني بأجيال ومنهم من يؤهله عمره أو عمرها لأن يكون جدي أو جدتي. فمن ذلك مثلاً أن علي بن سعود ابن أختي الكبرى زينة كان يكبرني بعشرات السنين ولما رأيته لأول مرة وكنت دون السادسة من عمري كان الشيب قد تسلّل إلى لحيته وكان ابنه أكبر مني بسنوات وكانت أختي زينة قد عادت إلى السكن بدار أبيها بعد أن استشهد زوجها في إحدى حروب أبي.

وخلافاً للرأي الشائع في هذه البلاد فلم يكن في بلادنا تفضيل للبنين على البنات ولا أذكر أنني شهدتُ في حياتي أباً أو أماً فضلوا ابناً لهم على بناتهم لمجرد كونه ذكراً. فهذا الوهم الشائع في الغرب لا أساس له البتة، وإذا كان المشرع قد ميَّز البنين ببعض الحقوق في بعض الحالات ـ كحالة الميراث مثلاً ـ فإن هذا التمييز القانوني لا وجود له البتة في المعاملة البيتية للأطفال. ولكن كما يحدث هنا في ألمانيا أو في غيرها من بقاع العالم يحدث في ذلك البلد الشرقي أيضاً، وذلك بأن يختص أحد الأبوين أو

كلاهما ـ وبالسر لا بالعلن ـ أحد أطفالهما ـ ابناً أو بنتاً ـ بنوع من الحب والرعاية يفوق ما يخصّان به أولادهم الآخرين وهذه كما أراها عاطفة إنسانية طبيعية لا غبار عليها.

وهكذا كان الحال مع أبي، فقد كان طفلاه المفضلان اثنتين من بناته وهما أختاي شريفة وخولة، وفي مرة من المرات كنت ألعب مع أخي الحبيب حمدان فأصابني منه دون قصد سهم لم يسبّب لي والحق ألماً كبيراً، وحال ما وصل الخبر إلى علم أبي ـ ولا أعلم كيف ـ ناداني قائلاً:

ـ سالمة ابعثي لي بأخيك حمدان إلى هنا.

ولما وصل إليه حمدان كان جزاؤه منه تأنيباً قاسياً ظل يذكره على مدى الأيام.

❁ ❁ ❁

وكان أطيب مكان لنا في بيت المتوني هو المنظرة وكان اسمها الشائع بيننا هو البنجلة ولعله اسمها باللغة السواحلية. وتقع أمام القصر قرب شاطئ البحر، وكانت بناء دائري الشكل مفتوحاً من جميع أطرافه عظيم السعة بحيث تتسع مساحته لأية حفلة باليه تقام فيها لو أن هذا النوع من اللهو كان معروفاً عند قومنا. وكانت البنجلة بسقفها المرفوع فوقها كالخيمة تشبه إلى حد ما أرجوحة الخيل في مدن الألعاب، وكانت أرضيتها وسقفها ودرابزيناتها كلها من الخشب الثمين اللمّاع.

ولم يكن في البنجلة من الأثاث والمتاع شيء سوى العدد العديد من كراسي الخيزران ولعلني لا أبالغ إذا قلت أنها تبلغ عدة عشرات. وسوى منظار مكبر (تلسكوب) منصوب في طرف القاعة من جهة البحر كنا نستعمله للفرجة والتسلية، وكان منظر البحر من هذا المكان رائعاً أخاذاً.

وكان من عادة السلطان أن يقصد هذا المكان مرتين أو ثلاثاً في اليوم

لتناول القهوة فيه ومعه زوجه عزة بنت سيف والبالغون من ذريته ومن يتيسر من أُمهات أولاده.

ولانتظام أوقات حضـــوره إلى هذا المكان فقد كان مقصـــد أفراد العائلة ممن يريدون أن يكلموه في أمورهم الخاصة وعلى انفراد.

وكان يحلو لأبي العزيز أن يتمشـــى فـــي هذا المكان فـــكان يقضي فيه الساعات الطوال أطراف النهار يقطعه جيئة وذهاباً مقطب الحاجبين غارقاً في تأمّلاته وأفكاره، وكان يضلع بعض الشـــيء في مشـــيته من أثر شظية مدفع أصابته في إحدى حروبه واســـتقرت في إحدى فخذيه وأثقلت مشيته وكانت تعاوده منها بعض الآلام أحياناً[1].

وكان المركب الرحمانـــي، مركب والدي الخاص، رابضـــاً أمام البنجلة طوال العام ولم تكن له في الظاهر من وظيفة إلا إيقاظنا بمدافعه الهادرة في ليالي رمضان لتناول الســـحور، آخر وجباتنا الليليـــة، وإلا تزويدنا بالرجال الذين يجدفون لنا القوارب الصغيرة كلما أردنا القيام بجولة بحرية صغيرة.

وكانت هناك صارية شـــاهقة العلـــو تنتصب أمام البنجلـــة وترتفع عليها أعلام الإشـــارات البحرية التي ترشـــد الســـفن في قدومها وإقلاعها، والتي تُستعمل أيضاً لاستدعاء بحارة المراكب ونوتية السفن والقوارب.

أما بالنسبة إلى جناح المطابخ فكان شأنه شأن المطابخ في بيت الساحل يعجُّ بالعاملين فيه من مختلف الجنسيات وكانت أطباق طعامنا الشائعة تتنوَّع بين العربية والتركية والفارســـية والروســـية تنوع الأفواج العديدة من سكان هذين القصرين.

---

(١) اشتهر السيِّد سعيد بالجرأة والإقدام وبكثرة الحروب والمعارك. وقد أُصيب من جراء ذلك عدة مرات ببعض الجراح كان أهمها إصابته بشظية مدفع في معركة بني بو علي عام ١٨٢١ وهي التي تشير إليها المؤلِّفة وكان التهاب هذا الجرح من أسباب وفاته.

ولكن تعدد الجنسيات لم يؤثّر على اللباس فقد كان الزي العربي هو الزي الوحيد الذي يجب الظهور فيه في بيت المتوني، فإذا ما وصلت القصر شركسية بثيابها الوطنية المزركشة أو حبشية بزيها الفضفاض ذي الألوان الصارخة، كان عليهما أن يستبدلا بهما خلال ثلاثة أيام لباساً عربياً تقدّمه لهن إحدى أمينات القصر.

وكما أن مظاهر الجاه هنا أن تظهر المرأة بالقبعة والقفاز. فإن من مظاهر الحياة في بلادنا أن تتزين المرأة بالحلي والمصوغات، والواقع أن الزينة بالحلي عندنا أمر شائع إلى حد أن الشحاذات يضعن عليهن حليهن ومصاغهن وهن يقفن في منعطفات الطرق يستجدين المارة.

وكان أبي يحتفظ في قصريه في زنجبار وفي قصره في مسقط بعُمان بكنوز رائعة من الذهب واللؤلؤ والجواهر، فإلى جانب العملات الذهبية من جنيهات إنكليزية وفرنسية وإسبانية ونمساوية فقد كانت خزانته تعجُّ بالمجوهرات النسائية النادرة المثال والنفيسة الصنع من أصغار الأشياء إلى التيجان المرصعة بدرر الماس والأحجار الكريمة، وكانت هذه الكنوز محفوظة للإهداء والعطاء. وفي نطاق العائلة، وعدا عن هدايا الضيوف والزوّار والأغراض السياسية ـ فإذا ما زادت العائلة فرداً جديداً، زوجة جديدة كانت أَم مولوداً جديداً، انفتحت أبواب خزائن الكنوز لتخرج منها الهدايا النفيسة الثمينة التي تليق بالمناسبة وبمقام القادم الجديد.

وكان من عادة السلطان إذا ما وُلد له طفل جديد أن يزوره وأمّه في اليوم السابع حاملاً إليهما نصيباً مجزياً من هذه الهدايا ويكون حظ المولود في الغالب أجزل من حظ الوالدة. وكذلك كانت عادته مع زوجاته الجديدات فكن يمنحن نصيبهن من الذهب والجوهر والمال حال وصولهن القصر كما ويخصّص لهم كبير ناظري القصر السكن والخدم والضروريات الأخرى.

ورغم أن والدي كان يتوخى منتهى البساطة في ملبسه ومظهره فقد كان شديد التدقيق والحزم مع أفراد عائلته في هذه الناحية فلم يكن ليسمح لأحد من سكان القصر سواء كان من الخدم أم الأولاد أو الزوجات أن يظهر أمامه في غير كامل زيّه وزينته.

وقد كانت العادة لنا، نحن البنات الصغيرات أن تجدل شعورنا على شكل ضفائر صغيرة قد تبلغ العشرين عدداً في بعض الأحيان ثم تربط هذه الضفائر بأشرطة رفيعة ملونة، ثم تجدل نهاياتها في ضفيرة واحدة تتدلى من وسطها على قفانا القطع الذهبية الدقيقة الصنع والمفصصة بالأحجار الكريمة والجواهر النفيسة، وكانت التسريحة الأخرى، وهي الأجمل والأليق، أن تترك الضفائر ونهايات الأشرطة مدلاة على ظهورنا دون ضفر ويعلق في نهاية كل منها قطعة ذهبية قد حفرت عليها آية قرآنية، وكانت هذه الحلي تُرفع عن رؤوسنا أثناء النوم ثم تُعاد إلى مكانها في صبيحة اليوم التالي.

وكان من تمام الزي الرسمي لنا، نحن البنات الصغيرات، وحتى نبلغ سن الحجاب، أن نرتدي فوق فساتيننا المعتادة قميصاً فضفاضاً يغطي أجسامنا يصنع من قماش شفاف يطرّز أحياناً بخيوط من الذهب والفضة فيكشف عن جمال الفستان ولكنه يحجب مفاتن الجسم التي يظهرها الفستان عادة.

وفي صبيحة أحد الأيام غافلتُ مربيتي وتسللتُ من غرفتي خلسة دون أن أضع هذا القميص قاصدة مجلس والدي طمعاً في كميات الشيكولاته الفرنسية التي اعتاد أن يوزعها على أطفاله كل صباح. ولكني بدلاً من أن أتسلم الحلوى المرتقبة فإن والدي أومأ إلى أحد الخدم لإخراجي من الغرفة وقد حملني هذا الخادم وأعادني من حيث أتيتُ إلى مربيتي المرعبة. ومن يومها تعلمتُ أن لا أظهر في الحضرة الأبوية إلا بكامل زينتي ولباسي.

❁ ❁ ❁

وكان من بين صديقـات أُمي الحميمات أختي زجان وهي حبشـية الأم وتقارب أُمـي عمـراً واثنتان من زوجـات أبي همـا مدينة وسـارة وكانتا شركسـيتين مثل أمي وقد جاءتا من نفس البلد الذي جـاءت أمي منه. وكان لسارة طفلان يكبرانني سـنّاً هما ابنتها الكبرى خديجة وابنها الأصغر ماجد. وكانت أُمهما شديدة الحب لهما كثيرة التعلّق بهما، كما كانت تغمرني بحب وحنو وافرين وكانت أُمي من جانبها تختصهما بالحب والرعاية لا تفرّق بيني ـ أنا ابنتها الوحيدة ـ وبينهما، فنشأنا نحن الأطفال الثلاث وكأننا إخوة أشقاء.

وكانت سارة ضعيفة البنية معتلّة الصحّة تتوهم دوماً أن أيامها في هذه الدنيا لن تطول، وكانت كثيرة الهم على مصير طفليها من بعدها. ولهذا فقد تعاهدت وأمي على أنه إذا ما اخترمت المنية حياة إحداهما فـإن الباقية منهما على قيد الحياة ترعى أطفال الراحلة رعايتها لأطفالها كما كان شأنهما في حياتيهما.

وحين حان الأَجل ورحلت سـارة عن هذه الدنيـا كان ابناها قد بلغا من العمر سن الفتوة والإدراك بحيث لم يعودا بحاجة إلى رعاية خاصة، ومع هذا فقد وفت أمي بوعدها لصديقتها فأسـبغت على خديجة وماجد مثل ما كانت تسبغه عليّ من رعاية واهتمام.

❁ ❁ ❁

وكانت العادة فـي عائلتنا أن يبقى الأمراء ـ أي: الذكـور من أبناء أبي ـ تحت رعاية أُمهاتهم حتى يعلن عن بلوغهم سـن الرشد في الثامنة عشرة أو العشـرين من أعمارهم. وكان هذا الإعلان يتأخر حيناً أو يتقدَّم تبعاً لسـلوك الأمير ومقدار نضجه وحُسـن تصرّفه وتبعاً لرضى الوالد عنه ويتم بمراسـم تقليدية يترأسها السلطان وكبار القوم من وزراء وقضاة.

وكان الإعلان عن بلوغ الأمير مرحلة الرجال امتيازاً يتلهّف عليه الفتيان في بلادنا كما هو الحال في كل بلاد العالَم على حد سـواء، فهو يعني بلوغ

الفتى مرتبة الرجال وفي عائلتنا كان يعني إلى جانب ذلك استقلال الأمير في أموره وتملّكه داراً مستقلّة لسكناه يتبعها العديد من الخدم والحشم وعدداً من خيار الجياد عدا عن مكافأة شهرية مجزية تجري عليه طول الحياة.

وعلى هذا المنوال منح أبي أخي ماجداً هذا الامتياز وقد استحقه قبل السن المعتاد لدماثة خلقه وحُسن تصرّفاته. فقد كان مثال التواضع والخلق الكريم وقد كسب أخلاقه الرضية وطبعه السليم وعطفه الوافر محبة الجميع واحترامهم.

وبالنسبة لنا، أُمي وأنا، فما كان يمرّ أسبوع واحد إلا ويركب إلينا في حاشيته (فقد كان كأمه الراحلة يسكن بيت الساحل) ليؤدي التحية إلى أُمي ويتفقد أحوالنا ثم ينتقل ليشاركني ألعاب الطفولة وكأننا طفلان في سن واحد رغم أنه يكبرني بإثني عشر عاماً.

وفي أحد الأيام وصل إلينا ماجد وعليه علائم السعادة والغبطة وأنهى إلى أُمي بشرى رضاء الوالد عنه. فقد أعلن الوالد بلوغه سن الرشد ومنحه حرية التصرُّف ووهبه دارة خاصة به. وقد توسَّل إلى أُمي أن ننتقل للسكن معه وأخته في دارته الجديدة. كما أرسلت خديجة رسالة إلى أُمي بهذا المعنى.

ورغم تقدير أمي لأريحيته ودعوته ورغم ما تحمله من المحبة والود له ولخديجة فإنها رفضت أن تلبي رجاءه دون علم السلطان وموافقته ووعدته أن تفاتح والده بالأمر. ولكن ماجد اختصر الطريق ووفَّر على أمي هذه المتاعب فذهب لتوه إلى السلطان (كان يومها في بيت الساحل) وفاتحه بالأمر وأقنعه بفكرته فأقرّه أبوه عليها. ثم ما لبث أن عاد إلينا في اليوم الثاني حاملاً الإذن المنتظر. وهكذا أصبح انتقالنا من بيت المتوني أمراً مقضياً. وقد ظل ماجد ذلك اليوم يبحث الأمر مع أُمي وقتاً طويلاً حتى استقر رأيهما على تأجيل الانتقال أياماً معدودات ليتيسر فيها لنا جمع متاعنا وله ولخديجة تهيئة السكن الجديد وإعداده لقدومنا.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني
بيت الواتورو

لم تكن النقلة مـن بيت المتوني هيِّنة على أُمي، فعـدا عن كونها عزوفاً بطبعها عن التغيير والتجديد، فقد تعلّق قلبها بهـذا البيت الذي دخلته طفلة فصار منذ ذلـك الحين كل دنياهـا وعالمها ففيه قضت كل أيـام حياتها لم تخرج منه إلا لماماً ولزيارات نادرة قصيرة لا تتجاوز السـاعات المعدودات على مـدار العام. وقد ألفت العيـش في هذا البيت وأحبتـه كما أحبت أهله وأحبوها وشاطرتهم أفراحهم ومآسـيهم ومحضتهم صفو الودّ والولاء، وكان يعزُّ عليها أن ترحل عنهم وتفارق أصدقاءها في هذا البيت وهم كل أصدقائها في هذه الدنيا ولا سيما صديقتاها المفضلتان مدينة وزجان.

ولكن أُمـي ضحّت بكل هـذه المشـاعر ووأدت عواطفها الشـخصية ورضيت بالانتقال من بيت المتوني اعتقاداً منها ـ كما اعترفت لي فيما بعد ـ أنها قد تكـون في المكان الجديد أكثر نفعاً لخديجـة وماجد أولاد صديقتها الراحلة سارة. وأقدر ـ من ثم ـ على الوفاء بعهدها لها.

ولم يكن حزن أهل الدار على فراق أُمي بأقل من حزنهًا على فراقهم فما أن شـاع خبر رحيلنا عنهم حتى بـدأ العتب يأتيها من كل صوب والأسـئلة تنهـال عليها مـن كل صديق وصديقـة: «أحق أنـك مللت العيـش معنا يا

جيليفـــدان» (وكان هذا اســـمها) وقـــرّرت الرحيل عنا؟ ما الـــذي غيَّر قلبك نحونا؟» إلى آخر هذه الأســـئلة. وكان رد أُمي إليهم أن النقلة لم تتم بإرادتها وإنما هي قضاء من الله لا مندوحة عنه.

ولربمـــا تصدم كلمة «قضـــاء من الله» تفكيـــر بعض القراء فيمطون شـــفاههم سخرية أو يهزُّون أكتافهم استخفافاً بالفكرة وكاتبتها. وهؤلاء ولا شك ممن أغلقوا أبصارهم وبصائرهم دون عظمة الخالق المتجلية في الأرض والســـماء وتجاهلوا إرادته العليا معتقدين أن الصدفة لا غيرها هي التي تقرر مصائر الإنسان.

ولكن من الواجب أن يذكر هؤلاء القـــراء أن صاحبة هذه المذكرات إنما تروي هنا ذكرياتها عن الحياة العربية في البيوت العربية حيث لا وجود هناك البتة لكلمتي الصدفة والطبيعة، كما يجـــب ألا يفوت هؤلاء القراء أن الكاتبة قد وُلِدت ونشأت على دين الإسلام، والمسلم يؤمن بأن الله ليس هو الخالق والحافظ والقابض فحســـب بل هو العلي المهيمن المدبّر أيضاً وأنه لا يكون شيء إلا أن يشاءه وأن إرادته ـ لا إرادة الإنسان ـ هي العليا والسَّائدة في كل الأمور صغيرها وكبيرها.

ورغم لوعـــة الحزن واكتئاب الفؤاد فقد أنهينا فـــي بضعة الأيام المحددة استعداداتنا للسفر وأخذنا ننتظر عودة ماجد ليشرف بنفسه على رحلتنا. وكان يتملكني في هذه الفترة شعوران: شعور بالحزن لفراق لداتي ورفاق طفولتي وبالأخص أخي حمدان وأختي رولاب وشـــعور آخـــر بالفرح للخلاص إلى الأبد من معلمتنا الشديدة القسوة المرعبة الملامح.

وكان جناحنا خـــلال هذه الأيام أشـــبه ما يكون بخلية نحـــل كبيرة يعجُّ بالزوار المودعين بين غادٍ ورائحٍ، وكان كل مودعٍ يحمل معه من هدايا الوداع ما يتناســـب مع مقامه ودرجة عاطفته نحونا. وهدايا الوداع عادة شائعة عريقة

في بلادنا يقدّمها النـــاس إلى أصدقائهم عند الســـفر بل وحتـــى عند انتهاء الزيارات القصيرة. وما من أحد يســـتطيع إقناع العربـــي بالامتناع عن تقديم هديته إلى صديقه المســـافر مهما قلّـــت قيمتها. وأذكر بهذه المناســـبة أنني ـ وكنت لما أزل طفلة صغيرة ـ ذهبت مرة مع أُمي وجمع من النساء في نزهة إلى إحدى المزارع، ولما أوشكنا على مغادرة المكان وركوب زوارقنا للعودة إلى بيت المتوني أحســـت بيد تربت على كتفي بلطـــف فلما التفت ورائي وجدت زنجية عجوزاً تحمل بيدها صرة صغيـــرة ملفوفة بورق الموز قدمتها إليّ قائلـــة بهمس: «إنها لك يا ســـيدتي الصغيرة وهي أول شـــيء ينضح في مزرعتي» ولشدة فرحي أسرعت بنزع الأوراق لأجد داخلها رأس ذرة حديث الجني. ولم أكن أعرف هذه الزنجية العجوز ولكني علمت بعدئذٍ أنها كانت من خادمات أُمي. ولقد كانت هذه الهدية موضع فرحتي وابتهاجي وما زلت أسترجع ذكراها بالغبطة والسرور.

❁ ❁ ❁

وأخيراً وصل إلينا ماجد وأعلن أن سفرتنا ستكون في مساء اليوم التالي وأن أوامر أبي قد صدرت إلى قبطان الرحماني ليرسل إلينا مساء الغد مركبين شراعيين يخصص الأول لركوبنا والثاني للحراسة ونقل الحاشية والمتاع.

وكان يوم رحيلنا مليئاً بالحركة ووداع الأصدقاء. ومن حســـن الحظ فقد كان أبي في بيت المتوني يوم رحيلنـــا، ولربما تعمّد المجيء إليه ليودّع أُمي ويشـــرف بنفســـه على أمور الرحلة. وعلى كل حال فقد ذهبنـــا إلى البنجلة للتشـــرف بلقائه فيها، وقد كان فيها فعلاً وكان كعادتـــه غارقاً في أفكاره وهو يذرع المكان جيئة وذهاباً ولكنه ما أن رأى أُمي مقبلة عليه حتى تقدم نحوها واستقبلها هاشّاً باشاً ثم انغمســـا في حديث ودّي هامس أمر السلطان خلاله أحد القوم أن يقدّم لي الشربت وبعض الشـــيكولاته ولربما فعل ذلك ليقطع

عنه سيل أسـئلتي المتتابعة عن السـفرة وما إليها والتي كان يضطر من أجل إجابتي عنها إلى قطع حديثه مع أُمي.

ويستطيع القارئ ـ طبعاً ـ أن يتصور مقدار انفعالي وفضولي حول سفرتنا المرتقبة وعن بيتنا الجديد وعن المدينـة والحياة فيها بصورة عامة، فلم أكن حتى ذلك اليـوم قد رأيت المدينـة إلا مرة واحدة فقط ولفتـرة قصيرة جدّاً انقضى أكثرها بالسـلام علـى العدد الكثير الـذي كان ينتظرنـا من الإخوة والأخوات وزوجات الأب.

وبعد وداع السـلطان انتقلنا إلى جناح صاحبة الحول والعظمة عزة بنت سيف، حيث تنازلت بالوقوف على قدميها حين استقبالنا ووداعنا، وكان هذا منها شرفاً كبيراً لنا إذ أن عادتها أن تستقبل زوارها وتودعهم وهي جالسة في مقعدها. وزادتنا شرفاً إذ سمحت لنا أن نمس أناملها الدقيقة بشفاهنا، قبل أن ندير إليها ظهورنا... للمرة الأخيرة وإلى الأبد.

وبعد انتهائنا من وداع السـيّدة الكبيرة أخذنا نتنقل بين الأبهاء والأجنحة صعوداً ونزولاً لنودع سـاكنيها من أصدقائنا، ولكننا إذ لـم نجد إلا البعض القليل منهم فقد قرّرت أمي معاودة زيارتهم وقت الصلاة حيث يمكن رؤيتهم جميعاً على وجه التأكيد.

وفي الساعة السابعة مسـاء ألقى المركب الكبير المعد لنقلنا مراسيه أمام البنجلـة، وكان من مراكب أبي الخاصة ويقوده على ما أذكر عشـرة ملاحين عدا النوخذة ومسـاعديه. وترتفع علـى صاريته راية أبي وشـعاره وهو علم أحمر اللون خال من كل شـارة أو نقش. وفي نهاية المركب أعدت مقصورة للجلوس وهي عبارة عن مكان فسـيح تمتد فيه المفـارش الحريرية الأنيقة ويتسع لحوالي عشرة أشخاص وتغطيه مظلة واسعة ناصعة البياض لها أطراف

تنسدل عند الحاجة على جوانب المكان اتقاء للريح أو المطر أو تأميناً للسرية والانفراد.

وبعد دقائق من وصول المركب جاءنا جوهر العجوز ليعلن لنا بدء الرحلة. وجوهر هذا من قدامى الرجال في خدمة أبي، وقد أمره ورفيقاً له بمصاحبتنا في السفرة والإشراف على راحتنا خلالها. وقد ظل أبي طيلة الوقت في البنجلة يشرف من بعيد على ترتيبات السفر.

وإذ آن أوان الرحيل فقد ودعنا أصدقاؤنا وودعناهم بالقبلات التي تخالطها دموعنا الجارية وما زالت كلمات «الوداع... الوداع... مع السلامة» المنطلقة من حناجرهم التي خنقها الحزن والألَم ترن في أذني حتى اليوم.

❁ ❁ ❁

ولأن الماء كان ضحلاً قرب الشاطىء فقد رسى المركب بعيداً عنه بعض الشيء، وكان لا بد للعبور إليه من اختيار أحد سبل ثلاثة: فإما أن يحملك أحد الملاحين على ظهره عابراً بك الماء وإما أن تجلس على كرسي يحمله بك اثنان من أشداء الرجال فيخوضا الماء بالحمل النفيس الثقيل إلى المركب وإما أن تعبر سيراً على لوح خشبي يمتد من اليابسة حتى حافة المركب وهذا ما اختارته أمي وكان يسندها في سيرها أحد الخدم الكهول في حين رفعني بين ذراعيه خادم آخر ونقلني إلى مقصورة المركب إلى جانب أُمي وجوهر.

وكانت النجوم اللماعة في السماء والفوانيس الملونة في المركب تنعكس ظلالها على سطح الماء فتضفي على البحر منظراً ساحراً خلَّاباً. وما أن تحرك المركب حتى بدأ بحارته ترانيمهم الهادئة على إيقاع مجاديفهم في الماء، كما هي عادة الملاحين العرب. ولم نكد نترك الشاطئ حتى رحتُ في حضن أُمي في نوم عميق لا أدري أطال أم قصر ولكني أذكر أني أفقت منه

فزعة مذعورة على أصوات كثيرة تنادي باسمي لم أستطع أن أتبيّن مصدرها. فلما فتحت عينـيّ المثقلتين بالنعاس أدركت أن الرحلـة قد انتهت وأننا في سبيل مغادرة المركب.

وقد رسى المركب أمام بيت السـاحل القائم كما يظهر واضحاً من اسمه على ساحل البحر، وكانت شـرفته الكبيرة المطلةً على البحر مضاءة بأحسن زينة بالفوانيس الملونة، وكانت مكتظة بجمع حاشد من النساء والأطفال كانوا في الواقع غرباء علـيّ وإن أدركتُ على التو أنهم لا بـد وأن يكونوا إخوتي وأخواتي وزوجات أبي قد تجمعوا لمشـاهدتنا والترحيب بنا. وكان الأطفال منهم أصغر مني سناً وبالتالي فقد كان تلهفهم على التعرف بي أكثر من تلهفي إليهم، وحالما رأى هؤلاء الصغار وصول المركب وفي غمرة فرحهم بوصولي فقد أطلقوا حناجرهم الصغيرة بالنداءات التي أيقظتني من نومي.

وغادرنا المركب بنفس الطريقة التي صعدنا فيها إليه، وما أن وطأنا الأرض حتى انطلق إليّ إخوتي الصغار يحيونني بشـوق ووداد لم أكن أتوقعه ويلحون علينا لمصاحبتهم إلى دورهـم، إلا أن أمي اعتذرت لهم عن ذلك خشـية أن يؤذي هذا التصرّف خديجة التي كانت بدورها تنتظرنا في نافذة بيتها.

والحق أن قرار أُمي بمنعي مـن مصاحبة إخوتي على التو واللعب معهم قد حزَّ في نفسي، فقد كنت توّاقة إلى هذه اللحظة السعيدة التي طالما رسمت تفاصيلها في ذهني ولكنني لم أجرؤ طبعاً على مكاشـفة أمي بأفكاري لأنني أعلم علم اليقين أنها إن قرّرت أمراً فلن ترجع عنه، فرغم تفانيها المدهش في محبتهـا الوافرة لي، فقد كانت شـديدة الحزم صارمة العـزم قوية الإرادة لا تتسـاهل في الواجب أبداً، ولعلها قرأت أفـكاري وأرادت إرضائي فوعدتني بزيارة قريبة إلى بيت الساحل حالما يعود أبي إليه.

وعلى هذا مضينا في طريقنا إلى بيت الواتورو، بيت ماجد وخديجة ويقع بالقرب من بيت الساحل ويطل مثله على البحر، وقد استقبلتنا أختي خديجة عند مدخل الدار بالعناق والقبلات ورحَّبت بنا ترحيباً قلبياً لا شائبة فيه، ثم قادتنا إلى جناحها حيث دار الخدم علينا بأنواع المرطبات، في حين ظل ماجد وصحبه في غرفة الاستقبال ولم يدخل علينا إلا بعد أن استأذنت له خديجة من أمي، كما تقضي العادة بذلك. وما كان أروع سرور ماجد وأصدق عواطفه إذ تحقق له أن يضمّنا في بيته.

وقد خصصت لنا في البيت الجديد غرفة واحدة فقط ولكنها واسعة المساحة كاملة الفرش والأثاث على الطراز العربي المألوف فكانت في الواقع تفي بكل متطلباتنا، وكان أبرز ما تتسم به ملاصقة إحدى نوافذها لمنارة المسجد المجاور للبيت. وكان من عادة القوم ـ حتى أصحاب الثراء منهم ـ أن يكتفوا بغرفة واحدة. فالعادة هناك أن يرتدي الناس نفس الملابس ليل نهار، وكانوا لفرط اهتمامهم بالنظافة والطهر يستطيعون الاستغناء عن غرف خاصة للنوم.

وكان الطراز المألوف في ترتيب البيت لدى علية القوم كالتالي:

يغطي السجاد الفارسي أو البُسط الناعمة الدقيقة الصنع أرضية الغرف، وتقسم الجدران الناصعة البياض إلى فجوات مقوس أو مزخرف أعلاها ويفصل بين الفجوة والأخرى نتوء عريض من البناء، ويقطع الفجوة الواحدة عدد من الرفوف الخشبية خضراء اللون تصطف عليها أنفس آنية البلور والفخار وأثمنها. والعربي حريص على اقتناء أمثال هذه التحف وتزيين غرفه بها، لا يبخل من أجلها بالمال فإذا ما استهوته أو راقت في عينيه مزهرية أنيقة أو صحن نادر من الفخار الصيني أو كأس دقيق الصنع من البلور فلا يهمه ما يدفعه ثمناً لها ذلك لأن زينة الدار مقياس ثراء الرجل وعلو مقامه.

ويعتني عناية خاصة بالنتوءات بين الفجوات فتوضع عليها المرايا، وهي تطلب من أوروبا خصيصاً وحسب الأحجام والأبعاد، وتمتد المرآة من سقف الغرفة حتى مستوى الجلوس.

وتخلو الغرف عادة من الصور والتماثيل التي يحرّمها المسلمون لأن فيها تحدياً أو محاكاة لعملية الخلق التي ينفرد بها الخالق وحده، وإن كان التشدد في وضع الصور قد فقد حدته مع مضي الأيام. ولكن النقص في الصور تغطية وفرة كبيرة في عدد الساعات التي توجد في كل بيت بأعداد كبيرة وأنماط مختلفة وهي تعلق عادة في رؤوس المرايا وتوضع الصغيرات منها على الرفوف.

ويحرص الرجال على تزيين غرفهم بالأسلحة التذكارية الثمينة كالبنادق والسيوف والخناجر سواء منها العربية أم التركية أم الفارسية وتزداد قيمة هذه الأسلحة طبعاً، ويزداد بالتالي افتخار العربي وتيهه بها ما إذا كانت مما غنمه هو أو آباؤه في الحروب.

ويقوم في غرفة النوم سرير كبير مصنوع عادة من الخشب الغالي ومزيَّن بنقوش محفورة من صنع الهند. ويغطي السرير من جميع نواحيه بكلة من التول أو الموسلين الناصع البياض. وللسرير قوائم عالية ترفعه عن الأرض عالياً بحيث لا يستطاع الوصول إلى الفراش إلا بالصعود على كرسي يوضع بجوار السرير أو بالاستعانة بإحدى الخادمات ويستغل الفراغ الموجود تحت السرير لأغراض المنام أيضاً بالنسبة إلى مربيات الأطفال أو ممرضات المرضى.

ويندر وجود الموائد في البيوت العربية باستثناء سراة القوم، وعلى العكس من ذلك فإن الكراسي متوافرة أعداداً وأنواعاً. وكذلك لا وجود لخزانات الملابس ودواليبها في الغرف العربية ويُستعاض عنها «بالسحارات» وهي صناديق كبيرة ضخمة لها أدراج متعددة وتحتوي على مخبأ سرّي لوضع

النقـود والحلي، وقد تجد فـي الغرفة الواحـدة أعداداً من هذه السـحارات مرصوفة إلى جدران الغرفة، وبعض هذه السـحارات مصنـوع في الهند من خشب نفيس تزينه النقوش المحفورة وبعضها من صنع محلي أو مجلوب من عُمان ويمتاز بأصباغه البدائية المتناسقة وجميعها تقريباً مزيَّنة بمسامير نحاسية صفراء ذات رؤوس مدوَّرة كبيرة وقد صفت على أشكال الأهلَّة والنجوم.

وثمة ظاهرة غريبة في بلادنـا وهي أن النوافذ والأبـواب تُترك مفتوحة طول الوقت إلا في حالات المطر، ولهذا فإن تعبير «التعرُّض لتيار الهواء» لا معنى له في تلك البلاد.

❁ ❁ ❁

ولم يرق لي مكاننا الجديد أول الأمر، فقد بـدا لي بيت الواتورو ضيقاً ممـلاً بمقارنته إلى بيـت المتوني. وقـد افتقدت في البيـت الجديد لداتي وأقراني من أخوة وأخوات وأصدقاء، كما افتقدت في البيت الجديد ساحات اللعب الكثيرة الواسـعة في بيت المتوني، وأكثر من هـذا وذاك فقد افتقدت نهر المتونـي الجميل الهادئ الذي كنت أسـيّر في سـواقيه العديدة زورقي الشراعي الجميل والعزيز إلى نفسي، فليس في البيت الجديد أو حواليه نهر أو ما أشـبه وكان الماء يأتيه من بئر في جانب القصر. ولطالما سـألت أمي «متى نعود إلى بيتنا القديم؟ وهل سـنبقى هنا إلى الأبد؟ وهل كتب علي أن أسـيّر قاربي في حوض الغسيل؟» ولأني كنت شـديدة الكلف بهذا الزورق فإني لم أسـمح لأُمي الطيبة الحنون التي تريد دومـاً أن تعطي الغير كل ما عندها، عندما طلبت إليّ قبل رحيلنا أن أهدي هذا الزورق الجميل إلى أحد إخوتي في بيت المتوني.

وبالإجمال فقد مررت بتجربة نفسـية جديدة لم أعرفها من قبل وأحسسـت

بالضيق والضجر، أما أمي فقد كانت في أحسن حالات طبعها الرضي دوماً، وقد انغمست مع خديجة في إدارة وشؤون الدار حتى لم أعد أراها في النهار إلا لماماً.

ومن الجانب الثاني فقد كان أخي الحبيب ماجد كثير الرعاية لي والاهتمام بأموري، فقد اصطحبني بعد وصولنا بأيام قلائل وطاف بي جميع أنحاء بيته يريني أقسامه ومحتوياته وكان يبدو مسروراً مزهواً به، ولكني لم أرَ فيه ما يثير إعجابي، فقد كان تعلقي وإعجابي ببيت المتوني يغشيان على بصري وفكري، وكنت شديدة الإلحاح على أمي بالعودة إليه وإلى ملاعبي ولداتي الأحباء على قلبي ولكني كنت أعلم أنه طلب مستحيل التنفيذ من أمي وخصوصاً وأنها أصبحت فعلاً ذات نفع وفائدة في البيت الجديد.

وقد سرني أن أجد في أخي ماجد شخصاً محباً للحيوانات ويقتني مجموعات نادرة منها، وكانت تعجبني منها مجموعة الأرانب البيضاء، وبقدر ما كانت مصدر أنسي وابتهاجي فقد كانت مصدر إزعاج وتذمُّر لأُمي وخديجة لما يسببونه للدار من أضرار. وكان لدى ماجد مجموعة من ديوك الصراع جمعها من مختلف أقطار الأرض لم أَرَ مثلها عدداً وأنواعاً حتى في حدائق الحيوان في أوروبا.

وقد اعتدت مصاحبته إلى زيارة الحيوانات وقد قبل بكل طيب خاطر أن أشاركه في هواياته ومسراته هذه، ولم يمض عليّ وقت طويل حتى جمعت لنفسي ـ نتيجة لطفه وكرمه ـ عدداً من ديوك القتال خفّفت عليّ حياة الوحدة في بيت الواتورو وجعلتها أسهل احتمالاً. وكنا في كل يوم تقريباً نأمر العبيد أن يطلقوا سراح الديكة من أقفاصها فنستعرض أبطالها ونشهد بعض النزالات بينهم قبل أن يعود بهم العبيد إلى الأقفاص ثانية.

وليس صراع الديكة بالهواية السخيفة، كما قد يبدو للبعض. فإنه عرض

مسل يشد انتباه المتفرج ويثير حماسه وينتهي في الغالب نهاية كوميدية مبهجة.

واشتدت بعد ذلك الألفة بيني وبين ماجد فأخذ يعلّمني المبارزة بالسيف والرمح والخنجر، كما كنا نخرج إلى بعض المزارع لنمارس الرمي بالبندقية والمسدس رغم عدم رضى الوالدة التي لم تكن لتقر أعمال المبارزة والرماية وتخشى مغبتهما عليّ ولكني كنت أفضل هذه الهوايات الرجالية على قضاء الوقت الطويل في أعمال الإبرة والخياطة.

ولم أغفل في أثناء هذا كله دروس الفروسية، فقد أمر ماجد عبده سروراً أن يستمر في تدريبي عليها. ومما زاد تعلّقي بهذه الهوايات أنها اقترنت بتحرري ـ مؤقتاً ـ عن الدروس إذ لم يعثر في البيت الجديد على معلمة جديدة لي، فساعد هذا كله على انتعاش معنوياتي واستعادة بهجتي وزوال انقباضي الأول من بيت الواتورو شيئاً فشيئاً.

وإذ لم يعد لأُمي ـ كما قلت من قبل ـ وقت كثير لتخصيصه لي لانهماكها الزائد مع خديجة في شؤون الدار، فقد تعرفتُ إلى فتاة حبشية اسمها نورين وتوثقت علاقاتنا إلى حد كبير وقد تعلمت منها بعض مبادئ اللغة الحبشية التي نسيتها الآن كل النسيان.

على أننا لم نفقد صلتنا ببيت المتوني كلية، فقد ظللنا على اتصال دائم بأهله، نزورهم ـ ولكن لماماً ـ فيستقبلنا أصدقاؤنا القدامى بأصدق عواطف الودّ والترحاب، إلا أن صلتنا الدائمة بهم كانت عن طريق الرسائل الشفوية التي ينقلها العبيد بيننا وبينهم. والناس في الشرق لم يتعودوا على كتابة الرسائل حتى وإن أتقنوا الكتابة والقراءة وإنما يستخدمون عبيدهم لتبادل الأخبار بينهم سواء العائلية منها أم أمور الدولة المتعلقة بالحروب وتنقلات الجيوش أو المفاوضات، وقد قلت من قبل إن من مظاهر الرئاسة والجاه في تلك البلاد أن يمتلك المرء أكبر عدد ممكن من العبيد الذين يكون بينهم

عدد من العدائين الممتازين الذين يستطيعون أن يطووا أطول المسافات في يوم واحد وهؤلاء هم نقلة الرسائل والأخبار من مكان إلى آخر حسب ما يأمرهم به سيدهم. ومن البداهة أن يحظى هؤلاء بعناية سيدهم ورعايته وأن يخصهم بمعاملة خاصة في المآكل والمشرب تفوق ما يتمتع به أقرانهم العبيد الآخرون فعلى مقدار كتمانهم للأخبار ودقتهم في نقلها تتوقف خطط سيدهم ومشاريعه وبالتالي يتوقف مستقبله كله، ناهيك بما تمتلىء به جعبتهم من أسرار البيوت وأخبار العوائل. وكم أدت خيانة أمثال هؤلاء بدافع الحقد والانتقام أو الرشوة والإغراء إلى هدم صداقات طويلة، وإلى حدوث كوارث وبيلة. وهذا ما أدى بالبعض من رجالات البلد إلى تعلم الكتابة والقراءة ليستغنوا بهما من أمثال هؤلاء العدائين.

❁ ❁ ❁

وقد كشفت لي حياتنا الجديدة عن مقدار كلف أختي خديجة بالحياة الاجتماعية واستقبال الزائرات، فقد كان بيتنا يعجُّ بهم مثل خلية النحل، فلا يكاد يمرُّ يوم واحد في الأسبوع دون أن يمتلأ الدار بأفواج الزائرات يصلن ابتداءً من الساعة السادسة صباحاً ولربما استمر مكوث بعضهن إلى منتصف الليل. وكانت الخادمات يستقبلنهن عند وصولهن المبكر ويقدنهن إلى جناح خاص حيث ينتظرن هناك حتى تستقبلهن ربة الدار في الساعة الثامنة أو التاسعة صباحاً وكن يقضين فترة الانتظار هذه بالنوم تعويضاً عما فاتهن منه نتيجة النهوض المبكر.

ومع أن علائق الود والتفاهم بيني وبين أخي ماجد كانت تزداد وثوقاً وعمقاً إلا أنني لم أستطع أن أحس نفس العاطفة تجاه أختي خديجة، فقد كانت أخلاق هذين الشقيقين متباينة تبايناً كبيراً، ولم يكن من الصعب، لا علي فحسب، وإنما على كل من عرفهما من قرب، أن يلاحظ هذا الفرق بين

الأخوين وأن يعـــرف من منهمـــا أكثر ودّاً وبشاشـــة وأكثر اســـتحقاقاً للمحبة والاحترام. فعلى حين كان ماجد مثال الطيبة والتواضع والتسامح كانت خديجة حادة الطبع قاســـية كثيرة التفقد للأخطاء والانتقاد لها مُحبة للسيطرة والظهور وكان كل ما ومن هو أجنبي يثير ريبتها واشـــمئزازها. وعلى الرغم من ضيافتها المشهورة فقد كانت تتضايق حين تطلب منها سيدة أجنبية موعداً للزيارة رغم أن أمثال هذه الزيارات لم تكن تطول لأكثر من نصف ساعة أو أربعين دقيقة.

ومع هذا كله فيقتضي الحق أن أعترف بأنها كانت ربة بيت نشطة مدبرة ذكية، دؤوبة على العمـــل لا تعرف الراحة والبطالة لحظـــة واحدة في اليوم، وكانت إذا توفّر لها فراغ من الوقت أشـــغلت نفسها بتطريز ثياب أخيها ماجد أو خياطة الملابـــس لأطفال خدمهـــا، وكنت أعرف ثلاث إخـــوة من هؤلاء الأطفال هم سالم وثاني وعبد الله وكان أبواهم يشـــتغلان في القصر، وكانوا لطافاً محبوبين، ومع أنهم كانوا أصغر مني سنّاً بكثير ولكن لعدم وجود من هم في مثل سني في البيت فقد نشأت بيني وبينهم صداقة متينة استمرت إلى أن تعرفت أخيراً على بقية إخوتي وأخواتي في بيت الساحل.

❁ ❁ ❁

مدينة مسقط في القرن السابع عشر، كما تخيلها الرحالة الهولندي جان ستريوس

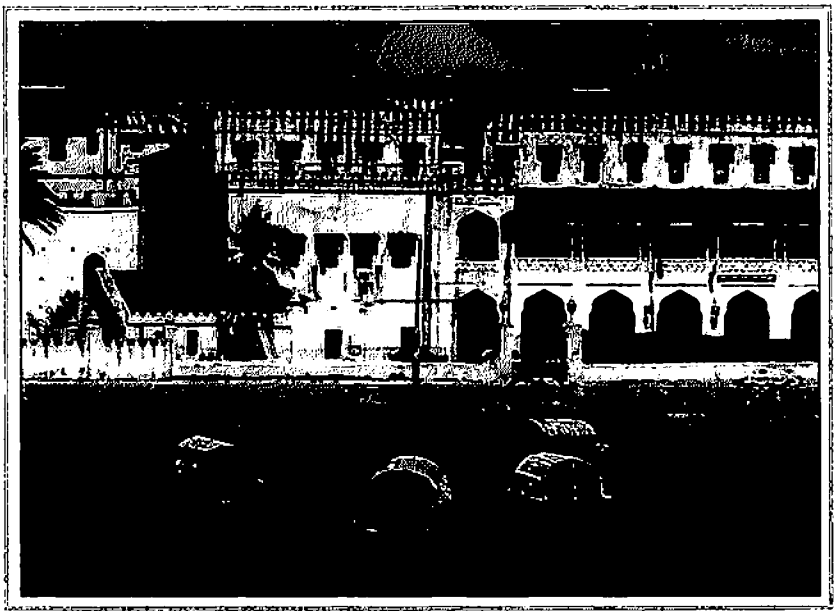

بيت الساحل

الفصل الثالث
بيت الساحل

وأخيراً حلَّ اليوم الموعود الذي كنت أنتظره بأشـد اللهفة والشوق، يوم ذهابي ـ مع أُمي وخديجة ـ إلى بيت الساحل لنقضي فيه يوماً كاملاً هو يوم الجمعة، وهو يوم العطلة الأسبوعية عند المسلمين.

وقد تركنا دارنا مبكرين في حوالي السـاعة الخامسـة والنصف صباحاً وسرنا ملتفين بعباءاتنا السود، ولم تكن الرحلة طويلة ولا الهدف بعيداً وإنما هي خطوات قليـلات تناهز المائة ثم كنا عند البوابة الكبرى لبيت السـاحل حيث كان يقف عليها سعيد النوبي حارسـاً وهو عجوز عبوس قمطرير ضن علينا ببسـمة حلوة أو كلمة طيبة في حين ابتدرنا بأنواع الشـكوى وأصناف التذمر، ومدارها أنه لم يزل منذ مطلع الفجر مسـتمراً في وقفته الرسمية هذه يستقبل الوافدات على القصر ويرد على أسئلتهن.

ولسـعيد النوبي هذا ـ كما عرفـت من بعد ـ دالة خاصة على سـكان القصر، فهو من عبيد أبي القدامى الأوفياء، وقد هَرِمَ وابيضت لحيته الطويلة في خدمة مجيدة مشـرِّفة لأبي، وقد تعمدتُ ذكر اللحيـة الطويلة لأن من عادة العرب حلق شعر الرأس وإطلاق اللحى، وكان أبي يخص خادمه هذا

بعطف خاص ومعاملة متميزة ملحوظة لا لطول خدمته له فحسب بل وأيضاً لأنه استطاع يوماً ما أن يحول دون إقدام أبي على عمل متسرع كان سيندم عليه طول حياته لو لم يحيطه هذا النوبي الوفي، ذلك أنه في لحظة من لحظات الغضب العارم شهر أبي سيفه ليفلي به شخصاً عزيزاً عليه أثار غضبه، ولكن هذا النوبي بوفائه وجرأته استطاع أن يمسك السيف في يد أبي ويحول دون نزوله على رأس ذلك الشخص وبالتالي أن يحول دون وقوع الكارثة.

وقد حفظ له أبي جميل وفائه هذا وحباه بالمزيد من العطف والتقدير.

ولكن أين لنا نحن الصغار الأشقياء أن نقدّر للعمر مقامه أو نلقي بالاً إلى ماضي هذا الحارس العجوز وحسن بلائه!! لذلك فقد كان سعيد العجوز هدف شقاوتنا الصبيانية في ساعات اللعب الصاخب نركبه بأنواع الحيل والمكائد وكنا ـ على وجه الخصوص ـ مولعين بنشل المجموعة الكبيرة لمفاتيح القصر منه وإخفائها في أركان القصر ودهاليزه وغرفه لنضحك بعدئذٍ ونحن نشاهد هذا العجوز الوفي ينقب في كل ركن وزاوية من أركان القصر في التفتيش عنها وهو شارد اللب زائغ البصر وكأن بلية عظمى قد وقعت عليه، وأظن أن ما من ركن في غرفة من غرف بيت الساحل الكثير عددها إلا وخبأت فيه المفاتيح هذه يوماً ما. وكان لأخي الأصغر جمشيد قدرة فائقة على إخفاء المفاتيح في أماكن يتعذر علينا، نحن رفاقه في اللعب والمؤامرة، أن نعثر عليها.

❁ ❁ ❁

وقد صعدنا أول وصولنا بيت الساحل إلى الطابق الثاني منه حيث وجدنا

النسوة وكلهن في عمل دائب وحركة ناشـطة في حين كان العبدة المتدينون من أهل الدار يؤدون صلاة الصباح بعيديـن عن الأنظار، ولم يكن للاقتراب منهم من سبيل فالمسـلم حين يؤدي صلاته ينقطع كلية عن العالم الخارجي وما من أحد يجرؤ على أن يقتحم عليه خلوته ويقطع صلاته حتى ولو اشتعل البيت ناراً.

وكانت زيارتنا لهذا البيت قد رسمت وأعدت بحيث تتفق مع وجود أبي فيه، بل الواقع أن وجوده هذا كان سبباً في وجود حشد هائل من الزائرات في بيت الساحل ذلك اليوم.

ويجب ألا يظن أن كل هاته النسوة كن من أصدقائنا ومعارفنا، فالصحيح غير هذا تماماً، فالكثيـرات منهن غريبات علينا بالمرة وقـد وفدن من بلدنا الأول عُمان لطلب الرفـد والعون من أبي الذي كان يحقـق لهن أملهن فيه، فوطننا الأُم عُمان بلـد فقيرة، وكذلك حال أقاربنا هنـاك. وما بدأ الثراء عند أبي إلا بعد استيلائه على جزيرة زنجبار.

وإذا كان العُرف الاجتماعـي في بلادنا يمنع المرأة عـن مقابلة الرجال الأغراب عنها، فإنه يسـتثني من ذلك حالتيـن اثنتين هما مقابلة السـلطان ومقابلة القاضي. والسـبب هو أن هاته النسوة يجهلن الكتابة فلا يستطعن أن يرفعن ظلاماتهن كتابـة، لهذا لم يبق لهاته المعـوزات أو المظلومات إلا أن يحضرن بأنفسـهن لشـرح أوضاعهن شـفاهاً وإن كلفهن هذا مشـقة النقلة القصيرة من آسـيا إلى أفريقيا. وفي كل الأحوال فقد اعتاد أبي أن يسمع هذه الظلامات ويبـت فيها ثم يكـرّم أصحابها أو صاحباتها، كل حسـب وضعه ومقامه، دون أن يحرج السائلين بالتحري الدقيق عن حقيقة حاجتهم كما هو الحـال في أوروبا لأن مـن المفروض عندنا أن السـؤال مـن الغير مصدره

الحاجــة الفعلية وهو ليس تســلية ولا لهــواً وما من امرئٍ يريــق ماء وجهه بالسؤال إن لم يكن محتاجاً إليه فعلاً.

❁ ❁ ❁

وكان لقاء الأخوة والأخوات لي ـ من ســبق أو لم يسبق لي معرفتهم من قبل على حد ســواء ـ غاية في الود الخالص والترحاب القلبي العظيم وكان أبرزهن في هذا أختــي الحبيبة خولة، العزيزة ذكراها علــى قلبي إلى الأبد، وكانت عواطف قلبي الصغير مكرسة كلها حتى ذلك الوقت إلى أُمي الحبيبة فقط، ولكني مــا أن تعرفــتُ على ملاك الحســن خولة حتى ســلبتني لبي فأشركتها مع أُمي حب قلبي وصارت معبودتي ومثالي.

ولم أكن فــي هذا بدعاً بين الآخرين والأخريــات، فقد كانت خولة دون منازع فريدة عائلتنا الكبيرة بالحسن والجمال وكانت الابنة المفضلة عند أبي السلطان ســعيد، وعلى الرغم مما يحمله بعضهن نحوها من الغيرة والحسد فقد كانت محط إعجــاب الجميع وحبهــم ومضرب المثل فــي فتنة الوجه الجميل وســحر العيون النجل. فما من منصف غير حاسد أو حاقد نظر إليها إلا وبهــره جمالها الفتان وحســنها الأخاذ. وأين تجد في هــذا العالم من لا يستهويه جمال الطلعة البهية ولا تصرعه سهام العيون النجل؟ وإن وجد مثل هذا الإنســان المنحرف فلم يكن على كل حال ممن يضمهم بيت الســاحل آنذاك.

والواقع أن شــهرة خولة لم تقتصر على بيت الساحل وحده وإنما تعدّته إلى الجزيرة كلها ثم إلى الوطن الأُم عُمان، فكانت فعلاً وحقاً مضرب المثل وحديث المجالس حيثما ذكرت صباحة فتنتها الوجــوه وفتنة العيون. ورغم اشتهار النساء الشرقيات كما هو معروف، بجمال العيون، إلا أن خولة لتفوقها

عليهن بالنور الصافي المنساب من مقلتيها، كانت باتفاق الجميع تسمى نجمة الصبح.

وكان لهذا النور المشع من عينيها على حسنه وسناه، سحر لا يُقاوَم فكان يصعق كل من يراه ويسلب لبه كما حدث بالفعل مرة لأحد الرؤساء القادمين إلينا من عُمان فقد صعقته بنظرة منها فأذهلته عن أمره حتى أوشك أن يودي بحياته وهو مأخوذ بسحر فتنتها ساهٍ عما فعله بنفسه، ففي خلال مبارزة بالرماح كانت تجري أمام بيتنا لمحها الرئيس العُماني في شباكها فسحرته عيناها وبهره حسنها فتسمر في مكانه ذاهلاً عن كل ما حوله ومن حوله من أشياء وأشخاص، وتعلقت عيناه بالنافذة يحاول أن يستجلي المزيد من هذا النور الرباني. وفي غمرة هذه الصبابة والتجلي الوجداني ركز ـ دون شعور منه ـ رمحه في أحد قدميه دون أن يحسّ بالدم النازف منها أو يشعر بالألم، ولو لم يوقظه أحد إخوتي من نشوة حلمه اللذيذ لأودى النزيف بحياته.

❁ ❁ ❁

ومع أن بيت الساحل أصغر بكثير من قرينه بيت المتوني إلا أنني كنت أحسُّ بروح من البهجة والانشراح تغمر هذا المكان فيبدو ضاحكاً مشرقاً، ويعكس ذلك على وجوه سكانه فترى آثار البشر والسرور بادية عليها دوماً.

وقد زاد في إشراق هذا البيت وانشراحه شرفته الجميلة التي لم أرَ في حياتي أوسع ولا أروع منها. فقد كانت غرف الجلوس في بيت الساحل، وكلها تقع في الطابق الثاني ـ تنفتح جميعها على شرفة فسيحة واسعة ترتكز على أعمدة ترتفع في أرض القصر إليها ثم تتعداها إلى السقف الواسع العالي الذي يظللها وقد علقت في الشرفة عشرات العشرات من المصابيح الملونة التي إذا ما أضيئت ليلاً بدا القصر وكأنه قصر جنية من جنيات

الأساطير. وكانت هذه الشرفة محل جلوس القوم ومكان تجمعهم ليل نهار، وكانت الكراسي الوثيرة تنتشر فيها بأعداد وفيرة. وكان الجالس في هذه الشرفات يطلُّ على حركة السفن الكثيرة في الميناء غير البعيد وعلى مناظر البحر الخلابة الممتدة امتداد البصر والتي ما أزال حتى اليوم مأخوذة بسحرها وروعتها.

أما إذا أطلَّ الجالس ببصره من خلال الدرابزينات المحيطة بالشرفة إلى ساحة القصر فإنه يجد تحته أغرب بقعة في الأرض كثرة ازدحام بالناس وشدة صخب وضجيج وكثرة حركة وعمل. فهناك أولاً السلمان الكبيران اللذان يصلان الساحة بالطابق الثاني، والحركة عليهما صعوداً ونزولاً دائبة مزدحمة ولا تهدأ ليل نهار، عدا عن الأعداد الغفيرة من الناس التي تزدحم في نهايتي كل سلم تنتظر دورها في الصعود أو النزول ولا تصل إليه إلا بعد مشقة وطول انتظار.

وفي ركن غير بعيد من الساحة تزدحم أعداد كبيرة من الأغنام والأبقار والجمال حيث يتولاها الجزارون بالذبح والسلخ والتنظيف ثم ينقل العبيد هذه الكميات الوافرة من اللحوم إلى المطبخ القريب لإعدادها طعاماً لسكان هذا البيت، ولا توجد في زنجبار محلات لبيع اللحوم، وإنما يقوم كل بيت ـ ومنهم بالطبع بيتنا ـ بتأمين ما يحتاج إليه من اللحوم بهذه الطريقة مع اختلاف الكميات طبعاً حسب الحاجة والمقام.

وفي مكان آخر من الساحة تجد صفّاً طويلاً من الزنوج الأشداء حالقي الرؤوس، وهم الموكول إليهم بجلب الماء إلى القصر. وقد طرحوا جرار الماء أرضاً واستراحوا إلى جنبها بكل كسل واسترخاء غير مكترثين لنداءات الاستعجال الآتية إليهم من كل صوب. ولكنهم ما أن يروا على البعد رئيس

الخصيان ملوحاً لهم بسوطه الجلدي الغليظ حتى يهبوا على أقدامهم منطلقين إلى غايتهم بسرعة البرق وعلى ظهورهم حمولتهم من الماء.

ويقوم المطبخ وعدته وعدده في ركن آخر مكشوف في الساحة نفسها والدخان الكثيف يتصاعد منه عالياً ثم تذروه الرياح إلى حيث تهوى وتريد. والنظام السائد في المطبخ هو الفوضى الدائبة والشجار المستمر بين العدد الغفير من الطباخين العاملين فيه من كلا الجنسين. وتهدأ الفوضى لحظات قصاراً حيث يظهر أحد المردة المقيمين على شؤون المطبخ فينهال بالكلمات والصفعات يمنةً ويسرةً فيستتب النظام برهة قصيرة ثم ما تلبث الفوضى أن تعود سيرتها الأولى حالما يختفي ذلك الرئيس المارد.

وتقابل هذه الفوضى الصاخبة في المطبخ وفرة الطعام المنقول إليه كل يوم ومن كل حدب كميات وأصنافاً. فاللحوم تنقل إليه كما رأينا بالأطنان أما الأسماك فتُنقل إليه بعشرات السلال، وبالإضافة إلى هذا فغالباً ما يرى المرء السمك الكبير ينقل إلى المطبخ ينوء بحمل الواحدة منها اثنان أو ثلاث من أشداء الرجال. أما الدجاج والبط وغيرهما من أنواع الطيور فتشترى بالعشرات. وتتكدس في المطبخ مئات الأكياس التي تحتوي على السكر والرز والحنطة والطحين. كان الزبد يأتينا من الشمال من جزيرة سومطرة في قنانٍ زنة الواحدة منها قنطار انكليزي، وكانت التوابل هي المادة الوحيدة التي تُقاس بالغرامات. وتفوق كل ما تقدّم، كمية الفواكه التي يستوردها القصر، ففي كل صباح يصل القصر ثلاثون أو أربعون أو خمسون رجلاً يحملون على رؤوسهم أقفاص الفواكه بالاضافة إلى ما تحمله إلينا الزوارق من المزارع البعيدة داخل الجزيرة أو خارجها. (وأقدّر كمية الفواكه التي ترد القصر يومياً بحمولة عربة قطار كاملة، وهذه الكمية تتضاعف في موسم

الامبة (المانجو)، ولكن معظم هذه الفاكهة يصيبها التلف قبل أن يذوقها أحد فالعبيد الموكلون بنقلها مهملـــون جدّاً فهم يرمون حمولتهـــم منها من فوق رؤوسهم إلى الأرض رأســـاً فيتلف بعض منها في حين يتلف قسم آخر منها نتيجة تكديس بعضها فوق بعض.

وكان الجالس في الشرفة من بعيد يشهد نجائب الخيل تمرح فوق رمال البحر، فقد كان القصر محاطاً من جهة البحر بســـور طويل يمتد امتداد ساحة القصر الواسعة ولم يكن السور على علوٍ كبيرٍ ولكن سمكه يبلغ الاثني عشر قدماً تقريباً. وفي ســـاعات الجزر، تُطلق الخيول على ســـاحل البحر لتتمتع بالجري واللعب على رماله. وكان أبي شديد الولع بخيوله العُمانية الأصيلة. فكان يســـتعرضها ويتفقدها يومياً، وكان إذا علم بمـــرض أحد الخيول هرع بنفسه إلى الاصطبل وأشرف بنفسه على علاج الجواد ولا يترك المكان حتى يطمئن إلى النتيجة، وليس في هـــذا الأمر من غرابة فاعتـــزاز العربي بخيله تقليد عربي أصيل.

وقد ورث أخي ماجد هذا الولـــع عن أبيه واذكر عنه اعتـــزازه بفرسٍ له شهباء اسمها «الكحلة» وكان همّه أن تلد مهراً أصيلاً جميلاً مثلها من أحسن الآباء الذي انتقاه لها من أصائل خيله وصار ينتظر الولادة بفارغ الصبر. ولما قاربت أيام الوضع أمر جميع الخدم بوجـــوب إخباره بعملية الوضع في التو وفي أي ساعة من ساعات الليل والنهار. وبالفعل فقد أيقظنا السائس مرة بعد منتصف الليل بساعتين لنسمع البشـــرى السارة، وطبيعي فإن حرص السائس على الاســـراع بنقل الخبر إلينا لم يكـــن دافعه الدقة في تنفيذ أوامر ســـيده فحسب، بل وكذلك التلهف على تســـلم الهدية المجزية التي تنتظره في مثل هذه المناسبات والخشية من أن يسبقه غيره بالبشرى فالعطاء.

ولهذه القصة أمثال وأشـــباه لا تعد، وما يروى في وطننا الأُم عُمان وفي شبه الجزيرة العربية عامة من هذه القصص يفوق بمراحل كثيرة ما لدى قومنا في الجزيرة منه، ويعتز الرجـــال بتعدادها وتكرارها لأن حب الخيل واقتناءها مفخرة من مفاخر عرب البادية فالحصان عند رجل البادية عدة حرب وواسطة انتقال ورمز ثروة ومظهر جاه.

❁ ❁ ❁

كان أبي عند وصولنا بيت الساحل في جملة المصلّين وكان لشدة ورعه وتقاه يطيل الصلاة فكان علينا من أجل السلام عليه ـ وهو أول المراسم طبعاً وأحبها إلى قلوبنا أيضاً ـ أن ننتظره حتى يتم صلاته.

وما انتهت الصلاة حتـــى توجهنا إلى جناحه لتقبيل يديه والســـلام عليه ولتناول طعام الفطـــور معه. وكان أبي بشوشـــاً ودوداً كعادته وقد اجلســـني بجانبه وسألني:

والآن يا ســـالمة هل مـــا زلت تريدين العـــودة إلى بيـــت المتوني أم أن الجماعة هنا قد تعودوا على إعطائك حساء الحليب؟

وفي حوالي الساعة التاسعة والنصف أو العاشرة حضر اخوتي الكبار من أجنحتهم لتناول طعام الافطار مع أبي. وهذه الوجبة لا يحضرها إلا البالغون من أنجال السلطان وأحفاده وإلا زوجته عزة بنت سيف حين تكون في بيت الساحل وأخته عائشة ولا يُســـمح بحضورها لأي من جواري السلطان مهما بلغت حظوتها ومكانتها. ولا يظهر التمييز الطبقي على أشـــده في الشرق إلا في مراســـم تناول وجبات الطعام فلكل طبقة مقامها ودورها والشرقي بطبعه كريم مضياف لا يبخل على ضيفه بشـــيء، ولكنه لا يجد غضاضة في إبعاده

عن مائدة الطعام والطلب إليه انتظار دوره مع أنداده في المكانة والمقام. وهذه العادة أصبحت من القدم والرسوخ في زنجبار بحيث لا تسبب أي إحراج أو إهانة إلى أحد.

وللجواري من زوجات السلطان في زنجبار نظام طبقي متميز متعارف عليه فالشركسيات والشقراوات المدلات بجمالهن الشاعرات بقيمتهن يرفضن الجلوس على مائدة واحدة مع الحبشيات السوداوات. ولهذا فقد نشأ تفاهم ضمني متعارف عليه بأن تترك كل مجموعة على حدة. ولكن هذا التمييز بالدم أو اللون لا يسري على أولاد الجواري من بنين وبنات فجميعنا ـ كما قلت من قبل ـ متساوون في الحقوق والواجبات مهما اختلفت دماء أمهاتنا.

ويخيل إليّ أن الناس في بيت الساحل أكثر بشراً وانطلاقاً وسعادة من رفاقهم في بيت المتوني وقد يكون السبب في هذا وجود عزة بنت سيف في بيت المتوني حيث تفرض وجودها وسيطرتها على زوجها وأبنائه وأحفاده وجواريه وتشيع بين سكان البيت جواً من الرهبة والانقباض، في حين أنها لا تزور بيت الساحل إلا لماماً ولفترة قصيرة، لهذا فإن سكان هذا البيت، بما فيهم أبي ـ يشعرون بالحرية والانطلاق دونما قيد ولا رهبة.

ويخيّل إليّ أيضاً أن أبي نفسه كان يشعر بهذا الفرق في نمط الحياة بين البيتين وأنه أكثر ميلاً وتقديراً إلى حياة الحرية والانشراح التي تسود بيت الساحل بدليل أنه توقف منذ سنين عن نقل أي شخص ـ إلا بطلب خاص من ذلك الشخص، للسكن ببيت المتوني رغم ازدحام بيت الساحل بالسكان ووجود أماكن خالية في بيت المتوني. وقد دفع هذا الازدحام أبي إلى التفكير في وضع حواجز خشبية على الشرفة الواسعة وتقسيمها إلى غرف

تخفف من وطـأة الازدحام ولكنه لحسـن الحـظ عـدل عن هـذه الفكرة، وابتنى ـ بدلاً عنها ـ قصراً جديد سُمي «بيت الراس» على ساحل البحر على بعد بضعة أميال شمال بيت المتوني وقد صممه خصيصاً للجيل الجديد من سكان بين الساحل.

ولا ريب أن شـرفة بيت السـاحل تمد الفنان الملهم بمادة وفيرة للرسم والتصوير. فعدا عن مناظر البحر الجميلة المتغيرة أمامه في كل آن فإن ساحة القصر تحته وما يسـودها من هرج ومرج تزخر بالصور التي تستطيع الريشة الملهمة أن تحولها إلى لوحات فنية رائعة.

ففي هذه الساحة، كما رأينا من قبل، يعمل ويلهوا ويروح ويجيء عشرات العشرات من الناس في كل دقيقة أثناء الليل والنهار من نساء ورجال وصغار وكبار من مختلف العناصر والجنسيات.

أما الشرفة نفسها ومن فيها فإنها الأخرى تستطيع أن تلهم الفنان الأصيل رسوماً نادرة، فهناك على الأقل تسعة أو عشرة أنواع من القسمات والملامح المختلفة والتي تميز عناصر وجنسـيات سـكان القصـر بعضها عن البعض الآخر، ثم أن هناك أيضاً عشرات الأنواع من أزياء الملابس المختلفة أشكالها وألوانها، ولم تكن الجلبة والضوضاء في الشـرفة بالشـيء القليل، فالأطفال من مختلف الأعمار يملؤون الشـرفة ضجيجاً وصخباً بألعابهم وتشـاجرهم وضحكهم وبكاهـم. والكبار لا يتوانون عن التصفيق المسـتمر وهي طريقة لدعوة الخدم بدلاً عن استعمال الجرس كما هو الحال هنا، والذين سرعان ما يردون عليه بكلمات «لبيـك» في طبقات صوتية مختلفـة. وإلى جانب هذا وذاك فإن السـيدات في ذهابهن ومجيئهن يضفن إلى نشاز السمفونية دقات رهيبة من قباقبهن الخشبية الضخمة المطعم أكثرها بالصدف وبعضها بالذهب

أو الفضة. وكنا نحن الأطفال نستمتع كثيراً بفوضى اللهجات واللغات، فالقاعدة أن اللغة العربية هي لغة التخاطب الوحيدة، وكانت هذه القاعدة تطبق بشدة عند حضور السلطان، ولكن ما أن يدير السلطان ظهره عن البيت حتى يتحول إلى برج بابل من اللغات الفارسية والتركية والحبشية والنوبية والشركسية والسواحلية... ناهيك باللهجات المختلفة.

وقد اعتاد أبي على هذا الصخب الشديد في الشرفة ـ وإن كان في الواقع يقل ويهدأ بعض الشيء عند وجوده ـ فلم أره أو أسمعه يعترض عليه يوماً ما.

❁ ❁ ❁

على هذه الشرفة تجمع القوم يوم وصولنا وكانوا في أجمل زينة وأحسن ملبس احتفالاً بيوم الجمعة وبزيارة السلطان. وكان الأطفال منا يسرحون ويمرحون بنشاط جم وأدب ظاهر في حين كانت أُمهاتنا يرحن ويجئن ويتجمعن فيما بينهن يتبادلن الأحاديث والنكات ويطلقن ضحكات قلبية صادقة وفي ود وصفاء ومرح وطيبة حتى ليكاد الغريب عن حياة هذه الدار أن يظنهن تلميذات في مدرسة. ولا يصدق ـ لمظاهر الودّ والمحبة بينهن ـ إن كل هذا الجمع من النساء هن زوجات رجل واحد.

والحياة هنا أكثر ترفاً وبذخاً منها في بيت المتوني ونسبة الجمال بين نساء بيت الساحل أكثر منها في البيت الأول.

ففي حين كانت أُمي وصديقتها مدينة، الشركسيتين الوحيدتين في بيت المتوني، فإن الغالبية من محظيات السلطان في بيت الساحل من الشركسيات وهن دون شك أنقى بشرة وأكثر جمالاً من الحبشيات، وإن كان يوجد بين

الأخيرات من هنّ على جانب كبير من جمال الجسم وحسن التقاطيع. ولكن هذه الميزة الطبيعيـة ـ أي: اللون ـ كانت تلعب دوراً كبيراً في إثارة الحسـد والغيرة والبغضاء. فالشركسيات اللواتي يتمتعن إضافة إلى بياض البشرة بنبل الأصل، كن يجدن نفرة وصدوداً وبغضاً لا لشـيء وإنما لمجرد أن ضراتهن بنيات اللون يجدنهن أنصع منهن لوناً وأعرق أصلاً.

والمرأة الحبشـية رغم ميزاتها العديدة فإنها حادة المـزاج عصبية الطبع حقـودة منتقمة وإذا مـا تملكها الغضـب خرجت عن طورهـا وعن حدود الاعتـدال بل وعن حدود الحشـمة والوقـار. وفي مثل هـذه الظروف فمن الطبيعي ومن السخيف والمؤسـف في نفس الوقت أن تتجلى هذه البغضاء والعنصرية بين الأخوة والأخـوات من أبناء الطرفين. وكانـت أخواتنا ممن يجري في عروقهن الدم الحبشـي يلقبننا، نحن بنات الشركسيات «بالقطط» لمجـرد أن البعض منا كن ـ لسـوء الصدف ـ زرقاوات العيـون وكن يزددن تعبيراً عن امتعاضهن منا بتلقيبنا «بصاحبات السـمو» تهكماً وسـخرية، ولم يكن يغفرن لوالدي اختياره بنتيه المفضلتين لديه، خولة وشـريفة من فصيلة القطط الممقوتة هذه.

❁ ❁ ❁

كانت الحياة في بيت المتوني بسبب سـيطرة عزة بنت سيف وتحكمها أشبه بحياة الأديرة. وكنت في بيت الواتورو أشعر بالوحدة والانفراد، ولكنني في بيت الساحل أخذت أستعيد حيويتي ونشاطي يوماً بعد آخر. وقد وجدت أن وحيدتي أخي خالد شمبو وفروشه، وهنّ في مثل عمري، يأتين صباح كل يوم من بيت أبيهم إلى بيت الساحل ويعدن منه مساءً، وذلك لتلقي الدروس فيه مع أخوالهم وخالاتهم وأبناء وبنات أعمامهم وعماتهم.

وكانت خورشـــيد أم خالد شركســـية الأصل ولكنها كانت شخصية فذّة خارقة لم أرَ في حياتي كلها ندّاً لها بين أفراد جنســـنا، فقد كانت هرقلية بناء الجسم طولاً وعرضاً حديدية الإرادة قوية الشكيمة ماضية العزم عميقة الذكاء سريعة الفطنة واسعة العينين نفاذه النظرات دقيقة الملاحظة حتى وكأنها تنظر من حولها بعيون أراغوس المائة.

وقد حدث أن تولى خالد مرة أمور السلطنة في الجزيرة نيابة عن السلطان عند ذهابه إلى مســـقط فكانت أُمه باعتراف الجميع هي الحاكم الفعلي وكان خالد مجرد دمية بين يديهـــا. ولهذه الخصال الفريدة فقد تمتعت خورشـــيد بمقام ممتاز بين أفراد العائلة وكانت مرجع الشـــورى لهم جميعاً، وكانت مع صواب الرأي وسرعة الحســـم تتمتع بالملمات بحكمة سليمان وصبر أيوب، ولكنها مـــع كل صفاتها الفذة هذه لـــم تكن محبوبة منا نحـــن الصغار وكنا سعداء بتجنب لقياها وبالابتعاد عنها.

❁ ❁ ❁

وأخيراً حلّ المســـاء وبدأنا نســـتعد للعودة إلى بيت الواتورو وإذا بأبي يستدعي أُمي ويعلن لها فجأة وجوب استئنافي الدراسة من الغد، وكان القرار مفاجئاً ومذهـــلاً لأمي، وأرادت التملـــص منه فأخبرته بتعـــذر وجود معلمة صالحة لي في بيت الواتورو، فأمر بأن أرســـل مع بنات أخي خالد إلى بيت الســـاحل صباح كل يوم لاتلقى الدروس فيه مع مجموعة البنات والبنين ثم أعود إلى بيتنا في المساء. ولم يكن بعد هذا مجال للرد والنقاش.

وكان الخبر مزعجـــاً لي أول الأمر. فقـــد تعودت على حيـــاة الانطلاق والحرية ولم أعد أطيق العودة للجلوس على مقاعد الدروس، عدا أن معلمتي الســـابقة في بيت المتوني قد زهدتني بقسوتها عن كل درس. ولكني سرعان

ما تبيّنت الجانب السار في الموضوع، وهو أن هذا الترتيب سيتيح لي فرصة التردد على بيت الساحل يومياً ـ عدا أيام الجمع ـ وسيتيح لي فرص مشاركة إخوتي في اللعب وعدا هذا وذاك فإن الأخت الحبيبة خولة قد تعهدت لأُمي برعايتي والإشـــراف عليّ مما يتيح لي الحياة معها أكثر أيام الأســبوع، وقد وفت حقاً بوعدها وكانت لي أماً وأختاً. لكن أمي المسكينة ظلت حزينة لهذا القرار الذي يبعدني عنها كل أيام الأســبوع عدا يوماً واحداً، ولكنها لا تملك بالطبع إلا الطاعة والإذعان لأوامر السلطان.

❁ ❁ ❁

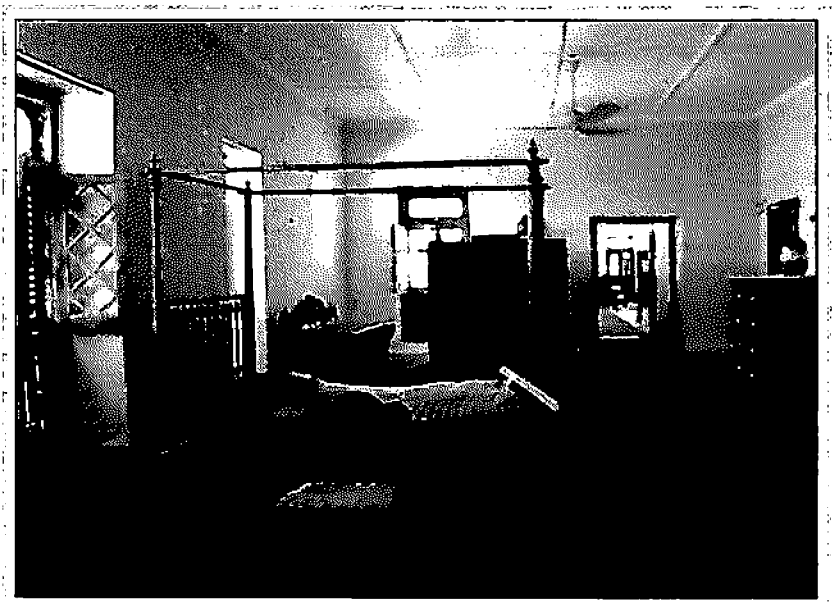

حياة القصور

الفصل الرابع
الحياة في بيت الساحل وبيت الواتورو

ليس لي ما أقوله عن معلمتي الجديدة إلا أنني سأبقى أحمد الله وأشكره إذ هيأ لي في فجر حياتي هذه الصديقة المخلصة، فقد كانت على صرامتها مستقيمة الخلق منصفة واسعة الأفق، وكنت في أكثر الأحيان أقضي ساعات الدرس معها لوحدي، إذ كان تلامذتها الآخرون ينفرون من الجلسة المتعبة في غرفة الدرس ويفرون من الدروس المتعبة نفسها إلى حيث اللعب والانطلاق مستغلين عجزها عن ضبطهم وتأديبهم. كان يعزّ عليّ أن أغيب عن دروسها وأتركها في وحدتها البائسة وكانت من جانبها تقدر لي هذه الطاعة والمثابرة على الدروس ولكن هذا لم يكن لينجيني من عبث إخوتي الجامحين بي وسخريتهم مني.

وعلى مر الأيام ازداد حبي لبيت الساحل ففيه كنت أشعر بحرية وانطلاق أكثر مما في بيت الواتورو، وكنا نحن الأطفال نطلق العنان للّعب والشقاوات ولا نوفر مناسبة إلا ونقوم ببعض الحيل والألاعيب الصبيانية التي قد تتجاوز في بعض الأحيان حدود اللياقة فنتعرض من أجلها للعقاب، وكانت حصتي منه دوماً أقل من الآخرين بسبب رعاية خولة وطيبة قلبها.

وما زلت أذكر حتى اليوم بعضاً من أعمالنا تلـك، فمنها مثلاً أنه كان في القصـر عدد من الطواويـس الجميلة، وكان من بينها طاووس شـرس الطبع يغضب من عبثنا بأبناء جنسـه ويهيج هائجة حين يرانا نقترب منه، وفي مرة من المرات كنا خمسـة من الأطفال نتجه من بيت السـاحل إلى البيت الثاني ـ وهو أشبه ببيت ملحق للأول ـ فباغتنا هذا الطاووس بهجوم وحشـي على أخي جمشـيد وكاد أن يؤذيـه لو لم نتجمهـر جميعنا على الطاووس ونبعـده عنه. ولكن الحادث لم ينته عند هـذا الحد، فقد أثارت جرأتـه غضبنا فقررنا أن لا نتـرك الأمر دون عقاب يـؤدب هذا الطاووس ويذكره بمغبة سـلوكه الشـائن، وسـرعان ما انتهى بنا التفكيـر إلى قرار انتقامي شنيع، فقد تجمعنا وأمسـكنا بالطير المسكين وأخذنا ننتف ريش ذنبه الجميل وما أسـرع ما تحول هذا الطائر المزهو بنفسه والمدل بجمال ريشه إلى حطام بشع المنظر مكسـور الخاطر، وقد تملكنا لرؤيته الأسف والندم على فعلتنا، ولكن لات ساعة مندم، ومن حسـن حظنا أن أبانا لم يكن في القصر في ذلك اليوم، ولما عاد إليه بعد أيام كانت حدة القضية قد خفت فكتم الأمر عنه.

ومما أذكره أيضاً أنه جيء يوماً إلى القصر بفتاتين شركسـيتين من مصر، وقد لاحظنا ـ نحن الصغار ـ أن إحداهن ـ ولم تكن تكبرنا إلا قليلاً ـ تحاول الاسـتعلاء علينا وتتجنب الكلام معنا أو الاقتراب منا، وقد حزَّ سلوكها هذا في أنفسـنا وأثار فينا الضغينة والحقد فقررنا أن نكيد لها كيداً يشـفي غليلنا ويعيد إليها صوابها لتعرف من بعده قيمتنا.

ولم يكن الوصول إليها سـهلاً فلبثنـا ننتظر حلول الفرصة المناسـبة لتنفيذ عملية الانتقام والتي حلّت في أحـد الأيام حين وجدنا باب غرفتها

مفتوحاً وهي مستلقية في أرجوحة سواحلية تدندن بلغتها ببعض ألحان وطنها. والأرجوحة السواحلية أو الاستوائية ليست إلا بساط خفيف من الصوف متصل بجهاته الأربع بحبال معلقة في مسامير في أربعة جدران الغرفة.

وقد تولت أختي شيوان قيادة فرقة العمليات فأشارت لنا برأسها إشارة سرعان ما فهمتها عقولنا الصغيرة فهجمنا جميعاً بغتة هجمة واحدة وأحطنا بالفراش من جميع نواحيه ثم رفعناه إلى أعلى ما تستطيع سواعدنا الضعيفة ثم طرحناه والجالسة فيه أرضاً مسببين لها عدا الدهشة والفزع رضوضاً خفيفة.

ولقد كان هذا منا عملاً صبياناً سخيفاً. ولكنه حقق غايتنا فشفيت ضحيتنا من غرورها وتعاليها وعادت صديقة لنا مثالاً للطيبة والوداعة.

وكانت لي في بعض الأحيان مغامراتي الخاصة. وقد كادت رقبتي أن تدق في واحدة منها، فبعد وصولنا إلى بيت الواتورو بأمد قصير تسللت صبيحة أحد الأيام إلى الحديقة وفي غفلة من العيون تسلقتُ بأسرع ما يمكن شجرة نارجيل عالية دون الاستعانة بالبنتكو، وهو الحبل المتين الذي يستعان به في تسلق هذه الأشجار والذي لا يفكر أكثر خبراء التسلق بالاستغناء عنه، وحين وصلت منتصف الشجرة أخذت أنادي المارة من تحتي وأحييهم بكل زهو وافتخار. ولكنهم ما أن شاهدوني في موضعي هذا حتى تملكهم الرعب والفزع وتجمع الناس يدعوني إلى النزول بكل حيطة وحذر، ولكني كنت فرحة سعيدة فلم ألقِ بالاً لكلامهم، ولم يكن بالإمكان إرسال أحد لإنزالي لأن من يصعد مثل هذه الشجرة لا بد وأن تنشغل كلتا يديه فلا مجال له أن يحمل طفلةً في الثامنة من عمرها وبقيت على هذه

الحال حتى أتت أُمي هلعة مرتاعة وأخذت تتوسل إليّ بنبرات يفيض منها الألم والهلع واليأس أن أنزل وتمنيني مقابل ذلك بأحسن الهدايا. ولم يكن أمامي إلا الاستجابة إليها فنزلت الشجرة بكل عناية وحذر حتى وصلتُ الأرض سالمة.

وقد كنت طيلة ذلك اليوم حديث كل فرد في القصر وانهالت عليّ الهدايا احتفاءً بنجاتي وإن كنت في الواقع أستحق أشد العقاب.

وكنا مجموعة الصغار الأشقياء سبعة فقط، ثلاثة أولاد وأربع بنات. وما كان العقاب المتكرر ليصدنا عن الاستمرار في ألاعيبنا ومكرنا، وكنا في الواقع نملأ جو البيت حياة وحركة ونشاطاً، ولكننا كنا في الوقت نفسه ومع الأسف الشديد نملأ نفوس أمهاتنا المسكينات بالهم والهلع والقلق.

وكانت أُمي تخشى عليّ مغبة رفقتي لإخواني ومغامراتنا معاً، فكانت في بعض الأحيان تمنعني من الذهاب إلى المدرسة وتمسكني معها في البيت، وكان أخي الرقيق الطيب ماجد يغتنم هذه الفرص لنستأنف هواياتنا السابقة وقد سبب لنا يوماً من هذه الأيام فزعاً قاتلاً وقلقاً مميتاً، وكاد الحادث أن يودي بحياته.

فقد كان ماجد عرضة لنوبات من الصرع تفاجئه بين الحين والآخر وقد تطول الفترة بينهما أو تقصر ولهذا فلم يكن يترك وحيداً أبداً في كل ساعات الليل والنهار، وحتى في أوقات استحامه فقد كانت خديجة وأُمي ـ لضعف ثقتهن بالخدم ـ تتناوبان بأنفسهن حراسته ومراقبته، وكانت الواحدة منهن تقف له على باب الحمام تناديه من حين إلى آخر لتتأكد من سلامته، وكان يجيبها بروحه المرح: نعم... إني ما أزالُ حيّاً.

وفي ساعة هذا الحادث، كانت خديجة هي الموكلة بالحراسة وكانت تروح وتجيء أمام باب الحمام وتتبادل مع ماجد الكلمات، إذا بها تسمع فجأة صوت سقوط جسم على الأرض فأسرعت مرتاعة إلى داخل الحمام حيث وجدت أخانا العزيز ماجد ملقى على الأرض يعاني غصة نوبة من أشد النوبات وفي الحال أرسلت أحد خدمنا الفرسان رسولاً إلى أبي في بيت المتوني ـ تستدعيه للحضور.

ولجهل القوم في زنجبار بأسباب المرض وأساليب العلاج فقد وقعوا ضحايا الشعوذة والتدجيل، وإني الآن وبعد أن تعرفتُ في أوروبا على طرق العلاج الحديث الذي يتولاه الأطباء المختصون، فإني أكاد أؤمن بأن طرق العلاج البدائية والبربرية، وليس المرض ذاته، هي السبب في كثرة الوفيات في بلادنا. ولا أدري كيف كنا نحتمل فقدان العدد العديد من الأهل والإخوان والأصدقاء لو لم نتدرع بذلك الإيمان المتين بالقضاء والقدر. ولقد لبث ماجد المسكين ساعات في قبضة الألم الممض فاقد الوعي يتنفس هواءً فاسداً يصرع أقوى الرجال، ذلك أنه على الرغم من حبنا الفائق للجو المشرق والهواء الطلق فإن المريض منا، وخاصة «من ركبهم الشيطان» يعزلون دائماً في غرف مغلقة تمتلئ ـ والبيت كله ـ بأنواع الأبخرة لطرد الأرواح الشريرة.

وبعد ساعة واحدة وصل السلطان على ظهر زورق صغير يسميه السواحليون الموتوبي، وهو عبارة عن زورق صغير لصيد السمك لا يتسع إلا لراكبٍ واحدٍ، وهرع حال وصوله إلى غرفة ماجد، ومع أن والدي أب لأكثر من أربعين ولداً وبنتاً فقد كان في غاية الهلع والاضطراب لمرض واحد من أبنائه وكأنه إبنه الوحيد. فقد وقف إلى سريره والدموع تجري على خديه

وهو ينادي بأعلى صوته... «ربي احفظ لي ولدي...» وظل مستمراً في صلاته ودعائه ساعات طويلة وقد استجاب الله سبحانه إلى دعائه فمنّ على ماجد بالشفاء العاجل وعاد إلينا برقته وحنانه وطيبته.

وبعد مرور الحادث بسلام سألت أُمي يوماً زوجها السلطان عن سبب قدومه في ذلك الزورق الحقير فأجابها:

«لما وصلني الرسول بالخبر الأليم لم يكن على الشاطئ أي مركب من أي نوع ولا يمكن الحصول على واحد منها إلا بعد أن نعطيه الإشارة الخاصة الأمر الذي يستغرق وقتاً طويلاً، كما أنني لم أستطع الانتظار حتى يسرجوا لي أحد الخيول. ورأيتُ في البحر قرب البنجلة هذا الزورق فلبستُ سلاحي وقفزتُ إليه وقدته مسرعاً إلى هذا البيت».

والذي يجب أن يعرف أن الموتوبي ما هو إلا جذع شجرة مجوف ضيق وقصير ومدبب الرأس لا يتسع إلا لراكب واحد ويسير بدلاً عن المجداف برفاس صغير يدار باليد. وهو بهذا يختلف عما يعرف في ألمانيا بزورق كرنيلاند أو زوارق الصيد الصغيرة الأخرى المعروفة في أوروبا.

وقد يستغرب الناس في هذه البلاد لشخص مثل أبي قد أخذ لبه القلق على حياة ولده أن يفكر في تلك الساعة الحرجة باستكمال عدة سلاحه. ولكن كما إن أهل الشمال لا يفهمون سر اهتمام العربي بسلاحه فكذلك يعجز العرب عن فهم كثير من العادات الأوروبية ويحضرني في هذا المجال إدمان الرجال المشين على الشراب.

ولقد دأبت على الذهاب إلى بيت الساحل لتلقي الدروس والعودة منه مساءً إلى بيت الواتورو كل يوم عدا أيام الجمع طبعاً، حتى حفظتُ عن ظهر

قلب ثلث القرآن تقريباً. وكنت قد بلغت التاسعة من عمري فانقطعتُ عن الدراسة وفقاً للتقاليد. ومنذ ذلك الحين اقتصرت زياراتي إلى بيت الساحل، مع أُمي وخديجة، على أيام الجمع فقط، أيام وجود أبي فيه.

❁ ❁ ❁

السيد برغش بن سعيد

سلطان زنجبار ١٨٧٠ ـ ١٨٨٨

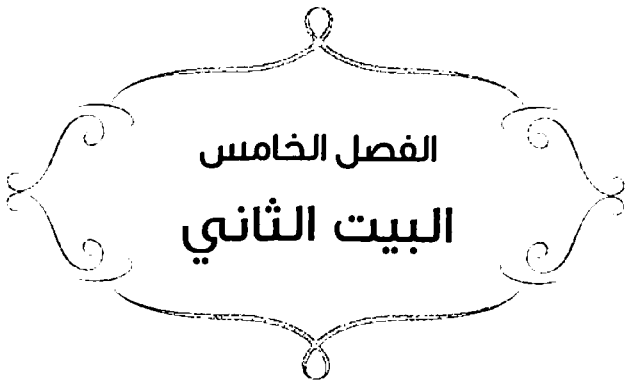

الفصل الخامس
البيت الثاني

وقد عشـــنا في بيت الواتورو على هذا الحال من الغبطة والسرور عامين كاملين، ولكن أيام الهنـــاء لا تدوم ولا بد أن تنغصها أحـــداث الزمان. ومن عجائب الصدف أن يكون ســـبب تنغيص هنائنا عن غير قصد ولا إرادة منه، مخلوق بريء وديـــع كان مثال الطيبة والجمال، وهي عائشـــة إحدى قريباتنا البعيدات وقد وفدت علينا من وطننا الأم عُمان واختيرت لشـــبابها وجمالها زوجة إلى أخـــي ماجد وقد أحبهـــا كل من في البيت وابتهج لســـعادة ماجد واستقراره غير شخص واحد يؤسفني أن أقول أنه أختي خديجة، فقد حملت لها الغيرة والحقـــد والبغضاء مـــن أول يوم ولـــم ترضى عنها أو تستســـيغ تصرفاتها يوماً ما.

وكانت عائشـــة ـ كما قلت ـ شـــابة يافعة لم تبلغ العشـــرين من عمرها، وكانت على جانـــب كبير من الجمال والطيبة والوداعـــة. وكان الواجب على خديجة أن تكســـب ثقتها وأن تتولاها بالرعاية والتدريب والتقويم وأن تعدها لمركز الســـيدة الأولى في البيت الذي يؤهلها زواجها من ماجد إلى احتلاله، إلا أن خديجة بادأت هذه الفتاة البريئـــة بالحقد والبغضاء ورفضت أن تتنازل لها عن شـــيء من حقوقها المزعومة وعاملتها أسوأ معاملة وأقساها وكثيراً ما

كانت عائشة تلجأ إلى أُمي شاكية باكية مما تلقاه من خديجة من معاملة سيئة لا مبرر لها. وعبثاً حاولت أُمي إسداء النصح إلى خديجة وإقناعها بالعدول عن سلوكها الشائن، وبأن تقدر لزوجة ماجد مقامها وقدرها وأن تحفظ لماجد سعادته وتجنبه المتاعب والصعاب.

لكن خديجة كانت ترفض الاستماع إلى كلام أُمي وتزداد عتواً وقسوة واستمرت تنظر إلى عائشة على أنها طفلة دخيلة لا تستحق الاحترام.

وأصبحت أُمي بين نارين وتلبدت سماء عيشنا الهانئ بغيوم المشاكل والشحناء وتبدل صفونا كدراً وهناؤنا كرباً وأصبح مقامنا في بيت الواتورو صعب الاحتمال لذلك قررت أمي للتخلص من جو المشاحنات والتوتر الانتقال من هذا البيت الذي أحبته كل الحب وأخلصت له كل الإخلاص.

وقد كان وقع هذا القرار على ماجد مؤلماً جداً، أما زوجته عائشة فقد كان القرار بالنسبة لها فاجعة لا عزاء لها. لكن خديجة لم تتحرك للخبر ولم تهتم به مما زاد من إصرار أُمي على قرارها.

وقد ضاقت عائشة بهذه العيشة وبقسوة خديجة وسيطرتها عليها فوضعت حداً لمآساتها بالطلاق من ماجد. وكانت هذه التجربة القاسية قد خلفت في قلب المسكينة جرحاً مؤلماً بحيث لم تستطع بعدها الحياة في زنجبار فجمعت حوائجها القليلة وأبحرت مع ريح الجنوب عائدة إلى بلدها عُمان، ولوفاة والديها فقد عاشت هناك مع عمة لها عجوز فقيرة تسكن قرب مسقط ولم نعد نسمع من أخبارها شيئاً.

❁ ❁ ❁

أما بالنسبة لنا، أُمي وأنا، فقد انتقلنا قبل هذا الحادث إلى البيت الثاني، وكان فرح خولة وسرورها بانتقالنا لا يوصف لأننا صرنا نعيش وإياها تحت

سقف واحد. وكان لها الفضل في إيجاد هذا المكان وإعداده لسكنانا. فقد كانت بيوت السلطان مكتظة بنزلائها بحيث لم يعد من السهل إيجاد مكان ما لأي قادم جديد، وحتى صارت العادة أن ينتظر المرء موت أحد سكان البيت ليحتل مكانه، فما أن يسعل أحدهم حتى يمني الآخرون أنفسهم بأن سعلته هذه هي القاضية! ولكني وأُمي ندين بالفضل إلى العزيزة خولة لتهيئة هذه الغرفة الجميلة الواسعة في البيت الثاني دون أن نحصي أنفاس الآخرين من أفراد أسرتنا أو ننتظر وفاة أحدهم.

ولم نعد نرى خديجة في مقرنا الجديد، فقد رأت في انتقالنا إهانة لها واتهمت أُمي ـ ظلماً ولا شك ـ بالجحود ونكران الجميل في حين أن الواقع أن أُمي لم تستطع احتمال رؤية الظلم والاضطهاد التي أوقعته خديجة بشابة بريئة غضة العود كل ذنبها أنها صارت زوجة لماجد. وقد ظل ماجد يزورنا واستمر من أعز أصدقائنا.

❁ ❁ ❁

ويقع البيت الثاني ملاصقاً لبيت الساحل ويصل بينهما رواق قصير يمر على حمام تركي يقع وسطاً بين البيتين، وفي هذا الوقت الذي انتقلنا فيه إليه لم يبق من البيت الثاني إلا أطياف من عظمته السابقة. فقد كان طابقه الثاني يوماً ما مسكناً لأميرة فارسية إسمها شيزادة. كانت الزوجة الشرعية الثانية لأبي[1] وكانت آية في الجمال والفتنة، ويقال أنها كانت على جانب كبير أيضاً من البذخ والإسراف ولكنها مع هذا كانت كما يقال شديدة الحب لأولاد زوجها. وكان الطابق الأول من البيت يسكنه مائة وخمسون فارساً فارسياً هم

---

(١) تزوج السيد سعيد بحفيدة فتح علي شاه ثم طلقها. ثم أنه تزوج إبنة أريش ميرزا العجمي حاكم أصفهان وصحبته إلى زنجبار ومعها حاشية كبيرة ولعلها هي المقصودة بهذا الكلام.

حاشـيتها المتواضعة العدد وقيل: إنهـا كانت تركب الخيـل وتخرج معهم للصيد في وضح النهار ولم يكن هذا شـيئاً مألوفاً بالنسبة للعادات العربية، والظاهر إن النساء الفارسيات يتربين تربية إسبارطية ويتمتعن بحرية وانطلاق تام وبوقاحة في التفكير والسلوك لا نعرفها نحن النساء العربيات.

ويقال أيضاً أن شـيزادة قد عاشـت فـي بيتها هذا عيشـة مترفة وكانت ملابسها الفارسية مطرزة فعلاً باللؤلؤ الطبيعي من أعلاها إلى أسفلها. وكانت تهب اللؤلؤ المتساقط من ثيابها إلى الخدم الذين يكنسون غرفتها. ولكن هذه الأميرة لم تكتف باستغلال كرم السلطان استغلالاً شنيعاً بل تعدّت ذلك إلى مخالفة العرف والقانون. فقد تزوجت أبي لمركـزه وثرائه ولكن هوى قلبها كان مع شـخص آخر فلما اكتشف السلطان ذلك أوشـك في ثورة غضبه أن يقترف جريمة قتلها، ففي ثورة غضبه اسـتل السلطان سـيفه ليقضي به على شيزادة لو لم يسارع أحد خدمه الأوفياء وهو سعيد النوبي ـ الذي تعرفنا عليه في الفصل السـابق ـ إلى إمساك السـيف بيد السـلطان فأنقذ بذلك حياتها وجنّب أبي مغبة إثم شنيع. ولم يكن بعد هذا الحادث مفر من الطلاق الذي ساعد عليه أن زواجهما لم ينجب أولاداً.

وبعد هذا الحادث بسـنوات، اشتبك أبي السلطان في حرب ضروس مع الفرس في بندر عباس في الخليج الفارسـي، وقيل: أن شيزادة شوهدت مع جيش الأعداء لتتعرف على أفراد عائلتنا وتدل جنود العدو عليهم، ويقال أنها كانت نفسها ترميهم بالسهام.

وفي هذا البيت الذي شـهد مجد هذه الأميرة بدأتُ أتعلم الكتابة بنفسي وبطريق بدائي جـدّاً، وكان عليّ أن أعمل هذا بالسـر والكتمـان فما يجوز لأمرأة أن تتعلـم الكتابة أو تعلـن معرفتها بها، وكانت دروسـي الأولى أن أحاول محاكاة حروف القرآن علـى عظم بعير، وهو يقوم فـي زنجبار مقام

السبورة، وقد شجعني نجاحي على الاستمرار في المحاولة والتوفيق فيها. ولكن بعد مرحلة معينة كان لا بد من وجود معلم يعلمني أصول الخط وقد عهدت إلى أحد عبيدنا المتعلمين شرف تعليمي أصول الخط. ولكن أمري سرعان ما انكشف للجميع فثارت عليّ زوابع اللوم والتقريع وحملات السخرية والاستخفاف ولكني لم أحفل بها ولم تفل من عزيمتي شيئاً فمضيت في دروسي حتى اتقنتها ولستُ الآن بآسفة على تلك الساعات الطوال التي قضيتها في هذا الدرس فالكتابة الآن هي وسيلتي الوحيدة للاتصال بالقلائل من أصدقائي الأوفياء المخلصين في وطني البعيد.

❁ ❁ ❁

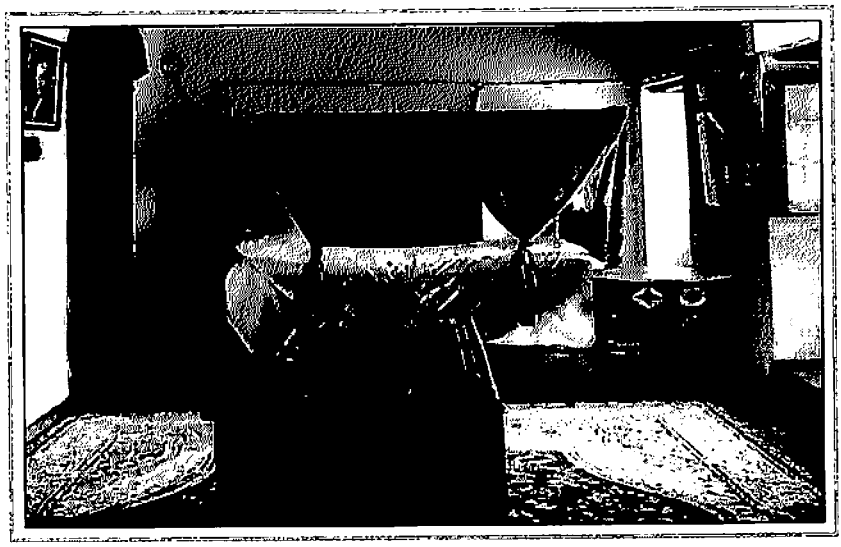

غرفة الأميرة سالمة بنت سعيد بن سلطان

الفصل السادس
الحياة اليومية في بيتنا

ما زلتُ منذ قدومي إلى هذه البلاد وأنا أواجه مراراً وتكراراً بالسؤال التالي وهو: «كيف تستطيع النساء العيش في بلادكم دون شغل أو عمل؟».

والسؤال ليس بعد بالمستغرب من وجهة نظر أهل الشمال[1] الذين لا يستطيعون تصور الحياة بلا عمل بالإضافة إلى أنهم باتوا مقتنعين بأن المرأة في الشرق لا تكلّف نفسها طيلة النهار تحريك أنملة وإنما تقضي وقتها في خمول وعزلة وفراغ في بيت الحريم.

ولهذا وذاك فإني لم أكن لأضيق ذرعاً بالرد بكل لذة وسرور على فضول السائلين مرات ومرات بقدر تكرار السؤال ردّاً واحداً يختلف في مبناه لا في معناه وهو أن الظروف الطبيعية تختلف في بعض بقاع العالم عن بعضها الآخر، وهذه الظروف هي التي تتحكم في تكوين آرائنا وعاداتنا وأساليب معيشتنا ومتطلبات حياتنا.

وهذه الظروف نفسها جعلت العمل حتماً واجباً على أهل الشمال في

---

(١) دأبت المؤلفة على تسمية الأوروبيين بأهل الشمال والعرب بأهالي الجنوب ولم تستعمل اصطلاح الشرق والغرب إلا نادراً.

حين أنه ليس كذلـك على أهل الجنوب فبـرودة الجو وقسـوة الطبيعة في الشـمال قد زادت في متطلبات العيش وكثرة اللباس وتنوع العمل لهذا صار لزاماً على الرجل الشمالي أن يرهق نفسـه كدّاً واجتهاداً ليؤمن لنفسه وأهله ضرورات الحياة وأن يرهقها أكثر وأكثر إن أراد التنعم بالترف والكماليات.

وليس الأمـر كذلك مع أهل الجنوب فقد أنعمـت عليهم الطبيعة بدفء الطقس وكثرة الخيرات فلم يعودوا بحاجة إلى وثير اللباس ولا وفير الطعام، وعداً عن قلـة المطالب هذه فالجنوبيـون ينعمون ـ وأكـرر كلمة ينعمون ـ بالقناعة وبساطة العيش، والعرب الذين كثيراً ما تتهمهم كتب الغرب بالكسل والخمول هم ـ بعـد الصينيين ـ أكثر شـعوب الأرض قناعـة، وحين يقول العربي: (القناعة كنزٌ لا يفنى) فإنه يعني أن في بساطة العيش والاكتفاء الذاتي توفيراً واقتصاداً.

لكن الشماليين وقد تملكهم الغرور والازدهاء ينظرون باستعلاء وازدراء لسكان المناطق الاستوائية، وهي حالة فكرية ونفسية غير محمودة في نظري ـ على الأقل ـ، غير ناظرين إلى حقائق الأمور وأسـبابها وهي أن العمل في في أوروبا أمر تقتضيه غريزة البقاء ولولاه لكان فناؤهم عامّاً شـاملاً؛ أي: أن الفـرد منهم مضطر للعمل للإبقـاء على حياته وكيانه ولهـذا فلا يحق له أن يجعل من هذه الظروف المفروضة عليه بحكم الطبيعة فضيلة يفخر بها على الآخرين الذين كانت الطبيعة أرحم بهم منه.

وها نحن نرى الإسـبان والبرتغاليـين والإيطاليين أقل كـدّاً وعملاً من الألمان والإنكليز، فما هو السـر في هذا يا ترى. هل أن الأولين أكثر خمولاً وكسلاً من الآخرين.

السر أن طبيعة الجو في بلاد الأولين أكثر اعتدالاً وأشهر القيظ فيها أطول

من أشهر البرد، وبالتالي فهم أقل حاجة للكفاح من أجل البقاء. فالجو البارد يستوجب التحسب والاحتياط لطوارئ ومفاجآت لا تخطر لأهل الجنوب ببال لأن الظروف الطبيعية التي تفرضها هناك هي نفسها تنفي احتمال حدوثها هنا.

ولنأخذ مثلاً للمقارنة ضروريات الحياة الأولية في الشمال والجنوب. فالطفل في الشمال يحتاج منذ ولادته إلى عدد كبير من الحاجيات والأشياء لتحمي كيانه الغض من قسوة المناخ وبرودة الجو في هذه البلاد، في حين أن الطفل الأسمر المولود في الجنوب لا خوف عليه حتى وإن نام في العراء. والطفل إبن السنتين في ألمانيا يحتاج إلى قائمة طويلة من الملابس الضرورية كالحذاء والجوارب والقميص والسروال والمعطف والملابس الداخلية وضروريات أخرى من الصوف أو الفرو لتلف يديه ورجليه ورقبته ورأسه في حين أن كل ما يحتاجه صنوه الطفل في زنجبار حتى ولو كان ابن السلطان هو قميص خفيف وغطاء للرأس فقط.

والظروف أيضاً قد غيّرت حاجات المرأة وطبيعة وطريقة إدارتها للبيت، فالشمس الساطعة دوماً والهواء العليل دوماً في الجنوب يغني ربة البيت الجنوبية عن يوم الغسيل الذي تقلق له المرأة الأوروبية. فنحن في الجنوب نغسل كل يوم ما يحتاج إلى الغسيل ولن يستغرق جفافه أكثر من نصف ساعة كما أننا في الجنوب نستغني ـ إلا في القليل النادر ـ عن ستائر الشبابيك فعدا عن أنها تحجب عنا النور والهواء فإن العناية بنظافتها وترتيبها وإصلاحها تحتاج إلى جهد كبير ليس في بلادنا ضرورة تبرره.

والمرأة الشرقية مهما علا مقامها لا تحتفظ بأعداد كثيرة من الثياب وهذا أمر طبيعي لأن تنقلها داخل البيت قليل وزياراتها إلى خارج البيت أقل وأندر وهي بعد لا تكشف عن نفسها في الشوارع والأسواق.

والزوج أو ولي الأمر يكفي المرأة وصول المـؤن والطعام إلى بيتها كل يوم. فما عليها إلا أن تشرف على الطبخ إن كانت من ذوي اليسار أو أن تقوم به بنفسها إن كانت دون ذلك مقاماً.

وعلى هذا فما دامت حاجات المرأة وبيتها وطفلهـا على هذا القدر من البسـاطة والقلة وما دام زوجها أو ولي أمرها يكفيها مؤونة البحث عن هذه الحاجات وتأمينها وما دام في بيتها من الخدم والعبيد من ينهض بالشـؤون المنزلية فما الذي يدفع المـرأة العربية إلى العمل كمـا تفعل ـ مضطرة ولا شـك ـ أختها الأوروبية. وترى هل لو تهيأ للمرأة الأوروبية مثل حياة أختها العربية، أكانت ترفضهـا وتفضل عليها حياة العمل والكـد أم كانت ترضاها وتأنس لها وتترك من أجلها عملها الكادح خارج البيت؟

ما أظن الجواب على هذا السؤال موضع اختلاف.

وعلى كل فإن الذي يريد أن يفهم المرأة الشـرقية ويطلع على حياتها لا بد له أن يعايشها ويقضي معها فترة من الوقت طويلة ولا يمكن الاعتماد على أقوال السـائحين والسـائحات الذين يعبرون البلاد عبوراً خاطفاً والذين قد يستقون معلوماتهم من أصحاب الخانات والفنادق. وحتى بعض الأوروبيات اللواتي قدر لهن زيارة بيت الحريم في الآسـتانة والقاهـرة فإنهن لم يفهمن حياة الحريم على حقيقتها ولم يشهدن منها إلا مظاهرها الخارجية في غرف الاستقبال المعدة خصيصاً على النمط الأوروبي.

فإذا انتقلنا من النساء إلى الرجل فإنني لا أستطيع أن أنكر أن بني قومي بعيدون عن الحماس للعمل والاندفاع من أجله فهم قـد اعتادوا حياة الدعة والتواكل وترك الأمور تجري في أعنتها «والأيـام تفعل ما تروم». وعلى هذا لم يكن للعربي ميل للتجارة والصناعة بل كل هـواه في الحرب والزراعة[1]

(١) لعل هذا واقع الحال في زنجبار وإلا فإن العربي في الجزيرة العربية يحتقر الزراعة ولا يحترمها.

والقلائل مـــن العرب الذين امتهنـــوا التجارة لم يثبتوا فيها تفوقـــاً كبيراً على غيرهم وليس مرد هذا إلى قصور ذاتي في قدراتهـــم الفكرية أو لتفوق ذاتي في قدرات الآخرين، وإنما مرد هذا إلى الطبيعة الخيرة المعطاء ورزقها الوافر الذي تجود به عليهم كل يوم دون جهد أو تعب، ومرده أيضاً إلى هذا الطقس الاســـتوائي الذي يبعث على الراحة والاســـترخاء ومرده أيضـــاً إلى إيمانهم بالقدر، وكل هذه العوامـــل علمتهم القناعة والرضى باليســـير وصرفتهم عن التفكير في غدٍ مجهولٍ قد لا يجيء، فإن جاء فسيجيء معه رزقه وافراً كثيراً. وينعكس هذا الطبع على الزراعة أيضاً فلا يزرع العربي إلا ما يستطيع حصاده وأكله فـــي أقرب وقت مســـتطاع ولا صبر له على زراعة الأشـــجار كالنخيل والنارجيل إلا مضطراً.

وعلى هذا المنوال الوادع الرضي تنســـاب الحياة الشـــرقية بصورة عامة. وسأحاول أن أصف نمط الحياة اليومي في بيتنا ـ بيت الساحل ـ وإنني إنما أصف نمط الحياة في زنجبار وعُمان فقط والتي تختلف ولا شـــك من نواحٍ عدة عن أنماط في الأقطار الشرقية الأخرى.

❁ ❁ ❁

يمكن على وجـــه العموم القول أن نهار المســـلم تضبطه وتســـيطر عليه أوقات الصلاة. فالصلاة فريضة على المســـلم يؤديهـــا خمس مرات كل يوم، حيث يسجد ورعاً خاشـــعاً أمام الخالق الأكبر. وتستهلك أوقات الصلاة هذه مع ما يســـبقها من موجبات الطهـــارة والوضوء ثم ما يســـتحب أن يليها من الأدعية والنوافل حوالي ثلاث ساعات من النهار.

وعلى كل حال فـــإن الحياة اليومية تبـــدأ عند الفجر إذ يســـتيقظ الناس جميعهم ما بين الســـاعة الرابعة والخامســـة لأداء أولى فرائض الصلاة وهي

صـــلاة الفجر وهذه الصلاة لا تســـتغرق طويل وقت، ويذهـــب بعدها الناس مذاهب شـــتى، فأما ذوو اليسار فيعودون إلى فراشهم لاســـتئناف الرقاد. أما المتدينون وأهل الـــورع والتقوى فيطيلون الصلاة ويظلـــون يتلون القرآن ولا يعودون إلى النوم إلا بعد بزوغ الشـــمس وانتشـــار الضياء. أمـــا غير هؤلاء وأولئك من عامة الناس فيبدأون عملهم بعد الصلاة مباشرة.

وفي بيتنا الواســـع الذي يضم المئات من الناس من مختلف المشـــارب والأذواق ومن مختلف الجنســـيات والأصول لم تكن هنـــاك قواعد معينة أو ضوابط محددة تضبط منهاج حياتنا اليومية، بل كان لكل فرد من أفراد البيت أن يتبع مـــا يحلو له في هذا الشـــأن لا يضبطهم إلا وجـــوب الحفاظ وبدقة صارمة على أوقـــات الصلوات الخمس وعلى حضور الوجبتين الرئيســـيتين. وكانت هذه المواعيد هي الإطار العام للنظام في البيت.

وعلى هذا فقد كنا نعود بعـــد صلاة الفجر إلى النوم ونســـتمر فيه حتى الســـاعة الثامنة حيث توقظنا منه أنامل الوصيفات الرقيقـــة التي تجري على أجســـامنا بمسٍّ ناعمٍ لطيف يعيد لها حيويتها بعد طول السبات وما أن ينتهي التدليك حتى يكون الماء جاهزاً للاســـتحمام كما وتكون ملابسنا قد أعدت أيضاً بعد أن ضمخت أثناء الليل بأزهار الياســـمين والقداح وطيبت بالمسك والعنبر.

وتستغرق عملية الاستحمام والزينة ساعة كاملة نخرج بعدها للسلام على والدنا بتحية الصباح ثم لمشـــاركته تناول طعام الإفطـــار حيث يكون الطعام معداً من قبل على السفرة فلا نستغرق في تناوله الوقت الطويل الذي يستغرقه الأوروبيون.

❁ ❁ ❁

وبعد الإفطار يبدأ عمل اليوم فينصرف الرجال إلى أعمالهم خارج القصر أو داخله ويكاد يقتصر عمل أخوتي على حضور البرزة؛ أي: مجلس السلطان. أما النساء فينصرفن إلى شـقهن أفراداً أو جماعات يتسـلين بتطريز ثيابهن بخيوط الفضة والذهب أو ثياب أبنائهـن أو أخوتهن بخيوط الحرير البيضاء والحمراء. أو يقضيـن الوقت بقراءة القصص أو تبـادل الزيارات فيما بينهن داخل القصر.

وتلتصق الشـابات اليافعات من بنات القصر ممن لا عمـل لهن بنوافذ غرفهن يتفرجن على المارة والسـابلة يرضين غرورهـن بما يرتفع إليهن من حين إلى آخر مـن نظرات اللهفة والإعجاب. وكانت هذه الجلسـات مصدر متعة وسرور للشابات الحسـناوات كما كانت مصدر قلق للأمهات والعمات المجربات والفطنات إلـى نتائج أمثال هذه الجلسـات واللواتي كن يتلطفن بأنواع الحيل لإبعاد الجالسة عن مرصدها الممتع.

وهكذا ينتصف النهار. ويكـون الرجال قد أكملـوا واجباتهم وزياراتهم والنساء قد أرسلن رسلهن برسائل شـفوية إلى صديقاتهن. يخبرهن فيها عن مواعيد المسـاء وتكون السـاعة قد قاربت الواحدة بعد الظهر وتكون صلاة الظهر قـد آن أوانها، وحين تنتهي الصلاة تكون الشـمس قد توسـطت كبد السـماء فينصرف كل فرد إلى غرفته الخاصة حيث يطيب له أن يتخفف من ثيابه عدا قميص واحد ثم يفترش على حصيرة ناعمة لينة الصنع قد نقشـت بالآيات الكريمة تصيداً لقيلولة خفيفة. وبين التناوم والحديث وتناول الفاكهة والحلويات يزحف الوقـت إلى قرابة الرابعة حيث يحـل أوان صلاة العصر (الصلاة الثالثة) وبعد أدائها نعود إلى غرفنا لنتزين بكامل زينتنا ونعاود زيارة الوالد لتحيته تحية المسـاء، وكان الكبار منا ينادونه بلفظة «أبي» أما الصغار وأُمهاتهم فينادونه «سيدي».

ويحلُّ الآن وقت الوجبة الثانية والأخيرة والتي تجتمع من أجلها العائلة كلها وبعد انتهائنا يرتب الخدم الكراسي في الشرفة الواسعة، ولكن لجلوس الكبار فقط، أما صغـــار القوم فيظلوا واقفين توقيراً لمن هم أكبر منهم ســـناً، وللســـن احترام بالغ في الشـــرق ليس لدى غيرهم من الأمـــم مثله فالأصغر يحترم الأكبر ولا يتقدم عليه في شيء.

وهناك في الشـــرفة تتحلق العائلة حول السلطان ويقف بعيداً عنهم صف من العبيد المسلحين هم حرس السلطان وتدار على الجالسين القهوة وعصير الفواكه وتمتزج بأحاديثهم نغمات تنبعث مـــن أرغون فخم كبير ـ هو أكبر ما رأيتُ من نوعه في حياتي ـ أو قطعة موسيقية تنطلق من الصندوق الموسيقي أو قد يستعاض عن هذا كله بغناء شجي حنون ترنمه فتاة عربية عمياء، إسمها عامرة وهبها الله صوتاً جميلاً وأداءً شجياً.

وبعد ســـاعة وبعض الســـاعة يتفرق الجميع ويذهب كل في سبيله الذي يختار، وكان مضغ البيتل[1] هواية شائعة في أوقات الفراغ في مثل هذا الوقت من النهار وهو عادة سواحلية يمقتها العرب سكان شبه الجزيرة العربية ولكننا نحن الذين نشـــأنا بين الزنوج والمولدين اعتدنا عليها، رغم اســـتنكار أهلنا الآسيويين لها، ومع هذا فقد كنا نمضغ هذا النبات خلسة وفي غياب السلطان الذي حرم تداوله.

❁ ❁ ❁

وبمختلف الهوايات وأنواع النشـــاط تنقضي الفترة القصيرة التي تفصلنا عن الغروب ويعلن عن غروب الشمس بإطلاق الرصاص وضرب الطبول من

---

(١) البيتل: نبات ثمرته حادة الطعم يمضغها الإفريقيون وســـكان القارة الهندية وهي ذات تأثير مخدر نوعاً ما.

قبل الحرس الهندي الخاص، وهذا الإعلان يعني أيضاً حلول صلاة المغرب، ويسرع الجميع لأداء هذه الصلاة الرابعة في موعدها المحدد لينصرف بعدها كل أمـا لزيارة الغير أو اسـتقبال الـزوار من الإخوان وزوجـات الأخوة أو زوجات الأب، حيث يزجى الوقت بالمرح والسرور بين أحاديث تدار ونوادر تروى وقصص تقـرأ، أو بين الخياطة والحياكـة والتطريز أو لعب الورق في بعض الأحيان (ولكن دون نقود أو رهان) أو بين الغناء والاستماع إلى عزف الزنجيات علـى آلات طربهن الوطنية، وتدور بين هـذا وذاك فناجين القهوة وكؤوس عصير الليمون وصحون الفاكهة والحلويات.

وفي حوالي الساعة السـابعة والنصف يرتفع الأذان لصلاة العشاء وهي الصلاة الخامسـة والأخيـرة ولكن هذه الصـلاة لا تقطـع اجتماعات القوم وأحاديثهم فقد أباح الشرع تأجيل أدائها إلى أي وقت قبل النوم.

ويبدأ وقت النوم في الساعة العاشـرة للذين لم تتح لهم فرصة الزيارة أو اسـتقبال الزوار، أما من عداهم فقد يمتد بهم السـهر إلى منتصف الليل أو بعده بقليل.

وليس للأطفـال عادة النوم المبكر أو في سـاعة معينة بـل ينام كل في الوقت الذي يريد، بـل وفي المكان الذي يريد، ثم يتولـى العبيد نقله برفق وهدوء من ذلك المكان إلى فراشه المعتاد.

وقبل الذهاب إلى الفراش يصرف الخدم من الرجال للالتحاق بعوائلهم التي تسكن بجوار القصر ثم تُطفئ الشـموع في حين تبقى الفوانيس الفضية مضاءة حتى مطلع الفجر. وتذهب السـيدات إلى فراشـهن بكامل لباسـهن وحليهن كما قلت ذلك من قبل، وتصحب السـيدة ذات اليسـار إلى فراشها وصيفة أو وصيفتين، وكما تعمل أصابع الوصيفـات في الصباح الباكر على

بعث الحيوية والنشاط في جسم السيدة الراقدة وإيقاظها من سباتها اللطيف وأحلامها اللذيذة فإن أصابعهن تعمل في هذه الساعة المتأخرة من المساء على بعث الراحة والاسترخاء في جسم سيدتهن حتى تستسلم لسلطان الرقاد ولذيذ الأحلام، وتنسحب بعدها الوصيفات إلى فراشهن.

وبعد فمن الخطأ الكبير القول بأن ليس لدى المرأة الشرقية ما تعمله طيلة يومها فصحيح أنها لا تعمل خارج بيتها لعدم حاجتها للعمل وصحيح أنها لا ترسم أو تعزف على البيانو أو ترقص (كما هو مفهوم الرقص عند الغربيين) أو ترتاد حفلات الليل. ولكن هذه الأمور ليست هي كل الوسائل المتيسرة لقضاء الوقت بل أن هناك وسائل أخرى غيرها. وإذا كانت المرأة الأوروبية تمارس هذه الهوايات والأعمال بحثاً عن السعادة أو جرياً وراء اللذة فنحن الجنوبيات سعيدات وراضيات بحياتنا ولا نعرف هذا اللهاث المسعور وراء المال والملذات ولا نقره ولا نرضى به ولا يهمنا بعد ذلك أن تتهمنا المرأة الأوروبية بالتخلف والجمود.

❁ ❁ ❁

واستكمالاً للحديث عن حياتنا اليومية لا بد لنا من تفصيل الكلام عن الطعام ومراسمه في قصر أبي في زنجبار وكما سبق وقلت فإن وجباتنا الرئيسية كانتا إثنتين. ففي التاسعة صباحاً كنا نجتمع في البهو الكبير لنقبل يد الوالد. والقاعدة العامة أن يجتمع كل أنجال السلطان وأحفاده إلى مائدة الإفطار حين يكون السلطان في القصر حتى بالنسبة لأولئك الذين يسكنون في بيوتهم الخاصة خارج القصر. ولا أذكر إن أبي ذهب يوماً إلى بيت أحد منهم لتناول الطعام.

ولم يكن لدينا ـ وربما كان هذا هو الحال في كل بيوت الشرق ـ غرفة

خاصة للطعام، بل كنا نتناول وجباتنا أما في الشـرفة الفسيحة أو في إحدى صالونات القصر حيث تنصب السفرة وتصف عليها أصناف الطعام، والسفرة هي ما يقوم مقام طاولة الطعام وهي طاولة تشبه طاولة البلياردو إلا أنها ـ أي: السـفرة ـ في ضعفي طول طاولة البلياردو وفي ضعف عرضها. ولكنها أوطأ منها كثيراً إذ لا ترتفع عن الأرض أكثر من ثلاثة إنشات.

ومع أن بيتنا يحـوي الكثير من الأثاث الأوروبي كالكراسـي والأرائك والطاولات وحتى خزانات الملابس، إلا أننا رغم هذا كنا نتناول طعامنا على الطريقة الشرقية الصحيحة جلوساً على الأرض فوق السجاد أو الحصران.

وكانت أفضلية السن والمقام أمر واجب الاتباع بكل دقة وصرامة. فكان السـلطان يجلس إلى صدر المائدة وإلى جانبيه أبناؤه الكبار حسب أعمارهم ويليهم في طرف المائـدة صغارهم ممن تجاوزوا السـابعة مـن أعمارهم. وتحوي المائدة أصناف عديدة من أطباق الطعام تبلغ الخمسـة عشـر صنفاً وأكثر. والرز هو قوام الطعام وسيد كل وجبة باستثناء الإفطار وتتنوع أشكال طهيـه وإعـداده تنوعاً لا حصر لهـا. وبالنسـبة للحوم يفضـل لحم الضأن والدجـاج وتقدّم الأسـماك بكثرة كمـا يقدم الخبـز الشـرقي والمعجنات والحلاوة. وخلافاً للطريقة الأوروبية فإن الطعام يصف على السـفرة قبل أن يجلس إليهـا أي أحد وهذه الطريقة تغني عن الخدمة، لهذا ينسـحب الخدم إلى طرف ناءٍ من المـكان ولكنهم يظلون متأهبين لتلبيـة الأوامر. وكثيراً ما يرسـل السـلطان أحدهم بصحن مختار من الطعام أو بقطعـة من الحلوى اللذيذة إلى أحد أطفاله الذين لا يؤهلهم سـنهم للجلوس إلى مائدة السلطان أو لأحـد المرضى من أفـراد عائلته. وإنـي لأذكر ركنـي المفضل في بيت المتوني حيث كانت تصل إليّ فيه الأطباق الشـهية التـي كان يختارها إليّ السـلطان، ومع أننا نحن الصغار كنا نأكل نفس أصنـاف الطعام الذي يقدم

على المائدة للكبار، إلا أنه من دواعي الفخر والسرور للواحد منا أن يكون طعامه مما يختاره ويخصه به السلطان نفسه، وكان هذا العمل يدخل السرور والبهجة إلى قلب السلطان أيضاً.

وعند الجلوس على المائدة وقبل البدء بتناول الطعام يردد الجميع بصوت خافت ولكن بنبرات واضحة «بسم الله الرحمن الرحيم» وعند الانتهاء من الأكل يردد المرء كلمات الحمد والشكر لله كقوله الحمد لله رب العالمين.

وكان أبي هو أول من يأخذ مجلسه على المائدة ثم يتبعه الجميع حسب أقدميتهم وكان هو أول من ينهض عنها. وليست لدينا عادة تخصيص صحن لكل فرد بل إن جميع الأطباق ـ عدا الرز تقدم في صحون صغيرة تصف بانتظام في جميع أطراف السفرة، بحيث يستطيع أن يشترك كل إثنين بالأكل من صحن واحد. ولا تدار المشروبات مع الأكل وإنما يقدم الشربت بعد الطعام. كما إننا لا نعرف عادة وضع الزهور أو الفواكه على السفرة وليس من العادة تبادل الحديث أثناء الأكل إلا إذا أراد السلطان نفسه أن يتكلم. وما عدا ذلك فيزين الصمت على الجميع وهو أمر مريح على كل حال.

وقبل تناول الطعام وبعده يطوف علينا العبيد حاملين أباريق الماء والطشوت[1] الصغيرة والمناشف لنغسل أيدينا قبل الأكل وبعده، وذلك أن أداة الأكل الشائعة عندنا هي الأصابع وقد نستعمل الملاعق نادراً، أما الشوكات والسكاكين فلا نضعها على المائدة إلا إكراماً للضيوف الأوروبيين حين يتناولون معنا الطعام. وبعد غسل الأيدي بالماء نعطرها بماء الورد أو الكولونيا.

---

(١) مفرده طشت وهو إناء مصنوع من الحديد أو البلاستيك يوضع فيه الماء الذي غالبًا ما يستخدم للنظافة الشخصية، ويكون شكله في معظم الأحيان دائريًا أو مربعًا.

وبعد إتمام الوجبة بحوالي نصف ساعة يدور الخدم علينا بالقهوة المكاوية الأصيلة في فناجين صغيرة فوق صحون من الذهب والفضة. والقهوة في الشرق كثيفة لزجة ولكنها خالية من الشوائب تماماً، وتُشرب لوحدها بلا حليب ولا سكر، وتصب القهوة في الفنجان قبل شربها مباشرة وهي عملية تحتاج إلى مهارة خاصة لا ينهض بها إلا قليلون ويحمل المقهوي دلّة القهوة المصنوعة من النحاس بيده اليسرى في حين يمسك بيمناه فنجاناً واحداً موضوعاً في صحنه، ويسير إلى جانبه مساعده الذي يحمل صينية ملأى بالفناجين الفارغة مع دلّة أخرى مملوءة قهوة. وإذا تفرق القوم فعلى هؤلاء المقهوية أن يدوروا عليهم فرداً فرداً ويسقوهم هذا الشراب الأسود اللذيذ، والكل يعرف مقدار اهتمام الشرقي بالقهوة وعنايته بصنعها، فهي تُحمص وتُطحن وتُغلى حين تُطلب ولذلك فهي جديدة دوماً ولا تُخزّن القهوة المحمصة أو المطحونة أو المغلية بل تُرمى جانباً أو تُعطى للخدم.

ولا تختلف وجبتنا الثانية وهي الأخيرة التي تكون في حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر عن الوجبة الأولى في مراسيمها وترتيباتها ولذا فلا حاجة إلى إعادة الكلام عنها.

وفيما عدا هاتين الوجبتين فهناك أطباق من الحلويات وكؤوس العصير تدار على الحاضرين بين الحين والآخر في مجالسهم واجتماعاتهم.

❁ ❁ ❁

أم وطفلها في زنجبار

الفصل السابع
ولادة الأطفال وتربيتهم

ولادة طفل جديد في أية عائلة حدث سعيد تبتهج له الأُسرة ويحتفي به الوالدان وكذلك كان الأمر في بيتنا، فعلى الرغم مما يحركه مثل هذا الحدث من عقارب الحسد والغيرة في نفوس بعض نساء القصر، فقد كان مناسبة سارة يفرح لها السلطان وأُم الوليد ويحتفلان بها. والحق أن الفرحة بهذه المناسبات لم تكن لتقتصر عليهما فقط. بل كنا، نحن الصغار والصغيرات، نشاركهما البهجة والسرور لما تنطوي عليه هذه المناسبات من أفراح ولياليِ ملاح كنا نحن قطب الرحى فيها وأكثر المستمتعين فيها حبوراً وهدايا وحلويات، ولذلك كنا ـ أولاد السلطان وبناته ـ ننتظر باللهفة قدوم كل أخ جديد يزيد في عددنا، ولم يكن انتظارنا ليطول إذ كانت الزيادات لا تقل عن الستة في كل عام.

❁ ❁ ❁

وعملية الولادة إمتحان شاق للأُم والطفل معاً، فلا وجود في بلدنا للطبيب المولد ولا علم لقومنا البتة بوجود مثل هذا الكائن. وحتى لو عرفوا به فإن التقاليد لا تسمح لرجل أن يمارس هذه المهنة ذات الطابع النسائي

الخاص. ولهذا تستعين الأُمهات عند الولادة بالقابلات الهنديات، ويفضلهن نساؤنا على القابلات العربيات والسواحليات لأسباب أجهلها، وإن كن كلهن سواء في الجهل الأعمى وانعدام الخبرة وقذارة الأساليب. وقد حدثتني بعض صديقاتي المتزوجات عن الطرق البدائية والأساليب الوحشية التي تعمد إليها هاته الدايات في التوليد مما يجعل من هذه العملية إمتحاناً عسيراً ويجعل سلامة الأُم وطفلها من هذه العملية معجزة يعود الفضل فيها إلى الله تعالى ولقوة بنيان أجسامهم.

❁ ❁ ❁

فإذا انتهت هذه العملية بسلام وخرج الوليد إلى الحياة حيّاً سليماً، فأول ما يستقبل به الحياة أن يُغسل بماء فاتر ويرش عنقه وما تحت إبطيه وما بين فخذيه بمسحوق عشب معطر ثم يوضع الطفل في الفراش على ظهره وتمد ذراعاه ورجلاه بصورة مستقيمة، ثم يشد جسمه كله في رباط قوي من قدميه حتى كتفيه، وتلف أطرافه كلها مع جذعه، ويبقى الطفل في أسره هذا أربعين يوماً كاملاً لا يخرج منه إلا عند الاستحمام وهو مرتين في اليوم. والقصد من هذه الرياضة أن يكون للطفل قوام مستقيم جميل.

وتتولى الأُم رعاية طفلها بنفسها وأن كثر عدد الخدم عندها. ويقتصر عمل الخادمات على هزّ المهد الخشبي الواسع، الجميل الصنع، والذي تغطيه كلة فضفاضة خفيفة بيضاء، ونادراً ما تهزّ الأُم مهد إبنها بنفسها فإذا ما فعلت ذلك فللتسلية والترويح عن النفس.

وإذا كان الوليد بنتاً خرمت أذناها في اليوم السابع بإبرة حادة، ووضعت فيها خيوط حريرية ترفع بعد أسبوعين لتحل محلها الأقراط التي تبقى معلقة إلى الأبد لا ترفع إلا أيام الحداد فقط.

وعند بلوغ الوليد الأربعين من عمـــره يجري له احتفال فريد من نوعه لا وجود مثله البتة في أوروبا، وهو الاحتفال بحلاقة شعر الرأس.

وقد يبدو هذا أمراً غريباً بالنسبة للقارئ الأوروبي ولكن الأمور كثيراً ما تختلف اختلافاً بيّناً بين أهل الشـــمال وأهل الجنوب. فالطفل الذي يولد في الجنوب خفيف شـــعر الرأس أو قليله ينظر إليه بنفس عين الاستغراب التي ينظر بها هنا للطفل المولود بشعر كث طويل.

وما زلت أذكر اســـتغراب مربية أطفالي الألمانية من شعر طفلتي الأسود الكث وكيف أنها ظلت تنتظر بفارغ الصبر عودة زوجي إليها بفرشـــاة الشعر التي طلبتها.

وتتم عملية الحلاقة وفق مراسم معينة تتم في جو عبق من روائح البخور الهندي ويحضرها ثلاثون أو أربعون شـــخصاً ليشـــهدوا كبير الخصيان يقوم بكل دقة وانتباه بمهمة الحلاقة وهي مهمة غريبة عليه لا يمارسها إلا في هذه المناســـبات فقط وبشـــكل لا يخلو من الخطر على جمجمـــة الوليد الغضة. ولكنه يقدم على هـــذه العملية آملاً في هدايا الســـلطان الكبيرة في مثل هذه المناسبات.

وللشـــعرات الأولى من رأس الطفـــل مقام خاص، فلا يجـــوز حرقها أو رميها بل يجب الاحتفاظ بها أو دفنها في موضع معين في التراب أو في شق من شقوق الجدران، إتقاءً للعيون الحاسدة.

وفي هذا اليوم ذاته، يفك الطفل من رباطه ويرتدي قميصاً حريرياً وطاقية ذات ضفائر ذهبية، وإن كان بنتاً أضيفت إليه الأقراط والأساور والخلاخيل.

وفي هـــذا اليوم يخرج الطفل مـــن عزلة النفاس، فتجـــوز رؤيته للجميع بعدما كانت رؤيته مقصورة على والديه وخدمه فقط.

ولا أشـك في أن الأطفال في الشرق بملابسـهم البيض الشفافة يبدون أجمل من الأطفال في أوروبا بملابسـهم الكثيرة الثقيلة، ولم أغير رأيي هذا رغم بقائي في ألمانيا سـنين عديدة، وفي الواقع كنت أستفظع رؤية أطفالي بملابسـهم الأوروبية الثقيلة وأنا أقارنهم بأولاد إخواني وأخواتي بملابسهم الشفافة الجميلة.

وكان العطر يُسـتعمل بكثرة في زنجبار. فجميع ملابس الطفل ومناشفه وفراشـه وثيابه تُعطر بدهن الياسـمين المنعش ثم بالمسـك والعنبر قبل أن يستعملها، ثم يُرش عليها بعدئذٍ عطر الورود، ويجب أن نذكر هنا أن الأبواب والشـبابيك تبقى مفتوحة طيلة العام تقريباً فيخفف هذا من وطأة ما قد ينجم من كثرة التطييب.

ويُسـتعمل الحجاب، أو التمائم، لحمايـة الطفل من العيون الحاسـدة وكانت تُسـمى «حماية أو حرز» وهو بالنسـبة لأبناء الطبقة الوسـطى كيس جلدي صغير يربـط على الذراع الأيسـر ويحوي بصلة وثومـة وعظماً ـ أو صدفة ـ، ويستعاض عن هذا الحجاب لدى أبناء الطبقات العليا بآيات قرآنية منقوشـة على قطعة من الذهب أو الفضة تتدلى بسلسـلة فـي عنق الطفل، ويسـتمر الطفل الولد في حمل هذه إلى سـن معينة أما البنت فتبقى تحملها كما تحمل «الحرز» وهو كتاب صغيـر طوله إنجان وعرضه إنج واحد يوضع في صندوق من الذهب والفضـة ويعلق في الصدر بسلسـلة ذهبية. والذين يحملون في أعناقهم أو أيديهم أسماء الله تعالى لا يجوز لهم الدخول بها إلى الأماكن غير الطاهرة، وهذا دليل على احترام المسـلم وعظيم تقديره لخالقه تعالى.

ويُعطى الأطفال إلى جانب حليب أُمهاتهم، حليب حيواني يغلى مع الرز المطحون والسـكر ويصب في أكـواب ذات مصب رفيع ولـم تكن قناني

الرضاعة معروفة في أيامي، ولا يعطى الطفل طعاماً آخر حتى تبدأ أسنانه بالظهور فيباح له آنذاك أن يأكل ما يشاء. ولم يكن من العادة حمل الطفل كثيراً بل كان يفضل تركه على سجادة وسط الغرفة ليبهج قلوب محبيه بحبوه ولهوه.

ويُحتفى بالطفل حين يبدأ أولى محاولاته للجلوس، فيلبس الطفل وأُمه ومربيته أزهى ثيابهم ويجلس الطفل على عربة متوسطة الحجم، لها عجلات صغيرة واطئة، وتُفرش بالوسائد والفرش وتُمد رجلا الطفل على عارضة خشبية تمتد أمامه، ثم تقوم إحدى الهنديات بتحميص الذرة بطريقة خاصة تحيل الحبة الواحدة منها بيضاء بحجم حبة العنب، تمزج الذرة بالنقود الفضية وينشر هذا الخليط النفيس فوق رأس الطفل الغافل عن أمره فيتسابق إخوته وإخوانه الصغار لجمع ما يتيسر من النثار الثمين.

ويبقى الأطفال حفاة حتى يبلغوا السن الذي تستطيع فيها أقدامهم لبس النعال أو القبقاب، والأولى وهي جلدية للأولاد والثانية خشبية للبنات أما الجواريب فلا يرتديها ولا يعرفها كلا الجنسين في كل الأعمار، لكن السيدات ذوات المقام قد يلبسنها عند ركوب الخيل، لأن الواجب ستر الرجلين والركبتين.

وعندما يبلغ الطفل شهره الثالث أو الرابع تكبر حاشيته فيضاف إلى مربية الطفل خادمتان تبقيان ملكه منذ ذلك اليوم. وكلما كبر الطفل ونما استحق خدماً أكثر، فإذا مات أحد الخدم عوضه عنه أبوه بآخر أو بمبلغ مجز من المال ويبقى الأولاد مع نساء القصر حتى السنة السابعة من أعمارهم حيث تجرى عملية ختانهم باحتفالات باذخة تطول ثلاث أيام ويحضرها السلطان وعلية القوم وفي هذا العمر يمنح الطفل حصاناً خاصاً ليصبح ملكه وذلك لكي يتعلم الفروسية في سن مبكر، والواقع أن الواحد منهم ليبرع في

هذا المجال قدرة ورشاقة لا تتوافر إلا في الفرسان المحترفين في ساحات السيرك.

ولم يكن ركوب الخيل رياضة بدنية فحسب بل كان ـ فروسية ـ بمعناها الشامل وكان بروز الرجل بين صحبه يقاس بمقدار ما يبرز في هذه الرياضة وكان أبي يهتم فيها اهتماماً خاصاً ويراقب بنفسه كفاءة أبنائه وحاشيته ويقوّم أخطاءهم.

❁ ❁ ❁

ومربية الطفل لها مقام خاص فهي تبقى ـ حتى وإن عملت لفترة قصيرة ـ محل التقدير والاحترام طوال حياتها. وجميعهن في الغالب من العبيد الرقيق إلا أنهن يعتقن جزاء إخلاصهن وعملهن ولكن من النادر أن تترك إحداهن الدار حتى بعد تحررها. وتستطيع الأُم أن تطمئن إلى ترك طفلها بيد المربية التي لا تقل حرصاً عليه ورعاية له عن أبويه.

وما أوسع الفرق بين هذه العناية والإخلاص وبين الإهمال وقسوة القلب لدى المربيات الألمان، وكم كدتُ أن أخرج من طوري وأنصب على هؤلاء اللئيمات تعنيفاً وزجراً وأنا أشاهد في الشارع قسوتهن على من في رعايتهن من الأطفال الأبرياء. وقد يكون لهاته القسوة بعض العذر، فإن الحاجة قد اضطرت الواحدة منهن أن تترك طفلها في بيتها وحيداً، وربما مع أُمها العجوز لتقضي يومها ترعى طفلاً آخر لا تحس نحوه بأية عاطفة. وهنا يكمن الفرق بين سلوك المربيات الغربيات والمربيات السود.

فالمربية السوداء ليست غريبة عن سيدتها بل لا بد وأنها قضت في بيت سيدتها عمراً طويلاً، إن لم تكن قد ولدت فيه وعاش فيه أبواها، فهي لذلك تعتبر نفسها فرداً من أفراد العائلة، والأمر الثاني هو أن المربية السوداء لا

تفصل عن طفلهـا، بل يبقى معها في نفس البيت، ينـال نفس الرعاية ونفس الغذاء الذي يناله ابن سيدتها، ويغتسـل معه في نفس الحمام ويلبس ملابسه التي يسـتغني عنها، وحتى إذا انتهت فترة الرضـاع فيبقى الإثنان رفيقين في اللعب وأخوين بالرضاعـة. لا تنقض أخوتهما إلا أحـداث الزمان ولا يهدم إخلاص أحدهما للآخر إلا وسوسة الشيطان وأصحاب السوء.

ولعل هذا النظـام العائلي هو الذي يجعـل المربيات في الشـرق أكثر إخلاصاً وأشـد تفانياً في واجبهن من رفيقاتهن في أوروبا، والذين رغم كثرة نواقصهن يثيرون شـفقتي لتركهن أطفالهن من أجل المـال. وقد قيل لي أن هؤلاء النسوة لا يشـعرن بهذه الغصة كما أشعر بها أنا، ولكن لا أصدق هذا. وأعود إلى مربياتنـا فأذكر لهن خصلة سـوء هي سـردهن للأطفال قصص العفاريـت والجان أما لتسـليتهم أو لتخويفهم، فالأسـود والذئاب والضباع والسعالي والغول والتنين والسـاحرات وغيرها هم دوماً أبطال هذه القصص الذي يقف لها الشـعر رعباً وتشـيع الذعر والخوف في نفوس الأطفال، وقد فشلت جميع محاولات الزجر أو النصح في تغيير هذه العادة السيئة.

وعلى العموم فإن تربية الطفل في الجنوب أسهل منها في الشمال، فهي على الأقل تخلو من نزلات البرد التي تؤدي بالطفل في كثير من الأحيان إلى أسـوأ النتائج والأطفال هناك أكثر نشـاطاً وأكثر اعتماداً على أنفسـهم رغم حياتهم المترفة وفرصهم أكثر للهروب من البيـت واللعب خارجه، ومع أن رياضة الجمباز لا وجود لديها عندهم فإن أعمال الفروسية والقفز من حصان إلى آخر من الأمـور الاعتيادية التي لا تثير الغرابة عنـد أحد، والقفز العالي بالحصـان أمر يتبارى فيه الأطفـال ويحاول كل أن يبز أخاه فيه، والسـباحة هواية شـائعة أخرى ويتعلمها الأطفال مـن تلقاء أنفسـهم, والتدريب على السـلاح والرماية يقبل عليه بكل حماس، ومع أن الأولاد يذهبون مسلحين

بكامل السلاح من البارود والرصاص فلم يسمع بحادث واحد وقع نتيجة الإهمال أو عدم الاكتراث.

وإذا بلغ الأمير سناً معيناً خرج من رعاية أبيه ومنح بيتاً منفصلاً يعيش فيه مستقلاً به وحده أو تشاركه به أمه إن كانت على قيد الحياة أو أخته إن رغبت هي في ذلك. ويجري عليه السلطان مع البيت راتباً شهرياً مقطوعاً يزيد عند الزواج أو كلما يرزق طفلاً أو إذ أبدى من الشهامة أو حسن السيرة ما يرضي أباه الهمام. ويجتمع جميع الأبناء والبنات مع أزواجهم وأطفالهم مرة واحدة في العام على الأقل، في بيت أبينا السلطان حين تصل سفينة البضاعة حيث يأخذ كل نصيبه من الكسوة وحيث يتسع المجال لطلب الزيادات من الوالد!

وإذا نشبت الحرب في عُمان، وهو أمر مع الأسف دائم التكرار، فعلى جميع الأمراء أن يلتحقوا بالقوات المحاربة وأن يحاربوا كما يحارب الجنود الآخرون. ولا شك أن الضبط التربوي في بيتنا صارم ودقيق، لكن الهدف منه هو رفع مكانة السلطان في عيون أبنائه وزيادة احترامهم له. وكنت غالباً ما أشاهد أحد إخوتي الكبار، إذ يستبطأ قدوم الخدم، ينهض ليجلب بنفسه لأبيه نعاله الذي تركه في باب الغرفة عند دخوله إليها.

وليس لي ما أقوله عن تربية الأميرات إلا النزر القليل. فهن ينشأن ويتربين مع الأولاد نفس النشأة والتربية حتى أذا بلغوا جميعاً السابعة من العمر كان الأولاد أكثر حرية في اللعب خارج البيت.

وإذا تزوجت البنت أحد أبناء عمومتها، وهم أوفر في عُمان منهم في زنجبار، تنتقل بطبيعة الحال من بيت أبيها إلى بيت الزوجية. لكن بيت الوالد يبقى الملاذ الأخير للبنت في أوقات الضيق والشّدة ترجع إليه على

الرحب والسعة. وإذا لم تتزوج كان لها الخيار في البقاء تحت رعاية أبيها أم حماية أحد إخوتها. وكان لكل أخت أخ مفضل، والعكس صحيح أيضاً، لا فرق أن يكونا من نفس الأم أو من أُمّتين مختلفتين. وكانا يرتبطان بالودّ العميق في السرّاء والضرّاء يحمي أحدهما الآخر ويسنده في كل الأمور. وعلى ما في هذا التقليد من لطف ووداد فقد كان مثار الحسد والخصومات وكل أنواع المشاجرات العائلية.

وكثير ما كان يحدث أن تتقدم إحدى الأخوات إلى السلطان طالبة عفوه عن هفوة أو خطأ ارتكبه أخوها المفضل، وكان السلطان يستجيب لطلبها ويصفح عن ابنه المقصر، وقد كان لأبي ميل خاص إلى بناته وكان كثير الرفق بهن وخاصة الكبيرات منهن، فإذا دخلت للسلام عليه أحداهن نهض إليها وأجلسها معه على الأريكة حين أن الفتيان من أبنائه ونحن الصغيرات من بناته نظل في مجلسه واقفين بكل رهبة وخشوع لا ننبس ببنت شفة إلا أن نجيب على ما يوجه إلينا من أسئلة.

❁ ❁ ❁

الفصل الثامن
المدرسة والتدريس

ليس للمدرسة كبير أهمية في حياة الشـــرقي على العكس من الأوروبي الذي تلعب المدرسة دوراً أساســياً في حياته، أميراً كان أم من عامة الشعب. فهي ـ هنا في أوروبا ـ العامل الأول في إعلاء شخصية الفرد وتوسيع أدراكه وتطوير حياته وتحقيق طموحه، وليس الأمر كذلك في الشرق. فالمدرسة أمر ثانوي القيمة لعلية القوم ولا قيمة له لغالبية الناس.

وقبل الاستطراد في هذا الكلام لا بد لي أن أبدأ بوصف «المدرسة»، كما كانت في بيتنا في زنجبار.

تعتبر الدراسة في بيوت الســلطان إلزامية على كل من بلغ السادسة من عمره ولداً كان أم بنتاً، ودون أي أســتثناء. وكان السلطان شديداً صارماً في قضايا التعليم لا يقبــل من ابن عذراً ولا يغفر له شــكوى تقــدم ضده من معلمه.

ويقتصر تعليم البنات على القراءة فقــط ـ في حين يتعلم الأولاد الكتابة والقراءة معاً. وكان في بيت المتوني معلمة واحدة وأخرى في بيت الساحل، وكلتاهما جاءتا من عُمان بأمر من والدي. وكانت معلمتنا في بيت الســاحل

ضعيفة العود غير قوية بنيان الجسم، فكانت تلزم الفراش بين وقت وآخر، وكانت أيام وعكاتها أيام عطلنا غير المنتظرة فكنا نتمنى لها اشتداد البلاء وتأخر الشفاء.

وكان ما نسميه «المدرسة» مكاناً نائياً في الشرفة الكبيرة يشاركنا فيها الحمام والطواويس والببغاوات وكانت تطل على ساحة القصر الصاخبة فكنا نمتنع أنفسنا بمراقبة حركات الناس في الساحة تحتنا.

وكان أثاث «المدرسة» حصيرة كبيرة تُفرش في أرض الغرفة كلها، وبهذا الشكل من القلة والبساطة كانت أدواتنا المدرسية فهي نسخة من القرآن مع مسنده. ودواة حبر صغيرة (صنع محلي) وقلم قصب وعظم جمل كبير نظيف مصقول حيث تسهل الكتابة بالحبر عليه وهو يقوم عندنا مقام السبورة أو لوح الكتابة ويوفر على أعصابنا صرير القلم على اللوح.

وكانت مهمتنا الأولى في الدراسة أن نتقن مبادئ قراءة الألفباء العربية المعقدة، وكان سبيلنا إلى ذلك قراءة القرآن الكريم، وهو كتابنا المدرسي الوحيد.

وتبدأ المدرسة حوالي السابعة، حيث يلتئم جمع الطلاب في المدرسة ـ الشرفة، وبانتظار قدوم المعلمة، تجري بيننا مختلف ألعاب النط والقفز وأعمال المصارعة واللكم والتسلق على حاجز الشرفة معرضين أنفسنا ما أمكننا ذلك إلى خطر السقوط، وكنا نوكل إلى أحدنا مهمة المراقبة والتنبيه لنا بصفير معين إلى وصول رسولة العلم والعرفان، وما أن نسمع صفيره حتى ينقلب الجو الصاخب إلى هدوء تام، ونكون في أقل من لحظة قد جلسنا على حصيرنا بكل هدوء واتزان وقد ارتسمت على وجوهنا صورة الطاعة والبراءة، ثم ننهض نحيي هذه الطاغية تحية جنائزية المظهر وهي

تدخل علينا والخيزرانة في يمناها ومحبرة نحاسية كبيرة في يسراها. ونظل في وقفة الاحترام حتى تجلس هي ثم تأمرنا في الجلوس فنجلس على الأرض متربعين حول المعلمة. ثم تبدأ هي بقراءة سورة الفاتحة من القرآن الكريم:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

ثم نشترك جميعنا في تكرار قراءة هذه السورة بعدها عدة مرات، ونختم كل مرة منها بكلمة آمين نزعق بها عالية طويلة...

وبعد أن نستعيد دروس اليوم الماضي نأخذ درساً جديداً في القراءة؛ أي: سورة جديدة أو مقطعاً من القرآن الكريم تقرأه علينا المعلمة ونعيده بعدها بأعلى أصواتنا، وكان هذا هو كل شيء فلا شرح ولا تفسير. لذلك لم يكن في بيتنا من يفهم شيئاً مما قرأه أو يستطيع أن يشرح الفكرة أو الحكمة التي انطوى عليها النص القرآني الشريف رغم أن أكثرنا قد حفظه عن ظهر قلب. ويستمر الدرس حتى الساعة التاسعة ثم نعود إليه بعد تناول طعام الإفطار ويستمر حتى الصلاة الثانية حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر.

ويأخذ الأولاد ـ كما قلت من قبل ـ بالإضافة إلى ذلك دروساً في الكتابة كنا نحن البنات محرومين منها.

وكان من المسموح لنا به أن نجلب معنا عبيدنا فكانوا يجلسون عادة في مؤخرة الجماعة في حين كان لنا أن نتربع على البساط حيث نشاء، وكثيراً ما كان هؤلاء العبيد يبزون أسيادهم في الفهم والتعلم.

ولم يكن أسلوبنا الدراسي يعرف شيئاً اسمه «الواجب البيتي» بل كانت علاقتنا الدراسية بالمدرسة تبدأ وتنتهي عند باب الشرفة.

ولم نكن نعرف الامتحانات ونتائجها، بالمعنى المثير المعروف في الغرب، وبالتالي فلم يكن الأبوان ينتظران نتائج الفصل الدراسي لأبنائهما وإنما إذا وجد التلميذ متأخراً جداً في دروسه أو مبرزاً فيها بشكل واضح، وإذا كان حسن السلوك أو سيئه فإن المعلمة تخبر أم التلميذ أو أباه السلطان بذلك شفاهاً، وكانت أوامر أبي الشديدة أن نعامل بالسوية وأن يطبق علينا أشد ما نستحقه من عقاب على كل مخالفة نرتكبها، ولهذا وتجاه تصرفاتنا المشاكسة فإن المعلمة لم تجد من سبيل للتفاهم معنا إلا عصاها المؤذية.

ومهما تكن المعلمة مرعبة وممقوتة أيام الدراسة فإنها تبقى محل الإكرام والاحترام من تلامذتها الأمراء والأميرات ويظلون طيلة حياتهم يمحضونها الودّ والتبجيل، ويكون لها في كل بيت مقام خاص يؤهلها للتدخل في الشؤون العائلية وإزالة الخلافات بين الأخوات ـ تلامذتها القدامى ـ وهي بهذا تشبه الآباء الروحانيين في أوروبا.

وإلى جانب القراءة والكتابة كنا نتعلم بعض مبادىء الحساب وهو عد الأرقام وكتابتها من الواحد إلى المائة، وحفظها دون كتابتها من المائة إلى الألف، وما زاد عن ذلك فيعتبر من النوافل. ولم يكن يعني بالنحو والخط، أما عن التاريخ والجغرافيا والفيزياء والرياضيات فإنني لم أسمع بهذه المعارف إلا بعد وصولي إلى هذه البلاد. وانكبابي على تعلمها انكباباً مضنياً، ولكن السؤال الحائر هو هل أني أصبحتُ الآن وبعد هذا الجهد المضني أحسن حالاً أو أكثر ذكاءً من رفيقاتي في ذلك الجزء من العالم اللواتي لم يسمعن بهذه العلوم؟، وكل ما أستطيع الرد به هو أن اكتساب هذه

العلوم لم يحمني من التعرض لضروب الفشل والاستغلال ومن أناس يتقنون هم أيضاً هذه العلوم والمعارف.

فيا أيتها النفوس الحبيبة الصافية السعيدة في بلادي الجنوبية... انعمي بجهلك معارف الكيمياء والفيزياء وفلسفة اليونان وتاريخ الرومان وثقافة الغرب، فأنكم لا تستطيعون أن تتصوروا ما يرتكب هنا من أعمال الدس والدناءة باسم الثقافة السامية. وإنني لأقولها بكل صراحة وصدق بأنني لم أتعرض في كل حياتي لأسوأ ضروب الابتزاز والاستغلال وأدنى أساليب الغش والاحتيال كما تعرضتُ لها بعد إتقاني كنوز المعرفة الأوروبية... ومع الأسف على أيدي أربابها وأساطينها.

❁ ❁ ❁

ورغم نقاط الخلاف والتباين بين نظم التعليم هنا وهناك، فهناك صفة مشتركة بين الطلاب في الشرق والغرب ولعلها صفة عالمية عامة لا ينفرد بها شعب معين، هو ميلهم الغريزي إلى إرضاء معلميهم بالهدايا، فعندما يلح عليّ أطفالي لشراء باقة أزهار لمعلمتهم الألمانية السيدة فلانة، فإنه لا يسعني إلا أن أتذكر أيام طفولتي في الزمن البعيد والمكان النائي ـ أيام لم أكن أعرف أن في الوجود شيئاً إسمه ألمانيا أو أوروبا ـ حيث اعتدت كما اعتاد إخوتي وأخواتي على أن نقدم لمعلمتنا أنواع الهدايا من الفواكه والحلويات لكسب رضاها. ولكم ضحيّت بالشوكولاتة الفرنسية النفيسة التي يوزعها علينا أبي وآثرت بها معلمتي العزيزة.

وقد نجحت دبلوماسيتنا معها بادىء الأمر فكسبنا رضاها كما كسبنا نتيجة لم تكن متوقعة هي كثرة العطل، فإن كثرة أكل الشوكولاتة أتلفت أسنانها إتلافاً كبيراً كان يضطرها للانقطاع عن الدروس. وقد أعرضت

بعدئذٍ عن قبول هذه الهدايا للحفاظ على أسنانها وعلى انتظام الدوام في دروسنا!

❁ ❁ ❁

ولم يكن للدرس مدة محددة. فما يجب أن تتعلمه يجب أن تتعلمه سواء اقتضاك ذلك عاماً أم اثنين أم ثلاثة. فالأمر موقوف على قدرتك. ولم تكن الخياطة والتطريز مما يدخل في نطاق المنهاج الدراسي وإنما كانت الأُمهات يتولين تدريب بناتهن على هذا الدرس وكانت أكثريتهن بارعات فيه ومع هذا فبين إخواتي من لا تعرف مسك الإبرة حتى اليوم.

وهناك مدارس عامة ولكنها لأبناء الفقراء فقط، أما القادرون فيستأجرون لبنيهم معلمين خاصين، وقد يقع عبء التعليم في بعض العوائل على عاتق سكرتير أو وكيل أعمال رب العائلة وفي هذه الحالة لا يعهد إليه إلا البنات الصغيرات فقط.

❁ ❁ ❁

ولأنني قد نشأتُ وترعرعتُ وتعلمتُ في بلادي تلك ثم جئتُ بلاد الغرب، وعشتُ فيها أعواماً مديدة وتعلم أولادي في مدارسها ـ فلا بد لي أن أقارن بين نظمنا البدائية التي تعلمت عليها، ونظم التعليم الأوروبية التي يتعلم عليها أطفالي في هذه البلاد. والتباين بين النظامين واضح واسع، فوفرة الثقافة في ألمانيا يقابلها غلبة الجهل في زنجبار. فالوفرة هنا تقابلها الندرة هناك، وأرى أن هذا الخلاف الحاد بين البلادين لن يزول بل يبقى أبد الدهر. إذ يبدو أن كلا من الشعبين غير قادر على أن يتوسط بين الأمرين.

وعلى كل حال فالأطفال هنا تحشى أدمغتهم بأكثر مما تستطيع أن

تستوعب، وتستنفد المدرسة جلّ نهارهم يقضونه في الهرولة من درس إلى آخر ليحشو أدمغتهم بأمور لا نفع فيها وكأن كل الهدف أن يبعثروا أوقات هؤلاء الأطفال الذين لو قضوا جزء من هذا الوقت في بيوتهم لكان ذلك أنفع لهم. فإذا عادوا إلى البيت شغلتهم الواجبات البيتية والتحضير لدروس اليوم الثاني جل المساء فلا يراهم أبواهم في اليوم إلا لماماً. فانفقدت الحياة العائلية وانفقد التأثير الأبوي المستمر والتربية البيتية، وبفقدان هذه وتلك يتعرض أطفال النشىء الجديد إلى مخاطر شتى.

وهذ الوقت المديد الذي يفوق على الخمس ساعات، يقضيه هؤلاء الصغار الرقاق محشورين في مكان ضيق رطب أشبه بالسجن يدعى «قاعة الدرس» وليس معهم إلا كأس واحد يشرب منها مائتا طالب، أفليس هذا مما يقزز النفس وينشر الأمراض، وأي غرابة بعد هذا إذا ما تعاودت الطفل الأمراض وكيف تستطيع الأُم في وسط هذا الجو أن تحفظ لأولادها الصحة والعافية. وبعد أليست مدرستنا في تلك الشرفة الواسعة التي يتلاعب فيها النسيم العليل أصلح مكاناً من مدارس هذه البلاد وأنفع في حفظ صحة التلاميذ وإلا فما فائدة العلم والثقافة إذا ما انهدت الصحة وتحطمت الأجساد.

ولم ألاحظ في مدارس هذه البلاد كبير اهتمام بغرس شعور الاحترام والتبجيل للأبوين والكبار في قلوب الأطفال، فإننا لا نجد عند شباب اليوم في هذه البلاد ذلك الشعور المقدس بالتوقير والاحترام الذي كنا أولاداً وبنات نحمله إلى أبينا وأمهاتنا وإلى كل من هو أكبر منا.

كما أني أرى طريقة تدريس «الديانة» طريقة غير مجدية، بل إنها طريقة محض آلية تقتصر على حفظ كشوف لا تنتهي بالأسماء والحوادث المتعلقة بالتاريخ الكنسي، وكان الأفضل في نظري أن يستعاض عن هذه المعلومات

التاريخية الجامدة بتعليمهم الذهاب المنتظم إلى الكنيسة أو بتنظيم مواعظ حسنة تنمي فيهم روح الفضيلة والتقوى.

إن الدراسة المثالية يجب أن تهدف إلى تنمية العقل والروح معاً. لكن المشاهد هنا إهمال الجانب الروحي الذي يتضاءل على حساب نمو الجانب العقلي. فالإقبال على علم «الكتب» مبالغ فيه في هذه البلاد، حتى أصبح مطمح الجميع أن ينال «الشهادة الجامعية» التي تؤمن له المظهر الاجتماعي وحتى أصبح العمل اليدوي في هذه البلاد غير مرغوب فيه أبداً. وهذه الثقافة الظاهرية التي ملأت المخ وتركت الروح خواء قد زادت من حاجات الناس ومطالب العيش عندهم فزاد اندفاعهم المرير نحو المنافع الدنيوية وزادت مرارة المنافسة بينهم فلا غرابة إذا انحسر الخلق القويم والشرف والورع والقناعة والفضيلة وغطى عليها سوء الطوية والخداع والطمع والحقد والثورة على كل القيم التقليدية والمقاييس المقدسة. ولهذا فإنني أرى علاج الثقافة الغربية يكون في مزيد من الإيمان الروحي والتفكير بقدرة الله وملكوته.

وأنا لا أريد أن أنتقد الثقافة الأوروبية ولست ممن يقدر على ذلك ولكنما حاولت إبداء بعض ما لاحظته على طرق التعليم في هذه البلاد والتي أقنعتني بوجود أخطاء ونواقص مؤسفة في نظم التعليم الأوروبية، كشفت عنها بقصد التنبيه والتحذير. ولكن مما يؤلمني أن أرى الأوروبيين يتحاملون على الإسلام والمسلمين بشتى الأساليب ويوجهون إليهم شتى التهم دون أن يفهموا حقيقة الإسلام والمسلمين فهل لي بعد هذا أن أسأل بأي حق أو مبرر يسوغ الأوروبيون لأنفسهم التباكي على مصير «الشعوب المتخلفة» ومحاولتهم فرض ثقافتهم على تلك الشعوب.

إن الحضارة لا تُؤخذ أو تُعطى بالقوة، بل هي نتاج تجارب وتجاوب

على مرّ القرون ويجـــب أن يترك لكل شـــعب الحق في اتبـــاع قيمه ونظمه الاجتماعيـــة والفكرية التـــي هي خلاصة حكمـــة قومه وتجاربهـــم على مر العصور، فإذا أريد فرض أفكار جديدة على مثل هذا الشعب تخالف معتقداته وتقاليده فإن نتيجتها الفشل والخسران حتماً.

❁ ❁ ❁

زي النساء التقليدي

الفصل التاسع
أزياء النساء في بيوت السلطان

جرت العادة في الغرب أن تذهب المرأة إلى السوق بنفسها لتبتاع ما تحتاج إليه من ثياب بعد أن يدفع لها زوجها أو أبوها كلفتها، ولكن الأمر في زنجبار يختلف عن هذا كل الاختلاف، فلا النساء مسموح لهن بالذهاب إلى الأسواق ولا مخازن كبيرة هناك فليس في زنجبار صناعات أو معامل وإنما تستورد جميع حاجاتها من الخارج.

والنظام الجاري في بيتنا أن يستورد أبونا حاجتنا من الثياب مرة واحدة في العام ويوزعها علينا في يوم معلوم. وعلى هذا فقد وضع أبي نظاماً متقناً للمقايضة والاتجار فكانت سفن أسطوله تمخر البحر من زنجبار محملة بالمنتوجات المحلية وخاصة القرنفل والتوابل قاصدة سواحل إنجلترا وفرنسا وفارس والهند والصين حيث يقوم وكلاؤنا التجاريون في كل من هذه الموانئ ببيع حمولاتها ثم ابتياع ما نحتاجه من منتوجات تلك البلاد. ولدى ربان كل سفينة كشف طويل مفصل بأنواع البضائع المراد ابتياعها من كل بلد يحل فيه، أولها طبعاً وعلى رأسها دائماً الأقمشة والثياب.

وكان توزيع البضائع يجري كما قلت على سكان القصور مرة واحدة في

كل عام بعد وصول السفن بقليل. لذلك فلا عجب إذا ما انتظرنا وصول السفن ببالغ الشوق وفارغ الصبر واستقبلناها بالغبطة والبشر فقد كان وصولها يعني وصول نفائس اللباس والأشياء وتوزيعها علينا ومن ثم افتتاح موسم جديد من مواسم الأزياء والزينة.

وكان وصول السفن يشيع فينا نحن الصغار فرحاً لا يوصف لأنها تجلب إلينا من أوروبا أنواع الهدايا وأشكال اللعب، وما زلت أذكر فرحي الجنوني يوم رأيت لأول مرة في حياتي دمية ترتدي الملابس وتتكلم وتتحرك.

وبعد وصول الأسطول بيومين أو ثلاثة يعلن عن يوم معين لتوزيع الهدايا والأنصبة بين جميع سكان القصور السلطانية الكبير منهم والصغير والرفيع منهم والحقير. وكان الفضول يدفع ببعض إخوتي الصغار إلى الذهاب إلى ربان الأسطول للاستفسار منه عن نوع الهدايا واللعب التي جلبها معه لهم. فقد كان بين ما تحمله هذه السفن عشرون أو ثلاثون صندوقاً مملوءة بلعب الأطفال كالسفن والخيول والعربات والجمال والطيور ومختلف أنواع الحيوان، وكذلك الصناديق الموسيقية من مختلف الأحجام مع مختلف الآلات الموسيقية، كالقيثارات والطبول والمزامير وكذلك البنادق الخشبية والمدافع الصغيرة والسيوف المطاطية وما إلى ذلك من أنواع الدمى واللعب. فإذا لم تحز هذه الهدايا إعجابنا فالويل كل الويل لذلك الربان، فلا عذر له بالتقصير وقد منح تفويضاً شاملاً في أن يشتري أحسن الأشياء بصرف النظر عن الثمن.

ويتم التوزيع في بيتي المتوني والساحل في آنٍ واحد، وتستغرق العملية ثلاثة أو أربعة أيام حتى يتيسر لعشرات المئات من الناس في كل بيت استلام حصصهم.

وكان العبيد ينقلون البضاعة ويفكونها ويرتبونها حسب أنواعها، ثم

تتولى إحدى بنات السلطان الكبيرات، بتفويض من الوالد ـ توزيع الحصص على أصحابها. ويؤسفني أن أقول أن عواطف الحسد والغيرة والطمع كانت تعكر صفو الأفراح في هذه الأيام الجميلة، وكان التوزيع يجري كما قلت على سكان القصور السلطانية مرة واحدة كل عام ويبدأ بجواري السلطان حيث يأخذن حصتهن وحصص أبنائهن الصغار ثم يأتي دور بنات السلطان فزوجات الأبناء وهكذا.

وكانت حصة المرء منا هي كفايته لعام واحد. وكانت الأقمشة الغالية توزع باللفات لكل شخص لفة كاملة. طولها حوالي ٤٠ ياردة، والشخص بعد هذا حر في أن يبادل بعض ما عنده ببعض ما عند غيره. وكانت هذه المبادلات تستغرق أسبوعين على الأقل، فترى النساء مشغولات في حركة دائمة وعمل مستمر، ولعدم وجود طاولات لدينا فكن يجلسن على الأرض ويعملن المقص في تلك الأقمشة النفيسة بعد أن يقسن القطعة منها على أجسادهن الجميلة.

وإضافة إلى الهدايا والأقمشة فقد كان يوزع أيضاً المسك والعنبر وماء الورد والعطور الأوروبية والزعفران (الذي تخلطه النساء بمركبات أخرى ويضعنه على شعور رؤوسهن) وكذلك الحرير بأنواعه مع خيوط الفضة والذهب للتطريز والأزرار المطرزة بالذهب، وبالاختصار كل ما يدخل في زينة المرأة العربية ولباسها، وإلى جانب كل هذا كان كل منا يقبض عدداً من الريالات الفضية ـ ريالات ماريا تريزا ـ يختلف عددها حسب السن والمقام.

وإذا صادف وجود بعض الزائرات لدينا أيام التوزيع وزعت عليهن حصة كاملة كأية واحدة منا.

وقد ساعد على تسهيل مهمة اختيار الملابس قرب بلادنا من المنطقة الاستوائية وغلبة فصل الصيف على بقية الفصول الأخرى التي لا نعرفها إلا

بالاسم فقط، وإلا لو كان علينا أن نغير لباسنا في كل فصل من الفصول الأربعة لتعذر علينا اختيار الملابس لهذه الفصول مرة واحدة كل عام.

وبالمناسبة فكل الشتاء الذي نعرفه هو أسابيع معدودة حيث يكون الجو فيها ممطراً رطباً أكثر منه بارداً تصل درجة الحرارة في مثل هذه الأيام إلى درجة ٧٣ فهرنهايت. ومع هذا فإننا في هذا الموسم نلبس الملابس المصنوعة من المخمل أو غيره من الأقمشة الثقيلة.

وتتم خياطة الملابس باليد. إذ لم تكن ماكنات الخياطة معروفة في بلادنا أيام شبابي. والمرأة في الشرق لم تخضع لجبروت سلطان الموضة، ذلك السلطان الجائر الذي تخر الأوروبيات المثقفات جاثيات أمام جبروت أحكامه، ولذا كان العامل الأساسي في لباس المرأة الشرقية مهما علت منزلتها وزاد ثراؤها هو البساطة. فالزي الذي تلبسه النساء واحد ويتكون من قميص ينحدر إلى ركبتيها وسروال عريض طويل مربوطة نهايتيه عند الكاحل وعصابة من الحرير تلف بها شعرها.

والاختلاف بين أزياء النساء هو في جودة القماش وحسن الذوق في اختيار الألوان وتناسقها. ولا تخضع القمصان والسراويل إلى شكل معين وكل ما يشترط فيه أن لا تكون القمصان طويلة فتغطي الوشي المذهب على السروال، وأن لا يغطي السروال بريق الخلخال الذهبي الثمين الذي يحيط بالساق والذي تتدلى منه أجراس ذهبية صغيرة تبعث رنات عذبة راقصة في كل خطوة تخطوها ربة الدار. وتغطي عصبة الرأس أكثر الجبهة دون أن تؤثر على الحواجب الزج أو العيون النجل ويتدلى من العصبة على الظهر شريطان أنيقان يصلان حتى الأرداف حاملين في نهايتهما المطرزتين بشتى الألوان الزاهية بعض مصوغات دقيقة من الذهب والفضة.

وإذا أرادت المرأة العربية الخروج وضعت عليها «الشيلة» وهي نوع من

الشال أو العباءة وهو قطعة كبيرة من الحرير الأسود والمطرزة جوانبها بخيوط الذهب أو الفضة حسب مقام صاحبتها أو ذوقها، تنسدل فوق المرأة من أعلى رأسها حتى قدميها فتخفيها كلية، ولكن ما من امرأة عربية مهما زاد ثراؤها تملك أكثر من شال واحد تستمر على استعماله ولا تستبدل به غيره حتى يتمزق ويتهرئ.

وبعد فإذا انشغلت المرأة الشرقية بحديث الملابس والأزياء وجدنا لها عذراً من حياتها اللاهية وثقافتها المحدودة وضيق أفقها، ولكن ما يحيرني حقاً إن وجدت منذ قدومي هذه البلاد أن النساء الأوروبيات وهن على مستوى عالٍ من الثقافة والتعليم يشغلن أنفسهن إلى حد الانهماك بأحاديث تافهة حول الأزياء والملابس وكأنهن لا يحسن الكلام عن موضوع غيرها.

ورغم ندرة الشتاء واعتداله عندنا فنحن لم نغفل عن الاحتياط له، فالنساء عندهن «المئزرة» وهو نوع من المعطف البسيط ينسدل من فوق الرأس حتى القدمين ويكون مفتوحاً من الوسط، ويرتبط قسماه بدبابيس معدنية أو ذهبية، أما وسيلة التدفئة لدينا فكانت «المنقلة» وهي إناء مدور من البرونز الأصفر اللماع قطره ١٢ إنج، ويقف على ثلاث قوائم ترتفع عن سطح الأرض بضع إنجات، ويوضع فيه الفحم الحجري الملتهب ويوضع في وسط الغرفة فيشيع فيها الدفء، وفي هذا الوقت بالذات يحين حصاد الذرة فتأتي بالعرانيس نشويها على النار ونلتهمها، وهي تسلية طريفة للصغار والكبار على حد سواء. ولكن مع هذا كله فإن الأبواب والشبابيك تبقى مفتوحة كقاعدة عامة.

❁ ❁ ❁

المزارع في زنجبار

الفصل العاشر
النزهة في المزارع

كان لأبي السلطان خمس وأربعون مزرعة موزعة في أنحاء متفرقة من جزيرة زنجبار، يعمل فيها عدد جسيم من العبيد، إذ كان عدد العاملين فيها لا يقل عن الخمسين عبداً في كل من المزارع الصغيرة ويزيد عن الخمسمائة عبد في كل من المزارع الكبيرة، ويشرف على إدارة كل مزرعة رئيس عربي هو المسؤول الأول عنها ويدعى «الناقورة»[1].

وكان في إثنتين من هذه المزارع قصران مؤثثان صالحان للإقامة الطويلة، وفي سبع أو ثمان منها مجرد بيوت عادية، أما باقي المزارع فلم تكن فيها محلات للضيافة والإقامة.

ولم نكن في أيام أبي نخرج إلى هذه المزارع إلا في مواسم معينة، ولفترات قصيرة فقط. فقد كانت مشاغله الكثيرة تمنعه من الخروج معنا إليها، ولم يكن يطمئن إلى خروجنا وحدنا. ولكننا لم نكن نعدم الوسيلة إلى كسب إذن الوالد بالخروج إلى إحدى هذه المزارع حين كنا ننوي ذلك. فقد كنا، أو بالأحرى كانت بناته الكبريات، وكن ذوات دالة عليه وكان ـ كما

(١) لعل كلمة الناقورة مشتقة من كلمة الناظر العربية.

قلت ذلك من قبل ـ يحبهن ويكبرهن ولا يرفـض لهن طلباً، كن يتلطفن في الاستئذان منه للسماح لنا في قضاء بضعة أيام في هذه المزرعة أو تلك. وكن في النهاية يرجعن إلينا بالموافقة السلطانية على الرحلة المطلوبة.

فإذا تم الإذن المطلوب وجب البدء بالاستعداد للسفر، وكان ذلك يتطلب جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً.

فلم تكن المزارع مهيئة لاستقبال جمعنا الحاشد وإقامته فيها أياماً طويلة، لذا فقد كان علينا أن ننقل إلى المزرعة جميع متطلباتنا من الطعام والشـراب والفراش والآنية، ولم يكن هذا بالأمر اليسـير، فقـد كانت عملية النقل هذه تبدأ قبل سفرنا بأسبوع على الأقل فتسـتمر خلال ذلك الأسبوع كله مواكب المئات من العبيد تزحف يومياً مسـافة العشرة أميال من المدينة إلى المزرعة حاملين فوق رؤوسهم الحليقة ما يراد نقله.

ورغم اضطلاع آغـا الخصيان ورئيس الطباخين بتدبيـر أمر هذه الحملة فقد كانت الفوضى أول قواعدها والتسـيب أبرز مظاهرهـا، وكنا من كثرة ما يكسر أو ما يضيع نضطر إلى إعادة تجهيز نفس الشيء مرتين أو ثلاثاً، وكان المسـتفيد الأول من هذه الفوضى، بل ومن الرحلة كلها هـو ناظر المزرعة المقصودة الذي يضع يـده على كل ما يتلف أو يتخلف من أشـياء عدا عما يحصل عليه من وافر الهدايا وجزيل العطاء.

وفي ليلة السـفر لم يكن ليسـتقر بنا مقام أو يغمض لنا جفن من شـدة القلق والترقب، ولوضع اللمسات النهائية لإجراءات الاستعداد فكنا نفحص حميرنا الجميلة المخضبة ذيولها بالحناء، أو ننقـل حاجاتنا إلى الزوارق إن كانت المزرعـة المقصودة مما يسـتطاع الوصول إليها بحـراً. وكان أهم ما يشغلنا في السـاعات الأخيرة السـابقة على السـفر إعداد العدد الكافي من

الفســاتين والثياب فقد كانــت أمثال هذه الرحــلات معرضاً لأزياء النســاء وأناقتهن وفرصة للمنافسة بينهم في هذا الشأن ولكم تأخر الركب كله بانتظار سيدة تأخر وصول فستانها التي كانت تنوي ارتداءه أو أخذه معها.

وكانت حركة الركب تتم عادة في حوالي الســاعة الخامسة صباحاً؛ أي: بعد صلاة الفجر مباشرة، وتمتلئ ساعة الرحيل بالحركة واللغط والهرج، فالناس بين صاعدٍ ونازلٍ ورائــحٍ وغادٍ، والأصــوات ترتفع بالنداءات والإجابــات. والعبيد يتصايحون ويتشــاجرون وقد ينزل بعضهم باللكمات والصفعــات على البعض الآخر، ويختلط مع هذه الأصوات كلها نهيق الحمير الذي يضيق صبرها من طول الانتظار فتذكر الجمع اللاهي عنها بوجودها واستعدادها للحركة منذ ساعات.

وتمتطي السيدات ظهور حميرهن الصغيرة الوادعة في حين يمتطي الخصيان صهوات الخيول ويرافقنا العبيد مشياً على الأقدام. ويسير الموكب داخل المدينة بكل هدوءٍ وانتظامٍ صفاً طويلاً من الحمير البيــض والخيول الفارهة. فإذا اجتزنا ســور المدينة انفرط عقد الموكب وودعنا وقارنا وهدؤنا وانطلقنا على ســجيتنا نتراكض ونتســابق ونمرح ونعبث في أطراف الفضاء الفسيح وعبثاً يحاول العبيد والخصيان جمع شتاتنا فنصل إلى هدفنا جماعات متفرقة.

وهناك يستقبلنا العبيد وعائلة الناظر، وبعض سيدات المزارع المجاورة. أما الناظر نفسه فإن التقاليد الشرقية الصارمة تمنع علينا رؤيته كما تمنع عليه وجوده حيث نكون.

ونبدأ بعد وصولنا بتناول طعام الإفطار ثم ينصرف كل منا ليعمل ما يريد وكيفما يريد بكامل حريتنا لاطمئناننا التام إلــى عدم وجود أي رجل غريب في المنطقة. ويسيطر على الجمع جو من الحرية والانطلاق طيلة أيام الرحلة ولا يجمع بين أفراد الجمع بعد ذلك إلا وجبات الطعام وأوقات الصلاة.

❁ ❁ ❁

وتنهال علينا الدعـــوات من العوائل المجاورة للمزرعـــة كما تنهال علينا ربات تلك المزارع بالزيارات ونحن، أو بعضنا، يلبي هذه الدعوة أو تلك أو يقوم باســـتقبال الزائرات. ولا حاجة لوصف كميـــات الأكل الكبيرة فعدا عن الكميات الهائلة التي نقلها مئات العبيد لمدة أسبوع كامل فإن جاراتنا سيدات المزارع المحيطـــة بنا يضفن إلى تلـــك الكميات كميات مثلهـــا تدليلاً على تقديرهن وإكرامهن لنا فتتراكم المأكولات وخاصة الفواكه والخضار ويصيب العطب والفساد أكثرها.

ونقضي لياليا بالاســـتمتاع بالألعاب النارية. وشكراً للصديق العزيز ليدا مدير الجمارك، فهو على كونه بانياني فهو شـــديد الولاء والإخلاص لأسرتنا ولا شيء يســـر عابد النجوم العجوز هذا مثل إدخال السرور على قلوبنا نحن الصغار. لذلك لم يكن ينسى أبداً تزويدنا بكميات وافرة من الألعاب النارية لنملأ بها سماء لياليا في الأرياف.

أما الكبار منا فيقضون لياليهم بالاستماع إلى غناء بعض المغنيات العبيد أو مشـــاهدة رقصهن. وهن فنانات محترفات تصطحبهـــن معنا في أمثال هذه السفرات للترويح والترفيه.

وأمسيات الريف هذه أمســـيات خيالية رائعة إذ تجد هذا العدد الكبير من النساء المدلات بجمالهن المتنافسات بأناقتهن يتجمعن تحت ظلال الأشجار وتحت ضوء القمـــر الفضي في الليالي الاســـتوائية الصافية وهن يتســـامرن ويتحادثن ويتضاحكن بقلوب صافية ووجوه باشة باسمة.

وكانت تنضم إلينا في بعض هذه السفرات كلير وهي ابنة طبيب القنصلية الفرنســـية وأخواها البالغان الخامسة عشرة والسادســـة عشرة من العمر، وهم يتكلمون الســـواحلية بطلاقة وتغنـــي كلير غناءً جيداً. وقد أثـــارت كلير بيننا

ضجة من الضحك والاستغراب حين خرجت علينا مرة بلباس نومها الأبيض ولم نكن قد عرفنا أو رأينا شيئاً من هذا القبيل. فالناس في الشرق ينامون بنفس اللباس الذي يلبسونه طيلة النهار.

ولم نكن نخرج إلى هذه النزهات أيام الحصاد لما في ذلك من أشغال للعبيد والعمال وعرقلة لأعمال الحصاد. وكان القرنفل ينضج مبكراً ويجب حصاده وجمعه في أقصر وقت مستطاع، وكذلك الأمر مع الرز وليس الأمر كذلك مع الخضروات وجوز الهند.

واليد هي أكثر الأدوات استعمالاً في الزراعة ولتشجيع الزنوج على العمل ونبذ طبيعة الكسل الموروثة فيهم فإن أرباب المزارع أو رباتها كثيراً ما يشتركون مع فلاحيها في مساعٍ جماعية لتشجيع الحصاد والإسراع به.

❁ ❁ ❁

وقد تطول إقامتنا في الريف أو تقصر حسب مشيئة الوالد فهو الذي يقرر يوم عودتنا. وفي هذا اليوم المعين نترك المزرعة بين الساعة السادسة والسابعة مساءً بعد أن نوزع الهدايا والعطايا على جميع العاملين في المزرعة وأكثر هذه الهدايا من اختيار أبي نفسه. ثم تأتي السيدات المجاورات لوداعنا وبعد ذلك نركب مطايانا عائدين إلى المدينة فيتلقانا عدد من الجنود المسلحين بالبنادق والسيوف والرماح والخناجر، الذين أرسلهم السلطان لحماية موكبنا الساري في جنح الظلام.

ولا يبيح لنا سفرنا ترك الصلاة إذا حان موعدها، ولذلك فإذا ارتفع الأذان توقف الركب في الحال وفرش كل منا حصيره في الفضاء وبدأ صلاته قبل الانطلاق ثانيةً في مسيرتنا إلى المدينة التي إذا ما وصلنا إليها تسللنا بخفية وهدوء إلى دورنا كأننا أشباح هائمة في مدينة من مدن الأساطير.

❁ ❁ ❁

رجل عُماني عربي

الفصل الحادي عشر
رحلة السلطان إلى عُمان

كنت في حدود التاسعة من عمري حين عزم أبي السفر إلى عُمان جرياً على عادته في زيارتها مرة كل ثلاث أو أربع سنوات ليشرف بنفسه على شؤون القسم الآسيوي من سلطنته حيث كان ينوب عنه في إدارة شؤون الحكم ورئاسة العائلة في مسقط أخي ثويني.

لكن سفرة أبي هذه المرة اتسمت بالأهمية والاستعجال ذلك أن الأنباء وصلته أن الفرس قد تمادوا في تكرار الهجوم على بندر عباس، ورغم ضيق نطاق هذه الهجمات وعدم تحقيقها نجاحاً يذكر، فقد قرر أبي أن يذهب ليعالج المشكلة بنفسه لأن استمرار الوضع بهذا الشكل قد ينذر بتطور الأمور واندلاع نار الحرب بيننا وبين الفرس في أية لحظة.

وبندر عباس إقليم فارسي صغير إلا أن أبي ضمّه إلى أملاكه منذ وقت طويل، ولكن الفرس دأبوا منذ انتقلت إلينا تبعية هذا الإقليم على إثارة الفتن وخلق المشاكل طمعاً في إضعاف قبضتنا واستعادة هذا الجزء إليهم، وهذا ما لا ألومهم فيه أبداً. ولم يكن بندر عباس بلداً غنياً وما كان يدر علينا شيئاً من المال، بل لعل ما كان يصرفه أبي عليه يفوق ما كان يحصل عليه منه، ولولا

موقعه الاستراتيجي الهام وسيطرته على مدخل الخليج لما تمسك به أبي ولما كانت استعادة الفرس له بالخسارة الجسيمة التي يؤسف لها.

ولم تكن لدينا في ذلك الحين سفن بخارية بل كان كل اعتمادنا في السفر على السفن الشراعية التي تتحكم اتجاهات الريح وتقلباتها في مواعيد إبحارها، ولهذا فلم يكن من المستغرب أبداً أن تتأخر الرحلات من يوم إلى آخر بانتظار أن تستقيم الريح في الاتجاه المطلوب.

وكان الإعداد للرحلة يستغرق ما لا يقل عن شهرين أو عشرة أسابيع، تنقضي في إعداد الزاد الكافي لإطعام حوالي الألف شخص طيلة مدة السفرة التي تستغرق بدورها شهرين تقريباً.

وكان أغلب الوقت يصرف في إعداد وتهيئة الخبز والعجائن المطلوبة لهذا العدد الغفير من الناس طيلة هذه المدة ولم يكن اللحم المجفف أو المعلب معروفاً لدينا، وإن وجد فإن غالبية السكان تنفر من أكله لعدم اقتناعهم بطهارته شرعاً. لهذا كانت السفن تملأ بالأعداد الغفيرة من الماشية الحية للذبح منها في أيام السفر، ويضاف إليها عشر بقرات حلوبات لتزويد الركب بالحليب الطازج يومياً.

أما كميات الفاكهة التي تُخزن في هذه السفن فتتحدى كل تقدير أو تعداد ويكفي أن نعلم أن مزارعنا الخمس والأربعين تظل على مدى أسبوعين ترسل إلى هذه السفن إنتاجها كله ليتكدس فيه دون عناية بالنظافة أو النظام، ولا عجب بعد هذا إذا ما انتشرت حالات الديزانتري بين الركاب في أمثال هذه السفرات.

❁ ❁ ❁

وكانت السفرة مباحة لأبناء السلطان جميعاً بعد استئذان أبيهم طبعاً،

لكن بسبب أتعاب السفر ومشاق الرحلة فإن بنات السلطان وسراريه معفيات أصلاً من السفر إلا ثلاث أو أربع من كبريات بناته واثنتين من سراريه يختارهن السلطان بنفسه لمرافقته في السفرة.

والواقع إن أكثرنا ـ نحن إناث القصر ـ لم نكن نرغب في السفر إلى عُمان لأن نساءها اعتدن أن ينظرن إلى الزنجباريات بغرور المتعالي الذي ينظر إلى من هو أدنى منه مرتبة أو أقل مقاماً، وكان هذا الغرور يتملك إخوتي وأخواتي هناك، بل وينطبق هذا الحال أيضاً على نساء أسرتنا في زنجبار المولودات أصلاً في عُمان فهن ينظرن إلينا نحن قريباتهن الزنجباريات نظرة استخفاف واحتقار لأننا ولدنا ونشأنا بين الزنوج فهن يعتبرننا زنجيات وأكبر دليل لهن على انحطاطنا إننا نتكلم لغة هؤلاء الزنوج وربما أيضاً لغات أخرى غير اللغة العربية.

وكما قلت من قبل، فإن الغالبية من أقاربنا في عُمان تشكو العوز والحاجة لذلك فإن زيارة السلطان لهم تعني وصول الهدايا والعطايا واستعداد السلطان لهذا يقتضي زيادة متاعه وحوائجه. كما إن أمثال هذه الرحلات تتيح لنا استئناف مراسلاتنا القليلة المتقطعة مع أقاربنا في عُمان.

لكن جهل الكثيرات منا للكتابة يقف عقبة كأداء في هذا المجال. والأسلوب المتبع في هذه الأحوال أن تملي السيدة رسالتها على شخص ما ليكتبها لها، وحين تصل الرسالة إلى المرسلة إليها فعليها أن تستعين بشخص آخر ليقرأها عليها.

ولهذا فقد اشتد زحام النساء على إخوتي وعبيدنا الذين يحسنون الكتابة يطلبن إليهم أن يكتبوا لهن رسائلهن، فإذا رفض أحدهم ذلك فليس على صاحبة الحاجة إلا أن تستعين بشخص آخر من خارج البيت ليكتب لها

رسالتها، وهناك طبقة من الكتّاب الممتهنين الذين يتخذون أماكنهم في السوق ممن يقومون بهذه الخدمات ولكن لأن سيداتنا لا يستطعن أن يذهبن بأنفسهن إلى السوق لمواجهة شخص غريب، فليس أمام الواحدة منهن إلا أن تكلف بهذه المهمة أحد خدمها الأذكياء الموثوقين بهم.

وعلى هذا فإن السيدة تكلف أحد خدمها بهذه المهمة فتطلب إليه أن يذهب إلى فلان الفلاني ويستكتبه رسالة تهنئة باسمها إلى صديقتها أو قريبتها فلانة في مسقط، وأن يدفع له الأجر الذي يطلبه لقاء خدمته هذه. ويذهب الخادم وينقل تفاصيل الطلب إلى حضرة الكاتب النحرير الذي يستمهله ساعات لشحذ القريحة وإعمال الفكر.

ولأن الطلب على كاتبنا شديد والزبائن كثيرون، ولأنه ليس من الألمعية والذكاء بحيث يتجنب الخطأ، لذلك فلا يستبعد منه الخلط الكبير في مضامين الرسائل وفي عناوينها. ولكن الخدم عادة لا يفطنون إلى هذا الخلط وإنما يسرعون بتسليم الرسالة إلى سيداتهم، في حين أن السيدة أفطن من أن تبعث بالرسالة قبل أن تتأكد من مضمونها. لهذا فهي تذهب إلى أحد أخوتها أو أقاربها ليقرأ لها الرسالة وتتأكد منها. وللقارئ أن يتصور دهشتها وذهولها وخيبة أملها فقد أرادتها تهنئة إلى صديقتها بزواج ابنتها، لكن الخادم عاد بها رسالة تعزية معنونة إلى رجل لا تعرفه. وهكذا فإن الرسالة الواحدة تطوف على عدد من الناس لكتابتها وقراءتها قبل أن تكتسب صيغتها النهائية.

وأخيراً حان موعد الرحيل فخصصت السفينة ڤكتوريا لأبي وأفراد عائلته، أما بقية الحاشية والأمتعة والزاد والأغنام فقد توزعوا بين ثلاث أو أربع سفن. وكان عدد المسافرين كثيراً بالنسبة إلى عدد السفن، لكن الشرقي

لا يحتاج إلى كبير مكان في سفره فهو لا يحتاج إلى مقصورة وسرير بل يفرش حصيره وينام في أي مكان يتيسر على ظهر السفينة.

وقد أبحرت السفينة الأولى عند الفجر تحمل الخدم والعبيد ثم تبعتها أول الصباح سفينة النساء وأبحرت سفينة السلطان وأبنائه وحاشيته عند الظهر[1]، واذكر أن أخوي ماجد وخالد ومعهم بعض الأخوة الصغار كانوا في الميناء يؤدون للوالد تحية الوداع وقد ظلوا معه في سفينته حتى حان وقت إقلاعها فنزلوا منها وبعد ذلك أطلقت مدفعيتها إحدى وعشرين طلقة تحية للسلطان.

❁ ❁ ❁

وقد ترك السلطان بغيابه عنا فراغاً موحشاً أحس به كل فرد من أفراد أسرتنا الكبيرة، فقد فقدت الأسرة حيويتها الفعالة وبهجتها المشرقة وران على البيت ـ بغياب سيده، ورغم المئات من سكانه ـ جو كئيب من السكون والجمود، وشعور مبهم بالوحدة والضياع. وقد أناب السلطان عنه في حكم الجزيرة أخي خالداً، وقد دأب خالد على الترداد على بيتنا بين يوم وآخر يتفقد أحوالنا ويلبي حاجاتنا، كما دأب على زيارة بيت المتوني مرتين في الأسبوع ليتفقد سكانه ويحيي سيدته الكبيرة عزة بنت سيف ويسألها الرأي والمشورة، وكان خالد حاكماً صارماً وقاسياً وكنا نطيعه ونجله ولكنه لم يحظ بحبنا ووادنا وكان لنا من الأسباب ما يبرر ذلك.

فمن ذلك مثلاً، إن شب في أحد الأيام في بيت الساحل حريق كبير، ومع أنه أخمد بسرعة كبيرة إلا أن اندلاع النار في بيتنا فجأة أثار الذعر بيننا

---

(١) غادر السيد سعيد ميناء زنجبار يوم ١٨ ابريل ١٨٥٤م.

فهرولنا نحو أبـواب القصر للخروج منه بغية النجاة مـن النار، لكننا وجدنا الأبواب مغلقة وقد وقـف خلفها الحرس المدججون بالسـلاح وقد أمرهم خالد بمنع خروج السـيدات إلى الشـارع لأنه لم يرد لنا أن نتعرض لأنظار المارة في وضح النهار.

وفي يوم آخر أقدم على طرد أحد أقاربنا البعيدين ـ وكان سيد قومه ومن أصحاب الجاه والسـطوة ـ من الجامع ومنعه من أداء الصلاة لمجرد إن هذا القريب سبق له وتجرأ على خطبة إحدى أخوات خالد، وقد امتنع الرجل بعد هذا الحادث من حضور مجلـس خالد ومن أداء الصلاة فـي الجامع ولكن القدر يشاء أن يموت خالد ومن بعده السلطان وأن يتزوج هذا القريب واحدة من أخواتي غير الذي خطبها أول مرة.

وقد عيّن السـلطان قبل رحيله أختي خولة كبيرة للأمينات ـ إن صح هذا التعبير ـ وجعلها مسؤولة عن بيتي الساحل والمتوني ومن فيهما من النساء، وقد أثار تعيين هذه النجمة الساطعة في سـماء عائلتنا الكثير من الامتعاض والحسد والغيرة في قلوب بعض نسائنا برغم أنها لم تكسب من هذا التعيين شيئاً غير المشقة والأذى ونقمة الناس. ورغم ما تمتاز به خولة من رقة الطبع وطيبة القلب وسماحة الخلق فإنها لم تسـتطع إرضاء الجميع وإطفاء جذوة الغيرة في قلوبهم، فرضى الناس غاية لن تـدرك، وخاصة وأن البعض منهن كن يرهقنها بالمسـتحيل من الطلبات، وهن مدركات حق الإدراك أنها بشـر مثلهم لها طاقات محـدودة وأن صلاحياتها في العمل محدودة أيضاً، ولكنها الرغبة في التشـفي والإيذاء والتعجيز وإظهارها بمظهر المقصرة في واجبها. وكل ذنب خولة عندهن أنها الإبنة المفضلة للسلطان، وما كان هذا من صنع يديها ولا كان خطيئة لتحاسب عليها، وبعد فإنها دون ريب ولا جدال أحسن

من في الأسرة استحقاقاً لهذا التفضيل والاختيار وقد أحسن السلطان إذ خصها بهذا التمييز والاختيار. ولكنه الحسد يعمي البصائر والأبصار.

❁ ❁ ❁

وكان مركبنا «الثلاث نجمات» دائم الغدو والرواح بين مسقط وزنجبار، لذلك فلم تنقطع أخبار السلطان وهداياه الثمينة. وكان وصول السفينة يعني لنا بهجة ومسرة لا توصفان وكانت مظاهر الاستقبال وجلبته من المظاهر التي ينفرد بها الجنوب ولا يمكن للفكر الأوروبي المتميز بنضوب العاطفة أن يتصوره.

لكن أفراحنا لم تطرد باستمرار، فقد قبض الله إليه أخي خالداً ورحل عنا إلى الأبد مأسوفاً عليه[١]. وانتقلت وصاية الحكم إلى أخي ماجد ـ أكبر الأبناء بعد خالد ـ وقد استطاع بخلقه الطيب وطبعه الحبيب أن يكسب إليه كل القلوب[٢].

---

(١) وُلد خالد عام ١٨١٩ وتوفي بعد مرض عضال في نوفمبر ١٨٥٤ عن خمس وثلاثين عاماً ولم يخلف سوى بنتين.

(٢) وُلد ماجد في حوالي عام ١٨٣٣ وتولى الملك عام ١٨٥٦ وهو في الثانية والعشرين من عمره. وكان أبيض اللون طويل القامة مليح الشكل، ولم يكن يعنى بتعدد الزوجات والسراري كمثل أبيه وأخيه السيد برغش، ولم يترك إلا إبنة واحدة سماها خنفورة تزوجت إبن عمها السيد حمود بن محمد بن السيد سعيد الذي اعتلى عرش السلطنة (١٨٩٦ ـ ١٩٠٢) وأنجبت منه السيد علي بن حمود الذي تولى عرش السلطنة (١٩٠٢ ـ ١٩١١) والسيدة معتوقة بنت حمود التي تزوجها السيد خليفة بن حارب بن ثويني الذي تولى عرش السلطنة (١٩١١ ـ ١٩٦١) وأنجب منها عبد الله بن خليفة والد السيد جمشيد آخر السلاطين الزنجباريين. وكان السيد ماجد مصاباً بالصرع وقد اشتد به المرض في أخريات عمره ولم ينفعه استشفاؤه بالهند، حتى بدأ يفقد الوعي مدة طويلة قبل وفاته. وزاد الطين بلّة أنه أصيب في أخريات أيامه بالجدري فشوه وجهه تشويهاً كبيراً جعله ينزوي في بيته ويخجل من الظهور أمام أقرب المقربين إليه. وقد توفي عام ١٨٧٠ عن عمر يقدر بـ٣٧ عاماً.

وأخيراً جاءنا البشـــير من عُمان بأسعد الأنباء والبشـــائر هي قرب عودة السلطان إلى مسقط. فانتشرت البشرى الســـعيدة في أنحاء البلاد وعم الفرح والابتهاج جميع السكان، فقد طالت غيبة الســـلطان عنا وعن رعيته أكثر من ســـنتين، وما من امرئ إلا ويشـــعر بتعاظم الفراغ لغيبته وينتظر عودته بفارغ الصبر إن لم يكن عن حب وإخلاص له فانتظاراً لما سيناله من هدايا السلطان وعطاياه التي يعرف الجميع أنه يخص بها كل فرد مـــن أبناء الجزيرة صغاراً وكباراً.

ولكن الأسابيع تتالت بعضها وراء البعض الآخر ومر من الوقت ما يكفي لقطع المسافة بين مسقط وزنجبار ومع هذا فلم تظهر في عرض البحر علامة ما تنبىء بقرب وصول الســـفن. فبدأ القلق ينتاب الناس والشك يتسرب إلى قلوبهم وبدأت الإشـــاعات تنتشـــر في البلد عن أســـباب التأخير، وهنا لجأ العرب كعادتهم دوماً إلى العرافات يســـألونهن اســـتطلاع الغيب عن أسباب تأخر السلطان ووقت معاده. ومع الأسف فإن جزيرتنا وما يقابلها من الساحل الإفريقي يعج بالمئات من الغجريات اللاتي يتعاطين مهنة الخداع هذه، فهن يدعين قـــراءة الغيب ومعرفة المســـتقبل في حين أن الحقيقة أنهن يتســـقطن أخبار الناس من أهليهم وذوي قرابتهم ثم يمارسن أنواع الخداع والتمويه في إخراج مســـرحية المعرفة إخراجاً متقناً يســـلب لب الناس فيتقبلونها بإذعان وتصديق غريبين. وقد استبد القلق والهلع على مصير السلطان والتلهف على معرفة أخباره وأسرار تأخره بأفراد أسرتنا فأخذنا نسعى وراء كل خبر ونستمع إلى كل ما يقال ونستبيح اللجوء إلى كل وســـيلة تكشف لنا السر وتبدد عنا الشـــكوك ولذلك انهالت علينا أفواج الغجريات المتحذلقات بقراءة الغيب، أتين إلينا من كل حدب وصوب في الســـفن والزوارق وســـعياً على الأقدام وعلى ظهور الحمير.

وكانت أبرز هاتــه المتنبئات تلك التي ســمعنا أنها هــي، أو بالأحرى جنينها، يستطيع أن يستطلع الغيب ويكشف لنا عن السر، وسرعان ما أرسلنا نســتدعيها إلى بيتنا، وما أزال أذكر بوضوح تام يوم وصولهــا إلينا. وكانت امرأة على درجة خارقة من البدانة وكانت تدعــي أن طفلها الذي تحمله في بطنها منذ ســنين وســنين هو معجزة الخالق الكبير، يــرى ويتكلم وهو في الرحم جنين، وما من سارحة أو بارحة على ظهر الأرض أو في أعالي الجبال وما من سانحة أو سابحة في الجو أو في أعماق البحار ألا ويعلم علمها. وما من شيء في الحاضر أو المستقبل إلا وأحاط به علماً فانهالت عليها اسئلتنا، أين سفن السلطان؟ وماذا يعمل الآن؟ ولماذا تأخر بالمعاد؟. وكانت أجوبتها تأتينا طنيناً خافتاً متقطعاً ولكنها صحيحة واقعية. «قولوا إن شاء الله». هذا هو الأسطول في عرض البحر يتجه إلى زنجبار. أربعة سفن كبار محملة بالرجال. قولوا إن شــاء الله. وهذا هو مركب السلطان في وسطها. اسمحوا لي لحظات أركز على هذا المركــب لأرى ما يفعل الســلطان الآن؟.. وبعد لحظات عاد طنينها الخافت يســرد علينا بالتفصيل أســماء من برفقة الســلطان من رجال نعرفهم حق العرفان وما يقوم بــه كل منهم آنئذٍ من أعمال. ثم طلبت إلينا أن ننحر الذبائح ونــوزع النــذور قرباناً لملكــة الجان في البحــر التي تحمي المسافرين في البحر وتدفع عنهم الضرر والأذى.

ومن البديهي أن أوامر هذه المشعوذة قد نُفذت بالحرف الواحد فنُحرت الذبائح ومدّت موائد الطعام وظلت ســيول الشــحاذين، وتحــوي جزيرتنا الجميلة أفواجاً عدة منهم، تنصب على بيتنا أســبوعاً كاملاً لتطعم من أنواع اللحوم والدجاج والأسماك والرز الذي كان يقدم لهم بسخاء ووفرة. هذا عدا عن النقــود والملابس. وظل الأمر علــى هذا الحال حتى اكتشــفنا حقيقتها وحقيقة أننا كنا فريســة ســهلة لدجالة أفاكة، تســتطيع أن تتكلم من باطنها

فتدعي أن المتكلم طفل لها تحمله في بطنها، ولأننا لم نكن نعرف هذا الأمر من قبل فقد اعتقدنا جميعنا بهذا الطفل المعجزة الذي تكشف له سر الغيب فيرى فيه ويسمع عنه ما لا عين رأت ولا أذنٌ سَمِعت.

ومع الأسف فإن للسحر والخرافات سوقاً رائجة في زنجبار، وهما قرينا الجهل ونتاجه فحيثما يعجز الإنسان عن فهم مسببات الأشياء ونتائجها وحيثما يشعر بالضعف أمام ظواهر الطبيعة وتفسيرها وبالخوف من أحداث الحياة ومصائرها ويلجأ إلى تصديق التفسيرات الغامضة وإلى التشبث بالأساطير الواهية وكلما ازداد التفسير إبهاماً والكلام جمجمةً وغموضاً زاد تصديق السامع له. والعرافات أستاذات هذا الميدان لهن القول الفصل في أمور المرض والزواج والولادة وما أشبه من أمور الحياة والمستقبل. فهن يسألن عن نوع المرض وهل يحتمل شفاؤه وكم يطول أمده. وعن الزواج وهل يبتسم الحظ للعروسة فتسعد بالزواج من خطيبها، والحامل هل تلد ولد أم بنتاً؟ وهكذا فإذا حققت الصدف نبوءة البصارة ارتفع مقامها وذاع صيتها، وإن كذبت الأحداث نبوؤتها ـ وهو ما يحدث غالباً ـ فهي لن تعدم الأعذار الملفقة كأن تدعي بأن اليوم أو الساعة لم تكن مناسبة لها وأنها ستعود إلى تجربة علمها في مرات قادمة إن شاء الله.

وإذا ما خيم الجهل في بلاد انتشرت فيها الخرافات وسادت، فكل إنسان في زنجبار يعتقد بوجود أرواح غير مرئية تحيط بالإنسان فمنها الصالح الذي يريد به خيراً ومنها الطالح الذي يتربص به شراً، ولأن الأخيرة أكثر خبثاً وأشد خطراً وأعظم ضرراً فعلى الإنسان أن يداريها ويدفع شرها عنه بالقرابين والنذور وأن يتوسل إلى إرضائها بأهل العلم والمعرفة من الغجر الدجالين رجالاً ونساءً، وقد بلغ من اعتقاد الناس بالأرواح أنه إذا مات لأحدهم ميت قام أهله بوضع البخور في غرفته التي مات فيها طرداً للأرواح الشريرة، ولأن

الاعتقاد أن روح الميت تبقى تحن إلى مكانه القديـــم وأنها قد تعود في أي حين إلى المكان الذي خرجـــت لذلك يهجر أهل البيت تلـــك الغرفة خوفاً وفرقاً من روح الميت ولا يدخل إليها أحد منهم مهما كان الثمن.

ولا عجب بعد هذا أن يكون السحر والشـــعوذة تجارة رابحة، تعود على محترفيها أو بالأحـــرى محترفاتها فهن الكثرة الغالبة بالمـــال الكثير والرزق الوفير.

❁ ❁ ❁

السيد سعيد بن سلطان

سلطان عُمان وزنجبار ١٨٠٤ ـ ١٨٥٦

الفصل الثاني عشر
وفاة السلطان

مرّت الأيام وتبعتها الأسابيع ولم يظهر لأسطول السلطان أثر ولم يرد إلينا عنه خبر، ولم يكن لدينا ما نداري به القلق المتعاظم والاضطراب المتفاقم غير الاستماع إلى أقوال العرافات والتشبث بتصديق أخبارهن الموضوعة.

وفي ظهيرة يوم ما، وحين كان الناس يؤدون صلاة الظهر سرت الأنباء بأن أحد صيادي السمك لمح في عرض البحر أسطولاً من السفن يرفع فوق صواريه علم أبي، ولكن الصياد، لاشتداد الريح وهياج البحر، لم يتمكن من الاقتراب من الأسطول.

إذن هذا هو السلطان والوالد والحبيب عائد إلينا!!.

فاخفقي يا قلوب واطربي يا نفوس وانطلقي يا أفراح.

وحين كنا نستعيد الصياد قصته مرات ومرات وهو يعيدها ويقسم لنا بأغلظ الأيمان على صحتها سرت البشائر بالأنباء إلى أنحاء البلاد وأرسلنا عبداً من أسرع عدَّائينا إلى رابتنا السيدة عزة في بيت المتوني نزفّ إليها البشرى السارة. وعمّت الفرحة سكان بيت الساحل بعد وجوم، ودبت فيهم

الحياة بعد ركود فأسرعت النســاء إلى أحسن لباسهن وأحلى زينتهن وأجمل عطورهن يتبرجن بها بعد أن هجرنها نيفاً وســنتين. وعادة النســاء عندنا أن يلبس أحســن ما عندهن تحية منهن للقادمين الأعــزاء، ويعربن عن حزنهن لفراق الأعزاء بلبس أبسط الثياب وأخشنها. وانطلق الطهاة يذبحون ويعجنون ويطبخــون ويخبــزون، وانطلق الخدم يعطــرون الغرف بالبخــور وبالعطور الأوروبية الفاخرة، واتخذ كل من في القصر أقصى ما يســتطيع ليظهر فرحته باستقبال العائد العظيم، القائد والوالد والزعيم، والحبيب إلى كل فرد وقلب.

وقد قرر أخي ماجد أن يخرج إلى عرض البحر ليســتقبل ســلطانه وأباه ويعود معه على ظهر سفينته، وإذ لم يتبقى على موعد وصول السلطان حسب روايــة الصياد وتقديره إلا ســاعتان أو ثلاث فقد أســرع ماجد واســتقل هو وحرسه مركبين صغيرين لم يتيسر لهم غيرهما في غمرة العجلة وساروا بهما يشــقان عباب الماء في وجــه عاصفة عاتية هوجــاء كانت تهــدد مركبيهما بالتدمير التام، على أمل أن يلحقوا بسفن الســلطان ويعودوا معه قبل حلول الظلام في الساعة السابعة.

ولكن الشــمس غابت وحلَّ الظلام ومضى هزيع من المســاء ولم تظهر السفن للعيان.

وبدأت الوســاوس والشــكوك تملأ القلوب والألباب ومــا لبث أن صار الشك قلقاً استبد بأبناء المدينة عامة وأفراد أسرتنا خاصة، ثم صار القلق جزعاً وذعراً يرتسم في النفوس الواجمة والوجوه الشاحبة والعيون الذابلة، وذهبت بنا الظنون والهواجــس كل مذهب فمن قائل أن العاصفــة قضت على ماجد ورفاقه فابتلعتهم الأمواج ومن قائل بل إنها أودت بأســطول السلطان كله إلى قاع المحيط. وظللنا علــى هذه الحال حتى تقدم بنا الليــل ولم يفكر بطبيعة الحال أحد منا، حتى الأطفال بالنوم ما لم نعرف مصير السفن ومن عليها.

وفجأة انطلقت في البيت إشـــاعة لم نصدقها أول الأمر، وهي أن الجنود المسلحين قد حاصروا القصر وســـدوا منافذه ومداخله. وأسرعت النساء إلى الشبابيك تســـتطلع جلية الأمر، ومع أن الليل كان حالك الظلام فقد استطعنا أن نتبين أفواه البنادق تلمع في حلك الظلام وأشـــباح الجنود تحيط بالبيت، ولم يكن هذا الاكتشـــاف بالأمر الســـار طبعاً للنســـوة الهلعـــات والأطفال المذعورين، ولكن المهم الآن أن نعرف ماذا جرى من أحداث استوجبت هذا الحصار المحكم حول البيت ومنع الخروج أو الدخول منه وإليه، والأهم من هذا أن نعرف مصدر هذه الإجراءات والآمر بها، فماجد وهو نائب الســـلطان لم يعد مـــن عرض البحر فمـــن غيره أصدر هـــذه الأوامر. وفي وســـط هذه التساؤلات تســـربت إلينا الأنباء أن حصاراً مماثلاً قد ضرب حول بيت ماجد فزادنا هذا الخبر حيرةً وجزعاً.

ولم يكن في البيت أحد غير النساء، فالعادة أن ينسحب الخصيان والعبيد عند المســـاء ليلتحقوا بعائلاتهم خارج القصر، لهذا فقد اســـتبدت بنا الحيرة والذعر والفوضى ومضت كل جماعة تتصرف بما يوحي إليها الموقف ومتانة أعصابهـــا، فقد نزلت بعض النســـوة الجريئات إلى الطابـــق الأرضي وأخذن يكلمن الجنود من نوافذ القصر يسألنهم بعض المعلومات عما يجري خارج القصر، ولكـــن الجنود كانـــوا غلاظ القلوب فلـــم يكتفوا بتجاهل الأســـئلة الموجهة إليهم وإنما هددوا النســـاء بإطلاق النار عليهـــن إن لم يضعن حدّاً لفضولهن وضوضائهن. وانصرفت نســـوة أخريات إلـــى النحيب وهن يلعنّ الشـــيطان الرجيم على ســـوء فعلته هذه، وارتفع صراخ الأطفال وبكاهم ولم يكن إلى إســـكاتهم من ســـبيل، ومضت فئة من النســـاء إلى الصلاة وطلب الرحمة والعون من الله تعالى. وامتزجت مشاعر الخوف على مصيرنا بمشاعر القلق على مصير الســـلطان وماجد وأخـــذ منا الاضطـــراب كل مأخذ فكان

منظرنا منظراً لا يوصف اختلطت فيه المشـاعر وضاعت المقاييس ولو هبط علينا أحد من خارج القصـر ورأى وضعنا المزري وفوضانا المفزعة في تلك الليلة المرعبة لظن أنه في مستشفى المجانين وليس في حريم السلطان.

وبعد طول عناء وألم ممض بدأت دياجير الدجـى تنزاح عن ليلة الفزع هذه وأنوار الفجر تنتشـر وتنبثق عن نهار لم يستطع ضياؤه أن يزحزح ما كنا فيه من ظلام الجهل عمـا يجري في البلـد من أحداث. وعن أسـباب هذا الحصار المفروض علينا، كما ولم يسـمعنا النهار شيئاً عن أخبار السلطان أو ماجد. ولكننا في طريقنا إلى أداء الصلاة لمحت إحدانا الأسـطول راسياً في الميناء، وقد أفرحنا هذا الخبـر وأفرغ من روعنا، ولكن سـرعان ما عاودنا الذعر والروع حين شاهدنا صواري الأسـطول ترفع أعلام الحداد. ثم وصل إلينا إخوتنا ولكن السلطان لم يصل... وعند هذا فهمنا ما تعنيه أعلام الحداد فوق سفن الأسطول وواأسفاه...

إذن فقد رحل عن هذه الدنيا الأب الحبيب والسلطان العزيز ورب البيت وسـيد الحمى، ولبى العبد المؤمن سعيد بن سلطان نداء ربه تعالى ورجعت نفسـه المؤمنة إلى جنات ربها راضية مطمئنة فقد توفي السلطان أثناء عودته من عُمـان إلى زنجبـار، إذ هاجت عليـه عقابيل جرح خلفته شـظية مدفع استقرت في فخذه في إحدى حروبه وظل حياته يعاني منها الألم حتى قضت عليه[1].

أي خسارة جسيمة لا تعوض قد منينا بها ومني بها شعبنا فلم يكن السيد سـعيد الأب العطوف لأهله وشـعبه فحسـب بل كان خير الحكام وأعدلهم

(١) كانت وفاته في ١٩ أكتوبر ١٨٥٦ وقد أُصيب في ١٨ سبتمبر ١٨٥٦ بورم والتهاب في ساقه من أثر الجرح القديم في فخذه وفي ١٣ أكتوبر أصيب بالديزانتريا الحادة.

وأنقاهم ضميراً وأقربهم إلى قلوب رعيته الذين رفعوا الأعلام السود على كل بيت من بيوت زنجبار تعبيراً عن حب الشعب لحاكمه وحزنه على وفاته.

❁ ❁ ❁

وقد أدلى لنا بتفاصيل الوفاة أخي برغش الذي كان برفقة أبي في رحلته الأخيرة. ونحن ندين بالشكر إلى برغش أن استطاع أن يحتفظ بالجثمان العزيز بدلاً من إلقائه في البحر كما تقضي بذلك تعاليم الإسلام وأن يصر على نقله إلى زنجبار ليدفن فيها وقد أمر بصنع تابوت لحفظ الجثمان فيه، وكان برغش مدفوعاً بعمله هذا بحبه لوالده والرغبة في إكرامه وإن خالف في الواقع بعمله هذا تعاليم الدين وتقاليدنا. فنحن لا نعترف باستعمال التوابيت بل نعتقد أن المرء ـ أميراً كان أم فقيراً ـ يجب أن يعود بكل بساطة إلى التراب الذي خلق منه[1].

ثم بدأت أسرار الأحداث الغامضة والحصار المحكم تنكشف لنا بالتدريج مع طلوع النهار. فقد سبق أن قلنا إن أخي ماجد قد أسرع لملاقاة أبيه السلطان في عرض البحر وأنه لعجلته وضيق الوقت لم يجد إلا مركبين صغيرين استقلهما وحاشيته ومخروا بهما عباب الماء، ولكن الريح كانت قوية والبحر هائجاً فظلوا يصارعون الرياح والأمواج حتى أطبق عليهم الظلام فضلوا سبيلهم في البحر الهائج الحالك ولم يستطيعوا ملاقاة السلطان.

ولهذا استمر برغش قائداً عاماً للأسطول بعد وفاة السلطان باعتباره أكبر أبنائه الموجودين على ظهر الأسطول أنئذٍ ولما هدأت العاصفة ولاحت

---

(١) من غرائب الصدف أنه قبل مبارحته مسقط زار والدته لتوديعها وكان يظن أن هذا هو الوداع الأخير لأنها كانت متقدمة في السن ولم يخطر بباله أنها سترثه.
ومن غرائب الصدف كذلك إن اشترى ألواحاً من الخشب وطلب أن تحمل على سفينته وأن يعمل منها توابيت لكل من يموت في البحر ويحفظ فيها حتى وصوله زنجبار ولا يجوز رميه في البحر كما تقضي بذلك العادات الجارية.

الأرض لبرغش أدخل الأسطول إلى الميناء خلسة وأنزل منه الجثمان سرّاً وأمر بدفنه في مقبرة العائلة في زنجبار.

وكانت نفس برغش قد سولت له أن ينتهز الفرصة المؤاتية ويغتصب العرش ويستولي على مقاليد الحكم في البلاد، وكانت التقاليد المرعية تقضي عند حصول خلاف على وراثة الحكم أن يفصل بالأمر أمام أكابر العائلة ورجالات البلد قبل أن يوارى جثمان الحاكم المتوفى بالتراب، ولكن برغش يعرف جيداً أنه خاسر قضيته وأطماعه إذا ما تعرض إلى هذا الامتحان، فأخوه الأكبر ماجد أحق منه بخلافة أبيه وليس هناك ما يدعو إلى تفضيل برغش عليه، لذلك عمد إلى استعمال القوة لتحقيق خطته فعمد إلى فرض الحصار على بيتنا وبيت ماجد وأسرع بدفن جثمان السلطان سرّاً. ولكن خططه باءت بالفشل والخسران لأن ماجداً لم يكن في بيته فلم يتيسر له بالتالي إلقاء القبض عليه، فلم يجد ما يبرر به تصرفاته هذه إلا خشيته من نشوب ثورة في البلاد. وهو أمر لم يكن يخطر على بال.

وكان ماجد قد اضطلع بمهام الحكم في زنجبار نائباً للسلطان منذ وفاة أخينا خالد، واكتسب خلال هذه المدة وقبلها أيضاً مودة الناس ومحبتهم، فلهذا نودي به سلطاناً على البلاد خلفاً لوالده السيد سعيد في نفس ذلك اليوم.

ولكن العارفين ببواطن الأمور لم يكونوا مطمئنين تماماً إلى شرعية هذا الإجراء، فأخونا الأكبر ثويني ينوب عن أبيه السلطان منذ سنوات وسنوات في مسقط عاصمة عُمان وهي الوطن الأم وليس ما يمنع من أن يطالب يوماً بحقه الشرعي في حكم زنجبار، لذلك ظلت النفوس قلقة تترقب ما يحمله المستقبل من أحداث ولم يطل بها الترقب والانتظار ولكن العاصفة لم تهب علينا من مسقط بل هبت من زنجبار نفسها[1]!!.

---

(١) أوجزنا حكاية هذه الأحوال في مقدمة الكتاب.

الفصل الثالث عشر
شعائر الحداد

للحداد شعائر وتقاليد واجبة الاتباع في بلادنا وأول هذه الشعائر توجب على كل فرد في العائلة صغيراً كان أم كبيراً أن يطرح ملابسه الثمينة الزاهية الناعمة ويضع بدلها ملابس صوفية سوداء خشنى الملمس بخسة الثمن. ومن الشعائر أيضاً الامتناع عن التزين أو التعطر منعاً باتاً، فإذا جرأت امرأة ما على أن ترش على جسمها قطرات من ماء الورد لتذهب بها عن ملابسها رائحة صبغة النيل عدت تلك المرأة عديمة الوفاء أو لعوباً.

وفي خلال الأسبوع الأول من أيام الحداد يهجر الجميع أفرشتهم الغالية الوثيرة ويفترشون الأرض احتراماً وإسوة برب البيت الذي افترش التراب.

وقد ظل بيتنا مدة أسبوعين كالخان أو الفندق مفتوحاً على مصراعيه يدخله كل إنسان من كلا الجنسين لا فرق بين رفيع أو وضيع ويتناول كل ما يشتهي من أطايب الطعام الذي كان يقدّم بكميات مذهلة تتحدى الوصف ويجب أن يكون على رأس قائمة الطعام الطبق المفضل للمتوفي الراحل يطبخ ويقدّم للفقراء بمقادير كبيرة وفقاً لتقليد قديم في البلاد.

ومن أهم شعائر الحداد التي تحتمها أحكام الدين وجوب خضوع نساء السلطان الراحل زوجات ومحظيات إلى فترة حداد إجبارية أمدها أربعة شهور وعلى هاته البائسات أن يقضين هذه المدة في غرف مظلمة وأن يمتنعن عن رؤية النور بل وضياء الشمس، فإذا اضطرت المرأة إلى الخروج من وكرها المظلم وضعت على وجهها قماشاً سميكاً يمنعها من رؤية النور ويسمح لها بالكاد أن تزحف إلى هدفها. وطبيعي أن تتأثر العينان بهذا الطلام الدامس المستمر لذلك لا بد من عناية خاصة بالعينين عند انتهاء مدة الانزواء، ليعتادا على النور من جديد. ويعلن القاضي بدء فترة العزلة ببيان يتلوه على الأرملة يذكر لها فيه ما يجب عليها الامتناع عن عمله ويعود نفس هذا القاضي بعد أربعة أشهر ليتلو بياناً آخر يعلن فيه انتهاء مدة العزلة.

وخروج المرأة من العزلة يقتضي مراسم خاصة مبنية على الخرافات والأساطير فمن ذلك مثلاً أن على أرامل المتوفى يوم انتهاء مدة العزلة أن يغتسلن جميعهن مرة واحدة من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين على أن تقف الخادمات خلف سيداتهن تحمل كل منهن بيدها سيفين تسن نصليهما فوق رأس السيدة (وبالنسبة للفقيرات يستعاض عن السيوف بالمسامير أو بأية أداة مصنوعة من حديد). ونظراً للعدد الكبير من الأرامل الذي خلفه أبي فلم يكن بالإمكان إتمام هذه العملية لجميع نسائه مرة واحدة في حمّامات القصر على كثرتها، لذا فقد تمت العملية على شاطئ البحر، وكان يوماً مشهوداً ومنظراً لا ينسى، وبعد الاغتسال يباح للمرأة أن تغير ملابسها وأن تستعيد حريتها وتصبح أهلاً للزواج من جديد.

والقاعدة الجارية في بيوت السلطان أن تظهر نساؤه أمام أقاربه وأمام

الرجال من الخدم، ولكنهن في هذه الفترة يمنعن من رؤية الرجال إلا أخوتهم وأبناؤهم[١].

وخلال السنة الأولى من الحداد اعتاد بعضنا على زيارة قبر أبي في ليلة الجمعة من كل أسبوع. وكان ضريحه عبارة عن بناء مربع تقوم فوقه قبة كبيرة[٢]، وكنا نبدأ بقراءة سورة الفاتحة من القرآن الكريم ثم نتلو بعض الصلوات والأدعية طالبين من الله الرحمة والغفران للراحل، ثم نسكب على المكان العطر وماء الورد والمسك والعنبر وفي أثناء ذلك نعبر عن عواطف الحزن والأسى بالنحيب والعويل.

والمسلمون يعتقدون بخلود الإنسان وبعثه كما يعتقدون بأن روح الميت تعود لزيارة بيت الميت والأماكن الحبيبة إلى نفسه لذلك فإنهم بزيارتهم المستمرة للقبور يردون هذه الزيارات ويحيون هذه الصلات. وعلى العموم فإن للميت عند المسلمين احتراماً كبيراً فإذا أقسم لك مسلم برأس أو روح أحد أمواته فإن إزهاق روحه أسهل عليه من نكث قسمه.

وبعد الوفاة حملت إحدى سفننا وفداً إلى عُمان لينقل إلى أهلنا هناك خبر المصاب الفادح الذي نزل بنا، وكنا في مجالسنا الخاصة نبحث دوماً

---

(١) من الواضح أن المقصود بهذا الكلام هو فترة العدة التي فرضها الدين الإسلامي على المرأة المطلقة أو المتوفى عنها زوجها. وأحكام العدة في الشريعة بسيطة سليمة روعي فيها مصلحة الزوجة والأولاد ومصلحة الجماعة وهي براء مما علق بها من خرافات لا يقرها الشرع الكريم.

(٢) رأى السيد ماجد أن يشيد ضريحاً على قبر أبيه فأرسل إلى الهند يطلب المهندسين والبنائين وبذل في ذلك مالاً كثيراً، وشرع في بناء ذلك المقام الضخم ولما بلغ إلى مستوى رفع القبة اعترض عليه المطاوعة ـ رجال الدين ـ واضطروه إلى إهمال البناء. ومن يتفرج عليه اليوم يرى ذلك النحت البديع في أعمدته وتلك النقوش الفنية البارعة في بنيانه.

أمر العلاقة المقبلة بين ثويني وماجد، فهل سيقبل ثويني، وهو الإبن الأكبر والوارث الشرعي لأبيه ـ بحكومة أخيه ماجد، وهل يمكن الوصول إلى اتفاق بين الأخوين أم أن الأمر سيجرنا إلى حرب عائلية.

ولما عاد الوفد إلينا بعد أشهر كان معه أخي محمد، ممثلاً لجميع إخوتنا وأخواتنا في عُمان، للإشراف على توزيع تركة أبي، ولم يدم مكوثه معنا طويلاً فما أن أنجز مهمته حتى بادر بالعودة إلى مسقط مسرعاً، فقد كان محمد يعتبر أكثر أفراد عائلتنا تديناً وزهداً وورعاً ونشأ وظل زاهداً في الدنيا صدوفاً عن لذاتها كارهاً للمال والثراء عازفاً حتى عن لقب الإمارة. ولذلك فقد صدمته حياة البذخ والترف في قصورنا والتي لا تعرفها بيوت عُمان وضايقته مظاهر الفخامة والتعظيم التي أحيط بها ولم يستطع احتمال هذا النمط من العيش الباذخ فسرعان ما تركنا مفضلاً العودة إلى حياة البساطة والزهد في عُمان.

ولم يفصل بصورة واضحة في وراثة الحكم، فقد تولى ماجد أمور الحكم في جزيرتنا في حين تربع أخي ثويني في مكان أبينا في مسقط. ولم يدر في خلد ماجد أبداً الطموح إلى عرش عُمان ولكن لم يكن مما يرضي ثويني انسلاخ زنجبار عنه ووقوعها تحت حكم أخيه ماجد. وأخيراً تمّ الاتفاق بواسطة الإنكليز على حل وسط تعهد بموجبه ماجد أن يدفع إلى أخيه الأكبر مبلغاً من المال كل عام[1]. إلا أن ماجد لم يستمر في الدفع طويلًا فقد رأى في ذلك نوعاً من الأتاوة التي يدفعها التابع إلى سيده. وكان ثويني عديم الحيلة تجاه هذا القرار فقد كانت لديه في عُمان من المشاكل العويصة

---

(١) أطلق على هذا المبلغ مصطلح معونة زنجبار Zanzibar Subsidy ويعادل أربعون ألف دولار نمساوي سنويًا.

ما يلهيه عن خلق مشاكل جديدة له في زنجبار وكان بموارد بلده النزرة أفقر من أن يدعم حقه بحملة عسكرية ضد سيد زنجبار الواسع الثراء.

وهكـذا دون معاهـدة ودون اتفاق تكـرس انفصال زنجبـار عن عُمان وأصبحت كل منهما دولة مستقلة[1].

ومن ناحية أخرى فقد سعى أخي محمد جهده للوصول إلى تسوية ودية لتقسـيم ثروة أبي الخاصة، ويجدر بـي أن أذكر هنا أن فكـرة «الدولة» أو الخزانة العامة كما يعرفها الأوروبيون هنا لا تعني شـيئاً في زنجبار. فالتفرقة بين الإيراد العام والإيراد الخاص لا وجود لها هناك فكل ما يجني من رسوم يعود ملكاً خاصاً لأبي، ومن هذه الرسوم ومن ريع مزارعه الخمس والأربعين التي يملكها في زنجبـار ـ وكان هو المالك الوحيد لجميـع المزارع فيها ـ تتكون إيرادات أبي ومنها ينفق على شؤون دولته وعائلته، وفي أيامي ـ على الأقل ـ لـم تكن في زنجبار ضرائـب على الدخل أو علـى الأرض أو على الصناعة أو أية ضريبة أخرى مما هي معروفة هنا.

وقد قسمت أخيراً ثروة أبي الخاصة كلها حتى السفن التجارية والحربية تقاسمها ماجد وثويني. والشريعة الإسـلامية تفضل الأولاد على البنات في الميراث فتعطي للذكر مثل حظ الأنثيين بسـبب أن الولد يضطر إلى إنشـاء عائلة جديدة في حين أن البنت غير مسـؤولة عن ذلك. بل إنها على الغالب ستتزوج وتدخل عصمة رجل آخر يتكفل بها. ولذلك فقد أخذنا نحن البنات

---

(١) تم تقسيم إمبراطورية السيد سعيد بن سلطان إلى شـقين: عُمان وتوابعها يحكمها السلطان ثويني بن سعيد، وزنجبار وملحقاتها يحكمها السلطان ماجد بن سعيد، وذلك وفقًا لتحكيم كانينج الصادر في عام ١٨٦١م.

نصف ما أخذه إخوتنا الذكور[١] ومع أني وأخي رالوب، رفيق لعبي في بيت المتوني كنا في حوالي الثانية عشرة من عمرنا، فقد اعتبرنا بالغين لسن الرشد، وهذا خلافاً للعادة الجارية ولكن ظروف الحال تقتضي التغيير وهكذا تسلمنا حصتنا الوفيرة من الميراث وصرنا مواطنين أحرار في هذا السن الصغير أما إخوتي وأخواتي الذين لم يبلغوا الثانية عشرة من عمرهم فقد ظلت حصتهم في وصاية ماجد.

وكانت وصية أبي تقضي بأن يستمر الصرف على من لا ولد لها من أرامله طيلة حياتهن، أما الأمهات منهم فقد أوصى لهم بمبلغ قليل نسبياً من المال ولا بد أنه خمن بأننا سنتولى رعاية أُمهاتنا طالما كانت حصتنا من الإرث تفوق حصصهن كثيراً. ولم يخطىء أبي في تقديره أبداً فقد كنا، جميع أبنائه وبناته وكان عددنا عند وفاته ستاً وثلاثين ـ عند حسن ظنه وثقته فينا. وما أعرف أحداً من إخوتي أو أخواتي قد قصر في حق أمه أقل تقصير فالأُم أم، سواء كانت أميرة أم جارية مشتراة، ولها على بنيها واجب الرعاية والاحترام بصرف النظر عن المال والمقام.

وحالما انتهى تقسيم الميراث بيننا، اقفر ذلك البيت المزدحم من سكانه وغدا فارغاً موحشاً، وعلى الأقل بالنسبة لما كان يزخر به من حركة وازدحام. فقد ترك الكثير من الأخوة والأخوات بيت الساحل مع خدمهم وأُمهاتهم وانتقلوا إلى بيوت مستقلة لهم. وظلت خولة وعائشة وشيوان في بيت

---

(١) كانت حصة كل ولد من تركة أبيه ستين ألف ريال وحصة البنت ثلاثين ألف. ويقال إن ثروة السيد سعيد الكبرى كانت مدفونة تحت الأرض لا يعلم أحد مكانها. لذلك كل أيام احتضار في البحر ينادي دوماً... هارتون... هارتون... وهو صديقه والقنصل البريطاني العام. ويقال إنه كان يريد، يدله على مكان الثروة. وحين تولى السيد برغش السلطنة حفر في أسس قصر المتوني في التفتيش على الثروة إلا أنه لم يجد منها شيئاً ويذهب الظن إلى أن «ماجد» وجدها وأخذها.

الســـاحل وظللنا نحن في مكاننا في بيت الثاني. وتغيّرت الأحوال في بيت المتوني على نفس الغرار. والحق أنه كان من الواجب علينا نحن الذين ورثنا مالاً كافياً أن ننتقـــل إلى بيوت خاصة بنـــا ونترك هذه البيـــوت إلى إخوتنا الصغـــار وأُمهاتهم وخدمهم الذيـــن ظل ماجد يتكفلهـــم ويصرف عليهم من حصصهم التي تحت قيمومته، وهذا ما كان فعلاً.

❁ ❁ ❁

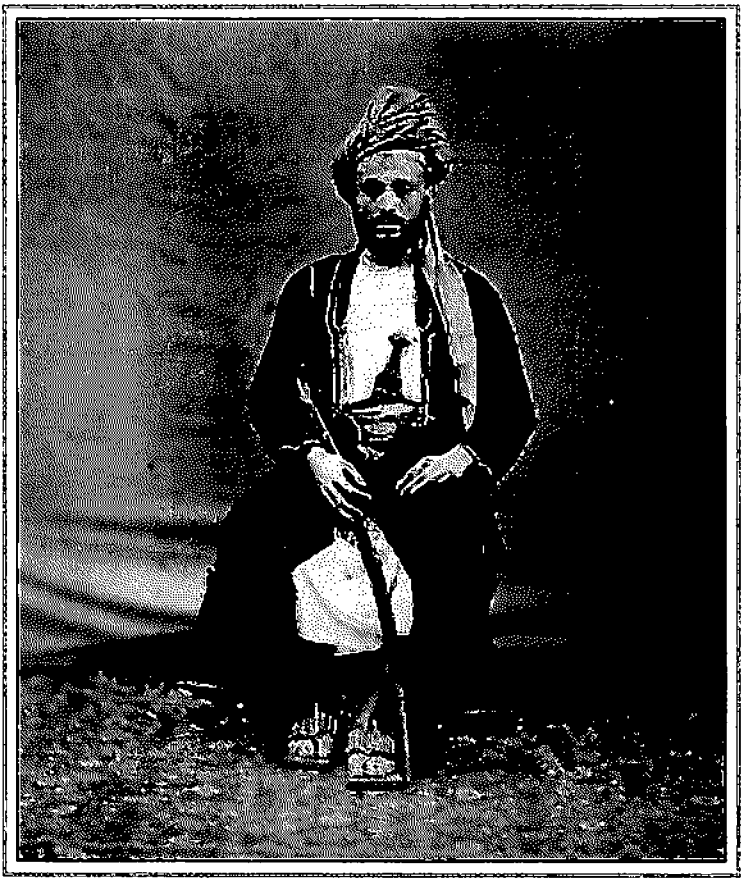

السيد ماجد بن سعيد بن سلطان

سلطان زنجبار (١٨٥٦م ـ ١٨٧٠م)

الفصل الرابع عشر
من أخبار الأخوة والأخوات

تطرقت في سياق الحديث في الفصول السابقة إلى ذكر بعض إخواني وأخواتي، وكنا ـ أبناء السلطان ـ جمعاً كبيراً لا أستطيع تحديد عدده بالضبط ولكنني أقدره بحوالي المائة من الإناث والذكور وقد مات أكثرهم قبل وفاة والدي، وكان منهم عند وفاته ستاً وثلاثين فقط نصفهم من الذكور ونصفهم الآخر من الإناث.

وليس من همي أن أسرد في هذا الكتاب أخبار كل هذا الجمع الغفير من الأخوة فليس في ذلك كبير نفع لأحد وهو على كل حال ليس مما يهم جمهرة القرّاء كثيراً، ولكنني لا أستطيع أن أمتنع عن ذكر بعض اللمحات الخاطفة والنماذج المختلفة عن حياة البعض منهم ومنهن، لما تضفيه هذه الخطوط من العمق والوضوح على صورة الحياة في بيتنا.

«١»

شريفة

لم تترك شؤون الدولة التي كان يشرف أبي شخصياً على تدويرها، المجال له للالتفات الكثير إلى أطفاله ولكنه كان كثير الحرص على تقريب

البالغين من أبنائه وبناتـــه وإكبارهم وإكرامهم ممـــا كان يغيظنا نحن الصغار الذين نظلُّ في مجلســـه واقفين كالأصنـــام في حين يرتـــاح إخوتنا وأخواتنا الكبار إلى جنب أبيهم على الفرش والأرائك.

وكانت شـــريفة من أكثر المقربات إلى أبي والمفضـــلات لديه. وكانت شركسية الأُم وعلى جانبٍ كبيرٍ من الوســـامة والملاحة واعتدال القدّ وحسن التكوين وكانت بيضاء البشـــرة شـــقراء الشـــعر وكأنها إحـــدى الأوروبيات الجميلات. وكانت إلى جانب ذلك ذكية القلب كثيرة النشاط حصيفة الرأي، وكان السلطان يستشـــيرها في كثير من أموره الهامة فكانت له نِعْمَ المستشارة ونِعْمَ الناصحة ولم يروى عنه أنه ندم يوماً ما على الأخذ بنصيحتها.

وقد تعرضت علاقتهـــا المتينة مع أبيها لبعض الفتـــور ولفترة قصيرة من الزمن حين أصرت شريفة على رأيها بالزواج من إبن عم لها لم يَرَهُ السلطان كفئاً لأعز بناته على قلبه. فابتعدت في دار الزوجيـــة عن دار أبيها ولكنها ما لبثت إلا قليلاً حتى عادت إليها بعد أن ثبت للسلطان صواب رأيها وتأكد له حُسن اختيارها فزال غضبه عنها وأعادها إلى سابق منزلتها من قلبه.

وقد سعدت شـــريفة بزواجها وظلّت وحيدة زوجها لم يشرك معها زوجة أو جارية ورُزقت منه بولدٍ جميلٍ إســـمه شوان وقد أنشـــأته أُمه نشأة صارمة رغم شديد تعلقها به.

وكان شـــوان رفيق لعبي وكان يأتي إلى زيارتنا كل يوم جمعة حاملاً إليّ الكثير من الهدايا التي تنقلها إليهم الســـفن القادمة من مسقط في أيام الرياح الموسمية. وكان لشريفة وزوجها أقارب كثيرون في مسقط وكانت هي شديدة الإعجاب بمســـقط كثيرة التعلق بهـــا ومن غرائب الصـــدف أن تكون وفاتها ـ رحمها الله ـ في مسقط إذ ذهبت إليها برفقة والدي في رحلته الأخيرة إليها.

«٢»

خولة

كانت خولة مثل شريفة، أحبُّ بنات أبي إليه وأقربهن إلى قلبه وأكثرهن لديه حظوة ومكانة، وكانتا أيضاً ـ والحق يقال ـ أجمل بناته قاطبة بل وأجمل من حَوَتْه البيوت السلطانية من الإناث.

ولم تحتل خولة مركزها عند أبيها بجمالها الفتّان وحسنها الآسر فحسب، بل ولخلقها الرفيع وأدبها الجم وذكائها الوقاد. ولم أرَ في حياتي شخصاً اكتملت صفاته واجتمع فيه جمال الخلق والخلق مثل خولة.

وكانت بالإضافة إلى كل هذا ذات ذوق مرهف وكانت كلمتها في أزياء النساء هي القول الفصل كما كانت الامبراطورة أوجيني في زمانها. وكان مما يزيد جمالها ظهوراً وحسنها بروزاً جمال ذوقها في حسن اختيارها لثيابها وقدرتها على تنسيق الألوان بينها حتى لتكسف وهي في أبسط الثياب وأرخصها الأخريات الرافلات بأغلى الحلي والحلل.

وكانت أُمها من بلاد الرافدين وكانت ذكية ماهرة فعيّنها أبي ناظرة أو مسؤولة إدارية على بيت الساحل كله وهي مهمة عسيرة لا تنهض به إلا ذوات العزم والهمة. وقد كانت خولة تساعد أُمها في إدارة البيت ومسؤولياته ثم تولت هي نفسها هذه الوظيفة. وكان من المستحيل عليها أن تدرك رضى كل فرد من أفراد بيتنا المكتظ بعشرات المئات من السكان، ولكنها كانت تحاول ذلك من صميم قلبها ولكن سعيها كان يقابل ويا للأسف بالجحود والإساءة والنكران.

فقد أعمت الغيرة بصائر القوم وأكل الحسد قلوبهن فقد نفسن على خولة امتيازها عنهن بالحسن والملاحة ثم نفسن عليها محبة الوالد وإيثاره لها من

دونهن، لذلك كانت محل التشـــهير والانتقاد من أخواتها ونساء أبيها في كل مناســـبة وبدون وجه حق، فإذا قلَّ مقدار السمك في الطعام هذا اليوم وزادت اللحوم فالملوم هو خولة، وإذا حدث العكس فـــي اليوم التالي فالتقصير من خولة، وإذا انتهى موســـم الفاكهة فالذنب ذنب خولة. بل إنها لملومة لو قلَّ إنتاج الورد في بساتين الأناضول وشـــحّت كميات دهن الورد المستورد إلى زنجبار.

ولكن إذا أرادت إحدى هاته النســـوة طلباً من الســـلطان فهي تعلم علم اليقين أن لا وســـيط لها ولا شـــفيع إلا خولة، وإذ ذاك تنهال عليها بكلمات التملق والإغراء والحب والوداد والتي تدوم حتى ينقضي الأمر فتعود الأمور إلى سيرتها الأولى.

ولعل من غرائب الطباع أن تكون أشد النساء غيرة من خولة وحقداً عليها أختها الشـــقيقة عائشـــة. فقد لقيت خولة منها الأمرّين ولكنها ظلت تداريها بالحلم والصبر وتسد أذنيها عن قالة السوء تأتيها من أختها وتمنع رفيقاتها أن يذكرنها بالسوء.

ولكن خولة كانت تتألم من ســـيرة أختها كل الألـــم، وكنت ـ على صغر سني ـ الوحيدة التي تستودعني أسرارها فكانت تبوح إليّ بألمها هذا بالكلام فتقول: ـ ترى ما السبيل إلى إرضاء عائشـــة، لقد عملت معها كل ما أستطيع واقتسمت معها كل ما كان يهبني أبي من هدايا... ولكن لا ترضى... ما ذنبي إذا كان أبي يحبني أكثر منكن ويخصني بوده وثقته.

وكانت أكبر الغصص لدى هاته النسوة حين يصطحب أبي معه خولة إلى غرفة الكنوز أو يرسلها إليها وحدها حيث الثروات الطائلة التي تتقطع نفوسنا حسرات لمجرد مشاهدتها. وكانت ترتسم على وجوههن في هذه المناسبات

أبشع صور الحقد والمرارة وكأنهن يحاولن افتراسها، وكذلك كان أمرهن يوم أهداها أبي تاجاً ذهبياً مرصعاً باللؤلؤ والماس اشـــتراه لها خصيصاً من إيران وكلفه مبالغ طائلـــة وكانت هذه الهدية ثـــروة كبيرة ونفيســـة وبرهاناً جديداً ـ حيث لا حاجـــة للبرهان ـ على الإيثـــار والمحبة فلا عجـــب أن تغلي في صدورهن مراجل الحسد والحقد والكراهية.

وكلما اشـــتدت مرارة الحســـد والعداء ضد خولة ازدادت هي طيبة قلب وحلاوة خلق، فلا تقابل الإساءة إلا بالإحســـان ولا الغضب إلا باللطف ولم تكن تعرف للانتقام سبيلاً، وكانت تردد دوماً قولها:

عفا الله عنهم... إنني يكفيني رضى أبي عني...

❁ ❁ ❁

وقد اعتنت بي خولة أيام طفولتي الأولى ومنذ انتقالنا من بيت المتوني، وشغفت بها حباً وإعجاباً، وأصبحنا فيما بعد أعز صديقتين وازدادت صداقتنا وثوقاً حين انتقلت خولة بعد وفاة أبي من بيت الســـاحل وســـكنت معنا في بيت الثاني. وهناك شاطرتها العيش لا نفترق أبداً ليل نهار، بل نعمل ونأكل وننام سوية. وكان لها تأثير كبير على حياتي سأشرحه فيما بعد.

وقد تعكّر صفو ودنا بعض الشيء بســـبب مصالحتي مع أخي ماجد أثر فشل مؤامرتنا عليه، مما سأحكي قصته في غير هذا المكان من هذا الكتاب، ثم عادت مودتنا إلى سابق عهدها وظلّت تكاتبني (ولم تكن تعرف الكتابة) بعد خروجي من زنجبـــار، وقد اقترحت عليّ بعد وفـــاة زوجي عام ١٨٧١ أن أرسل إليها أحد أطفالي لتتبناه ولكن لم يهن عليّ فراق أحد منهم.

وكانت مضـــرب المثل في الحلم وســـعة الصدر وحـــب الخير، وكانت

تعامل عبيدهـــا في منتهى اللطـــف والرقة، فتصفح عن إهمالهـــم وتغفر لهم أخطاءهم، بل وتتدخل لتمنع الأذى عن خدم الغير أيضاً. وقد اكتشـــفت مرة عدم أمانـــة طباختي النوبية «زعفـــران» فحاولت مراراً ردعهـــا عن إتيان هذه السرقات الطفيفة فلم ترعوي مما حملني على أن أقرر بيعها والتخلص منها. فما أن وصل علم ذلك إلى زعفران حتى انسلت في جنح الظلام إلى مزرعة خولة ـ وكنا آنذاك نسكن في المزارع ـ واستطاعت بلباقة لسانها وقوة عرضها أن تكســـب خولة إلى جانبها وتثير عطفها وشفقتها فطلبت مني إبقاءها وكان لها ذلك طبعاً.

ولم تزيد حصة خولة في ميـــراث أبينا عن حصة أية من بناته الأخريات، ولكنها ضحّت بالكثير من أجل شـــراء مزرعة من أجمل مزارع أبي وأكثرها أناقة وأحسنها موقعاً، ولهذه الأسباب فقد كانت غالية الثمن جدّاً وإن لم تكن كثيرة الغلة.

وكانت هـــذه المزرعة هي المكان المفضل لأبي يذهـــب إليها للراحة أو الاستجمام مع ضيوفه أو أهله بعيداً عن مشاكل الحكم والسياسة.

ورغم قلة عائدات هذه المزرعة فقد دفعت فيها خولة ثمناً غالياً، وكانت مستعدة لأية تضحية في سبيل امتلاك هذه المزرعة إكراماً منها لذكرى والدي الذي حباها بالحـــب والحنان وآثرها علـــى جميع بناته والـــذي كانت هذه المزرعة مكانه المفضل.

وكان في المزرعة قصر جميـــل هو عبارة عن بناء صخـــري متين تظلله الأشـــجار الشـــاهقة، وتحوي هذه البناية صالوناً كبيراً، فُرشت أرضه بالرخام وغُطيت جدرانـــه بالمرايا وتدلّت من ســـقفه الثريات اللماعة وانتشـــرت في

جوانبه كراسي الخيزران. وكان من عادة أبي أن يستقبل ضيوفه في هذا البهو حين يكون في سيبه.

وقد احتفظت خولة بكل آثار أبي في هذه المزرعة وأغلقت غرفته الوثيرة الأثاث فلا تفتحها إلا للضيوف الكبار.

وكانت خولة مضيافة كريمة للكثيرين الذين يستهويهم إسم سيبة وشهرتها، وكان من أسباب شهرتها أيضاً حدائقها الغناء والحافلة بغرائب النبات والأزهار.

وقد كنت أذهب مع خولة كل عام إلى هذه المزرعة أيام جني القرنفل، وإني لأذكر الآن تلك الأيام ونحن نمشي بمنتهى الودّ والسرور بين الحدائق العطرة والأشجار الظليلة نلهو ونمرح ونراقب العمل ثم نزور أثاث الوالد العظيم نسترجع خاشعات ذكراه العطرة.

لكن الحبيبة والأخت الحنون خولة، والتي كانت تشع الحسن والحب والحنان. لم تعد في هذه الدنيا. فقد رحلت عنا عام ١٨٧٥ في حادث تسمم قيل أنه كان متعمداً، وأنا لا أستبعد ذلك. ومهما حدث... فإن خولة لم تمت بل ستبقى حيّة في قلبي وخاطري حتى نلتقي.

«٣»

عائشة

من النادر أن تختلف أختان شقيقتان اختلاف عائشة وخولة. فقد كانت عائشة قصيرة القامة سمراء اللون وخولة شقراء فارعة القوام، وكانت عائشة مجدورة الوجه غير جميلة المنظر في حين كان ماء الحسن والشباب يترقرق في بشرة خولة الصقيلة الصافية، وكانت عائشة متحفزة خجولاً في سلوكها

وعلى العكس من ذلك كانت خولة جريئة صريحـــة، وقد كانت هذه الفروق من الكثرة والتباين بحيث كان يصعب علـــى أقاربنا في عُمان أن يصدقوا أن هاتين الفتاتين أختان شقيقتان حقّاً.

وكانت المســـكينة عائشة مدركة جداً لوجهها المشـــوه وجمالها المعدوم فكانت لا تظهر ـ لأقرب أقربائها ـ إلا محجبة، ولهذا الســـبب نفسه لم تكن تهتم بمظهرها الخارجي ولباسها، فكانت ترتدي أبسط الثياب وأرخصها ولم يكن لها إلا عبدة حبشية واحدة تقوم لها بكل وظائف «الوصيفات» وعاملات التجميل.

ولكنها امتازت وشاعت شـــهرتها بيننا على أنها أســـتاذة كبيرة في فنون الطهي وذواقة عظيمة في اختيار أنواع الطعام وأصنافه ولجودة طبخها ونفاسته فقد كانت تجهز أخانا ماجد بطعامه فترســـل إليه يومياً من قصرها خمسة أو ستة أطباق شهية مختلفة. وكان ماجد يدفع لأخته ثمنها في كل شهر.

واشتهرت عائشة بالذكاء والفطنة وحُسن التدبير وصواب التقدير فكان يرجع إليها لفض الخلافات بين أفراد العائلة، وكانت أيضاً ربة بيت ماهرة ومدبرة أعمال ناجحة ولهذا كانت مواردهـــا المالية في وضع مثالي دائماً وكان رصيدهـــا لا يعرف الجـــزر والهبوط حتـــى في أخريات المواســـم الزراعية حيث تهبط أرصدتنا كل الهبوط حتى يأتيها المد والمدد بحصاد القرنفل.

❁ ❁ ❁

وكان هلال أخاها المفضل، وكانت شـــديدة الحب لـــه لذلك فقد آلمتها كثيراً نهايته المحزنـــة فانصبت عواطفها على ابنه ســـعود حيث ظلّت تحيطه بالعطف والحنان بعد موت أبيه.

«٤»

خديجة

تعرّف القرّاء في الفصول السابقة على الشيء الكثير من أخبار خديجة، شقيقة ماجد، ورغم جفوتها فقد كانت محبوبة. وقد انقطعت خديجة عن زيارتنا وركزت كل حياتها حول أخيها ماجد والعناية به وكانت تحبه أصدق الحب وأعمقه.

وفي أخريات أيامها تولت العناية بأخينا الصغير ناصر ولكنها ملت الحياة في الدنيا بعد وفاة شقيقها ماجد، فاصطحبت ناصراً إلى مكة المكرّمة حيث قررت العيش هناك، وهو آخر ملاذ يركن إليه المسلم الزاهد في الحياة. ولم تطل بهما الإقامة هناك طويلاً بل توفيا بعد حين قصير من وصولهما إلى هناك.

«٥»

شيوان

رغم أن شيوان تكبرني سناً فقد كانت رفيقة لعبي أول انتقالنا إلى بيت الساحل. وكانت عصبية المزاج مشحونة بالعاطفة والانفعال شديدة الحساسية وكانت قوة شخصيتها تتركز في عينيها الواسعتين المعبرتين والتي تستطيع بها أن تصرع أسداً.

وقد جعلت لها صفاتها هذه دوراً بارزاً ومهماً في حياتنا البيتية.

وقد سيطرت عليّ منذ أول تعارفنا واستخدمتني وصيفة لها تدفع بي إلى هنا وهناك لأقضي حوائجها وألبي لها طلباتها الجامحة، وكان مبررها الوحيد لاضطهادي وتعذيبي هو أنني من نسل «القرود البيض» ذلك أنها ورثت سواد

البشرة من أُمها الحبشـــية، والأحباش قوم مشهورون عندنا بالخشونة والعنف وبالخبث والدهاء أيضاً. ولذلك فهي تبغض كل من يتمتع ببياض البشرة، ما دمت قد ورثت من أُمي الشركســية بيــاض لونها فقد حقــت عليّ حملات أقاربي من ذوي الجلود الســود، وكان أخي جمشيد أسوأ مني حظاً إذ أنه لم يرث بشرة أُمه البيضاء فحسب بل وورث عنها عيونها الزرق أيضاً.

وقد فقدت شيوان في صباها شــقيقها الأوحد عليّ[1] الذي كان أرق منها طبعاً وأســلس خلقاً وبالتالي أكثر منها تمتعاً بالمحبــة والاحترام. وقد مات أبواها في وقت متقــارب ولهذا وجدت نفســها وهي لما تزل شــابة يافعة، وحيدة في عالم قاسٍ يختلف كلية عما كانت تتصوره أو تتمناه. فانعكس هذا شراســة طبع ونفرة من الأخوة والأخوات ولم يحظ بودهــا إلا أخونا ماجد وذلك بسبب صداقته الحميمة لشقيقها الفقيد علي.

وقد جعل منها جسمها الضخم وجمالها التقليدي شخصية آمرة، وعلمتها تجارب الحيــاة الاعتماد علــى النفس وعدم استشــارة الغيــر وكذلك عدم الاســتماع إلى نصائحهم. وهذا الانفراد بالرأي أوقعها في قبضة زنجي مكار من عبيدها استغل جهلها بالكتابة فسلبها أكثر مالها.

ورغم خشونة مسلكها فقد كانت خيّرة كريمة كما كانت عادلة منصفة مع خدمها وعبيدها رغم قسوتها عليهم في بعض الأحيان.

وكانت تجتهد دائمــاً لامتلاك أحســن العبيد وأجملهــم وتغدق عليهم الأموال والســلاح والمجوهرات وكانت تحيط نفســها بكل مظاهر الفخامة والثراء.

---

(١) إن لم تكن المؤلفة مخطئة في الإســم فإن هناك إبناً آخر للســيد سعيد إســمه علي. تولى سلطنة زنجبار عام ١٨٩٠ ـ ١٨٩٣ وتوفي عن ست وثلاثين عاماً؛ أي: أنه من مواليد عام ١٨٥٥.

ورغم ما لقيته منها في الصغر من سوء المعاملة فقد كنت الوحيدة من أخواتها التي تستطيع أن تناقشها في أمورها. وقد اغتنمتُ يوماً ما صفاء طبعها وهدوء بالها فأشرتُ إلى ما ينتقده الناس من كثرة بذخها وإسرافها واحتفاظها بهذه الحاشية الكبيرة من العبيد والخدم. فكان جوابها مؤلماً ومثيراً للشفقة فقد صارحتني أنها تشعر بدنو أجلها لذلك فهي تريد أن تتنعم في الأيام القليلة الباقية من حياتها وأن تنفق كل ما لديها من مال على نفسها وعلى الفقراء المحتاجين.

وكانت في الواقع من أكثرنا ثراءً إذ ورثت أخاها علياً إضافة إلى حصتها في ميراث أبينا السلطان. ولكنها مع هذا ظلت تسكن بيت الساحل رغم الشعور العام بالعداء نحوها من الجميع.

ولكنها لم تكن تهتم بآراء الناس، ومع أنها تسكن في بيت واحد مع بضعة مئات من الأهل والأقارب فإنها لم تهتم بأحد منهم أو تكلف نفسها إرضاءه وظلت تعيش لنفسها وبين عبيدها فقط مستقلة عن الجميع. ولذلك لم نقم بزيارتها في مرضها العضال الذي أودى بها لأننا لم نسمع به إلا مؤخراً جدّاً. وحين أردنا زيارتها حال سماعنا الخبر امتنعت بإصرار وعناد عن مقابلتنا سخطاً منها علينا لاعتقادها ـ خطأ طبعاً ـ بجحودنا وعدم وفائنا لها.

ومع حزننا الشديد وأسفنا البالغ لقرارها هذا فلم نكن نملك الخروج على إرادتها الصارمة ومنعها البات.

ولما استشرى داء التدرن في جسمها وأحسّت باقتراب الموت أوصت بألا يراها أحد بعد موتها إلا المرأة التي تقوم بالغسل والكفن. وقد طُبقت وصيتها بالحرف الواحد فلم يسمح لنا بدخول غرفتها إلا بعد أن لفت بكفنها ولم يعد يظهر منها شيء.

وفي غمرة الحـزن والذهـول رميت بنفسـي على جثمانها المسـجى واحتضنتها غير عابئة بتحذيري من عدوى المرض.

وعلى الرغم من اختلاف طباعنا، فأنا أحب شـيوان وكنت ألتزم جانبها دائماً في أي جدال وهي في نظري تسـتحق الحب والود من كل من يستطيع أن يتغاضى عن سـلوكها الخشـن وعاداتها الغريبة. وكان الطموح والتعالي وربما الغرور من أبرز طباعها فلا عجب أن تثير حسد الأخريات وعداءهن.

وكانت وصيتها الأخيرة نموذجاً آخر من نمـاذج طبعها فلم تكتف بعتق جميع عبيدها في المدينة والمزارع بل ووهبتهم أيضاً كل ما في حوزتهم من حلي وسلاح وخصصت أحد مزارعها للصرف منها عليهم لأنها لم ترد للذين خدموها أن يضطرهم العوز إلى الخدمة من جديد عند الآخرين.

«٦»

ملتة

كانت ملتة مثل شيوان حبشـية الأُم ولكنها لبياض بشرتها ورقة تكوينها أبعد ما تكون عن سـمات قـوم أمها وملامحهـم. وكانت أُمها مشـلولة لا تسـتطيع الحركة وبالتالي لا تسـتطيع العناية بأطفالها ومع هذا نشأت ملتة وأخوها الشـقيق رولاب أحسـن نشـأة وأقومها فاكتسـبا بخلقهما الرضي وسلوكها الطيب ود الجميع واحترامهم.

وكانا يحبان أُمهما حبّاً جمّاً ويسـهران على راحتهـا ولا يفكران إلا في إرضائها.

وقد كانت ملتة وأخوهـا رفيقي لعبي في بيـت المتوني وظلا صديقين عزيزين علـيّ وكانت ملتـة رفيقة غير أنانيـة وقد تجاورنا فتـرة من الزمان

بمزارعنا فكنا نلتقي يومياً في جو من الأخــوة الحقة والبهجة الصادقة وكان مما يســر رالوب أن يدخل علينا بأصدقائه على حين فجأة مســبباً لنا الذعر لأننا لم نعتد على رؤية الرجال الغرباء عنا.

ولكني يجب أن أعترف هنا أن ذعرنا لم يكن يمنعنا من مشاركته السرور بهذا العمل... وإن لم نعترف له بذلك.

وقد تزوجت ملتة بعد وفاة أُمها أحد أبناء عمومتنا، وذهبت للسكن معه في دار الزوجية وقد أسعدها الله بزواجها ورزقها بولدين جميلين كانا موضع فخرها واعتزازها.

وكانت ملتة على العكس من شــيوان، أكثر أفراد عائلتنا قناعةً وزهداً في المظاهر، ولكن قومنا الذين كانوا ينتقدون شيوانة لبذخها وإسرافها، ينتقدون ملتة لقناعتها واقتصادها وبســاطة ذوقها ورخص ملابســها. ولكنها لم تكن تهتم بهذه الانتقادات «فأنا» كما كانت تقول «ســأظل إبنة أبي ســواء لبست الحرير والديباج أو القطن والصوف. ولبسي هذا القماش أو ذاك لن يجعلني أقل أو أحسن من بقية إخوتي وأخواني».

ويجب أن أعترف مع الخجل الكبير أنني لم أســتطع فهم هذه الفلســفة الحكيمة إلا بعد وقت طويل وتجارب مرة.

«٧»

زجان

زجان وزمزم شــقيقتان من أُمٍ حبشية وقد ســبق أن ذكرت خبر الصداقة القوية التي كانت تربط بين زجان وأُمي أثناء إقامتنا في بيت المتوني. وكانت زجان تحبني حباً كبيراً وتدللني أكثر مما تســمح به أمي، وكان جناحها يقع

بعيداً عن جناح سـكنانا وكنت إذا ذهبت إليها أمكث عندها طيلة الوقت غير عابئة بالرسل المتتابعة التي ترسلهم في أثري أُمي، حتى تضطر آخر الأمر أن تأتي إليّ هي بنفسها ونكون النتيجة أنها تمكث معنا طيلة المساء.

وكانت زجـان أول من علمتني التطريز بالخيـوط الذهبية، ومهارتها في هذا الفن لا تبارى فهي تبتكر النماذج وتطرزها.

وكانت آية في طيبة القلـب والحنان لا تتعب أبداً مـن معونة المحتاج ومواساة المريض. وكان يحق لنسـاء القصر أن يخرجن منه إذا لم يكن أبي موجوداً فيه، لذلك كانت زجان تخرج من بيـت المتوني في مثل هذه الأيام مع جملة من خدمها وعبيدها محملين بأنواع الهدايا لتوزعها على المحتاجين والفقراء الساكنين قرب القصر.

وحين آن موعد رحيلنـا من بيت المتوني كان وداع أمـي وزجان وداعاً مؤثراً ما زلت أحسُّ بحرارته ولوعتـه، فقد كانتا تعلمان أن لقاءهما بعد ذلك الفراق سيكون قليلاً لأن زجان تكره الذهاب إلى المدينة. وقد أهدتني زجان بعض الهدايا قبل السفر وأوصتني أن أبقى مطيعة لأُمي.

ومع الأسف الشديد فقد فقدنا زجان في وقت مبكر.

«٨»

زمزم

كانت زمزم أجمل كثيراً من شـقيقتها زجـان وكان عندها فوق ذلك كل الصفات الطيبة التي عند أختهـا. ولم أعرف زمزم جيـداً وعن كثب إلا في تاريخ متأخر حين سكنا بعد وفاة أبي مزرعتين متجاورتين، وحينئذٍ اكتشفت أنها امرأة عملية مدبرة، بل هي ربة بيت وربة أعمال من الطراز الأول، عطوفة

كريمة ولكنها لا تميل إلى البذخ وهي أنيقة ولكنها تحب البساطة والنظام. وهي بتدبيرها ونظامها أقرب ما تكون إلى ربة البيت الأوروبية.

وكانت كثيرة الوفاء لذكرى أختها زجان، فإكراماً لذكرى تلك الأخت التي كانت تحبني وترعاني فقد ظلت زمزم بدورها تنظر إليّ بعين الأخت والأُم معاً، وتشتد في نقدي وحسابي، وتشجب أعمالي وقراراتي كأي أم صارمة مع بنتها. ولكنها تعود فتسترضيني وتطلب إليّ ألا أغضب من شدتها تجاهي لأنها إنما تفعل ذلك كما كانت تقول: «حبّاً بزجان التي كانت تعتبرك بنتاً عزيزة لها». وإلا فإن الأخريات يرتكبن أخطاء كبيرة ولكن دون أن أكلف نفسي مشقة الكلام معهن عنها.

وكانت كثيرة العون لي في أموري الزراعية فكنا نركب حميرنا أو نسير على أقدامنا الساعات الطوال في المزرعة وهي تصدر التعليمات والأوامر إلى ناظر مزرعتي أو تراقب تنفيذ ما سبق أن أصدرته من تعليمات. وكانت كثيراً ما ترسل ناظر مزرعتها وبعض عمّالها للعمل في تنظيم مزرعتي.

وقد تزوجت زمزم في سن متأخرة من إبن عم لنا إسمه حمود (وكان العُرف يقتصر زواجنا على أبناء الأعمام ما أمكن). وحمود هذا هو نفسه الذي خطب من خالد مرة إحدى أخواته فلم يكتفِ خالد بالرفض القاطع وإنما شفع ذلك بالإهانة القاسية وصبّ جام غضبه على هذا الرجل.

وقد أعاد حمود الكرة مع نفس الأخت بعد وفاة خالد فلم ترضى به فمال إلى أختنا زمزم التي قبلته زوجاً، وتزوجا في الحال بهدوءٍ ودون جلبة أو احتفال ذلك لأن حمود كان أبخل من في عائلتنا من الرجال وأبعدهم عن الكرم العربي التقليدي رغم أنه من أكبر الأثرياء في زنجبار. ولهذا لم يكن

محبوباً من أحد في زنجبار وإن يكن مرهوب الجانب يخشـــاه الجميع لثرائه ونفوذه وبأسه.

ولم أعد أرى زمزم بعد الزواج إلا لماماً. ولكنها دون شك كانت سعيدة بزوجها غيـــر المحبوب ـ ولعلهـــا بطرقهـــا العملية فـــي الإدارة والتدبير قد «دبرت» هذا الزوج الغريب الأطوار وأعادته إلى سواء السبيل.

«٩»

نونو

قست الطبيعة على نونو فأفقدتها بصرها ثم أفقدتها أُمها، وأرادت الطفلة المســـكينة أن تنتقم لنفسها من الطبيعة والناس فنشـــأت عنيفة قاسية فجلبت على نفسها سخط القوم ونفرتهم بدلاً من أن تكسب عطفهم وشفقتهم.

كانت نونو إبنة أُم شركســـية رائعة الحســـن والجمال، سُـــميت لجمالها «تاجا»، وكانت من ســـراري أبي الأثيرات عنده، ولهـــذا وذاك كانت موضع الحســـد والغيرة من ضراتها الأخريات. وقد رزقها الله بأنثى جميلة مثلها هي نونو ولكنها وضعتها عمياء. وبدلاً من أن يبعث هذا الحدث الأسف والأسى في قلوب منافساتها فقد بعث الشماتة والفرح ورأين فيه جزاءً وفاقاً لتاج على ما قدمت، وهي في الواقع لم تقدم شـــيئاً أبداً ولم تؤذِ أحداً ولم ترتكب ذنباً وكل ما في الأمر أنها كانت ـ لجمالها أفضل منهن منزلة عند زوجهن.

ومهما يكن من أمر، فإن الحادث قد آلم الأُم ونغص عيشها ومع أنها لم تَرَ في النهاية بُدّاً من التسلم بقضاء الله وقدره، إلا أنها لم تتحمل النكبة ولم تعش طويلاً لترعى ابنتها الضريرة وتعنى بها بل أســـلمت الروح بعد الولادة بقليل وتركت طفلتها وحيدة في ظلماء هذا العالم.

وقد هيـأ الله للطفلة أحد عبـدات أُمها الحبشـيات التي أقسـمت للأُم المحتضرة تاج بأنها سَتُعنى بطفلتها نونو ولا تتركها ما ظلت حيّة. وقد وفت هذه الحبشية النبيلة بوعدها أحسـن الوفاء ووقت هذه الطفلة من الكثير من ويلات الحياة، رغم ما كانت تلقاه من عنف الطفلة وقسوتها وسوء معاملتها.

وكانت العبدة لا تتلقى أوامرها إلا من أبي الذي كان حبه للصغيرة نونو يدفعه إلى الاعتناء بها وتفقـد أحوالها وهو ما لم يكن يفعله مع أطفاله الكثر الآخرين.

وكانت نونو أعنف وأشـرس طفلة شـاهدتها في حياتي. وكانت قاسـية مسـتبدة تثير الرعب والذعر في قلـوب الأطفال وأُمهاتهم على حد سـواء. وظلت كذلك حتى بلغت العاشـرة من عمرها وفي هذه الفترة كانت تتربص بكل طفل في البيت أصغر منها وتمسك به لتقلع عينيه، وكانت تستفهم عن كل مولود جديد إن كانت عيونه سـليمة ويسـتطيع الرؤيـة أم لا. وقد دلتنا التجربة على أن من الخير ألا نخبرها الحقيقة دفعاً لأذاها عن الطفل الجديد ولأنه يسـرها أن تعرف أن هناك غيرها ممن حرم نعمة البصر ورؤية الشمس والقمر والأضواء والألوان.

وكانت عقدة نفسها المسـتعصية هي العيون فقد ملأتها عاهتها حقداً مرّاً ولؤماً أسوداً، فقد سمعت مرة أن لأحد إخوتها الأطفال أهداب طويلة جميلة فما كان منها إلا أن استغلت غياب أُمه ومربيته فتسللت إليه وأعملت المقص في أهدابه وكادت أن تفقأ عيني الطفل البريء لولا صراخه وزعيقه.

وقد أشـاع هذا الحادث الذعر في أهـل البيت فلم يتركـوا بعدها طفلاً لوحده قط خشـية اعتدائها عليه، وكان لها قدرة خارقـة على تعيين الأمكنة والوصول إليها وكانت تسير وتنتقل من مكان إلى آخر بسهولة ويسر وسرعة،

لا تتوافر لضرير غيرها. ولذلك فكانت توجد في كل مكان وكأنها شبح من الأشباح أو جنّية من جنيات الأساطير.

ومن أبرز طباعها إصرارها على أن تعامل كما يعامل المبصرون، فكانت تصرُّ على أن تختار ملابسها بنفسها وأن ترتديها أمام المرآة وتتحرك جيئةً وذهاباً، وحين تسمع أن لأحدهم عيوناً جميلة أو أهداب طويلة فإنها تصرُّ على أن تلمس هذه الأجزاء بنفسها لتمتحن صدق الكلام.

❁ ❁ ❁

ومن حُسن حظ الجميع، فقد تغيّرت طباع نونو وسلوكها بعد بلوغها العاشرة من عمرها وأصبحت فتاة رقيقة هادئة وبدأت خصالها الطيبة ومعدنها الجيد تنكشف للعيان فأكسبها هذا حب الجميع واحترامهم وإعجابهم.

❁ ❁ ❁

وقد فقدت المسكينة خادمتها الحبشية بعد فقد أبيها، وكانت هذه الحبشية أكثر عطفاً وحنواً عليها من كثير من الأُمهات، ولأنها لا تستطيع العيش بمفردها فقد انتقلت إلى السكن مع أختنا عائشة وعاشتا معاً.

«١٠»

شومبو وفارشو

شومبو وفارشو هما إبنتا أخي خالد ولم يكن له من الذرية غيرهما وقد نشأتا في العز والدلال ثم ورثتا عن أبيهما ثروة عظيمة.

وقد كانت هاتان البنتان رفيقتي في المدرسة في بيت الساحل، ومن هناك نشأت صداقتنا وامتدت وازدهرت على مرّ الأيام فشاركتاني في مستقبل الأيام آرائي السياسية ونالهما منها ما نالني من الخسارة والأذى.

وكانتا تسكنان بيتاً مقابلاً لبيتنا ـ بيت الثاني ـ ولأن الشوارع في زنجبار ضيقة جداً فقد كنا نستطيع بسهولة تامة أن نتبادل الحديث من نوافذ غرفنا فنتكلم عن شؤون البيت وعن الأزياء وعن السياسة. وكنا كثيرات الحذر عند الحديث عن السياسة ولذلك كنا نترك في منعطفات الشوارع بعض خدمنا لينبهونا عند مرور بعض المشكوك بهم وكانت إشارات التنبيه صفيراً أو سعالاً أو ما أشبه. وسأعود إلى الكلام عن نشاطنا السياسي هذا في غير هذا المكان.

ورغم أن شومبو وفارشو من أُمّين مختلفتين فأنهما نشأتا على حب إحداهما للأخرى حباً عميقاً وتعلقهما ببعضهما تعلقاً متين الرابطة قوي الأصر، مما كان يوقعهما دوماً في خصام شديد مع أُميهما اللتين كانتا على أشد النفرة وأعنف الغيرة من بعضهما البعض.

وكانت شومبو أكبر من أختها فارشو ببضع سنين وكانت لطيفة رقيقة لينة الطبع على العكس من فارشو فقد كانت شديدة الحساسية حادة المزاج عنيفة الطبع. وكانتا ـ كما قلت ـ قد ورثتا ثروة أبيهما الضخمة ولكن لحب إحداهما للأخرى فقد صممتا على العيش معاً وترك ثروتيهما مشاعاً بينهما دون قسمة.

وقد أغاظ هذا القرار أُم فارشو وكانت حبشية لها ما عند قومها من الحدة والعنف، وقد أرادت لابنتها أن تنفرد بثروتها وتستقل بشؤونها عن أختها، ولكن البنت رفضت هذا الاقتراح بكل عناد وتصميم وأعلنت عن قرارها القاطع بعدم قسمة ثروتها مع أختها وعدم الانفصال عنها ما دامتا كلتاهما غير متزوجتين.

وتجاه هذا التجاهل الشديد والرفض القاطع لرأيها ولأمور أخرى لم تجرِ

على رغبتها وهداها، فقد وجدت أم فارشـــو إن المقام مع إبنتها لم يعد مما يطـــاق فتركت بيتها ســـرّاً ولم تأخـــذ معهـــا إلّا صرة صغيرة مـــن الملابس ودريهمات معدودات.

وظلّ مكان اختباء الأُم مجهولاً لم يســـتطع أحد أن يهتدي إليه، ما ظلّت معها بقية من دريهماتهـــا المعدودات. فلما جاءت على آخـــر «بيزة» منها لم تجد بدّاً من العودة إلـــى بيت المتوني حيث ذهبت إلـــى أختي زينة وكانت أقربنا إلى أخينا خالد وأكثرنا حبّاً له. وعاشـــت معها ورفضت أن تكلم ابنتها ما لم تأتِ فارشو بنفسها وتعترف بخطأها ثم تعتذر.

لكن البنت لم تلقِ بالاً للموضوع ولم تكترث ولم تفكر في إرضاء أُمها أو زيارتها رغم علمها بمرض أُمها مرضاً وبيلاً. وقـــد ذهبت عبثاً محاولاتنا معها بتذكيرها بحقوق الأُمومة وواجبات البنوة.

وكان الشـــعاع الصادر مـــن عينيهـــا الكبيرتين يؤكد مقـــدار عزمها على الإصرار على قرارها حتى يكاد المرء أن لا يصدق صدور كل هذا العناد من مخلوقة صغيرة جميلة مثل فارشو.

وبعد خروجي من زنجبار علمت أن فارشـــو قد ماتت بالسّل، ولا أدري إن كانت قد صالحت أُمها قبل الوفاة أم لا.

❁ ❁ ❁

وقد ورثت هاتان الأختان عن أبيهما خالد مزرعة كبيرة ضخمة أســـماها «مرسيليا» تعبيراً عن كبير ولائه للفرنسيين وإعجابه بهم.

وكان في المزرعة قصر من أفخم القصور هندســـةً وبنـــاءً وأثاثاً، فكانت جميع جدرانه ـ عدا غرف الصلاة ـ مغطاة بالمرايا الكبيرة وأرضه مفروشـــة

بالرخام الملون وكانـــت غرف القصر تعجّ بأنواع الســـاعات والتحف النادرة والمزهريات الصينية النفيسة.

وكنت أقضي في هذا القصر أيامـــاً ممتعة في ضيافة الأختين الصديقتين، وكان القصر يعجُّ بالضيوف رجالاً ونســـاءً وكانت الأختان متحررتين نوعاً ما من بعض التقاليد فكانا يواجهان الرجال ويجالسونهم إن كانوا مع زوجاتهم. وكانت إقامة الضيوف تـــدوم أياماً أو أســـابيع كنا نقضيها في أحســـن مرح وسمر.

ولكن هذا القصر الجميل تعرض للانهدام، فقد اتخذه أخي برغش حصناً له ومقراً لثورته ضد أخيه السلطان ماجد فاضطرت قوات الحكومة أن تقصف القصر وتدكه دكّاً وتتركه أطلالاً.

وكانت خسارة البنتين جسيمة بحد ذاتها ولا شك، ولكن ثروتهما كانت من الجســـامة بحيث لم يؤثر فيها فقدان هذا القصر البديـــع، وبحيث أنهما اعتبرتا الحادث من التفاهة وعدم الأهمية بحيث لا يستحق الذكر والبحث.

«١١»

هلال

اكتفي بالكلام عن هاته الأخوات وانتقل للـــكلام عن أخوين إثنين فقط هما هلال وثويني وقد ذهب أولهما ضحية أخطائه وراح الثاني ضحية أبنائه.

فمن المعروف جيـــداً أن ديانتنا الإســـلامية تحرّم شـــرب الخمور وكل المشـــروبات الروحية تحريماً تاماً لا بل إن مذهبنا الإباضي يتشـــدد إلى حد تحريم التدخين أيضاً.

ولكن مع الأســـف وبمرور الأيام بدأ يتأكد ما كان يصل إلينا من أخبار

سيئة من أن بعض المسيحيين وخاصة القنصل الفرنسي[١] قد أفسدوا هلالًا وعلّموه على شرب الخمر، ذلك إن علائم الذهول والخمار بدأت تنتابه بوضوح، كما بدأت رائحة الخمر تفوح منه بشكلٍ واضحٍ، وفقد هلال المسكين القدرة على إدراك ما يحل به وإيقافه عند حدّه.

❁ ❁ ❁

وكان هلال الإبن الأكبر والمفضل عند أبي الذي سببت له أخبار إبنه وحاله قلقاً عظيماً وهمّاً كبيراً، فحاول إصلاح إبنه الضال بالنصح والكلام فلم ينفعا معه بشيءٍ، فاضطر إلى حجزه في القصر لمنعه من الاتصال برفاق السوء وإذ لم تنجح معه كل هذه الأساليب فقد اضطر إلى أبعاده عن محيط العائلة بكاملها.

وقد آلمنا جميعاً هذا القرار ولكن عائشة كانت أكثرنا ألماً وحزناً لشدة حبها وتعلقها بأخيها هلال. لذلك سمحت له بأن يزورها سراً في القصر بعد طرده. وكان يدخل القصر بصعوبة كبرى وسرية تامة وحين يجلس لديها تطفئ أنوار الغرفة لئلا ينم الضوء عن وجوده لديها. ولم يكن أحد يطاوعه قلبه ليشي بخبره إلى أبينا فظل الأمر على هذا الحال. ولكن عطف خديجة وحبّها أضرّ به من حيث لا يدريان، فقد كان قصد أبي من قراره أن يمنع المال عنه عسى أن يرعوي عن غيه ولكن أخته بحبها وكرمها أفسدت هذا القرار فساعدت في تحطيم هلال.

وقد ازداد هلال إدماناً وقلت ساعات صحوه وتردي حاله حتى أنقذه الله تعالى من هذا الحال الزري بالموت السريع[٢].

---

(١) وكان إسمه المسيو دي بليني.

(٢) قد يكون لقصة هلال وجه آخر غير ما روته المؤلفة. كما وأن هناك تفاصيل أخرى =

وعلى الرغم من كل ما حدث فقد كان حزن أبي على ابنه البكر أكبر من

= الموضوع يجب أن تذكر في هذا المقام.
كان هلال الإبن البكر للسيد سعيد وقد وُلد عام ١٨١٥ من أُم حبشية ماتت عنه وهو طفل فنشأ وحيداً في بيت يعجُّ بعدد غفير من زوجات الأب اللواتي تكيد كل منهن وتكافح من أجل الفوز لولدها بالحظوة والأسبقية عند أبيه السلطان. وكنت تنحية هلال ـ باعتباره الإبن الأكبر وخليفة أبيه الشرعي ـ هي الهدف الأول لكثير من هاته النسوة وعلى رأسهم أم خالد، وكانت أثيرة عند السلطان وكانت قوية الشخصية قوية الإرادة ذات ذكاءً ودهاءً، وكان ابنها خالد المولود عام ١٨١٩ الإبن الثاني في تسلسل الوراثة فلا عجب إذا ما حاولت تنحية هلال من طريق إبنها واستغلت مكانتها عند السلطان فأوقعت بينه وبين ولده هلال.
فقد كانت العلاقة بين الإبن وأبيه جيدة وكان هلال ينوب عن أبيه في حكم مسقط رغم صغره ثم تولى ولاية بركة.
ويعتبر عام ١٨٤١ حداً فاصلاً في العلاقة بين الإثنين إذا استدعى السيد سعيد في هذا العام إبنه هلالاً من بركة إلى زنجبار وأمره بالمكوث فيها.
ثم كتب السلطان عام ١٨٤٤ إلى اللورد أيرويـن وزير الخارجية البريطانية بطلب موافقة حكومته على أن يخلفه عند وفاته ابنه ثويني على مسقط وابنه خالد على زنجبار وأن يحرم ابنه هلال من كل حقوق الوراثة.
وقد وصل خبر هذا الاقتراح إلى هلال فتسلل من زنجبار إلى لندن في عام ١٨٤٥ وعرض قضيته على الوزير البريطاني الذي ضايقه ولا شك إقحامه في هذه القضايا العائلية. ولكنه على كل حال أكرم مثوى هلال وأعاده على ظهر إحدى السفن الحربية إلى زنجبار وكتب للأب جواباً دبلوماسياً يتملص فيه من الرد بصراحة على اقتراحاته ولكنه يوصيه بابنه هلال.
ومهما يكن رد فعل السلطان تجاه رحلة إبنه إلى لندن وعرض أمره على المسؤولين فيها، فإنه استقبل هلالاً عند عودته استقبالاً حافلاً وتعانق الأب والإبن وجرت دموعهما أمام الجماهير.
وقبل أن تجفّ الدموع عاد الجفاء بين الإثنين فأصدر سعيد أمراً بنفي هلال من زنجبار إلى لامو. وكان ذلك عام ١٨٤٩، ثم غادرها بعد سنتين بغية حج بيت الله الحرام فمرّ في طريقه على عدن وفيها مات في شهر أيلول من عام ١٨٥١ وكان المرض والحسرة وألم الغربة والقلق قد هدت قواه وعجلت في منيته.
وقيل: إن هلالاً كان طويل القامة جميل المنظر أنيق المظهر محترماً شجاعاً وكريماً محبوباً من جميع العرب ولعله أقرب أبناء السيد سعيد شبهاً بأبيه قوة شخصية ومهابة. وقيل: أنه كان خير من أن يستطيع أن يزاحم أباه ويجمع حوله العرب لو أراد ذلك. وقيل أيضاً: إن أُم أخيه خالد وكانت من المفضلات عند أبيه وذات شخصية قوية، كانت خلف هذه الأحداث وهدفها القضاء على هلال ليصفو الجو لابنها خالد. =

أن يوصف وكان يتظاهر بالصبر والتجلد ولكنه كان ينفرد في غرفته وينخرط في صلاة من أجل ابنه كنا نشـاهد بعدها آثار الدموع في مآقيه. ولما سـمع بخبر وفاته غلب الحزن عليه فقال: ـ

«آن: لو تدري مقدار حزني وألمي عليك يا هلال».

❁ ❁ ❁

وقد ترك هلال من بعده ثلاثة أولاد هم سعود وفيصل ومحمد. والأخير وهو أصغرهم تبنته زوجة أبي عزة بنت سـيف وكانت عاقراً، فسـيطر عليها سـيطرة كاملة أثارت ذهولنا واسـتغرابنا، ونجح فيما لم ينجح فيه أحد من قبل. فالسـيدة عزة معروفة بالبخل والتقتير ولم يسـمع عنها إنها أهدت أحد شـيئاً ما. لذلك لم نصدق آذاننا وعيوننا ونحن نسـمع ونـرى مظاهر البذخ والإسـراف التي يعيش فيها محمد من مال السـيدة عزة. فلم يكن أحد في بلدنا في ذلك الزمان يحلم بأن يقتني كلباً ولكن محمد طلب عدداً كبيراً منها من أوروبا فوصلته أنواع مـن الكلاب لم نَرَها من قبـل، وكان يقضي يومه باللهو مع هذه الكلاب ومع مجموعة نفيسة من الخيول اقتناها من مال جدته كذلك.

ولم يرضى محمد أن يكون طعام كلابه من فضلات المائدة بل جعل لها قسماً خاصاً بالمطبخ حيث يختار لها أحسن اللحوم وخير العظام، وتقدّم لها بأوقات معينة. وتذهب الإشاعات إلى أن محمد لا يسقي كلابه وخيوله الماء

= ونرى أن موضوع الشـراب مبالغ فيه فلا يمكن لرجل سكير مدمن أن يكسب حب العرب واحترامهم كما فعل هلال، ولا يمكن لمثل هذا الرجل أن يقطع البحر إلى إنجلترا للمطالبة بحقوقه أو يعتزم زيارة بيت الله الحرام.

وهناك شهادة الأب بادجر ـ وكان وثيق الصلة بأولاد السيد سعيد فهو يقول إنه لم يشهد أو يسمع إن أحداً من أولاد السيد سعيد يشرب الخمرة أو يدخن أو يشرب القهوة!!.

وإنما يسقيهم الشامبانيا، وهي إشـــاعة لا مجال لتصديقها طبعاً ولكنها تصوّر ما يتقوله الناس عن بذخ محمد وإســـرافه وبالتالي تصوّر مقدار التغيير الذي أحدثه محمد على زوجة أبينا.

❁ ❁ ❁

أما الإبن الأول ســـعود فكانت نقطة ضعفه تقليـــده للأوروبيين في نمط حياتهم وطرق سلوكهم، وكان في تصرفاته أشبه بأبيه.

❁ ❁ ❁

ويختلف الإبـــن الثاني فيصل عـــن أخويه اختلافـــاً كبيراً فـــي العادات والطبـــاع، فلم يكن له عادة محمد في البذخ والإســـراف أو طبع ســـعود في الظهور والانجراف مع الأوروبيين. بل كان علـــى العكس منهما يغلب عليه التواضع في سلوكه والبســـاطة في حياته ولباسه، والزهد في الحياة ومطالبها ولذاتها.

وكان يصدر في تصرفه هذا عن فلســـفة معينة في الحيـــاة لم يفهمها عنه أخواه فظل بالنسبة إليهم لغزاً غير مفهوم دائماً.

ولقد تيســـر لي أن أتعرف عليه عن قرب وأن أفهمه حق الفهم، فقد كان يســـكن مزرعة صغيرة مجاورة لمزرعتي التي كنت أســـكنها، فكان يزورني يومياً ولا ينســـى أن يحمل لي معه هدية صغيرة مما يقدم للأطفال فإني وإن كنت عمته فإنني أصغره بعدة ســـنوات ووثقت بيننا أواصر المحبة والتفاهم، وكان لطيب مظهره ونبل مخبره وحســـن سلوكه ورفيع أدبه يكسب ود الناس واحترامهم. وقد فتح لي نفسه وقلبه وحدثني عن شعور الوحدة الذي يحيط به وفقدان الحب والحنان الذي يحسه منذ أن فقد أمه وهو طفل صغير.

وحدثني عن أحزانه لأن أخويه لم يفهماه ولم يكلفا أنفســـهما ذلك ولم

يكترثا ويهتما به وبوجـوده وكان الألم يعصـر قلبي وأنا أسـمعه يقول إنه تسـتوي عنده الحياة والممات لأن ما من أحد يكتـرث به أن عاش، وما من أحد يحزن عليه إن مات.

ولم يحزن أحد لانتقالي من المزرعة وعودتـي إلى المدينة حزن فيصل عليّ. فقد اعتاد أن يبث إليّ ذات نفسـه وكأنني عمة كبيرة حقاً لا مجرد فتاة لا خبرة لها في الحياة.

«١٢»

ثويني

ثويني هو الأخ الأكبر لنا بعد وفاة هلال، وقد وُلد في مسقط وعاش فيها طول حياته ولم يكتب له أن يزور زنجبار قط أو يحمل شعوراً طيباً لهذا البلد الذي كان منبعاً لا ينضب للأخوة والأخوات.

ولأن الرسـم غير مباح في الإسـلام، والتصويـر الفوتوغرافي لم يكن معروفاً عندنا في ذلك الزمان، لذلك فقد ظـل أخونا ثويني مجهول الصورة للغالبية من إخوانه وأخواته الذين لم يزوروا مسقط فيرونه رأى العين.

ولكن إن غابت عنا سماته لم تغب عنا صفاته، فقد كنا نسمع الكثير عن فضله ونبل معشره وعن شـجاعة قلبه وبسـالته في الحروب. وكان في هذه الناحية مثل أبـي رجل حرب وقتـال، وكان جندياً أكثر مـن أي من إخوانه الآخرين. وكان يقضي خيـر أوقاته في مخيمات الجيـش وميادين الحروب حيث يبعث مجرد وجوده الثقة والحمـاس في جنوده المخلصين له، وحيث يسبب غيابه الدائم الألم والأسـى في قلب زوجته التي أنجب منها عدة بنين وبنات.

❁ ❁ ❁

ولأن أبي اعتاد أن يقضـــي كل أوقاته في زنجبار، فقـــد كان ثويني نائبه والقائم مقامه في تسيير شؤون الدولة وإدارة دفة القتال ضد الأعداء الطامعين.

فكان يقضي جلّ أيامه إما بمحاربة الفرس الطامعين باستعادة بندر عباس وأما بمقاومة زحف القبائل العربية القادمة من أواسط الجزيرة العربية. وكانت جحافل هـــذه القبائل لا ينضب معينهـــا ولا ينتهي عددها وهـــي قبائل فقيرة جائعة ليس لها ما تعملـــه أو تقتات منه غير الغزو والنهـــب[1]. وكانت عُمان هدفاً من أهدافهم ولا يســـتطيع أن يصدهم عنها ويحتفـــظ بها في منأى عن أيديهم إلا الحاكم القوي الشكيمة الغزير الموارد.

وهكذا كانت حالة الأمن في البلاد عند وفاة أبـــي، في طريق عودته من مســـقط إلى زنجبار، ولو أن المنية اخترمته وهو في مسقط لكان من الممكن لثويني أن يضم إليه ملك زنجبار أيضاً بدلاً من أن يدع أخاه ماجداً يستأثر بها ويعلن نفسه سلطاناً عليها.

وقد ذكرت من قبل أن ماجد وافق أن يدفع معونة سنوية إلى أخيه ثويني في عُمان، ولكنه تخلى عن التزامه هذا بعد فترة قليلة وبمبررات مفتعلة.

وقد كان قرار ماجد محل الانتقاد من جميع الجهـــات لأن عُمان بلد فقير لا يستطيع أن ينهض بنفسه ويقف أمام أعدائه من دون مساعدة زنجبار الغنية وعونها.

وكان ثويني يواجه ثورات في الداخل وغزوات من الخارج. وكانت هذه الحملات قد اســـتنزفت موارده وأضعفت موقفه، وفي هذه الظروف الحرجة قطع ماجد عنه معونته فجعله في وضع صعب وفي حاجة ماســـة للمال الذي اضطر في ســـبيل تأمينه إلى أن يفرض بعض الرســـوم الجمركية على بعض

---

(١) في هذا القول كثير من الافتئات على الواقع فإن هؤلاء المهاجمين إما أن يكونوا من قبائل عُمانية ثائرة أو جيوش وهابية يدفعها إلى الحرب ما تحسبه جهاداً دينياً.

السلع. ومن حسن حظ عُمان أن القروض العامة التي كانت السبب في تحطيم الكثير من الممالك الشرقية لم تكن قد عرفت بعد في ذلك الحين!

لكن الضرائب الجديدة أثارت استياء السكان وتذمرهم واستطاعت الفئة الناقمة أن تكسب إلى جانبها سالم، أكبر أبناء ثويني والذي ارتكب أبشع جريمة يرتكبها إنسان.

فقد ذهب سالم إلى أبيه في ظهيرة يوم ما، وكان الأب وحيداً في غرفته وقد عاد لتوه من اجتماع هام وكان يشعر بالتعب فألقى بنفسه على فراشه آملاً في بعض الراحة. وحين دخل عليه ابنه وجده مضطجعاً في فراشه فطلب إليه إلغاء الرسوم الجديدة، ولكن الأب بدأ يشرح لابنه موجبات وضعها، فما كان من الإبن الجبان إلا أن شهر مسدسه وأطلق رصاصة على الأب المضطجع فأرداه قتيلاً[1].

❁ ❁ ❁

(١) ولد ثويني عام ١٨٢١ في مسقط من أم شركسية واغتيل عام ١٨٦٦ والقصة الشائعة عن مقتل ثويني تختلف عن رواية المؤلفة. وهي أن ثويني وابنه سالماً كانا في إحدى الحملات في صحار، وتسلل سالم في الظلام إلى مضجع أبيه النائم وأطلق عليه رصاصتين من مسدسه فلما شعر أبوه هبّ واقفاً يريد القبض على الجاني وهو ينتخي ـ على عادة العرب «أنا أبو سالم» ولكنه ـ لخيبة أمله ـ وجد أن الجاني هو ابنه سالم نفسه فصاح... أنت سالم!
وامتطى سالم بعيره وقصد مسقط فلما وصلها أعلن أن والده توفي بالحمى، ولكن أباه لم يمت إلا بعد يومين من إصابته.
وهناك قصة أخرى رواها المستر ويندل فيلبي في كتابه: (تاريخ عُمان صفحة ١٣٩) عن السلطان تيمور بن فيصل المتوفى عام ١٩٦٥م عن أحد شهود الحادث والضالعين مع سالم في مؤامرة القتل وخلاصتها إن سالم دس السم إلى أبيه بقصد قتله ولكن الأب لم يمت بل بدأ شعر رأسه بالسقوط. فخشي المتآمرون افتضاح أمرهم فهددوا سالماً إن لم يقضي على والده فإنهم مخبروه بحادث التسمم ولهذا ذهب سالم وقتل أباه.
ومما يجدر ذكره أن أم السلطان تيمور هي إبنة سالم بن ثويني.

لكن الأمور لم تستقم للإبن القاتل الضال ولم يتمتع بثمار جريمته طويلاً، بل لقي عقابه السريع جزاء فعلته الشنعاء، فما كاد أن ينّصب نفسه على عرش أبيه القتيل حتى ثار عليه إبن عمه عزان الذي فاجأ مسقط بجموع كبيرة من البدو وقعوا فيها قتلاً ونبهاً، ولم ينهض أحد للدفاع عن السلطان قاتل أبيه فأخذ الغزاة كل ما يقدرون على أخذه وحطموا البيوت والمتاجر وقصر السلطان نفسه.

واستطاع سالم أن ينجو بنفسه من هذه المجزرة الرهيبة ويلجأ إلى إحدى سفنه في الميناء لا يملك شيئاً إلا سيفه فقط. واستطاعت أُمه المسكينة أن تضحّي بكل ما تملك من غالٍ ونفيس لتنقذ نفسها وأطفال إبنها وتهرب بهم إلى السفينة لا يملكون شروى نقير[1].

ولقد شاء حظ هذه الإمرأة النبيلة أن يعثر أحد التجار الهنود واسمه عبد الرب على مجموعة مجوهراتها النفيسة عند أحد البدو فاشتراها منه بثمن بخس قيل أنه ثلاثمائة دولار ثم قدّمه هدية إلى هذه الأميرة المنكوبة المنكودة الحظ.

❁ ❁ ❁

لكن عزان نفسه لاقى نفس المصير من قبل أخي تركي. وهذا لاقى نفس المصير على يد أخينا الصغير عبد العزيز، التي تولت خولة تربيته والقوامة عليه، وقد اشتهر بالذكاء والشجاعة والنشاط، ولعب وهو في الثانية عشرة من عمره دوراً بارزاً في الصراع بيننا وبين ماجد. ثم عاش بعد ذلك وقتاً في بلوشستان.

---

(١) قُدرت الثروة التي تركها سالم خلفه بحوالي ٢٠٠ ألف دولار. وقد مات سالم بالجدري في منفاه في كراتشي عام ١٨٧٤.

وقد استطاع أن يعيد السلام والأمن إلى مسقط فترة قصيرة ولكنه لم يستطع الصمود أمام أخيه تركي الذي عاد إليه بجيش كبير فلاذ بالفرار إلى بلوشستان وما يزال يعيش فيها حتى الآن.

❁ ❁ ❁

هذه صفحات محزنة ودامية للنزاع العائلي ولا يمكن فهمها إلا للذين عرفوا الشرق وعرفوا طموح الأمراء الشرقيين وحدة مزاجهم. ولا يمكن للمرء في أمثال هذا الجو أن يكون حيادياً أو متفرجاً وكذلك كان الأمر معي فقد انغمست في هذه النزاعات واكتويت بنارها كما سأروي قصة ذلك بعد قليل.

❁ ❁ ❁

الفصل الخامس عشر
وضع المرأة في الشرق

وقبل المضي في سرد أحداث حياتي، أودُّ أن أكتب بعض الفصول في وصف بعض وجوه الحياة الشرقية. لا أريد من هذا أن أعدد أو أشرح كل عاداتنا أو تقاليدنا، وإنما الذي أهدف إليه هو تمكن القارىء الأوروبي من تكوين صورة صحيحة عن بعض الأنماط الهامة للحياة في الشرق[1].

وسأبدأ بأكثر المواضيع دقة وخطراً وهو الكلام عن وضع المرأة في الشرق. وإنني لأحسُّ ولا شك بخطر الكلام في هذا الموضوع. فإن كوني شرقية الأصل والمولد والنشأة سيعرضني للاتهام بالتحيز إلى بلادي القديمة وبنات جنسي. ولهذا السبب فما أظنني سأنجح في تصحيح الأفكار الخاطئة عن وضع المرأة الشرقية وعن علاقتها بزوجها وهي الأفكار الشائعة في أوروبا عامة وهنا في ألمانيا خاصة.

ولعل السر في شيوع هذه الأفكار الخاطئة هو التسرع في الأحكام

---

(١) ما سيذكر في هذا الفصل والفصول التالية يجب أن يؤخذ على أنه وصف للحياة في بلد شرقي معين هو زنجبار وفي منتصف القرن الماضي. وهو ـ كما قالت المؤلفة نفسها ـ نمط واحد من أنماط عدة للحياة الشرقية في ذلك البلد وفي غيره من البلدان.

والأخذ بمظاهر الأشياء فقط واستقاء المعلومات من غير مصادرها الأصيلة. فعلى الرغم من شيوع المواصلات وسهولتها بين أوروبا والشرق، فما يزال الشرق في نظر الغربيين بلد الغموض والسحر وقصص الخيال والخرافات. وعلى هذا الأساس فهو يستهوي الكثيرين للكتابة عنه لغرض الربح أو الشهرة. فإذا حدث إن مرّ سائح ما مروراً عابراً في الشام أو تونس أو القسطنطينية أو القاهرة فإنه لا يتأخر عن الكتابة عن هذه الأماكن كتابة الخبير العالم بها وكل مصادر علمه هو خدم الفندق الذي ينزل فيه أو أصحاب الحمير التي تنقله في تنقلاته. وليته يكتفي بما يسمع ويرى بل إنه يطلق لخياله العنان فيضيف إلى كتابه أشياء خيالية لا أساس لها من الصحة والواقع ليضفي على كتابه مظهراً من مظاهر الجدة والأهمية ويضمن له النجاح وسرعة الانتشار. ولا يمر وقت طويل حتى يصبح هذا الكتاب مصدراً وحجة تستقى منه المعلومات وتبنى عليها الأحكام.

وقد وقعت نفسي في هذا الخطأ أول وصولي إلى أوروبا بسبب انخداعي بظواهر الأمور، فقد خدعتني ـ وأنا أزور بعض العائلات أو أخرج معهم ـ علائم البشر والابتهاج تغمر وجوههم، فذهبت إلى الظن بأن الحياة العائلية في أوروبا أقرب إلى السعادة والهناء منها في بلادي. ولكن بعد أن كبر أولادي ولم يعودوا بحاجة كبيرة إلى رعايتي واهتمامي كما كانوا من قبل، ازدادت علاقتي بالعالم الخارجي وكثر عدد معارفي من العائلات ونفذت إلى دخائل حياتهم العائلية، فاكتشفت آنئذٍ مقدار الخطأ في أحكامي الأولى. وإن حقيقة الناس والأشياء ودخائلهم وما يضمرون هو غير ما يبدون ويظهرون. فقد تعرفت على الكثير من الزيجات التي ظاهرها السعادة وباطنها شر أنواع العذاب. وقد انتهت بي ملاحظاتي المتكررة إلى أن نظام الزواج المسيحي لا يفوق النظام الإسلامي في شيء، ولا يحقق بذاته سعادة أكثر،

والحقيقة التي انتهيت إليها والتي لا شك فيها أن السعادة العائلية والانسجام الزوجي لا علاقة لهما بنظم الزواج ولا بدين المرء أو معتقده أو تقاليده وإنما يعتمدان أولاً وأخيراً على مقدار تفهم كل من الزوجين للآخر. فهذا العنصر وحده ولا شيء غيره هو سر السعادة بين الزوجين، وانعدامه بينهما هو سر الشقاء في حياتيهما.

وتجنباً للوقوع في الخطأ فإنني أسارع إلى القول بأنني إذ أتكلم عن حال النساء في الشرق فأنا أتكلم عن معرفة تامة بالأحوال في زنجبار وبصورة تكاد تقاربها عن الأحوال في عُمان، ومع هذا فإني أستطيع تعميم الأحكام لتشمل المرأة الشرقية بصورة عامة ذلك لأن أحكام الإسلام الحقيقية تصدر من نبع أساسي واحد، وحيثما يسود الإسلام تتشابه الأحوال والأحكام باستثناء بعض المجتمعات التي غزتها فأفسدتها سفسطات الغرب المسيحي.

وأول ما أريد تصحيحه هو الفكرة الخاطئة التي تذهب إلى أن المرأة الشرقية تنزل في المجتمع منزلة أقل من منزلة زوجها، في حين أن الواقع أن الزوجة ـ وطبعاً فإن الجواري والمحظيات لسن موضوع الحديث ـ تساوي زوجها مقاماً وحقوقاً وامتيازات وأن منزلتها الاجتماعية محل التقدير والاحترام، ومن التقاليد العربية الأصيلة ـ وربما كان مصدرها الشريعة الإسلامية نفسها ـ عدم جواز زواج المرأة بمن ليس كفء لها، أي من لا يساويها منزلة وحسباً. ولكن ما جعل المرأة الشرقية تبدو وكأنها لا حرية ولا حول لها هو الحجاب وحياة العزلة. وحجاب المرأة أمر واجب شرعاً في كل بلاد الإسلام في الشرق فلا يجوز للمرأة أن تكشف عن وجهها إلا لأبيها وإخوتها وأعمامها وزوجها وأبنائها ولبعض خدمها الخاصين بها. وكلما ارتفع مقام المرأة ومركزها الاجتماعي ازدادت هذه القاعدة شدة وصرامة. وإذا اضطرت المرأة إلى الحضور أمام رجل غريب أو التحدث معه فعليها أن

تحجب عنه وجهها وتغطي جسمها، ولها بهذا الشكل أن تخرج إلى الطريق العام إن شاءت. أما النساء اللواتي لا يملكن خدماً وتضطرهن ظروف الحياة إلى الإكثار من الخروج إلى الشوارع فهن ـ نسبياً ـ أكثر تحرراً من هذه القواعد ولوسألت إحداهن عن السبب لقالت لك إن هذه القواعد لم توضع للنساء الفقيرات. ويجب أن أعترف أن المثريات من النساء يحسدن الفقيرات على حريتهن في الخروج والتجوال، والأخيرات يكثرن في عُمان حيث لا تسمح لهن موارد بلدهن الفقير في امتلاك الخدم والعبيد.

على أن المرأة الثرية ليست محرومة من الخروج كلياً، وإنما يجب أن يكون لخروجها سبب مقبول أو حاجة ملحة، فلها أن تعود المرضى من أهلها وأقاربها، أو تحضر المآتم والأفراح أو أن ترعى تجارتها. ولعدم وجود المحامين في بلادنا ـ لحسن الحظ طبعاً ـ فللمرأة أن تبرز أمام القضاة وأن تترافع أمامهم في قضاياها. والتقاليد الصارمة تمنع المرأة من الاسترسال في الانتفاع من هذه الإباحة كما تمنعها من الاسترسال وراء ميلها الغريزي للتخفيف من مظاهر الستر والحجاب التي تبدو فيها بالشارع وكأنها دمية ملفوفة، ومع اعترافي بأن النظرة الشرقية في هذا الأمر كثيرة الشدة والصرامة فإني أجد أيضاً إن تبرج المرأة الأوروبية في لباسها وزينتها وهي تظهر في الحفلات العامة لا يعدو كونه هو الآخر تطرفاً ممقوتاً في الاتجاه المعاكس.

والمرأة الوحيدة؛ أي: التي لا عائل لها من أب أو أخ أو زوج أو ولد يستحق حالها الرثاء حقاً، فهي لعزلتها التامة بحكم الدين والعرف عن الجنس الآخر تفتقد رعاية الرجل وحمايته وإرشاده فتتعرض لمتاعب أليمة وتقع فريسة خدمها وحاشيتها يبتزون أموالها بالغش والخداع. وكم من صديقة لي أقدمت على الزواج لا لسبب إلا للخلاص من هذا الوضع الأليم. وهكذا نرى أن عزلة المرأة الشرقية قد تكلفها الكثير من المشاق، ولكني مع

هذا لا أرى مبرراً لعواطف الإشفاق والأسى التي يبديها الأوروبيون تجاه ما يسمونه مأساة المرأة الشرقية، فالواقع أنها لا تعيش في مأساة بل هي لا تشكو ولا تتذمر من حالها، فلقد ألفت هذه الحياة واعتادتها، وللمرء من دهره ما تعود.

ويزداد هذا الإشفاق بسبب تعدد الزوجات واضطرارها أن تقتسم حب زوجها مع أخرى أو أخريات، ولا جدال في أن الدين أباح للمسلم أن يتزوج أربع زوجات في آنٍ واحد، وأن يتزوج الخامسة فالسادسة كلما توفيت إحدى زوجاته أو انفصل عنها بالطلاق، كما أباح له أن يحوز من الجواري والسراري ما يشاء وما تملك يمينه، إلا أنني في كل حياتي بالشرق لم أرَ أو أعرف رجلاً متزوجاً من أربع نساء في آنٍ واحد. فالفقراء من الرجال لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً لضيق ذات اليد، والموسرون منهم يكتفون بإثنتين على الأكثر، ويكون لكل منهما بيت قائم بذاته مستقل عن الأخرى. عدا عن هذا فإن بعض النسوة يشترطن على أزواجهن أن لا يشركوا معهن امرأة أخرى بالزواج أو الشراء ويحتفظن لأنفسهم بحق الطلاق من الزوج إذا خالف هذا الشرط.

وعلى هذا فالسائد عملاً في المجتمع هو الزواج بواحدة، ولكن إذا بدى لرجلٍ ما أن يمارس حقه المشروع في الزواج بأكثر من واحدة، فإن النتيجة تكون وبالاً عليه وكدراً لعيشه، بسبب عواطف الغيرة والبغضاء بين الزوجات والتي يلهبها الدم الشرقي العاطفي الحار فيحيلها دوماً إلى مشاجرات عنيفة قاسية متكررة، والتي قد يدل تكرارها على أن المرأة الشرقية أكثر تعلقاً بزوجها وتفانياً في حبه من أختها الشمالية الباردة.

ومشاعر البغضاء والشحناء هذه أمر محمود في النتيجة رغم ما تسببه من إكدار وآلام، فكثيراً ما صدت أشجانها ومتاعبها الموسرين من الرجال عن

التفكير في معاودة الزواج مفضلين العيش مع زوجة واحدة في راحة البال على الشقاء والعيش المنغص مع إثنتين أو أكثر.

وبعد فمن الواضح أن ما من رجل، وبالأحرى، ما من امرأة تستطيع أن تجد عذراً أو مبرراً لتعدد الزوجات، ولكن ما هو حال الزواج بين المسيحيين وبين الأوروبيين المثقفين منهم؟ ولأضرب الآن صفحاً عن مزاولة تعدد الزوجات تحت إسم «مارمونيسم»[1] وهي طائفة مسيحية صرفة تقوم على أرض مسيحية صرفة، ولنرى هل أن الزواج عند الأوروبيين هو نظام مقدس فعلاً؟ وأليس من السخف في أكثر الأحيان أن نتكلم عن «زوجة» واحدة للرجل الغربي؟ فصحيح ولا شك أن الشريعة المسيحية لا تجيز الزواج بأكثر من واحدة، ولنفرض جدلاً أنها على حق في ذلك. وصحيح أن الإسلام يبيح الزواج بأكثر من واحدة ولكن أليس من الصحيح أيضاً أن التقاليد وواقع الحياة في الشرق قد خفف إلى حد كبير من انتشار هذه القاعدة في حين أن الغربيين يتعمدون آثمين مخالفة تعاليم دينهم باتخاذهم الخليلات بالخنى والفجور؟ ولعل الفرق الوحيد بين المرأة الشرقية وزميلتها الغربية أن الأولى تعرف بوضوح وبالضبط من هي منافستها أو منافساتها وعددهن وشكلهن ووصفهن في حين تبقى المرأة الغربية في جهل تام عن هذا كله.

أما عن الرقيق والجواري، فلا يملكهن إلا ذوو اليسار من الرجال. وعدا عن هذا فالأَمَةُ تعتق إذا ما ولدت طفلاً، ولا يجوز بعد ذلك بيعها إلا إذ مات طفلها ولا يلجأ الرجل إلى بيعها في هذه الحال إلا في القليل النادر عن قلى أو إملاق.

---

(١) مارمونيسم: طائفة مسيحية ظهرت في أمريكا عام ١٨٣٠ وكانت تبيح تعدد الزوجات وعلى هذا لاقت عنتاً شديداً من المسيحيين الآخرين مما اضطرها عام ١٨٩٦ إلى أن تعدل عن هذه الإباحة، فاستقام أمرها وكثر أنصارها ويبلغ عددهم اليوم حوالي المليونين نسمة.

والجواري يكتسبن حريتهن بموت سيدهن، ويتمتعن بعد ذلك بمطلق حريتهن ولهن أن يتزوجن من شئن حتى ولو كان أخ سيدهن زواجاً طبيعياً حرّاً.

ومن الأمور الباطلة الظن بأن الرجل العربي يعامل زوجه باحتقار وازدراء. فديننا الإسلامي يمنع ذلك منعاً باتاً ويساوي بين الجنسين، وإذا كان الدين قد منح الرجال حقوقاً أكثر من النساء فإنه في الوقت نفسه أوجب عليهم حمايتهن ورعايتهن والمسلم يخاف الله ويرعى تعاليمه حتى آخر لحظة من حياته لأنه يؤمن بلقاء الله بعد الممات ويأمل بثوابه ورضاه في الآخرة أيضاً، ولهذا فهو أحرص من كثير من الأوروبيين على رعاية نسائه وبناته طاعة لله واحتراماً لأوامره.

ومن الطبيعي أن نجد في المجتمع العربي كما نجد في كل مجتمع آخر بعض المنحرفين الذين لا يبادلون زوجاتهم الحب الكافي أو لا يقدرهن حق قدرهن. ولكن أستطيع أن أجزم عن وعي وإدراك بأنني سمعت هنا أكثر مما سمعت في الشرق عن أزواج ظاهري الرقة والثقافة لا يتورعون عن ضرب زوجاتهم في بيوتهم. في حين أن العربي يترفع عن هذا التعدي لأن شيوعه عنه يحط من قيمته بين الرجال. وليس الأمر كذلك مع الزنوج في بلادنا، فتبادل الضرب بين الزوجين وعلناً أمر شائع بينهم وما أكثر ما تدخلت شخصياً أثناء إقامتي في المزارع في فض مثل هذه المشاجرات التي تتسم بالعنف الشديد والضرب المبرح.

وليس صحيحاً أيضاً أن المرأة الشرقية لا تملك إلا الذلة والخنوع أمام نزوات زوجها وأهوائه، فالواقع أنها تستطيع أن تشتكيه إلى أهله أو أهلها، وأن تشتكيه عند القاضي. وفي النساء ـ كما في كل أنحاء العالم ـ من تستطيع أن تستخلص حقها بنفسها. وإني أعرف صديقة في السادسة عشرة

من عمرهـــا رضيت بالزواج من أحـــد أقاربها ممن يكبرها فـــي العمر كثيراً، وكان من دأب هذا الرجل أن يقضي نهاره وجلّ ليله خارج بيته مطلقاً لنفسه عنان الشـــهوات والأهواء، وقد وســـوس له الشـــيطان أن زوجته الجديدة لن تملك من الأمر شـــيئاً إلا الصبر والاحتمال، ولذلك فقد فوجئ مفاجئة قوية حين عاد في إحدى الأمسيات إلى داره ولم يجد فيها زوجه وإنما وجد منها رســـالة شـــديدة اللهجة. وكان من عادتي أن أزور هذه الصديقة في اي وقت أشـــاء ودون خبر مســـبق لعلمي بغياب زوجها المســـتمر عن الدار بحثاً عن اللذات والنـــزوات، إلا أنها زارتني يومـــاً وطلبت منـــي أن أخبرها بمواعيد زياراتي مســـبقاً لأن زوجها لـــم يعد يفارق الـــدار إلا إلى عمله فـــي النهار ولساعات قليلة ولما سألتها مندهشة عن ســـر هذا التحول المفاجئ أخبرتني بالقصة وقالت أنه لما قرأ الرســـالة لحق بها فـــي دار أهلها نادماً وطلب منها الرجوع ولما رأى إصرارها وعزمها على الرفض اعتذر منها ووعدها بتحسين سلوكه... وقد فعل.

ولا بدَّ لي أن أروي قصصاً أخرى عن حرية المرأة واستقلالها.

أن العادة الجارية في بلادنا إذا ما التقـــى الزوجان أن يقبل كل منهما يد الثاني. وأن يتنـــاولا طعامهما مـــع أطفالهما، وتقدم المـــرأة بين ذلك بعض الأعمال الودية الطفيفة لزوجها، كأن تســـقيه الماء إذا مـــا طلبه أو أن تعطيه سلاحه عند الخروج أو تخلعه عنه عند العودة. وهذه الأعمال الطفيفة تؤديها المرأة من تلقاء نفســـها ودون ما طلب من أحد أو إكـــراه عليها ولكنها على تفاهتها تشيع الود والبهجة والرضى بين الزوجين.

أما الأعمـــال البيتية فالحكم المطلـــق فيها للمرأة وليســـت هناك ميزانية مخصصة للمصروف البيتي وإنما ينفق الرجل ما تطلبه المرأة، وحتى إذا كان للرجل زوجتان أو أكثـــر فلكل منهن بيت منفرد تســـتقل بإدارته وحدها. أما

الحد الذي تستطيع فيه المرأة أن تحافظ أو تزيد من امتيازاتها البيتية فأمر موقوف على شخصية المرأة وطباع الزوج، ومقدار التفاهم والانسجام بينهما. واذكر أنني أقمت مرة دعوة عامة للسيدات في مزرعتي، ولكني لاحظت كثرة الغائبات عن الدعوة وعلمت أن السبب في ذلك هو عدم توفر وسائل الركوب. وهنا عرضت عليّ إحدى صديقاتي أن ترسل حميرها وبغالها مع الخدم لنقل المدعوات. ولما سألتها أن تستأذن زوجها في الأمر أولاً أجابتني بأدب ولكن بشكل قاطع بأن تقرير مثل هذه الأمور يعود إليها فقط، وأنها لا تستأذن زوجها فيها.

واذكر أيضاً صديقة أخرى من صديقاتي في زنجبار حققت لنفسها استقلالاً أوسع في تدبير أمور البيت والتجارة فقد سلم لها زوجها بإدارة مزارعه وأملاكه فتولت ذلك ودبرته خير تدبير بحيث لم يعد يتدخل في شيء بل ولم يعد يدري شيئاً عن الريع أو الإيجار أو الدخل، ولم يكن يستنكف أن يأخذ منها مصروف يومه. وقد كان من حسن تدبيرها ووافر نشاطها إن أصبحا من أثرياء البلد المعدودين.

ومن حسن حظ المرأة العربية إن تربية الأطفال تقع على عاتقها وتتولاها بنفسها، سواء كانت زوجة أم أَمَة. ففي حين تضطر المرأة الإنجليزية إلى أخذ أطفالها إلى دور الحضانة كل صباح، وفي حين تضطر المرأة الفرنسية إلى إرسالهم إلى الأرياف حيث يتولى العناية بهم ناس أغراب عنها، فإن المرأة العربية تتولى أطفالها ببالغ عنايتها المستمرة، فهي التي ترضعهم وترعاهم وتراقبهم في اللعب والأكل لا تدع أحداً منهم يغيب عن ناظريها حتى يشبوا عن دور الطفولة حيث تجني بعد ذلك جزاء تعبها ثماراً حلوة من الحب العميق والاحترام الصادق بينها وبين بنيها، وفي هذا ما يعوضها بعض الشيء عن آلام تعدد الزوجات.

ولو قـدّر لأحد أن يشـهد علائم السـعادة والابتهاج في نفوس النسـاء الشـرقيات وعلى وجوههن لأيقن في الحال ببطلان الإشـاعات الكاذبة عن بؤس الشـرقيات وذلهـن وغير ذلك من نعـوت العطف والرثـاء أو الزراية والاستخفاف. ومرد هذه الأحكام ـ هذا إذا أحسنّا الظن بنيات أصحابها ـ هو النظر السـطحي السـريع، في حيـن أن الحكـم الصحيح علـى الأحوال الاجتماعية يتطلب النفاذ إلى بواطن الأمور وأصولها وهذا لا يتأتى في زيارة عابرة لا تدوم ـ إن طالت ـ إلا بعض أجزاء الساعة.

وعلى الرغم مما يشـتهر به العربي من حب الضيف وكـرم الوفادة فإنه ينفر ممن يحاول التطفل على دخائل حياته وأسرار بيته. وخاصة إذا كان هذا المتطفل أجنبياً عنه في الجنس والعقيدة واللسـان. وكثيراً ما كنا نستقبل في بيوت السلطان بعض الزائرات الأوروبيات. فكان الحديث مع الواحدة منهن يقتصر على غرائب الأزياء والثياب، فثيابها غريبة علينا وثيابنا مصدر العجب والدهشـة لها ثم نقدم لها أطايب المأكول والمشـروب حسـب ما تقتضيه الضيافة العربيـة وبعد أن يرش عليها الخدم ماء الـورد تودعنا محملة بهدايا الوداع كما هي العادة، وتخرج هنا وهي ليسـت أكثر علماً بأحوالنا وطباعنا منها حيـن دخلت علينا، فهـي قد كانت فـي قصر الحريم وأنها شـاهدت البائسات المحجبات من نسـاء القصر، وأنها أعجبت بلباسنا الغريب وحلينا النفيس وقدرتنا على التربـع على الأرض بخفة ورشـاقة... وليس أكثر من هذا. وحالها حال الأخريات ممن سـبقنها أو جئن بعدها. فهي لم تتبسط في الحديث معنا ولـم تنفذ إلى دخائلنا ولم ترَ من البيت غير مكان الاسـتقبال الذي قادها الخدم إليه وأخذوها منـه. فكيف يصح لزائرة مثل هذه أن تدعي العلم ببواطن الأمور والنفاذ إلى دخائلها من ثم إصدار الأحكام عنها؟

❁ ❁ ❁

ولا بدَّ لي من الإشـــارة إلى مظهـــر آخر من مظاهر الحيـــاة الزوجية في الشـــرق قد يســـتغربه القرّاء في هذه البلاد، وهو أن الفتاة لا تفقد في الزواج إسمها العائلي ولا مستواها الطبقي، فزوجة الأمير إن كانت من أبناء الشعب لا تحلم في أن ترتفع إلى منزلة زوجها، فرغم رابطة الزواج بينهما تظل هي «فلانة بنت فلان». وتظل تدعى بهذا الإســـم. ومن جهة أخرى فإذا زوج أحد الأمراء أو أحد الشيوخ إبنته أو أخته إلى أحد خدمه، ـ ونادراً ما يحدث هذا ـ فإن نظرته إليـــه لا تتغير فطالما كان الرجل عبده فســـيظل عبداً لابنته كذلك. ومع أن الرجل لا يظل عبداً بالمعنى الصحيـــح فإنه يظل بحكم العادة ينادي زوجه بصاحبة السمو أو «ستي» ومن العادات العريقة كذلك أن الرجل إذا ما جاء في حديثه على ذكر زوجتـــه ـ وهو ما يفضل عـــادة أن يتجنبه كلية أمام الرجـــال ـ فإنه لا يدعوهـــا زوجتي وإنما يشـــير إليها على أنهـــا «بنت فلان الفلاني» أو أم العيال سواء أنجبت منه أم لم تنجب.

وكما يحدث في كل أنحاء العالم وعلى مـــرّ العصور، فقد يتعذر الوفاق بين طبائع الزوجين وينجم الخلاف والشقاق بينهما ويغدو استمرار حياتيهما معاً صعباً أو مســـتحيلاً، فيلجئان إلى الانفصال بالطلاق، وهنا تتجلى حكمة الطلاق في الشريعة الإســـلامية. فمن الأســـلم والأفضل ـ دون شك ـ ولأي زوجين تباينت طباعهما واختلفت مشاربهما أن ينفصلا بهدوء وسلام من أن يظلا طول حياتهما مكبلين بأغلال زوجية تعســـة بائســـة تعـــود على كليهما بالنكد والشقاء وقد تدفع بهما إلى أعمال تخالف الأخلاق أو القانون.

والطلاق في الإســـلام يبيح للمرأة أن تستعيد لنفسها كل ما تملك وتبقى حرة التصرف دون قيد أو رقيب. وإذا طلب الزوج الطلاق فللزوجة أن تحتفظ بكل هدايا العرس وجهازه ولكنها تفقد هـــذا الحق إن جاء طلب الطلاق من جانبها.

وبعد فأرجو أن يكون في كلامي هذا ما يثبت أن المرأة الشرقية ليست ذلك المخلوق المظلـوم المضطهد البائس الذي لا حول لـه ولا مقام في الحياة كما يحلو للناس هنا أن يكرروا ذلك دوماً. وليس أدل على بطلان قولهم من النماذج التالية لبعض نسـائنا. وأول مثل هي زوجة أبي عزة بنت سـيف، فقد كانت لها السـيطرة التامة على السلطان السيد سـعيد فما من شأن من شـؤون البيت أو الحكم أو السياسـة إلا وخضع إلـى رأيها وهواها، وما كان أحـد من أهل بيته يستطيع أن يطلب من السلطان شيئاً إن لم يتقدم بطلبه إليها أولاً وينال موافقتها عليه، وقد ظلت لها الكلمة العليا دون منازع طيلة حياة زوجها السلطان.

ويحضرني الآن مثل آخر هـي إبنة أحد الضبـاط العُمانيين التي جاءت واستقرت مع زوجها في زنجبار، وكانت قارصة اللسان حاضرة البديهة كثيرة المزاح والتنكيت وأفظع من هذا كله فقد كانت على جانب من القبح مخيف ولكنها مع هذا كله كانت سليمة الطوية متينة الخلق، وكان زوجها، دون شك متيماً بحبها ولهاً بها، فكان يتقبل نزواتها وأهوائها بصبر أيوب، وكان، مكرهاً أم راضيـاً ـ لا ينفك عن مرافقتهـا إلى كل مكان تذهب إليه لا يوفر لنفسـه وقت فراغ أو راحة حتى غدا وكأنه عبد لها.

وفوق هذا وذاك فهناك شـخصية أخـرى تنفي كل الأوهام الشـائعة في الغرب عن «تفاهة» المرأة الشـرقية، وهذه الشـخصية هي عمة أبي التي ما زالت حتى هذا اليوم مضرب المثل في الدهاء والشـجاعة والهمة. فقد ترك جدي حاكم عُمان وإمام مسـقط عند وفاته أولاداً ثلاثة هم أبي سعيد وعمي سالم وعمتي عائشة، وكان أبي هو الوارث للعرش[1]. ولكنه لأنه لم يكن قد أتمَّ التاسـعة من عمره بعد، فكان لا بد من تنصيب وصي عليه، ولكن عمته

(١) لم يكن السيد سعيد الوارث الشرعي لأبيه فقد كان أخوه سالم أولى بذلك لأنه الأكبر سناً وإنما اختير السيد سعيد لنباهته وذكائه ولترشيح السيدة موزة له. انظر ص ١٩ من مقدمة المترجم.

ـ وخلافاً لكل السوابق ـ أعلنت أنها ستتولى بنفسها حكم البلاد والوصاية على ابن أخيها حتى يبلغ سن الرشد ويتولى شؤون الملك. وقد صدم هذا القرار المفاجئ رغبات الوزراء الذين كانوا يريدون استغلال صغر سن أبي وضعفه للاستيلاء على السلطة واستغلالها لمصالحهم الخاصة، ولكنهم على كل حال لم يجدوا في نهاية الأمر بدّاً من الطاعة والخضوع وصار عليهم أن يفدوا إلى ديوان الأميرة الوصية كل نهار ليرفعوا إليها تقاريرهم عن شؤون البلاد ويتلقوا أوامرها حولها، وقد أمسكت الأمور بقوة وحزم ـ وراقبت الأشخاص والأشياء بعين يقظة ساهرة وكان الويل كل الويل للمخاتل أو الكسلان من رجال الحكم والإدارة. وقد نبذت قيود العرف فكانت تكتفي بوضع «الشيلة» على كتفها حين تجالس وزراءها وتناقشهم في الشؤون العامة غير عابئة بكلام الناس ونقدهم فقد كان همّها وتصميمها أن تنجز مهمتها بنجاح وإخلاص.

ولم يمضِ على توليها شؤون الوصاية إلا وقت قصير حتى تعرضت شجاعتها لامتحان عسير، فقد نشبت في البلاد ثورة هوجاء. وهو أمر مع الأسف كثير الحدوث في عُمان، فقد نهض فرع من عائلتنا يريدون اغتصاب الحكم لأنفسهم وقد خيل إليهم لصغر سن أبي وخلو مركز الوصاية إلا من سيدة، أنهم بالغون إربهم بسهولة ويسر. وفعلاً فقد جمعوا الجموع واكتسحوا البلاد بالحديد والنار وأعملوا السيف في رقاب من قاومهم من السكان حتى وصلوا في زحفهم إلى مسقط وضربوا حولها الحصار. وكانت مسقط منيعة التحصين كثيرة السلاح ولكنها تفتقر إلى العتاد الحربي وكانت أيضاً قد امتلأت يوم ذاك باللاجئين إليها فراراً من زحف الثوار وتنكيلهم أو طلباً للأمان والنجاة فيها، فاشتدت الحاجة إلى الطعام وما نفع الجدران السميكة والحصون العالية إذا ما شح الطعام ونفد العتاد!!.

وهنا كشفت الأحداث عن معدن هذه السيدة: حكمة في الرأي وصلابة في التصميم ونشاطاً في العمل حتى كسبت إعجاب الأعداء أنفسهم. ولم تكتف بتدبير الأمور من بعيد بل كانت تشرف من كثب على التنفيذ بنفسها، فكانت تركب وحدها كل ليلة متنكرة بلباس الرجال لتتفقد أحوال الحاميات النائية المتاخمة لمراكز العدو وكثيراً ما كادت أن تقع في أسره لو لم تنقذها أصالة فروسيتها وسرعة حصانها. وقد خرجت ليلة ما، وكانت حزينة منقبضة النفس، فقد سمعت أن العدو قد لجأ إلى الرشوة والمال يستميل بهما المدافعين عن حصون المدينة بغية احتلالها بالحيلة والخداع بعد أن عجزت قوته وجيوشه عن ذلك، فذهبت بنفسها تريد أن تمتحن ولاء ضباطها وجنودها، فالتقت هناك، وكانت متنكرة بلباس الرجال بضابط أحد المواقع المهمة وحاولت باعتبارها من «رجال» العدو إغراءه بالمال والوعود على أن ينفض يديه من الأميرة الوصية وينضم إلى معسكر الثوار. لكن غضبة الضابط الشهم وغيظه أفرحتها وردت إليها معنوياتها، وإن كان الحادث كاد أن يكلفها حياتها على أيدي أتباعها باعتبارها من جواسيس العدو ولو لم تكشف لهم عن هويتها.

وازدادت محنة مسقط واشتد البلاء عليها باشتداد الحصار وإحكامه فقد نفذ الطعام وانتشرت المجاعة وانقطع الأمل في أي عون يصل إلى المدينة من الخارج وران عليها جو من الكآبة واليأس، وهنا قررت الأميرة أن تقوم بهجمة أخيرة لفك الحصار فتموت ميتة كريمة بدل أن تستسلم. وكان لديها من البارود ما يكفي معركة واحدة، ولكن لم يكن عندها معه الحديد اللازم. لذا فقد أمرت أن تجمع جميع المسامير في البلد، تخلع من الأبواب والصناديق ومن كل شيء وأن يجمع الحصى بالحجم المناسب أيضاً ليكون حشواً مع البارود لقذائف المدافع والبنادق. كما جمعت كل ما هو مصنوع

من الحديد أو الرصاص أو النحاس في البلـد وصهرته إلى قذائف وطلقات وقنابل، لم توفر دون ذلك شـيئاً، حتى الدولارات الفضية في خزائن القصر صهرتها طلقات للبنادق. وتم الأمر بسـرعة ونشـاط وبعد أن تيسر لها هذا القدر من العتـاد بدأت بالهجوم المنتظر وكان النجـاح حليفها فيه. فقد أخذ العدو على حين غـرّة فتفرقت جموعه في كل جهـات الأرض مولية الأدبار بعد أن ترك خلفه نصف جيشـه بين قتيل وجريح وأسير... وسلمت مسقط! وعـادت البلاد جميعها إلى حكـم الأميرة دون منازع واسـتمرت في تنظيم البلاد وإدارتها حتى بلغ أبي سن السابعة عشرة فتسلم منها الحكم، وكان من أثر حسن إدارتها واسـتقرار البلاد إن اسـتطاع أبي أن يوجه أنظاره إلى فتح أقطار جديدة وكان منها زنجبار، فنحن ندين إلى هذه الأميرة الكريمة بفضل وجودنا في زنجبار[1].

وكانت عمة أبي هذه امرأة شرقية!!.

❁ ❁ ❁

(١) لا شك أن السيدة المقصودة في هذا الكلام هي السيدة موزة بنت الإمام وعمة السيد سعيد والتي تولت الوصاية على ابن أخيها عام ١٨٠٤ واسـتمرت ذا أثر فعال في السياسة وتسيير الأمور حتى عام ١٨٤٠. ولعل المؤلفة تشير في قصتها إلى أحداث عام ١٨٣٢.
وهناك امرأة أخرى تسـتحق الذكر وهي جوخة بنت محمد بن الامام، اسـتطاعت أن تثور على إبن عمها السلطان انتصاراً لأخيها السجين. أنظر المقدمة ص ٣٠ وما بعدها.

نساء ينقلن الماء

الفصل السادس عشر
الخطوبة والزواج في بلاد العرب

عزلة الجنسين عن بعضهما في الشرق وضعت على الأب أو رب العائلة تبعة تزويج بناته، وليس هذا بالأمر المستغرب، فغالباً ما يحدث مثله في أوروبا حيث حرية الاختلاط بين الجنسين على أوسع نطاقها. وفي العالمين، الغربي والشرقي قد يقدم الآباء على هذا العمل بنية حسنة وبشعور في المسؤولية كما قد يكون الآباء هناك أو هنا قساة القلوب أو أنانيين لا يكترثون لسعادة أبنائهم ومستقبلهم، فيتعسفون في استعمال حقوقهم بما يعود على أبنائهم بالضرر والتعاسة والشقاء. فكم من رجل مبذر متلاف لا يجد وسيلة للفكاك مما ركبه من الديون إلا بتضحية إبنته وتزويجها لدائنه، وكم من أم أنانية فاجرة دفعت بابنتها إلى زواج فاشل لمجرد الرغبة في إزاحتها عن طريق ملذاتها وفجورها.

لكن الناس في الشرق على العموم لا تنظر إلى قيام الأب بتزويج إبنته نظرة الشك والريبة ولا يرون في مثل هذا العمل تعسفاً في استعمال السلطة الأبوية بل أنهم ينظرون إليه على أنه أمر واجب على الآباء لا مفر منه تضطرهم عليه الظروف الاجتماعية السائدة في البلاد؛ أي: عزلة النساء واحتجابهن عن الرجال.

ومع أن النساء في الشرق يعشن في عالم ضيق خاص وفي عزلة تامة عن عالم الرجال وفي حجاب تام عنهم لا يريـــن ولا يكلمن إلا النفر القليل من محارمهن، أي أقـــرب القربى إليهن وبعض خدمهن ومـــع أن القاعدة العامة الســـائدة أن الخطيبين لا يرى ولا يكلم أحدهما الآخـــر إلا في ليلة الزفاف، فالواقع أن الحجاب لا يمنع دوماً الاتصال والتعارف بين الجنســـين، فالفتاة تستطيع أن ترى خطيبها من نافذة غرفتها كما يستطيع الشاب أن يلمح خطيبته عرضاً. وعلى كل حـــال فإن كُلاً مـــن الخطيبين لا يبقى جاهـــلاً كل الجهل بشـــؤون الخطيب الآخر، فالأُمهات والأخوات والعمات والخالات يتنافسن في نقل أخبار كل من الطرفين إلى الطرف الآخـــر وفي المبالغة وفي وصف محاسن كل منهما للآخر.

وقد يكـــون الخطيبان مـــن أصدقاء الطفولـــة والصبا، فالبنـــات يخالطن الصبيان ويلعبن معهم حتى يفرض عليهن الحجاب عند بلوغهن التاسعة من أعمارهن. فلا يســـتبعد أن يعود رفيق الصبا بعد ســـنوات قليلات فيطلب يد رفيقته في لعب الطفولة البريئة بعد أن تكون أُمه أو أخته قد مهدت له السبيل مع الفتاة نفسها.

ومهما تكن وسيلة التعارف والاتصال، فإن طلب يد الفتاة يتم عن طريق أبيها أو ولي أمرهـــا ويفترض في الخطيب أو يجب عليـــه أن يتظاهر بأنه لم يسبق له أن رأى أو عرف زوجته المقبلة، ولذلك فإن أول سؤال يوجهه الأب لمن يتقدم بطلب يد ابنته هو:

وكيف تيسر لك أن ترى أو تعرف إبنتي؟

والجواب التقليدي في مثل هذه المقابلة ومهما كانت حقيقة الحال هو:

إنني لم أتشـــرف برؤية أو معرفة إبنتكم المصونـــة ولكن أهلي وقريباتي حدثنني عن كامل أوصافها وحسن أخلاقها.

❁ ❁ ❁

ولا يقابـــل بالرفض القاطع ومـــن أول مرة عادة، إلا غيـــر المرغوب فيه نهائياً. وإلا فالعادة جرت أن يطلب الأب من الخطيب مهلة من الزمن للتفكير في الأمر.

ولا يفاتح إبنته أو زوجته بالموضوع بل يظل يرقب الأمور ويرصدها في داره ليكتشف ما إذا كانت الأنباء قد سبقته إلى الدار.

ثم يختلي بابنته وزوجتـــه ويعلن لهم عن عزمه على إقامة حفلة عشـــاء لبعض أصدقائه ويبدأ بتعداد أسماء هؤلاء الأصدقاء المدعوين إلى حفلته ثم يدس بينهم إســـم الخطيب أو أبيه ويدقق النظر وهو ينطق باسمه في وجهي زوجه وابنته ليرصـــد رد الفعل لديهما، فإذا لمح علامة رضى وســـرور على وجه البنت أو أُمها علم بأن النساء من خلفه قد أكملن الصفقة ولم يبق له إلا الحفاظ على المظاهـــر، وعندئذٍ لا يتحرج من أخبار إبنتـــه أن فلاناً قد طلب يدها وأن الأمر موقوف بكليته على قرارها النهائي.

ويتبنى الآباء فعلاً ـ إلا القســـاة منهم ـ ما تقرره بناتهم في هذا الموضوع من رفض أو قبول.

وكذلك كان الشـــأن مع أبي فقد كان يترك لبناته حرية تقدير مستقبلهن. ومن شـــواهد ذلك أن أختي الكبرى زينة كانت في الثانية عشـــرة من عمرها حين تقدّم لخطبتها سعود، أحد أبناء عمومتنا الأبعدين، ومع أن السلطان لم يكن راغباً في هذا الزواج لصغر ســـن الفتاة فإنه لم يشـــأ أن يقطع في رفض

طلب الخطيب الشاب إلا بعد استشارة الفتاة نفسها. وكانت زينة قد فقدت أمها من وقت قريب، ولم يكن لها في بيت المتوني من يرعاها أو يعطف عليها، وكانت تحس بالوحدة والوحشة، لذلك فقد رحبت بالزواج وفوجئ أبوها السلطان بموافقتها ولكنه لم يملك إلا أن يرضى برأيها ولو على مضض.

وقد يحدث في بعض الأحيان أن تتم الخطوبة وحتى الزواج في سن مبكرة جداً. واذكر في هذا الصدد أن اثنين من الأخوة في زنجبار، رزق أحدهما بولد والثاني ببنت ـ قد قررا ربط أبنائهما بالزواج ولما يبلغ الولد سن السابعة عشرة من عمره والبنت عامها السابع. وكنت جارة لهما في مزرعتي، فجاءت إليّ أم الولد تشكو من عناد زوجها وأخيه وإصرارهما على فرض هذه العروس الصغيرة عليها وتحميلها مسؤولية تربيتها والعناية بها. أما أم البنت فكانت مصيبتها بخسارة وحيدتها الصغيرة وفي هذا السن الغض مصيبة لا تعوض، وقد اتفقت السيدتان على القيام بمسعى موحد لتأجيل الزواج سنتين على الأقل.

ولا أدري ما تم بالأمر بعد ذلك لأني تركت زنجبار بعد هذا الحادث بأمدٍ قليلٍ.

❁ ❁ ❁

وإذا ما تمت الخطبة انطلقت خادمات بيت العروس وهن في أبهى حللهن وزينتهن يطفن على بيوت الأهل والمعارف ليعلن خبر الخطبة ويوزعن الدعوة إلى حضور حفلة عقد القران وليقبضن مقابل هذه البشائر ما تيسر من الهدايا والنقود.

ولأن فترة الخطبة لا تدوم إعتيادياً أكثر من شهر أو بضعة أسابيع، لهذا

فمـا أن تُعلن الخطبة حتى تبدأ الاسـتعدادات لحفلة الزفـاف، فينقلب بيت العروس إلى خلية نحل كبيرة ومركز عمل مستمر.

ومتطلبـات العرس في جنوبنا السـعيد أقل وأبسـط مما هـي عليه في أوروبا. فالعروس الجنوبية لا علم لها بالكثير من الأمور التي تراها العروس الغربية احتياجات ضرورية، ولربما تصعق الفتاة الشـرقية لو قدر لها أن ترى جهاز العروس الأوروبية.

وصداق المرأة العربية قليل نسـبياً. فهو يتألف حسـب مقام العروسين ومقام أهليهما، وهو في كل حال لا يخلو من الملابس والحلل وبعض العبيد من الجنسين وبعض الدور والمزارع وشيء من النقود الذهبية. هذا عدا عما ينصب على العروس من الهدايا من أفراد عائلتها وعائلة زوجها ومن الأقارب والأصدقاء ويكون كل هذا ملكاً خالصاً لها.

وملابس النسـاء في كل مكان وزمان هي شغلهن الشـاغل، وتستعد الفتاة لأيـام العرس بكميـة منوعة كافيـة من الملابـس. فالمفروض في العروس ذات اليسـار أن تغيّر ثيابها مرتين أو ثلاث مرات في اليوم خلال الأسبوع الأول من الزواج وأن تستمر في تحري الأناقة و النظافة بعد ذلك أيضاً. ويشمل التغيير في كل حالة كل قطعة من قطع اللباس من قمة رأسها حتى أخمص قدميها. ويترك للعروس حرية اختيار أنـواع الثياب وألوانها وغالباً ما تأتـي ألوانها خليطاً من الألوان المختلفـة التي لا تزدريها العين ولا يمجها الذوق.

وتلعب العطور دوراً بارزاً في عمليات الاسـتعداد للعرس، بل وفي حياة المرأة الشرقية عامة. والعطور الشـرقية على أنواع أهمها «الريحة» وهو دهن للشعر غالي الثمن ويتكون من خشب الصندل المطحون والمسك والزعفران

مخلوطاً بدهن الورد، وتستخرج العطور من الورد والياسمين والنباتات العطرية، كما تستعمل أنواع البخور لتعطير الجو والمكان وأغلى أنواع البخور وأفخرها هو «العود» ويصنع من خلط خشب الند والمسك والعنبر.

ومن العادات الغريبة في مراسم العرس في الشرق عادة توجب على العروس أن تقضي أسبوعها الأخير في دنيا العذارى في غرفة مظلمة تتخفف فيها من جميع ملابسها إلا من قميص خفيف ترتديه ساعات محدودات من النهار فقط وذلك على افتراض إن هذا الحبس الاختياري يجعلها تبدو أنضر عوداً وأرق بشرة في الساعة الموعودة. وفي هذا الأسبوع والأسبوع الذي قبله تكون العروس عرضة لزيارات كثيرة متعددة من أناس لم تسمع بهم من قبل أو لم ترهم منذ زمن طويل، وعلى رأس هاته الزائرات مربياتها اللواتي لم تقع عينها عليهن منذ سنين وسنين. والخدم والخادمات الذين خدموها طيلة حياتها. وكلهم يأتونها لتهنئتها وانتظار العطايا والهدايا. ولا يتأخر رئيس الخصيان، ذلك المارد الذي حلق لها شعرها في اليوم الأربعين من عمرها عن زيارتها وتذكيرها بالخدمة التي أداها لها في ذلك اليوم التاريخي الأغرّ، والطريقة الرائعة التي أنجز فيها مهمته تلك بكل دقة وإتقان، التي لولاها لما ظلت على قيد الحياة لتشهد هذا اليوم السعيد. ثم لا يخرج منها إلا محملاً بأفخر الهدايا وأغلاها كالساعات الذهبية والأقمشة الحريرية وما أشبه.

ورغم أن العريس أحسن حظاً من عروسه من حيث عدم خضوعه للحبس الاختياري أو امتحان الجمال، إلا أنه لا يختلف عنها من حيث وجوب تقديم الهدايا للزوار والطارقين من كل من سبق أن قام له أو لعروسه بخدمة ما يوماً ما.

ويمكث العريس في داره في الأيام الثلاثة السابقة ليوم الزفاف ليستقبل

الأصدقاء والمقربيـــن وليتبادل الهدايا الأخبار وترتيبات الزفاف مع عروســه عن طريق الأهل والخدم.

ثم يأتي اليوم الموعود، يوم عقد القران. وتتم مراســم عقد القران مساءً في بيت أحد العروسين وليس في المسجد كما هو الشائع، ويقوم بها قاضي المدينة أو ينوب بها عنه أحد رجال الديــن أو من عرف في الجماعة بالورع والتقوى.

وأظرف ما في هذه المناســبة أن «بطلة الرواية» لا تظهر على المســرح أبداً، وكيف لها أن تظهر في مجتمع الرجال، وإنما تنيب عنها أباها أو أخاها أو قريباً من أقاربها فإن لم يكن لها أحد منهم حضرت بنفسها ملتفة بعباءتها بحيــث لا يُرى منها شــيء البتة إلى غرفــة خالية ثم يدخــل عليها القاضي والعريس وبعض الشــهود. وبعد أن تجمجم ما يفيد قبولها بالزواج بكلمات متقطعة وصوت خفيض لا يُسمع، يخرج القاضي ومن معه من الغرفة ليتيحوا للعروســة مجال الخروج منها والعودة إلى غرفتها، فــي حين يحيي الرجال تلك الليلة في حفلة عشاء ضخمة يقيمها العريس بهذه المناسبة.

وعقد القران لا يعني بالتبعية الزواج المباشــر، بل قد يتأخر ذلك يومين أو أكثر. وفي ليلــة الزفاف تتحلى العروس بأحلى زينتهــا وأكمل حليتها ثم يأتي أهل العريس من رجال ونســاء ليزفوها إلى بيتهــا الجديد الذي تتحرك إليه في حاشية من نساء قومها في حوالي الساعة التاسعة أو العاشرة مساءً.

وحين تصل بيت الزوجية الجديد يســتقبلها العريــس وأهله وينثروا بين قدميها النقود والحلويات ثم يأخذونها إلى غرفتها الخاصة، وبعد أن تســتقر هناك تستأذن النسوة منها بالانصراف ليذهبن إلى صالون البيت حيث تجري الأفراح ثلاث ليالٍ.

ولا تخلــو اللحظات الأخيــرة من قواعــد صارمة واجبة الاتبــاع، فبعد انصراف النسوة يدخل العريس الغرفة على عروسه وتقضي الأصول أن تنهض الفتاة لاستقباله إلا إذا كانت أعلى منه مقاماً فإنها تستقبله جالسة في مقعدها، وعلى أي حال فإن العروس لا تكلم زوجها وإنما يجب أن يبدأها هو بالتحية والكلام، وأن يرفع عن وجهها البرقع الســميك الثميــن الذي ما يزال يغطي وجهها، ليتســنى له أن يرى ذلك الوجه وربما لأول مــرة وإظهاراً لإعجابه بوجه العروس وترضية لهــا عن رفع برقعها فلا بد من هدية بهذه المناســبة تكون عند فقراء الناس بضع دريهمات ولكنها عند أغنياء القوم حفنات كبيرة من الذهب والفضة.

❁ ❁ ❁

واحتفالاً بليلة الزفاف أو بالزواج فــإن أب العريس يفتح أبواب بيته في دعوة عامة يحضرها الأهــل والأقارب والأصدقاء والمعــارف بل وكثير من الغرباء أيضاً، ويحتفى بهم جميعاً على قدم المساواة.

وتستمر الأفراح والليالي الملاح هذه أياماً قد تقصر إلى الثلاثة فقط وقد تطول إلى الأسبوعين. ينعم الجميع فيها بالحبور والمرح والانشراح.

وصحيــح أن النبيذ والمســكرات جميعهــا لا وجود لها فــي مثل هذه المناســبات لأن المذهب الإباضــي الذي تنتمــي إليه يحرمهــا بل ويحرم التدخين أيضاً، إلا أن القوم لا يعدمون وسائل أخرى للهو والسرور فعدا عن الأكل المتنــوع الوفير فإن العبيــد يطوفون على الضيوف بأنــواع من عصير الفواكه وشــربة اللوز. ويمتع الضيوف أنفســهم بالاســتماع إلــى الغناء أو المشاركة في رقصات الحرب أو الاســتماع إلى رواة القصص والحكايات، في جو عابق بالبخور والعطور.

ونحن في الشـــرق نجهل جهلاً تاماً رحلات شـــهر العسل، وإنما يختلي العروسان في بيتهما أسبوعاً أو أســـبوعين لا يقابلان أحداً، ثم يخرج بعدها الرجل إلى عمله وتبدأ المرأة تســـتقبل مســـاء كل يوم المهنئـــات من أهلها وصديقاتها، ثم تعود الحياة طبيعية يوماً بعد يوم.

❁ ❁ ❁

ساقي القهوة العربية

الفصل السابع عشر
زيارات النساء ومجالس الرجال

«١»

كررتُ القول فيما سبق عن تبادل الزيارات بين النساء وإننا نستقبل الصديقات في بيوتنا كما ونرد لهن الزيارة في بيوتهن. ويروق لي الآن أن أصف أجواء هذه الزيارات وما يتخللها من مراسم ومجاملات.

والإخبار المسبق بالزيارة هو أول المراسم الواجبة في هذا الصدد. فنحن لا نعرف الزيارات المفاجئة وإنما يجب علينا حين نرغب في زيارة صديقة ما أن نبعث لها بخادمتنا لتخبرها خبر الزيارة ووقتها.

وتتزين النساء في هذه الزيارات بأحلى زينتهن ويضعن عليهن أجمل فساتينهن لا إكراماً للصديقة المراد زيارتها فحسب، بل إظهاراً لذوقهن وأناقتهن وافتخاراً وتباهياً بجمالهن وحسنهن كما هو دأب النساء في كل مكان.

على أن المرأة العربية لا تكشف عن وجهها حتى في داخل بيتها إلا في القليل النادر وإنما تحجبه طول الوقت بقناع يغطي مواضع الفتنة والإغراء، والقناع الذي تستعمله نساؤنا غير القناع الذي تضعه المرأة المصرية على وجهها وهو قناع كثيف قبيح الشكل كاتم للأنفاس، فقناعنا يصنع عادة من

الحرير الأسود وتُطرز حواشـــيه بخيوط الذهب والفضة ويتكون من قطعتين تغطي الأولى جبهة المرأة فقط في حين تغطي الثانية أنفها وبعضاً من خديها وتتدلى إلى فمها فرقبتها، أما سحر العيون فيبقى مكشوفاً مباحاً دون حجاب.

وإذا كان المحل المقصود داخل المدينة ذهبنا إليه سيراً على الأقدام وإن كان خارجها ركبنا إليه البغال أو الحمير.

والمسلمات يتجنبن الظهور في الشـــوارع في وضح النهار ولذلك جرت العادة أن يكون خروجهن في الصبـــاح الباكر أو بعد حلول الظلام. ولم تكن في أيامي في زنجبار شوارع مضاءة وكان على كل سائر في الطريق أن يؤمن وسائل الإضاءة لنفسه. وكنا نستعمل لهذه الغاية الفوانيس الكبيرة التي نتفنن في صنعها ونتنافس في حجمها وجمالها، حتـــى أن محيط البعض منها كان يصل إلى حوالي الستة أقدام، وكان أجملها صنعاً ما كان على شكل الكنائس الروســـية فيتوســـطها قبة كبيرة ثم تحيط بها أربع أو خمـــس قبب صغار من الزجاج الملون التي تضاء جميعها بالشـــموع. وكان على السيدات الساعيات في ظـــلام الليل أن يأخـــذن معهن عدداً من هـــذه الفوانيـــس يحملها العبيد الأقوياء في حين تكتفي النساء الفقيرات أو متوسطات الحال بمصباح واحد فقط.

والســـيدات ذوات المكانة واليســـار يرافقهن في ترحالهن عدد كبير من عبيدهن بكامل ســـلاحهم، لا لحمل المصابيح فحسب وإنما للحماية وحفظ المظهر أيضاً وغالباً ما يخدع مظهر هؤلاء عن مخبرهم فرغم ما يثير مظهرهم من التيـــه والخيلاء في نفوســـهم، ومن الخوف والرعب فـــي نفوس المارة، فإنهم لسادتهم وســـيداتهم. مصدر الكثير من المتاعب والباهظ من النفقات فعدا عما يكلفه لباسهم الزاهي وزينتهم الفاخرة وسلاحهم ـ وكله عدا البنادق والمسدسات ـ مطعم بالذهب والفضة فأنهم يكلفون أسيادهم من المال فوق

هذا بكثير، ذلك أن هؤلاء الأوغاد لا يتورعون عن رهن سلاحهم عند أول هندي أو بانياني مقابل دراهم معدودات تبيح له الحصول على جرعات قليلة من اليومبا (وهو نوع من النبيذ المحلي المصنوع من التمر)، وليس أمام سيدتهم في مثل هذه الحال إلا أن تعوضهم عن سلاحهم بسلاح جديد أو أن تستعيد سلاحهم المرهون بأضعاف أمثال ثمنه، وكما يكون الخسار في الحالين من نصيب مولاتهم يكون العقاب بالجلد المبرح نصيبهم في الحالين أيضاً، ورغم قسوة هذا العقاب الصارم وما يتركه في جلودهم من آثار دامية فإنه لا يصدهم عن معاودة ارتكاب الفعل نفسه مثنّى وثلاثاً وكلما طاب لهم الشراب.

ويتألف موكب السيدة ذات المقام العالي من عشرة أو عشرين من هؤلاء العبيد الضخام الأجسام المسلحين بأحسن السلاح والحاملين فوانيس الإضاءة أمام سيدتهم وبين يديها والتي يسير خلفها عدد من خادماتها بأحسن زينتهن وأزهى ثيابهن. فإذا التقى هذا الموكب الضخم بآخر مثله لصديقة تريد نفس الاتجاه اندمج الموكبان في موكب واحد يسير نحو هدفه تتوسطه السيدتان الصديقتان وبأبهة أكبر وهيبة أفخم.

وإذا التقى هذا الموكب بأحد المارة مهما علت مكانته أومأ له العبيد ليغيّر اتجاهه إلى أقرب شارع فرعي أو زقاق أو مجرد دكان، حتى يمر الموكب بعيداً عن أنظار أصحاب الفضول، لكن قاعدة إخلاء الطريق لم تكن سهلة التطبيق في غير موكب سيدات العائلة الحاكمة، ومع حب الشرقي للجد والرزانة في كل حياته ولحفظ الحشمة والوقار في الشوارع العامة فإن مرور موكب فخم مثل هذا لا بد وأن يكون مثار التعليق والمزح والتحرش من بعض الشباب مما قد يجر أحياناً إلى اصطدامات خفيفة بينهم وبين عبيد الموكب يتفرج عليها الناس لاهين من سطوح منازلهم أو نوافذ غرفها.

❁ ❁ ❁

وحال وصول الموكب إلى البيت المقصود، يرتفع الخبر إلى ربة البيت بوصول الضيوف، والزائرات في الشرق لا يعرفن الانتظار الممل حتى تنتهي ربة البيت من وضع آخر اللمسات في زينة وجهها أو تسريحة شعرها بل يقودهن الخدم إلى غرفة السيدة المضيفة أو إلى سطح المنزل النظيف البارد حيث يكون مجلس النساء في الليالي المقمرات الرائعات.

وتجلس ربة البيت على «المدة» وهو أريكة ترتفع عن الأرض زهاء الست أقدام يمتد فوقها فراش طويل زاهي اللون مطرز بخيوط الذهب والفضة وتتكأ على وسائد مصنوعة من نفس قماش الفراش.

ولا تقضي المجاملات أو العادات أن تخرج ربة البيت لاستقبال ضيفتها كما هو الشأن في هذه البلاد، بل أنها لا تنهض من مجلسها إلا إذا كانت زائرتها أعلى منها مقاماً وأرفع منزلة فتنهض لها دلالة المزيد من الاحترام والتوقير.

❁ ❁ ❁

ويبدأ السلام بالقبلات والمصافحة. فالزائرة تقبل يد ربة البيت أو رأسها، أو وجنتيها أو كتفها على حسب النسبة بالمكانة بين الإثنتين. أو أن يكتفيا بالمصافحة إن كانتا على منزلة متساوية، ثم تجلس الزائرة إلى جانب ربة البيت على «المدة» إن كانت صنواً لها أو بعيداً عنها قليلاً، وإلا فتجلس على الأرض إن لم يؤهلها مقامها للجلوس العالي جنب ربة البيت.

وتتحلل الزائرة بعد جلوسها من الشيلة ـ أي: العباءة ـ فترميها على كتفيها أو خلفها، ولكنها لا تنزع عنها قناع الوجه أو أي شيء آخر ترتديه إلا حذاء القدم. فالقباقب الخشبية الجميلة التي ترتدى داخل البيوت يحل محلها عند الخروج أحذية جلدية نفيسة الصنع، وهذه تخلع في باب الغرفة عند

الدخـــول، وهذا أمـــر واجب لا اســـتثناء فيه حتى للســـلطان نفســـه، وعلى الخادمـــات الواقفات عند الباب تقـــع مهمة ترتيب هذه الأحذية المتشـــابهة بحيث تســـتطيع صاحبتها أن تجدها بســـهولة عند الخـــروج. وهنا وفي هذه النقطة فـــي الذات تطبق قواعـــد الأتيكيت بدقة متناهيـــة فيوضع حذاء أعلى النســـاء الموجودات منزلة في الوســـط ثم تحيط به أحذيـــة الأخريات على حسب درجتهن ومقامهن وعلى شكل نصف دائرة.

وبعد جلـــوس الزائرة بقليـــل تدار فناجيـــن القهوة العربية، ثـــم الفواكه فالحلويات وتعاد هذه للجميع مراراً وتكراراً عند قدوم أي زائرة جديدة.

والإلحاح على الزوار بالشـــرب أو الأكل غير مســـتحب، وغير مستحب أيضاً أن ترفض الزائرة كل ما يقدّم لها.

❁ ❁ ❁

ولا يُطلب من ربة البيت أن تبدأ الحديث وتقوده وأن تستمر فيه كما هي العادة المؤذية المصطنعة في أوروبا، بل يترك الأمر إلى الجالســـات يتبادلن الحديث بحرية وعفوية عن أي موضوع يعن لهن.

ولأن حياة المرأة الشـــرقية محدودة فإن مواضيع الحديث تكون محدودة أيضاً، فليست هناك مسارح أو حفلات موســـيقية أو حفلات استقبال ليعلقن عليها. كما أن الطقس في البلاد رائق رائع طيلة أيام السنة فليس فيه ما يصلح مادة للحديث، لهذا يقتصر الحديث على الأخبار العائلية والأمور الشـــخصية ثم عن شؤون الزراعة، فالزراعة مهنة غالبية ذوي اليسار في زنجبار. ويستمر الحديث فـــي ود وصفاء وبشاشـــة وحبور تقطعه الابتســـامات المشـــرقة أو الضحكات الصادقة لأننا نحن الشرقيات نحب الطبع المرح السعيد والصفاء والانشراح، أخذنا ذلك من سماء بلادنا الصافية وشمسها الساطعة التي تملأ

الدنيا نوراً وحياةً ومن طبيعتها السخية المعطاء التي تغدق علينا في العطاء فلا تدع لأحد مجالاً للتفكير في الغد.

والنساء العربيات على العموم متحفظات كتومات أمام الغريبات لكن حواجز الحيطة وفوارق العنصر والسن والجاه تزول بين الصديقات والمعارف. ولا أستطيع أن أنكر أن النساء الجنوبيات أكثر من الشماليات ميلاً نحو الحسد والغيرة والحقد، ولكنهن في نفس الوقت إذا أحببن فهن في الحب والوفاء والإخلاص أعنف وأعمق وأصدق من رفيقاتهن الشماليات. ذلك أن القلب ـ بعواطفه وجموحه ـ هو المرشد والدليل هناك، في حين أن العقل بمنطقه الجاف الصارم هو المتحكم في الطباع في هذه البلاد.

ولا يجوز مطلقاً لرب البيت أو أبنائه البالغين أو أي رجل آخر، أن يدخل غرفة زوجه أو أُمه أو أُخته حين وجود الضيوف لديها، ولا يستثنى من هذا القانون الصارم إلا السلطان وأقرب المقربين إليه. ولهذا فحين كنا نزور أخواتنا المتزوجات كان أزواجهن يبقون بعيداً عنهن حتى نرحل. وإذا ما طرأ أمر ما يستدعي أن يدعو الزوج زوجه أو بالعكس، بعث أحدهم إلى الآخر إحدى الخادمات يدعوها أو تدعوه إلى اللقاء في غرفة ثانية.

ويستمر تطبيق هذه القاعدة حتى لو استمر بقاء الزائرات في البيت من الصبح حتى المساء وهو ما يحدث في بعض الأحيان. وهذا أمر مزعج ولا شك، ولكن الشرقيين لا يحسّون بوقعها وإزعاجها ذلك لأنهم نشأوا وشبّوا على عادات وتقاليد معينة يعتقدون بصحتها وصوابها لأنهم لم يتيسر لهم أن يشهدوا غيرها ليقارنوا بينهما ويكتشفوا ما في عاداتهم من خطأ أو صواب.

ولا أستطيع بأية حال من الأحوال أن أنكر ما في الكثير من عادات الشرق من التزمت أو التطرف، ولكن هل تخلوا أوروبا من أمثالها؟ فهناك

العزلة التامة بين الجنسين وهنا الاختلاط والإباحة بينهما، وهناك التستر والغطاء والحجاب في بلاد تبلغ الحرارة فيها أقصاها، وهنا في بلاد البرد والجليد نجد الصدور المكشوفة والسيقان العارية، ولهذا فإنك تجد التطرف في كلا الجانبين وما منهما من استطاع لأن يكتشف القاعدة الذهبية، قاعدة الاعتدال والتوسط بين الأمور.

❁ ❁ ❁

وتدوم الزيارة حوالي الثلاث أو الأربع ساعات، وحين يحين موعد الانصراف يجري إيقاظ الخدم والعبيد من نومهم ليستعدوا لمسيرة العودة وبعد تبادل هدايا الوداع. تسمح المضيفة لزائرتها بالانصراف لتصل بيتها قبل منتصف الليل وهو آخر موعد لتأدية صلاة العشاء.

ويبدأ موكب السيدة الزائرة مسيرته قافلاً كما جاء أول مرة حتى تنتهي إلى بيتها وأهلها.

❁ ❁ ❁

«٢»

وكما أن للنساء مجالسهن الخاصة بهن فكذلك للرجال مثلها ولا شك، ولكنني لا أستطيع لها وصفاً لبعدي عنها بسبب مركزي وجنسي. ولكنني أستطيع أن أصف المجالس العامة أو الرسمية للرجال وهو أمر كنا نشهده يتكرر كل يوم في بيت الساحل.

❁ ❁ ❁

من التقاليد القديمة الشائعة في زنجبار وجوب الحضور في حضرة السلطان مرتين كل يوم، الأولى في الصباح قبل الإفطار والثانية بعد صلاة الغروب في المساء، حيث يحضره الذكور من أبنائه ووزراؤه ومستشاروه

وبقية موظفيه وحاشـيته بل وكل من يرغب في السـلام على السـلطان أو مكالمته في أمر ما.

وتقع البـرزة ـ وهي صالون الاسـتقبال ـ في الطابـق الأرضي من بيت السـاحل في جناح قريب من البحر ويشـرف على منظره الرائع بل وتغتسل جدرانه بمياه البحر في ساعات المد.

وبالرغم من سـعة هذا المكان فقد كان يزدحم بالزوار دوماً حتى يضيق بهم، وكانت البرزة كأي غرفة عربية تمتاز بالبسـاطة في البناء والأثاث، فهي لا تحوي إلا السـجاد الفارسـي على أرضيتها والمرايا الكبيرة والسـاعات المنوعة على حيطانها.

ولأن العربي لا يسير إلا ومعه عدد من الأتباع والحراس والمرافقين، فإن هناك حوالـي المائتين من هؤلاء الحـراس المرافقين يمـلأون باحة القصر ومدخل البرزة والسـعيد منهم من يجـد له مكاناً على مصطبـة حجرية في مدخل البرزة ليستريح فيه في حين يظل الآخرون واقفين يتسكعون بسلاحهم الثقيل ينتظرون خروج أسيادهم أو رفاقهم من مجلس السلطان.

وكان منظر الوافدين إلى البرزة والمنتظرين خارجه فرجة وتسلية لنا فقد كان الرجال يأتون البرزة بكامل بزتهم. أي: بالعمامة والجبة[1] والحزام.

وحين يكون العربي داخل منزله فإنه يضع على رأسه الحليق دوماً، غطاءً أبيض صغيراً مصنوعاً من خيوط القطن ومطـرزاً بخيوط ملونة، ولكنهم في الخارج يعتمرون العمائم الكبيـرة التي يحتاج لفها إلى دقة ومهارة خاصتين، قد يسـتغرق إنجازها نصف سـاعة أو أكثر. ولهذا يحرص الرجل على رفع عمته بكل حذرٍ وانتباه.

---

(١) البشت.

وإذ لا يشترط أن يكون قماش العمامة من النوع الغالي، وهو في الواقع لا يكلف أكثر من خمسة أو ثمانية دولارات، فإن قماش المحازم يكلف أضعاف أضعاف هذا الثمن وقد يصل ثمنه إلى المائتي دولار. وهو من الحرير الكشميري الممتاز.

والرجل من علية القوم يمتلك عدداً كبيراً من هذه المحازم وهو يغيرها بين الحين الآخر كما يغير الرجل الأوروبي رباط عنقه. ولا يستثنى من ذلك إلا الشيوخ الطاعنون في السن أو رجال الدين الذين يكتفون بحزام واحد من الحرير الأسود أو الأبيض.

ولا تكمل بزة العربي إلا بالسلاح. وتقوم زوجه أو أخته بتسليمه إليه قبل خروجه من الدار كما سبق لي أن ذكرت ذلك من قبل.

❁ ❁ ❁

وقبل أن يدخل الرجل حضرة السلطان يخلع نعليه بعيداً عن باب الغرفة، ويستطيع المراقب أن يحكم على طبقة الرجل ومكانته من طريقته في خلع نعليه، فالعامة من الناس يخلعونها بعيداً عن باب الغرفة في حين أن علية القوم يخلعونها بعد أن يجتازوا بها عتبة البرزة. وهذه كما قلت من قبل عادة شائعة يتساوى فيها الجميع ويخضع لها الجميع عن طيب خاطر ودون ما شعور بالامتهان أو التحكم.

وحين تمتلأ البرزة بالزوار يظهر السلطان. وكان موكب السلطان أيام أبي يتكون أولاً من صفوف من الحرس الزنوج ثم يليهم عدد من الخصيان برئاسة رئيس الخصيان ويتبعهم السلطان ويحيط به أولاده الكبار حسب أعمارهم ثم أولاده الصغار.

وعلى باب البرزة يصطف الحرس والخصيان صفوفاً متراصة يخترقها

أبي وأبناؤه إلى داخل المجلس فيقف له الحاضرون تحيةً وإجلالاً ولا يجلسون إلا بعد جلوسه أولاً.

وتتكرر هذه المراسم عند مغادرة السلطان مجلسه ويمكث الزوار في المجلس مدة مكوث السلطان فيه، لكن إذا أراد أحدهم الاستئذان من السلطان بالانصراف وكان من كبار القوم ورؤسائهم فإن السلطان ينهض له ويمشي معه بضع خطوات قد تطول أو تقصر حسب مقام الشخص في حين يقف جميع من في المجلس احتراماً.

والقهوة تقدّم عادة في المساء ولا تقدم في اجتماعات النهار إلا نادراً. ويحق لكل فرد أن يتقدم إلى السلطان فيعرض له حاجته أو ظلامته ويجيب السلطان عنها شفاهاً، فأما أن يأمر بقضائها أو يحيلها إلى القاضي أو أحد الحاشية لدراستها وإعلامه بحقيقتها، ويجري كل هذا شفاهاً دون اللجوء إلى وثيقة أو قرطاس.

وتستمر الجلسة ساعتين أو ثلاثاً ثم ينفضّ المجلس ويغادره السلطان في نفس الموكب الذي وصل به إليه. وتؤجل بقية القضايا إلى الاجتماع القابل في مساء نفس اليوم أو في صباح اليوم التالي.

والحضور اختياري لأولاد السلطان الذين تقل أعمارهم عن السادسة عشرة، أما الكبار منهم فحضورهم اليومي إجباري... وكذلك يتوجب الحضور في مجلس السلطان مرة واحدة على الأقل كل يوم على جميع وجوه البلد وأعيانه ولا يجوز الامتناع عن ذلك إلا لأشد الظروف الطارئة. فإذا طال انقطاع شخص ما دون سبب بين أرسل السلطان من يسأل عنه فإذا وجده مريضاً ذهب السلطان بنفسه إلى عيادته، وما من مرض مهما كان خطراً أو معدياً، حتى الجدري والكوليرا ـ يستطيع أن يمنع هذه الزيارة، فلا خوف في الشرق من العدوى فإن الأشياء جميعها مرهونة بإرادة الله.

❁ ❁ ❁

ولكل رجل من أعيان البلاد ووجوهها برزته الخاصة به وتقع في الطابق الأرضي من بيته بعيداً عن دار النساء، وفيها يستقبل زواره وأصدقاؤه.

والعربي لا ينتقل من مكان إلى آخر إلا لهدف محدود فهو لا يعرف الزيارة لغرض الزيارة ولا المشي لغرض المشي أو الرياضة، وإذا رأى العربي أوروبياً يتمشى فوق سطح داره ظن أنه يؤدي أحد شعائر الدين المسيحي، ولا تخطر بباله فكرة الرياضة أو التنزه.

وكما قلت من قبل، فإن زيارات الرجال تماثل زيارات النساء ولست في وضع يتيح لي إعطاء التفاصيل عما يدور في هذه الزيارات ولكن المؤكد أن الأحاديث تتناول مواضيع شتى منها المحلي والخارجي فيجري ذكر ما جرى في مجلس السلطان وتبحث القضايا وتحل المشاكل وتنهى المنازعات والجدير بالذكر أن الأوروبيين مسموح لهم بحضور برزة السلطان وزيارة أعيان البلاد لذلك فهم أكثر خبرة واطلاعاً على هذا الجانب الرجالي من حياتنا منهم على حياة المرأة الشرقية المحجبة.

❁ ❁ ❁

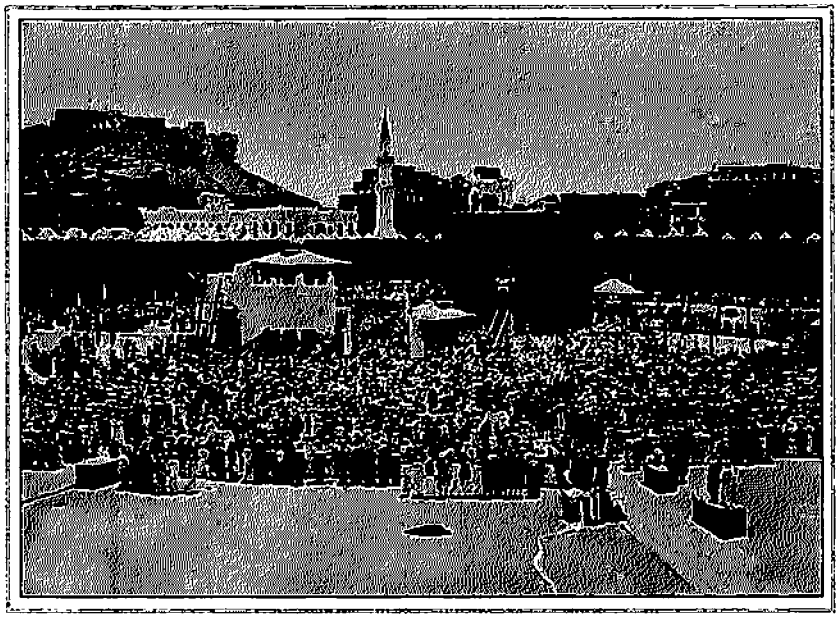

مكة المكرّمة والحجر الأسود الشريف أثناء موسم الحجّ

الفصل الثامن عشر
الصيام والأعياد في الإسلام

للمسلمين ـ ما هو معلوم لدى غالبية القرّاء ـ شهر كامل في كل عام، يصومون فيه؛ أي: يمتنعون فيه عن الأكل والشراب منذ شروق الشمس حتى غروبها طيلة هذا الشهر الذي يسمونه شهر الصيام أو شهر رمضان.

والصيام فرضٌ واجبٌ على كل مسلم ومسلمة متى ما بلغوا الثانية عشرة من أعمارهم. ولكن أمي لشدة تدينها وتقواها قد حملتني على أن أبدأ صيام شهر رمضان وأنا دون التاسعة من عمري، ولم يكن الامتناع عن الأكل والشرب مدة أربع عشرة ساعة في اليوم بالأمر الهين على طفلة في مثل عمري. وإذا كان الجوع محتملاً بعض الشيء فإن المشقة الكبرى هي في احتمال العطش طيلة النهار في تلك المناطق الاستوائية. لذلك فإنني في أول رمضان صمته استرقت بعض الجرعات من الماء أبلُّ بها ريقي الجاف أثناء النهار وقد علمت أُمي بالأمر وسألتني عنه فاعترفت لها مع الخجل والاعتذار فغفرت لي ذنبي على أن لا أعود إليه ثانية وقد وفيت لها بوعدي.

ويبدأ الصيام في الساعة الرابعة صباحاً حيث تعلن طلقات المدافع من سفينة أبي «الرحماني» الراسية دوماً في الميناء، بداية الإمساك حيث يتوقف عند سماعها الجميع عن الأكل والشرب حالاً ومباشرة ولا يجوز بعدها لأي

شـــخص بالغ أن يضع في فمه لقمة طعام أو قطرة ماء حتى غروب شـــمس ذلك النهار.

ويرتفع أذان المغرب عند غياب الشـــمس في الساعة السادسة، وينصرف الناس إلى أداء الصلاة فلا يبدأون الإفطار إلا في الســـاعة السادسة والنصف حيث يبلون ريقهم الجاف بقطرات من الماء البارد المخزون في جرار الطين. ثم تجتمـــع العائلة حول ســـفرة الإفطار. وطعـــام الإفطار فـــي رمضان وافر الكميات متعدد الأطباق شهي الأنواع، وينال الصائمون من الطعام أكبر منال قبل أن ينصرفوا إلى بدء لياليهم الرمضانية الرائعة.

وليالي رمضان في الشـــرق أروع وأجمل من أن توصف، فيجتمع الناس بعد أذان العشـــاء في الجوامع والمساجد ليقضوا قسطاً من الليل يتعبدون في الصلاة والتسبيح وقراءة القرآن والاستماع إلى المواعظ الدينية، ثم ينصرفون إلى مجالســـهم الخاصة حيـــث يســـمرون ويتنادمون وتدور عليهـــم المآكل والمشـــارب بين الحين والآخر، ويســـتمرون فـــي ذلك حتى تعلـــن مدافع الرحماني حلول ساعة السحور وهو آخر وجبة للصائم ويتناوله في غرفة نومه عادة بين الســـاعة الثالثة والرابعة. وينقضي الشهر على هذا المنوال، قيام في الليـــل إلا قليلاً ونوم في أغلب ســـاعات النهار، وفي أول أيام الشـــهر يدرك التعب والأعياء بعـــض الصائمين ويبدو عليهم النحـــول ولكنهم ما يلبثوا أن يعتادوا عليه بالتدريج.

والصيام كما قلنا فرض واجب على كل فرد، وهو رغم شـــدته وقســـوته فرض ينتظره المؤمن بفـــارغ الصبر ويتقبله بكل غبطـــة ورضى ويؤديه بكل محبة وامتنان وإيمان. ورب البيت مسؤول عن صيام أهل بيته وخدمه جميعاً لا يســـتثنى من ذلك إلا عمال المزارع وهم أصلاً لا دين ولا عقيدة لهم فهم أحرار أن صامـــوا أو فطروا، كما يســـتثنى من ذلك الأطفـــال ممن هم دون

العاشـــرة من العمر والمســـافرون والمرضـــى على أن يقضـــي المريض هذا الواجب الدينـــي المحبب إلى النفس بعد شـــفائه من مرضه والمســـافر بعد عودته إلى بيته. وكذلك تعفى النســـاء فترة قصيرة خلال الشـــهر في أحوال طبيعية خاصة على أن يعوضن هذه الفترة بالصيام فيما بعد.

والصيام ليس مظهراً خارجياً؛ أي: عمل امتناع عن الطعام فحســـب، وإنما هو للمســـلم امتحان للنفس وحســـاب لها عما قدمت من خير لتستزيد منه وما اقترفت من ذنب لتســـتغفر عنه، والصيام أيضاً امتحان لـــلإرادة فهو امتناع عن الفعل السيء والقول البذيء وإقبال على عمل الخير والعبادة وفضائل الأخلاق. لهذا فإن صيام رمضان يهدف إلى صفاء القلب وسمو الروح وجلاء العقل.

ويصل الكرم العربي التقليدي في رمضان ذروتـــه حتى ليكاد أن يصبح من شعائر هذا الشـــهر الدينية فيفتح كل امرئ أبواب داره لاستقبال القادمين وإن لم يكونوا من المعارف والأصدقاء، بل إن الناس تسأل أئمة المساجد أن يرســـلوا إليهم كل ليلة مَنْ عندهم من الـــزوار والفقراء ليشـــاطروهم تناول الإفطار. ولا تقتصر هذه الولائم على الفقراء والمحتاجين بل ينضم إليها ذوو اليســـار من الناس أيضاً فما من أحد يســـتنكف أن يقبل الدعـــوة إلى الطعام والشـــراب في رمضان ممن هو أقل منه مقاماً أو ثراءً. ومن الواضح أن أمثال هذه الولائم تبهج قلب العربي المكرام وتثلج بالسرور صدره. وهكذا يجتمع الناس إخوة سواســـية في دين الله وتزول الضغائن والأحقاد وما أســـعد هذا الشعب الذي يجعل الوداد والإخاء فرضاً واجب الأداء.

ولأن العيـــد الصغير أو عيد الفطر يلي رمضان مباشـــرة فـــإن أيام رمضان، والأخيرة منها خاصة تشبه الأيام التي تســـبق عيد الميلاد في هذه البلاد، فترى الجميع منهمكين في إعداد وانتقاء الهدايا للأطفال والأصدقاء والأهل والأقارب وفي جو من الســـرية والتكتم لتأمين المباغتة وزيادة الفرحة عند تقديم الهدايا.

ولطالما تُشاهد النسوة يتسللن إلى سطوح بيوتهن ليعكفن على أنوالهن في ضوء القمر الساطع في الليالي الأفريقيا لحياكة هدية ما يباغتن بها حبيباً أو صديقاً.

وتفضل الهدايا الجاهزة وغالباً ما تكون من الحلي والمجوهرات، وهذه التجارة يتولاها عندنا البانيان الهنود الذين لا يبزهم أحد في الغش والمكر والنصب والخداع وابتزاز المال، كما لا يبزهم أحد في حذقهم في الصياغة. ولذلك تنهال عليهم الطلبات في هذا الموسم حتى تزيد الطلبات على قابليتهم على الإنجاز وهم لا يرفضون منها شيئاً. أما التنفيذ والتسليم فأمر آخر، قد يطول أمده ما طال حبل كذبهم وخداعهم. وكنا إذا أردنا أن نضمن أخذ طلباتنا في وقتها المحدد انتدبنا إثنين من عبيدنا المسلحين ليقيما في باب دكان الصائغ ليضمنا انصرافه إلى تنفيذ طلبنا ومنعه من المراوغة والعمل في تنفيذ الطلبات الأخرى. وهذا إجراء صارم ولا شك وقد ابتكرته إحدى أخواتي ولكنه دون شك أيضاً هو الإجراء الحاسم الوحيد مع هؤلاء المخادعين والغشاشين المماطلين.

وعدا عن المصوغات والمجوهرات فإن الهدايا تشمل السلاح أيضاً، وقد يستغرب القارئ أن تهدي المرأة زوجها أو إبنها أو أخوها قطعة من السلاح في مناسبات الأفراح هذه لكن السلاح عند العربي ليس أداة قتال وحسب، بل هو مظهر رجولة وأداة زينة، فالخناجر والسيوف الدقيقة الصنع المطعمة باللؤلؤ والماس والياقوت أعمال فنية تستحق الإهداء في هذه المناسبات.

ويمكن إهداء كل ما هو غالٍ أو نفيس، فمن الهدايا المفضلة في الأعياد الخيول الأصيلة والجِمَال وكذلك ـ وأرجو أن لا يصدم قولي هذا شعور الأوروبيين ـ العبيد من الرجال والنساء أيضاً.

لذلك فإن الأسبوع الأخير من رمضان مفعم بالحركة والترقب وفي خلال هذا الأسبوع تقع ليلة القدر وهي ليلة مباركة مقدسة عند المسلمين إذ فيها أنزل القرآن أول مرة.

❁ ❁ ❁

وفي نهاية هذا الأسبوع وحين يحلُّ غروب اليوم الأخير من رمضان لا يبقَ للناس من شاغل إلا محاولة رؤية هلال الشهر الجديد. ولا قيمة للتقاويم في هذا المجال، فشهر الصيام لا ينتهي إلا برؤية هلال شهر العيد رؤية العين وليست هذه الرؤية بالشيء العسير في سماء بلدنا الصافية ومع هذا فمن يملك في هذه الحالة منظاراً مكبراً فهو ذو حظ كبير، وهذه الآلة المحسودة تنتقل من يد إلى يد.

وقد كان أبي يرسل بعض الرجال حادي البصر إلى سطح القلعة وهي بقايا آثار الاحتلال البرتغالي للبلاد أو إلى رؤوس الصواري في سفنه لمحاولة رؤية ذلك الخيط الفضي الرفيع الذي تعلقت به أبصار الناس وأفئدتهم وآمالهم.

ويظل الناس في ترقب وانتظار لصوت المدافع التي تعلن رؤية الهلال وثبوت العيد، فإذا ما دوّت المدافع بالبشرى هذه انطلق الناس إلى الشوارع والطرقات في كل أنحاء المدينة في فرح عام وابتهاج شامل يهنئ بعضهم بعضاً بنعمة الله عليهم بإتمام واجب الصيام وحلول العيد السعيد.

والساكنون في الأرياف يرسلون إلى المدينة رسلهم ليعودوا إليهم بالخبر الصحيح، كما يرسلون بعض عبيدهم لتسلق الأشجار العالية بغية رؤية الهلال. وكثيراً ما يخطئ هؤلاء العبيد الرؤية فيتوهمون رؤية الهلال ويعلنون ذلك للناس فيفطر الناس على هذا الأساس ثم تصل الرسل من المدينة بعكس هذه الأنباء وهذا يعني العودة إلى الصيام.

❁ ❁ ❁

وللمسلمين عيدان صغير وكبير، وأولهما العيد الصغير أو عيد الفطر ويلي رمضان مباشرة وقد علمنا فيما سبق أن الاستعدادات له تجري قبل حلوله بأسبوع وأكثر.

إلا أنه ثمة استعدادات لم نذكرها فيما تقدم هي تهيئة الطعام والمؤن لأيام العيد. وعدا عن عمليات الخبز الواسعة النطاق فإن اصطبلات البيوت وباحاتها تمتلأ بأعداد غفيرة من الثيران والأغنام والماعز والغزلان والدجاج والحمام ولن يحرم الفقراء من المشاركة على قدر الحال في هذه المراسم، ذلك لأن الموسرين يجودون بالمال سرّاً عن الفقراء لشراء حاجاتهم من مؤن العيد.

وعلى صوت المدفع الذي يعلن بدء العيد الصغير يصبح بيت المسلم خلية نحل دائبة ومسرحاً لحركة وجلبة وابتهاج وسرور. فكل شخص يذهب إلى بيت كل شخص فتجد المئات من الناس داخلين خارجين بملابسهم الزاهية خالعين عذار المهابة والوقار تطفح على وجوههم علائم البشر والحبور وتمتلأ قلوبهم بأصدق عواطف المودة والأخاء وكل همهم أن يهنئوا بهذا اليوم السعيد أهليهم وأصدقائهم. وفي وسط هذه الأحاسيس الدينية الرقيقة الطاغية ينسى الناس أحقادهم فيتصافح الأعداء ويتصالح الخصوم متناسين ما كان بينهم راجين الله أن يعفو عما سلف منهم وأن يبارك صلحهم الجديد ويجنبهم شطط الرأي في المستقبل.

وفي وسط هذا الفرح تستريح الخادمات من اللعنات التي تنصب عليهم عادة طيلة ساعات الليل والنهار في مختلف الألسنة واللهجات.

ويشمر الجزارون عن أذرعهم ويعملون سكاكينهم الحادة في رقاب الحيوانات المنتظرة بعد أن يذكروا إسم الله عليها. وسرعان ما تنفصل الرؤوس عن الأجساد وتسلخ الجلود وتنظف الأحشاء وتُقطع الذبيحة إلى

قطع كبيرة من اللحم ترسل إلى المطبخ حيث يتلقفها الطهاة لتهيئتها لحفلة الغداء في الغد.

وتبدو ساحة بيتنا في مثل هذه الأيام وكأنها بركة من الدماء لكثرة ما يذبح فيها. وقد يستغل بعضنا هذه الفرصى لإيذاء البانيان والتشفي منهم. فالبانيان الهنود يعبدون البقر وهم بطبيعة الحال لا يستحلون ذبحها وأكل لحومها وهم لذلك يكرهون أعيادنا ويتحاشون الخروج في مثل هذه الأيام تجنباً لرؤية الدماء والذبائح.

ولكن هؤلاء البانيان هم ـ كما قلت من قبل ـ التجار والصاغة الحقيقيون في الجزيرة وبيدهم حركة البيع والشراء. وهم كما قلت أيضاً من أكبر المرابين الجشعين الذين لا يرحمون ضحاياهم ولذلك يحاول بعض المسلمين الانتقام والتشفي منهم أو الاستهزاء والسخرية بهم فيغروهم ببريق الذهب ويرسلوا إليهم من يخبرهم أن إحدى السيدات ترغب في شراء سلعة ما ولأنهم أكثر خلق الله جشعاً وحبّاً للمال فإنهم يتناسون حيطتهم ويهرعون إلى بيت تلك السيدة حيث يتلقاهم العبيد ويرغموهم على المشي فوق الدماء ومسّ اللحوم وهذا عندهم من أكبر الكبائر. وعلى كل ومهما يكن من أمر غشهم وخداعهم في التجارة والمعاملة ـ وهم في ذلك لا يبارون ـ فمن الحق أن أعترف أن عبدة البقر أو النجوم هؤلاء من أشد خلق الله تمسكاً بعقيدتهم الوثنية.

ولا تدع الجلبة والضوضاء للنوم سبيلاً إلى عيون سكان الدار، ولكن ليست الضوضاء وحدها هي التي تبقي السيدات ساهرات أوقات ليلة العيد. وإنما الذي يؤرقهن ويطرد الرقاد من جفونهن هو التفكير في اختيار الثياب والزينة وكيف تستطيع الواحدة منهن أن تبهر الأنظار وتبز الرفيقات غداً وبعد غدٍ وخلال أيام العيد الثلاثة حيث يجب أن تغيّر المرأة لباسها مرة واحدة

على الأقل في كل يوم وترتدي لباساً جديداً في كل شيء من قمة الرأس إلى أخمص القدم.

والعطور في كل مناسبة عنصر هام من عناصر زينة المرأة وتنفق الواحدة من سيداتنا حوالي ٥٠٠ دولار سنوياً على عطورها، وكمية العطور التي تستعملها النسوة أيام العيد تفوق أي تصور أو تخمين ولولا أبوابنا وشبابيكنا المفتوحة دوماً لربما أدت كثرة التعطير إلى الاختناق.

والحناء عنصر هام آخر في زينة المرأة الشرقية، وهو ورق شجر متوسط الطول تستعمله النساء والأطفال لصبغ أيديهم بلون أحمر قانٍ دام. كما يستعمل علاجاً لبعض الأمراض الجلدية الخفيفة كالدمل والنمش والحكة. ولكن ورق الحناء لا ينفع لوحده وإنما يستعمل بعد تجفيفه وطحنه وخلطه بعصير الليمون وبعض الماء ثم يجبل في عجينة تترك في الشمس بعض الوقت ثم تستعمل مع عصير الليمون ثانية لمنع جفافها.

وتوضع الحناء في القدمين واليدين ومن أجل هذا تضطجع المرأة على قفاها وتوضع العجينة بين أصابع قدمها الواحد بعد الآخر، على أن يبقى باطن قدمها نظيفاً لا يمسّ ثم توضع فوقها أوراق طرية وتشد بعد ذلك. وينتقل العمل إلى اليدين فيبدأ باليد اليمنى ثم اليسرى ويقتصر على الأصابع واحداً بعد الآخر إلى أول المفصل الأخير من كل أصبع على أن لا تمسّ الحناء باطن الكف وظاهره وتبقى الجميلة المسكينة على وضعها هذا لا تتحرك ولا تتململ خشية أن يتحرك الحناء من موضعه إلى أماكن أخرى يجب ألا تخضب فإذا ساحت إليها الصبغة فسدت العملية وصار الأمر مخزياً وقبيحاً. وليس لجميلتنا المسكينة من وسيلة ظاهرة للدفاع ضد البعوض والذباب إلا أن تكون من الموسرات فتتولى عبداتها الترويح عنها حتى الصباح حيث يرفع العجين وتغسل الأكف والأقدام ثم يعود العذاب ثانية في

الليلة الثانية والليلة التي تليها فلكي تكون الصبغة حمراء قانية تدوم أسابيع عديدة لا بد من تكرار وضع الطلاء ثلاث ليالٍ متعاقبات.

❁ ❁ ❁

وفي صباح العيد ينهض الجميع في الساعة الرابعة ويبدأون بتسابيح الشكر لله تعالى على ما حباهم من نعمة الصوم وعلى كل ما أسبغ به عليهم من خير أو ما امتحنهم به من بلاء. وبعد انتهاء هذا الابتهال تسرع النسوة المتبرجات في بيتنا إلى الشرفة الكبيرة لعرض مفاتنهن وزينتهن للأخريات فترى هناك عرضاً للأزياء الشرقية والجمال العالمي.

والألوان المفضلة لثياب النساء هي الألوان الزاهية والبراقة وقد لا تستسيغ المرأة الأوروبية الزيّ العربي بألوانه الصارخة كأن ترى الفستان الحريري الأحمر الطويل المخيط بخيوط الذهب والفضة وتحته السروال الحريري الأخضر، وهذا نفس ما حصل لي عندما شاهدت الأوروبيات أول مرة يلبسن الألوان الغامقة ويلائمن بينها. وقد بقيت مدة طويلة قبل أن أقنع نفسي بقبول هذا الزيّ الأنيق.

وفي الساعة السادسة تنطلق طلقة مدفع أخرى وتبدأ تحيات العيد... فكل باخرة حربية أجنبية تصل الميناء تطلق واحداً وعشرين طلقة وكل عربي يشارك ويعلن عن فرحه بإطلاق الرصاص حتى ليخيل للغريب الداخل إلى المدينة أنها في حالة حرب وبعد ساعة تمتلأ المساجد بالمصلّين حتى تضيق بهم وتمتد خارجها صفوف غفيرة من المصلين، والصلاة في الإسلام تتضمن تحريك الجسم قياماً وقعوداً وركعةً وسجوداً والسجود هو وضع الجبهة على التراب خضوعاً وخشوعاً أمام الله، ولا يشترط أن يكون أداء الصلاة في المسجد إلا في المناسبات الدينية مثل أيام الجمع والعيدين ولهذا فإن عوائق

الطبيعة من مطر أو ريح أو غيرها لا تمنع المسلم عن أداء صلاته وهو يفضل أيام الأعياد أداءها في الجوامع أو قربها.

وعلى هذا دأب السيد سعيد فقد كان يذهب وأبناؤه وحاشيته الكبيرة إلى المسجد لأداء الصلاة وتطلق المدافع طلقاتها بانتهاء الصلاة وبعد ذلك يبقى كل شخص حراً ليملأ جوفه بأنواع الشراب والحلويات تعويضاً عما فاته منها في الثلاثين يوماً السالفة.

وكنا نحن النساء ننتظر السلطان في جناحه الخاص عند عودته من الصلاة فإذا دخل المكان نهضنا جميعاً واقفات ثم تقدمنا واحدة بعد أخرى نقبل يده ونلقي إليه بتحية العيد. وأيدي الرجال والنساء من ذوي الجاه والمقام تتعرض في مثل هذه المناسبات لوابل من القبل ولذلك فهي تغسل بين الحين والآخر بالماء والعطور. والنساء يقبلن صديقاتهن في الخدود.

وفي هذا العيد والعيد الكبير تنفتح خزائن أبي ليفرق منها هداياه الكثيرة والنفيسة علينا. ويصطحب أبي معه أختي خولة ورئيس الخصيان جوهر إلى غرفة الكنوز التي تحتوي على أروع التحف وأنفسها مما دق صنعه وغلا ثمنه ومن كل شكل ونوع من المصنوعات الذهبية إلى اللؤلؤ والماس والمرجان ومن الخلاخل والأساور إلى القلائد والتيجان والأقراط ومن النقود الذهبية والفضية لكل الدول الأوروبية علاوة عما تحويه من فاخر القماش وفاخر العطور وكل ما يخطر على البال. وكان ذهاب أختي خولة مع أبيها امتيازاً خص السلطان به أُمها أولاً ثم انتقل إلى خولة، وهو برهان على ما تتمتع به نجمة الصبح من مقام وحظوة عند أبيها السلطان، وإن كانت حظواتها من الظهور بحيث لا تحتاج إلى برهان جديد. لكن هذا الامتياز كان يسبب لخولة الكثير من الإزعاج ويثير عليها موجات الحقد والسخط دون أن

يعود عليها بأي نفع. وكانت تعلم بهذا كله ولا تستطيع له دفعاً وكانت تدعي أنها مكرهة على هذا العمل لا تستطيع أن ترفض أمر أبيها السلطان، ولكنها كانت تسر إليّ بغبطتها وافتخارها بهذا الامتياز... وحق لها ذلك.

ومن المستحيل على أبي أن يعرف ما عند كل واحدة من نسائه وبناته ونساء أبنائه من الحلي والمجوهرات ليهديها غيره أو ما ترغب في الحصول عليه لذلك فقد كان يستطلع الأمر مقدماً بطرق خفية ويستعين بخولة أن تدله أو تذكره بما يجب أن يقدم لكل واحدة منا. وتنقل الهدايا إلى الصالون وقد كتب عليها إسم المهداة إليها ويقوم جوهر بالتوزيع وقد تتقدم له إحدى السيدات بطلب تبديل هديتها وكان يتقبل ذلك راضياً سعيداً.

ولم تكن هدايا أبي مقصورة على أفراد البيت السلطاني من رجال ونساء في بيت المتوني وبيت الساحل بل كان ملزماً أيضاً أن يهدي جميع الرؤساء العرب والأفارقة الموجودين في زنجبار وكل القادمين إليه من عُمان طمعاً في نيله وعطائه وكذلك جميع حرسه وجنوده وموظفيه وربابنة سفنه وملاحيها ونظار مزارعه الخمس والأربعين وإلى كل عبيده البالغ عددهم حوالي الثمانية آلاف عبد. لذلك فإني لأعجب الآن كيف لا تنضب خزائن أبي نتيجة هذا البذل والعطاء وما سبب ذلك على ما اعتقد إلا أن أبي كان مديراً ناجحاً وتاجراً ماهراً.

ويأتي العيد الكبير بعد سبعين يوماً من العيد الصغير، وهو في أكثر مراسمه واحتفالاته وشعائره تكرار لعيد الفطر ويمتاز عنه بمناسبة روحية تطهر القلوب وتسمو بها وهي أداء فريضة الحج إلى مكة المكرّمة وهو فرض على كل مسلم استطاع إليه سبيلاً ولكنه في الواقع أمل كل مسلم وطموحه ومبتغاه، فإذا كتب للمسلم أن يحج إلى مكة ولو مرة واحدة في العمر فقد تحقق له حلم حياته المقدس.

وفي الحـــج يجتمع مئات الألوف من المســـلمين يطوفون بالكعبة وبقبر الرســـول طالبين العفو والغفران والبركة. وبعض النـــاس والمحتاجون منهم خاصة يقطعون المســـافات الطويلة بين بلادهم ومكة مشـــياً على الأقدام أو على ظهور الخيل والحمير والجمال أو يحشـــرون حشـــراً على ظهور السفن تتقاسم مصيرهم رياح البحر وإرادة الله. ولكن ما من خطر أو صعوبة أو عائق في بر أو بحر أو من مرض أو عدوى تســـتطيع أن تصد هؤلاء المؤمنين عن هدفهم المقدس.

والعيد الكبير يقع في اليوم العاشر من الشهر الأخير من السنة الإسلامية ويستمر من ثلاثة إلى ســـبعة أيام وعلى كل مسلم قادر أن يضحي بهذا العيد بذبيحة تُـــوزع لحومها على الفقراء ولهذا سُـــمي بعيد الأضحى، والشـــريعة تقضي أن تكون الذبيحة سليمة خالية من كل العيوب وليس لصاحب الذبيحة أو أفراد عائلته أو خدمه أن يحتفظوا بقطعة منها وإنما يجب أن تُوزع جميعها على الفقراء والمحتاجين. ولم يكن من الميســـور الحصول على هذه الأغنام في مدينـــة زنجبار بل كنـــا نأتي بها مـــن الأرياف حيث يســـوم العبيد ثمنها أضعاف مضاعفة.

وتقضي شريعة الإسلام أن يتنازل المسلم عن ربع عشر ما يتبقى لديه من ريع زراعته أو إيجار بيوتـــه أو ربح تجارته أو أي دخل يدخل إليه. وأكثر من هذا فإن ما لديه من الذهب والفضة والأحجار النفيسة يجب أن يقيم من قبل خبير ويعطي ربع عشر قيمتها للفقراء وهي ضريبة دخل وضريبة عقار في آنٍ واحد. ويطلق عليها الزكاة وتتم هذه العملية بدون قوانين أو تشـــريعات من السلطان وإنما هو أمر الله والرسول وهو واجب الطاعة وعلى كل فرد أن يقوم به من تلقاء نفســـه دون تعليق أو نقاش أو ضجـــة وضوضاء بل يجب أن يتم الأمر بالسر بحيث لا تعرف يُسراك ما أعطت يُمناك.

ويؤدي الناس هذه الضريبة بمنتهى الدقة وعن طيب خاطر إبتغاء مرضاة الله وراحة الضمير، وهذا النظام فريد من هذه الناحية، ناحية عدم التهرب من الدفع لذلك فيصحّ اعتباره أحسن نظام ضرائبي في العالم. لكن غياب التنظيم الدقيق في توزيع هذه الضريبة الاختيارية خلق في بلاد المسلمين أفواجاً كبيرة من الشحاذين وليس جميعهم بالضرورة من الفقراء المحتاجين بل أن بعضهم يملك في الواقع أكثر مما يكفيه، وإنما أصبحت الشحاذة عند هؤلاء مهنة واحترافاً لا يستطيعون عنها فكاكاً. وفي بعض الأحيان تنتقل الشحاذة كمهنة بالوراثة إلى الأبناء فغالباً ما تسمع بعضهم يقول: هل تعرفني؟ أنا ابن (أو بنت أو أخت أو إلخ....) فلان الفلاني الذي كنت تعطيه أو تعطيها عندما كان (أو كانت) على قيد الحياة وأنا الآن مكانه أو مكانها لذلك فإذا كان عندك ما تعطيه فأرجو أن ترسله إليّ.

وحينما نريد أن نؤدي النذور والتي تحدث عدة مرات في السنة فإن هؤلاء الشحاذين يتجمهرون علينا لينالوا نصيبهم من الخيرات. أو إذا كان أحدنا مريضاً فأنهم يتلقفون الواقعة وينتصبون تحت الشبابيك طالبين كذا وكذا من كذا وكذا من الأشياء ليرسلوا أدعيتهم لشفاء المريض.

والعطاء لا يقف عند حدود العيدين فالذين يمنعهم المرض أو السفر عند حضور التوزيع في العيد لا يتنازلون عن حقهم أبداً، وقد تمضي أسابيع وأشهر على العيد وقد يقارب العيد الثاني... ومع هذا يأتون إليك يطالبون بهداياهم من العيد الماضي.

هذه هي أعيادنا الرسمية ولكن السنة لا تخلو من مناسبات خاصة كالولادة، والزواج والختان حيث يحتفل الناس بها ويتبادلون التهاني والهدايا ويحيون الولائم والحفلات.

❁ ❁ ❁

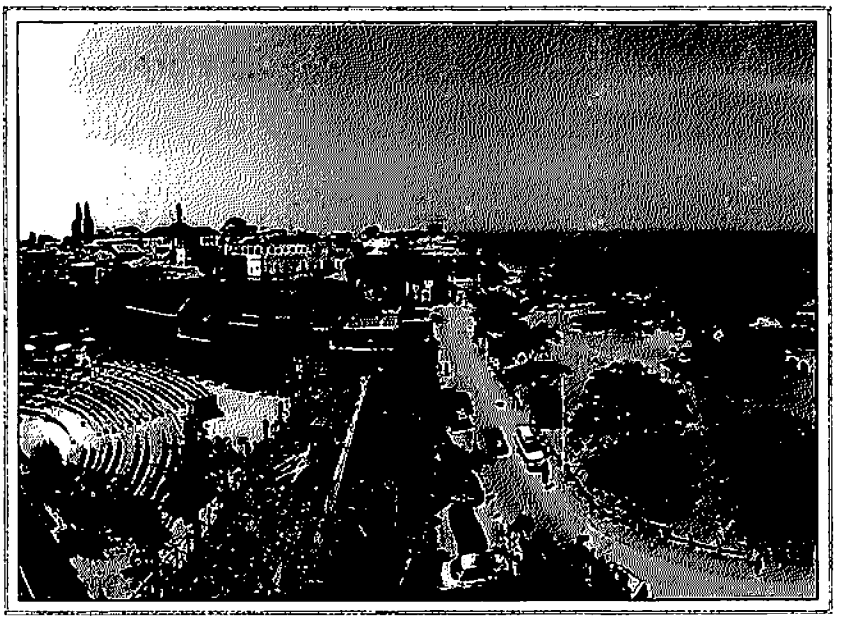

منظر جانبي لمدينة زنجبار

يولد الناس في بلادي ويعيشون ثم تنتهي آجالهم دون أن يهتموا بالصحة وقواعدها ودون أن يعرفوا العناية الطبية. والناس عندنا لا تلجأ للعلاج إلا في المرض العضال والحالة المستعصية وما علاجهم في هذه الأحوال إلا الشعوذة والدجل.

والعلاج الرئيسي العام هو الفصد أو الحجامة. وكان هذا هو العلاج لكل مرض من الجدري إلى الكوليرا وما بينهما، وكان الاعتقاد أن نزيف الدم هذا لا يشفي من جميع الأمراض فحسب، بل إنه وسيلة وقاية أيضاً. وعلى هذا الأساس فإن غالبية الناس، وحتى الأصحاء الأقوياء الذين لا يشكون من ألم، يسلمون أنفسهم إلى مشرط الحجام مرة واحدة على الأقل في كل عام، لينظف دمهم وتقوى أجسامهم ويكتسبوا المناعة والوقاية من الأمراض، كما كان يفعل الناس ذلك في أوروبا في قديم الزمان.

ولا أعرف بالضبط مدى الفائدة الصحية لهذا النوع من العلاج، ولكن حتى مع التسليم بفائدته الصحية فإن طريقة تنفيذه لا تخلو من مخاطر أكيدة تحملها يد الحجام القذرة أو أداته القديمة أو قلة خبرته، وقد رأيت مرة في إحدى ممرات بيت المتوني الكثيرة إحدى أخواتي مطروحة دون حراك

فظننتها قد ماتـــت فملأت الجو صراخـــاً اجتمع على أثـــره القوم من حولي ونقلوا أختي إلى فراشـــها وكان قـــد أُغمي عليها من كثرة مـــا نزف من دمها نتيجة الفصد.

والتدليك علاجنا الثاني وهو أمر ممتع ونافع والضرر منه معدوم. وكانت خادماتنا خبيرات في هذا الشـــأن وكنا ـ كما قلت ذلك من قبل ـ ندخل عالم النوم ونخرج منه على لمسات رقيقة من أصابعهن المتدربة على هذا الأمر.

والقيء علاج شـــائع فـــي بلادنا يتم بتنـــاول بعض الأعشـــاب الكريهة المطبوخة بحيث أن مجرد اقترابها من الأنف يؤدي إلى النتيجة المطلوبة.

أما في حالات المرض الشـــديد فليس لنا من علاج إلا رحمة الله نطلبها بالدعاء وتلاوة آية الذكر الحكيم أو بكتابة الأدعيـــة. والأدعية هي آيات من القرآن الكريم يكتبها رجال من أهل الورع والتقوى بماء الزعفران على صحن أبيض ثم يغســـلون الكتابة بماء الورد فيصبح الدعاء شـــراباً ســـائغاً يشـــربه المريض ثلاث مرات في اليوم مع وجوب الحذر الشـــديد من أن تنســـكب قطرة من هذا العصير الغالي على الأرض فيبطل مفعوله. وقد جربت بنفسي هذا الدواء لعدة أسابيع أثر أصابتي بحمى خبيثة.

وفي حالات نادرة جدّاً حين يشتد المرض على مريض عزيز على الوالد، فقد يستدعي «مطبب» على المريض، وأقول مطبب لأن هذا الرجل قد يكون طبيباً حقاً أو أن يكون مجرد دجّال مشـــعوذ، واذكر في هذا المجال أن أختي خولة ظلت أمداً طويلاً تعاني من ألم شـــديد مزمن في أذنها فلما اشتد عليها الألم استدعى لها أبي «حكيماً» فارسياً مشـــهوراً، ولأني كنت صغيرة آنذاك فقد ســـمح لي بحضور المعاينة الطبية. وقد جاءت خولة ملفوفة من أعلاها إلى أسفلها في عبائتها السوداء لا يظهر منها شيء إلا أذنها المريضة وجلست

على كرسي معدٍّ لها وقد وقف أبي عن يمينها وأخي خالد عن يسارها وتحلق حولهم إخوتي الآخرون بلباسهم الرسمي وبكامل أسلحتهم.

ثم أدخل الطبيب الغرفة محاطاً بعدد من الخدم والخصيان في حين انتشر عدد كبير آخر منهم في أنحاء الدار ليبعدوا أية أنثى عن طريق هذا الحكيم الفارسي. ولم يكن هذا الحكيم ليجرأ بالطبع على توجيه الكلام إلى المريضة مباشرة، بل كان يوجه اسئلته ويتلقى أجوبته عن طريق أبي أو خالد.

وفي مرة ثانية، وفي تاريخ متأخر جدّاً، أصبتُ بالتيفوئيد، وبعد أن فشلت كل محاولات العلاج معي، قررت عمتي عائشة أن تستدعي لي طبيباً أوروبياً. وكان أبي قد توفي في ذلك الحين وأصبحت إلى حدٍ كبيرٍ سيدة أمري، لذلك فلم تتكرر مراسيم العيادة التي جرت لخولة.

وقد كنت في الواقع فاقدة الشعور فلم أحسُّ بما جرى ولكن عمتي روت لي بعدئذٍ قصة ما حدث، فإن الطبيب الأوروبي رغم علمه التام بالتقاليد العربية فإنه أصرّ على أن يجس نبضي مما اضطر عمتي التي كانت جد قلقة عليّ، على الموافقة على ذلك. ومع هذا فقد كان لفيف من الخصيان يحرسون المكان ويحيطون بنا في الغرفة، وكان عليّ، كما كان على خولة، أن أحضر إلى الطبيب ملفوفة لفاً محكماً بحيث لا يمكن لأحد أن يميّزني. ولما طلب الطبيب المداوي أن يرى لساني نهره جوهر رئيس الخصيان على هذا الطلب الوقح السفيه، مما اضطر تلميذ بقراط إلى الانسحاب من القصر في الحال لإهانته في كرامته المهنية.

والعرب لا يميّزون بين الأمراض ولا يعرفون من أصنافها غير صنفين اثنين «أوجاع البطن» و«أوجاع الرأس» ويدخل تحت الصنف الأول كل

أمراض المعدة والكبد والكليتيـــن والقلب، ويقع تحت الصف الثاني قائمة طويلة بكل أعراض الآلام التي تصيب الرأس ســـواء كانت صداعاً أو ضربة شمس أو التهاباً بالســـحايا الدماغية. والعربي لا يعرف شيئاً البتة عن أصل المرض أو ســـببه فإذا عجزت العقاقير المحلية عن شـــفاء المريض، أرسل أحد الخـــدم إلى طبيـــب القنصلية يطلب منهـــا بعض العقاقيـــر للمريض، والفشـــل نصيب هذا الطبيب وعقاره حتماً، فهو لم يكشـــف على المريض ولم يعطى إلا معلومات عامة غامضة عن طبيعة المرض، لهذا فلا غرابة بعد هذا فـــي أن يصف العلاج الخاطئ أو على أحســـن الأحوال علاجاً في غير محله.

والحمية أمر غير مسموع به في بلادنا، فالمصاب بالحمى أو الجدري أو الكوليرا أو التيفوئيد يقدم له كل ما يزخر بـــه المطبخ من أنواع الطعام إذا ما اشتهى أو طلب من ذلك شيئاً. فالافتراض هو أن كل ما تشتهيه وتطلبه البنية فهو جيد لها.

والاعتقاد بالقدر يعمي المســـلم عن أخطار الأمـــراض المعدية، فلا أحد يفكر في عـــزل المصابين بالجدري مثلاً. وحين انهـــدم الحمام الذي ذكرت موقعه في الممر الواصل بين بيت الســـاحل وبيت الثانـــي تحول إلى مكان للنفايات، ولما اشـــتدت الحاجة إلى مســـاكن إضافية فقد بنيت مكانه بيوت جديدة، فأصبح سكانها يعيشون فعلاً فوق الأوساخ.

ومن المؤســـف أن الجدري كان يكتســـح جزيرتنا في غـــزوات متكررة يحصد فيها ألوف الضحايا في كل مرة، وكان العبيد يلطخون جسم المصاب بكامله بالدم ثم يتركونه في الشـــمس، وقد يســـتعاض عن الدم بحليب جوز الهند. حين يكتســـي جســـد المريض بالقروح بحيث لا يتحمـــل بعدها أن يلامس الفـــراش، ينام على حصيرة من القش أو علـــى أوراق كبيرة من ورق

الموز بعد أن تستخرج منها الأجزاء الصلبة. ويمنع عنه الماء نهائياً، ولكن ما من أحد يفكر في معالجة أصل الداء.

ولسوء الحظ فإن الدرن الرئوي لم يكن بالزائر النادر في جزيرتنا، وهو أيضاً لا يحظى بأي معالجة مهما كانت على كونه من أخطر الأمراض وأشدها فتكاً وأكثرها عدوى، ويخاف الناس هذا المرض خوفاً كبيراً، ويعتبر المصاب بالسل منبوذاً يتجنب الناس مصافحته ومجالسته والشرب والأكل معه أو من الأقداح والصحون التي شرب وأكل فيها.

وأذكر إن إحدى جواري أبي الشابات الجميلات قد أصيبت بهذا المرض إصابة خطرة، وكانت حين تستطيع أن تترك فراشها تذهب لزيارة صديقاتها، ورغم صغر سني آنذاك فقد كنت ألاحظ علائم عدم الترحاب ترتسم على وجوه الصديقات. وكان هذا التصرف يؤلمني وكنت أحس بالعطف نحوها فلما اشتد بها مرضها ولزمت فراشها كنت أذهب إليها سراً لأعينها وأسري عنها وكان لها ولد واحد ولم تكن لها بنت لتعتني بها.

وقد لقي عدد غير قليل من أفراد عائلتنا نحبهم في مقتبل حياتهم بهذا المرض الوبيل وكانت مخلفاتهم وحاجاتهم تعامل معاملة خاصة فكانت ملابسهم وفرشهم تُغسل على ساحل البحر وتُترك تحت شمس الاستواء أياماً، أما الذهب والفضة ومخلفاتهم من المعادن كالساعات والخناجر والسيوف فكانت تُغسل بالماء المغلي أو تُسخن على النار إلى درجة تكفي لتعقيمها.

والسعال الديكي مرض شائع بين أطفالنا شيوعه بين أطفال هذه البلاد، ويشرب أطفالنا لعلاجه عصيراً مستخرجاً من ورق الموز وتتكفل الخرافات بالبقية فيؤتى بقشرة يقطينة جافة وتقطع إلى حلقات مدورة تعلق في رقبة الطفل المصاب.

وكان عــلاج الدمل والبثــور في تغطيتها بقشــور البصل بــدل المرهم والرباط.

وكانت الوصفــات المحلية تجــرب جميعها الواحدة بعــد الأخرى. أما العلاج الطبي الصحيح فلا وجود له البتــة. وفي مثل هذا الحال، حال غياب العلم وإطباق الجهل فلا عجب أذا اشتد الطلب على المنجمين والمشعوذين وراج سوقهم وعلت أجورهم. وكانت مستشارتنا الأولى في حالات المرض بصارة عجوز عوراء من أهالي حضرموت.

وكانت عدة عملها عبارة عــن كيس جلدي قذر يحوي أدوات ســحرها وعملهــا ولم تكن تتعــدى بضع أصداف بحريــة وعظام حيوانــات صغيرة كالفئران والعصافير ثم قطع زجاج وفخار وبعض المســامير المصدية وقطع نقود فضية ونحاسية.

وعندما كنا نســألها جواب أمر ما، تبــدأ بدعــوة الله لهدايتها إلى جلاء الحقيقة ثم تهز حقيبتها وتطرح محتوياتها علــى الأرض أمامها. وعلى ضوء مواقع هذه النفايات تتنبأ بشفاء المريض.

ويبدو أن الحظ كان يعمل إلى جانبها فكثيــراً ما اتفقت نبوأتها مع واقع الحال مما رفع من قدرها وأنمى تجارتها وزاد في أرباحها، وكانت كل نبوءة ناجحة تجلب إليها عطاء أكثر.

وكانت الإصابات الخارجية أهون أمراً وأســهل علاجاً، فالرماد الحار أو أغطية الصوف مثلاً توقف الجرح النازف ولكن الأمر يختلف كثيراً مع كسر العظام، كما تعلمت ذلك بثمنٍ غالٍ. فقد كنت صغيرة جدّاً ولهذا غير مؤهلة للجلوس إلى سفرة السلطان، ولذلك فقد أرسل إليّ السلطان صحناً به بعض الحلوى فركضت من شــدة فرحتي لأخبر أُمي به فزلت بي القدم على السلم

ووقعت أرضاً وانكسر عظم ذراعي الأيسر. وقد لفه لي كل من أخي برغش وعمتي عائشة ولكن العظم لم يلتئم بطريقة صحيحة وما زال أثر ذلك واضحاً في ذراعي يذكرني دوماً بحاجة أبناء بلدي إلى الأطباء والجراحين.

وكان السحر، أو الحسد والإصابة بالعين سبباً رئيسياً لكثير من الأمراض. فقد كنت في حدود الخامسة عشرة من عمري، فارتديت يوماً ما فستاناً حريرياً جديداً زاهي اللون، فأصبت في اليوم الثاني بالتهابات جلدية قوية سرعان ما شخصها القوم بأنها إصابة من عين حسود وعلاجها أن أخلع الفستان الجديد لأتجنب مصدر الداء. ولكنني لم أكن أؤمن بمثل هذه الخرافات قط، فأصررت على الاستمرار بارتداء الفستان ولكن الالتهابات زادت وصحبتها حمّى عالية ألزمتني الفراش أياماً واضطرتني إلى ترك فستاني الجميل الذي ما أن خلعته حتى بدأ الداء بالزوال.

وأنا لا أذكر هذا المثال برهاناً على صحة الإصابة بالعين، بل ربما كان سبب مرضي لا علاقة له بالفستان، أوربما كان لجسدي بعض الحساسية ضد بعض أصباغه.

❁ ❁ ❁

ومما يتصل بهذا الموضوع من قريب أو بعيد، النذور. فقد كنا نعتقد أن لبعض الينابيع قوة سحرية لا تستمدها من مائها وإنما من الأرواح الخاصة الساكنة حولها والتي تستطيع أن تعمل المعجزات ـ فهي تشفي المريض وتعيد الغائب وتجمع بين الحبيبين تهب الأولاد للعاقر وأشياء كثيرة أخرى.

وكان الينبوع المفضل في زنجبار هو عين شمشم وتقع على بُعد أميال من المدينة وكانت تزار من كل الطبقات ولشتى الأغراض الصحية والعاطفية.

ومن بساطة النذور المقدمة لهذا الينبوع يستطيع الزائر أن يعتقد حالاً

بقناعة الروح الذي تسكنه وبساطة مطالبيها وكان نذورها المفضلة هي الحلوى والعطور والبخور، ونحر الخراف.

وللنذور شروط ومراسم، فيجب على الروح أن تؤدي واجبها ضمن فترة معينة من الوقت وإلا سقط حقها في النذور وبالعكس فإن على صاحب النذور أن يعجل بالوفاء بنذره وإلا تعرض لانتقام الروح وعقابها.

وكنت أخرج مع أهلي إلى هذا العين كلما خرجوا إليها لوفاء نذورها وكنا نخرج إليها جمعاً كبيراً من النساء والعبيد والخصيان، ومن أول الفجر ولا نعود منها إلا بعد هبوط الظلام. وكان السفر نوعاً من الرياضة والنزهة في الهواء الطلق، تعود على أجسامنا الكسولة ببعض الحركة والنشاط، وتعود زيارتنا على أهل المنطقة بالخير والعطاء وعلى الأرواح الطيبة ساكنة الينبوع بالشكر ووفاء النذور.

❁ ❁ ❁

وأخيراً فلا بد من الكلام عن شخصية هامة في عالم الطب والعلاج، بل وفي كل مناحي الحياة ـ هي شخصية الشيطان الرجيم.

فقد كان من نتائج غلبة الجهالة والظلام على العقول اعتقاد أكثر الناس بالأرواح الخيرة والشريرة وسكناها الأجساد البشرية، فما يكاد الطفل منا يولد حتى يتقمصه الشيطان ويسكن جسده، فإذا بكى الطفل أو صرخ أو جفاه النوم ولم يعرف سبب واضح لذلك فالسر هو ركوب الشيطان له والواجب طرده من الجسد حالاً وأبسط الطرق لهذا الطرد هو تعليق قلادة من رؤوس الثوم ورؤوس البصل الصغيرة حول عنق الطفل وهي لعمري طريقة مجدية وأكيدة المفعول فلو كان للشيطان أنف يشم لما ظل لحظة واحدة في ذلك الجسم.

وكلا الجنسين معرضون للمس الشيطاني ولكن النساء أكثر تعرضاً له من الرجال، والحبشيات منهن أكثر تعرضاً له من غيرهن. وأعراض هذا المرض هو الانتفاضات العصبية، والشحوب والذهول وفقدان الشهية للطعام والميل إلى العزلة والظلام وغير ذلك من الأعراض السوداوية.

وهناك حفلات ومراسم غامضة غريبة يجري اتباعها للتحقق من دخول الشيطان جسد المرأة أو لمحاولة إخراجه منها، وتجري هذه الحفلات في غرف مظلمة قد امتلأت بدخان البخور وروائحه، وتجلس المريضة وسط حلقة من أهلها وقد لف وجهها ورأسها لفاً محكماً بحيث لا يخترقهما النور. ويحضر الحفل عادة مجموعة من النسوة اللواتي ثبت إصابتهن بالمس الشيطاني من قبل، ويتحلقن حول المريضة ثم يبدأن جميعاً بهز رؤوسهن وهن يغنين أغنية غريبة غير مفهومة أكثرها الغاز وطلاسم، ويدار على الحاضرات شراب حلو المذاق مصنوع من الحنطة والتمر، وتحت هذه المؤثرات تروح المريضة في سبات وتبدأ بالهذيان بكلام غير مفهوم وهي ترتجف ويخرج الزبد من فمها تتلوى بجسمها على الأرض.

وهذه علامة المسّ الشيطاني. فالروح قد ملأت جسمها، ويبدأ المتفرجون يكلمون هذه الروح ويسألونها عن طبيعتها وعما تريد، إذ أن هناك أرواحاً خيرة تسكن أجسام البشر لحمايتهم وهدايتهم كما أن هناك أرواحاً شريرة تسكنهم بقصد الأذى والشر، ولا يستبعد أن تسكن الروحان معاً جسد شخص واحد في وقت واحد والويل حينذاك لهذا الجسد الممزق بين الروحين المتصارعين.

والعرافات المتمرسات يستطعن طرد الروح الخبيث بالتعاويذ والأدعية، في حين يعقدن مع الأرواح الخيرة صلحاً ينظمن بموجبه أوقات زيارة تلك الروح لجسد المريضة.

ويتعلق بهذه الخرافات الجنونية عادات أخرى أشد وحشية وقساوة وهي أن بعض الأرواح لا تخرج من أجسام أصحابها إلا بالقرابين والنذور، لذا تذبح الأغنام والطيور أمام المريضة ويطلب إليها أن تشرب من دمها الحار وتأكل من لحمها النيء، فلا عجب بعد هذا كله أن يتردى الحال وتصل المريضة إلى شفا الجنون والدمار.

والملاحظة الغريبة في هذا الشأن هو ضعف المقاومة تجاه هذه الخرافات، وقوة سيطرتها على العقول وسرعة تغلغلها وانتشارها بين الناس. ومن الأمثلة على ذلك إن أهل عُمان يستنكرون هذه الخرافات الشائعة في جزيرتنا ويرفضونها وحين تأتي إلى زنجبار إحدى قريباتنا العُمانيات ويصل إليها خبر هذه الخرافات فإنها تستنكرها وتشمئز منها وتضيق بالحياة معنا لأنها تنظر إلينا نظرتها للزنوج المتوحشين. ولكن هذه الزائرة وأمثالها سرعان ما تقع صريعة هذه الأفكار التي اشمئزت منها وتصبح مؤمنة بها كل الإيمان وتمارسها شأنها شأننا تماماً.

وأكتفي بهذا القدر عن هذا الموضوع. ولا بد لي في ختام هذا الكلام من القول بأنني أعتقد إن من الأفضل للعالم المسيحي أن يرسل إلى زنجبار طبيبات بدل البراندي والمشروبات المسكرة المحطمة للروح والمفسدة للأخلاق. وإني لأعجب من أمر الغربيين ولا أدري لماذا يجب أن تقترن المدنية عندهم بالرذيلة.

إن هذه فرصة طيبة لإظهار الحب الأخوي المسيحي ـ إن وجد ـ بصورة مادية محسوسة، والصعوبات ضد تحقيق هذه الفكرة ليست بالشيء الكثير. ولا يشترط لإنجاز هذه الفكرة نجاحها من الوجهة المالية، فهي عمل خيري إنساني لا يقصد به الربح. إنما العامل الأول في إنجاح عمل البعثة أن تكون الطبيبة والممرضات نساء فالنساء يفضلن الطبيبات على الأطباء حتى في

أوروبا، ومجال نجاح الطبيبـــة المرأة في زنجبار عشـــرة أمثال نجاح الرجل فيها، فهي تستطيع بأيســـر الجهد، بالرقة والبشاشة والعطف والعمل الصالح أن تكســـب ثقة المرأة العربية وودها وهذا أول الســـبيل إلى نجاحها كرسولة طب ورسولة حضارة.

❁ ❁ ❁

نقل الفواكه إلى مدينة زنجبار

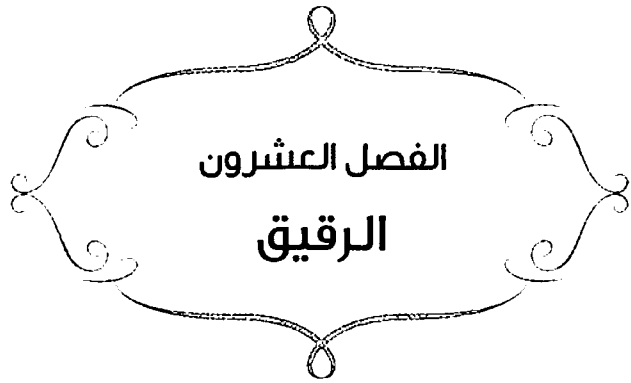

الفصل العشرون
الرقيق

الكلام عـن الرق والرقيق من أشـد المواضيع حساسـية وأكثرها مدعاة لاختلاف الـرأي هذه الأيام. وإننـي لأعلم مقدماً بأنني لا أسـتطيع أن أقنع جميع أصدقائـي وقرائي بالتسـليم بوجهة نظري ولكنني مـع هذا أرى من الواجب عليّ تبيان وجهة نظري هذه بكل صراحة وتفصيل.

والغريب في الأمـر هو الجهل السـائد بيـن الناس حـول الموضوع، فالكثيرون من المتحمسـين له يجهلون عناصره الرئيسـية، بل حتى أولئك المشـتغلون بالموضوع فإنهم يتجاهلون دوماً حقيقة واقعـة ناصعة وهي أن إثارة موضوع الرقيق وإظهاره للوجود لم يكن سـببه العواطف الإنسانية عند الفرد الأوروبي فحسـب، بل كان للعوامل والألاعيب السياسية أثر كبير في بعث الأمر والتهويل به.

كنت ما أزال طفلة بعد، حين حل الموعد المضروب الذي حددته إتفاقية عقدت بين الإنكليز وأبي السـلطان السـيد سـعيد والذي يجـب فيه حالاً ومباشرة تحرير عبيد جميع الرعايا البريطانيين المقيمين في زنجبار.

وكان هـذا القرار شـديد الوقـع على الرعايـا البريطانييـن، وبضمنهم

الهندوس والبانيان، مالكي العبيد في زنجبار والذين اشتكوا منه مر الشكوى وأرسلوا إلينا زوجاتهم وبناتهم يطلبن منا الرحمة والعون ولكن لم يكن في أيدينا أن نتدخل في هذا الأمر وأن نعمل لهم شيئاً ذا بال.

وقد كان البعض من هؤلاء الرعايا البريطانيين يملك المئات من العبيد الذين يشغلهم في إدارة مزارعه، ومعنى تسريحهم جميعهم في يوم واحد توقف العمل في مزارعه وانقطاع موارده ثم دماره دماراً تاماً. وعدا عن هذا فقد كان من نتيجة قرار التسريح الكامل والمباغت ظهور مشكلة كبيرة هي تعكير الأمن في جزيرتنا الهادئة الجميلة التي امتلأت بغتة بالألوف من اللصوص والمتسكعين والعاطلين عن العمل. فقد كان معنى التحرير لهؤلاء العبيد المعتقين هو التحرر التام عن أداء أي عمل، ثم حرية النهب والسطو وتجربة قدرتهم على اغتصاب الطعام والسكن من الآخرين.

لكن مرارة واقعهم الجديد سرعان ما أيقظت هؤلاء الأطفال الكبار من نشوة أحلام الحرية والتحرر، فقد وجدوا أنفسهم ولأول مرة في حياتهم، بلا قوت ولا موارد البتة. وقد تخلّى عنهم الجميع وبضمنهم الإنسانيون، رُسل مكافحة الرقيق. فقد ظنَّ هؤلاء أنهم قد أدّوا أمانتهم وأنجزوا رسالتهم فقد جاهدوا مُرّ الجهاد لتحرير هؤلاء العبيد ونجحوا في مسعاهم فلم يعد لديهم ما يربطهم بهم أو ما يستطيعون تقديمه إليهم، باستثناء ما كانت تقوم به زوجاتهم ـ الإنسانيات مثلهم ـ من حياكة الجوارب الصوفية السميكة وتقديمها للحفاة من سكنة خط الاستواء، أما ما عدا ذلك فعلى حاكم البلاد أن يتصرف كما يريد مع هذه العصابات السائبة العابثة بالأمن والعازفة عن كل عمل، والعزوف عن العمل وحب الراحة والاسترخاء طبع أصيل في الزنوج يعرفه عنهم كل من زار البرازيل أو شمالي أمريكا أو أي بلد آخر

يسكنه الزنوج، فهم على الرغم من صفاتهم الطيبة الأخرى فإنهم لا يقدمون على الإتيان بعمل ما لم يقسروا عليه قسراً.

وأعود للقول إن منع تملك العبيد من هذا التاريخ المعين كان قاصراً على الرعايا البريطانيين فقط. والسبب كما كان يراه أبي هو أن بريطانيا تستطيع أن تمنع رعاياها عن مزاولة ما تعتقد أنه خطأ، ولكنها لا تملك الحق في أن تفرض رأيها وإرادتها على حكومة بلادنا، لهذا فقد ظل الرقيق، وما زال، سائداً في زنجبار وفي جميع البلدان الإسلامية الشرقية.

على أن وضع الرقيق في الشرق الإسلامي ليس كوضعهم في شمال أمريكا فالواقع أن الإسلام حقق للرقيق حقوقاً وامتيازات ووضعاً قانونياً واضحاً حدد فيها حالات التملك وحالات العتق.

وهنا يجدر التمييز بين تملك الرقيق وبين تجارة الرقيق، والأخيرة هي الحافلة بالشرور والأسواء المثيرة للشكوى والضجيج، فقد دأب تجار الرقيق على التوغل في غابات أفريقيا وأدغالها لصيد العبيد وجمعهم، فيأخذون هؤلاء المساكين من بيوتهم ومن ثم يقسرونهم على قطع الطريق الطويل إلى ساحل البحر مشياً على الأقدام فيموت العشرات منهم صبراً وعطشاً وإعياءً ويتعرضون لشتى المتاعب والأهوال، ولكن هذ ما يحدث أيضاً لتاجر الرقيق نفسه المرافق لهم، فيتعرض لمثل ما يتعرضون له من الأخطار والصعاب لذلك فلا موجب أو مبرر للظن بأن التاجر يتعمد اختلاق المتاعب لقافلته من العبيد ذلك لأن هؤلاء المخلوقات هم سلعته وتجارته وأن القافلة هي كل ثروته ورأس ماله، لهذا فإن من مصلحته الإبقاء على العبيد أحياءً سالمين ليتسنى له بيعهم في الأسواق، فإذا ما وصلت القافلة هدفها تبدأ العناية الكاملة بأفرادها، وصحيح أن عليهم أن يعملوا مجاناً ولكنهم في مقابل ذلك

معفوون من القلق على قوتهم اليومي، واثقون من العناية بهم، فأسيادهم يريدون لهم الصحة والخير.

والزنوج قوم محبون للراحة كسولون جدّاً لا يمكن أن يقدموا على عمل مهما قلَّ ما لم يقسروا عليه قسراً ولن يؤدوه حق أدائه ما لم يراقبوا رقابة شديدة صارمة.

ثم إن سوء النشأة وفساد التربية قد جعل بين الزنوج الكثيرين من المجرمين العابثين بالأمن كاللصوص المشردين والسكيرين والنشالين.

فما الذي يجب عمله تجاه قوم هذا طبعهم وهذه تربيتهم؟ طبعاً لا بد من عقابهم عقاباً مؤثراً مفيداً وإلا فإن غض النظر عنهم معناه تشجيعهم واستشراء فوضاهم، فما هو هذا العقاب المجدي؟

ليس هو السجن بالتأكيد. فما أصدق ما يرحب هؤلاء بالسجن ويرغبون فيه. فهو مكان بارد ظليل يقيهم شر التشرد في الطرقات ليل نهار، ويمدهم بالأكل والشرب ليستردوا ما خسروه من قواهم وليستعدوا لمزيد من الأعمال العدوانية حال خروجهم من السجن.

فهل من علاج أنجح وأنفع من العقاب الجسدي؟ لكن هذا النوع من العقاب يثير السخط والاحتجاج في بعض الأوساط الأوروبية التي تتمسك بالأفكار النظرية المجردة دون النظر في حقائق الأمور العملية.

لا شك أن الضرب عمل غير إنساني والقسوة مهما تنوعت أشكالها عمل ممقوت يجب أن يشجب من الجميع وبكل قوة سواء وقع على زنجي أسود جاهل في أواسط أفريقيا أم على أبيض متعلم يكدح في مجاهل سيبيريا.

لكن يجب أن نعلم أيضاً أنه لا يمكن تطبيق نفس قواعد الخطأ والصواب في كل مكان لاختلاف الشعوب في تقييمها للأعمال والأمور.

وعلى هذا تتغاير نظرة الشـــرقيين والأوروبيين إلى الرقيــق بتغاير تقاليدهما وعاداتهما.

فالرقيق في الشرق نظام اجتماعي قديم أشك في إمكان القضاء عليه كلية في تلك البلاد، وعلى كل حال فمن الســخف التسرع في محاولة تغيير نظام اجتماعي عميق الجذور بجرّة قلم، وبموجــة حماس. وإنما على الأوروبيين إن كانوا صادقين في نياتهم جادين في عزمهم أن يسيروا في هذا الطريق بكل بطء وحــذر وعليهم أولاً وقبل كل شــيء أن يبدأوا بأنفســهم ليكونوا مثالاً وقدوة للغير، في حين نجد أن ما يحدث الآن هو العكس.

فغالبية الأوروبيين الساكنين في بلاد الشرق يشترون العبيد ويقتنونهم في بيوتهم ومزارعهم. وهم يخفون علم ذلك عن مواطنيهم في وطنهم أو يبررون ذلك بحجة «البحث العلمي» في حين يجب ألا يستعمل العلم مبرراً وذريعة إلى أمثال هذه الأعمال الدنيئة، ولا فرق من حيث المبدأ والواقع بين تشغيل الزنوج عمالاً في المزارع كما يفعل بهم العرب، أو تشغيلهم كولية كما يفعل بهم الأوروبيون وإن كان العمل الثاني في الحقيقة وواقع الأمر أصعب مراساً وأكثر مشقة.

وأكثر من هذا فقــد برهن الأوروبيون أنهم أقل إنســانية تجاه الرقيق من العرب، فالعربي يعتق جواريــه ولا يبيعهن إذا ما انتفــت حاجته إليهن، في حين يعمد الأوروبيون ـ المضطرون بدافع الســفر إلى التخلي عن رقيقهم ـ إلى بيعه في الأسواق واذكر مرة أن الاستياء عم جزيرة زنجبار حين باع أحد الإنكليزيين المسافرين خليلاته السوداوات إلى معاونه العربي سراً.

وفي مرة اشتكى القنصل الفرنسي جاره العربي أنه يسيء معاملة جواريه الســود، ثم اتضح أن لهذا الفرنسي نفســه خليلة زنجية وأنها وضعت له بنتاً سوداء جميلة تولت رعايتها وتربيتها الجمعية التبشيرية.

فلا غرابة ـ وبعد هذه الحوادث وأشباه لها أستطيع أن أرويها، أن ينظر العرب إلى زوارهم المتحضرين بعين الريبة والسخط وأن يتمنوا عودة تلك الأيام السعيدة التي لم يعرفوا فيها هذه الأفكار الدخيلة الهدامة، وأن يعتقدوا أن غرض الأوروبيين من الحملات ضد الرقيق هو القضاء عليهم شعباً ووطناً ودیناً.

❁ ❁ ❁

وإذا ما خلصت النيات حقاً واتفقت الآراء فعلاً على إلغاء الرقيق فيجب السير بالأمر بكل تؤدة وحذر وأن تتخذ أولاً خطوات تمهيدية تهيئ الأذهان لهذا العمل وتقلل من نتائجه الضارة. فإلغاء الرق أو تحرير العبيد معناه ترك الأفواج من هؤلاء الناس مشردين دون عمل وبالتالي دون أكل ولا مأوى، ومعناه أيضاً القضاء المبرم على الزراعة في البلاد لرحيل العمال الزنوج عنها بعد التحرير. لهذا وذاك يجب أولاً خلق الشعور بالعمل والرغبة فيه عند الزنوج ثم إدخال الزراعة الآلية إلى البلاد حيث تغني الآلة الواحدة عن عشرات العمال مع إعطاء أحسن النتائج بأقل الجهود، ويجب قبل هذا وذاك أن يدرك الناس الأغراض الإنسانية من وراء تحرير العبيد وأنه لا يقصد به الإضرار بهم أو بمصالحهم أو معتقداتهم.

وطريقة العمل بهذه تبدو لي أكثر إنسانية وأكثر فعالية بل وأكثر جدية أيضاً من الأفكار المرتجلة المبتسرة كفكرة بناء كنيسة في المحل الذي كان يقوم فيه سوق النخاسيين، وهو عمل سطحي إعتباطي لأن الكنيستين الموجودتين سابقاً في زنجبار وإحداهما كاثوليكية والثانية بروتستانتية تشكوان من قلة الزوار، عدا عن أن هدم السوق لا يعني إبطال حركة البيع والشراء، إذ في الإمكان اختيار مكان آخر قد يكون سرياً هذه المرة فيكون الضرر منه أكبر وأعظم.

والعرب، كبقية الشـــرقيين ـ متمسكين بتقاليدهم حريصون على كرامتهم لا يقبلون بـــأن تفرض عليهـــم آراء وأفكار جديـــدة لم يفهموهـــا أو يتبينوا حكمتهـــا، أو معتقدات تخالـــف معتقداتهم وتقاليدهم. ولكن المؤســـف أن المســـلم ما أن يختلف بالرأي أو النظرة إلى الأمور مع الأوروبي حتى يتهم بالتعصب الديني والتخلف الفكري. وهذا أمر ظالم ومبالغ فيه.

ولا شك أن العربي شديد الحفاظ على أحكام دينه والتمسك بها. ولكن هذا لا يعني العصبية؛ أي: الجمود وضيق الأفق، وقد شـــهدت بنفســـي روح السماح وسعة الأفق عند المســـلمين أثناء عودتي إلى زنجبار بعد غيبة تسعة عشـــر عاماً عنها، وكنت قد خرجتُ منها مسلمة وعدتُ إليها مسيحية، ولهذا فأنا بنظر أهل بلدي خارجة مرتدة ولهذا فإنني أستحق منهم احتقاراً أكثر مما أستحقه لو كنت مسيحية أصلاً. ومع هذا فقد قوبلت بالترحاب الشامل والودّ العميق والعواطف القلبية الصادقة.

وإذن فإن دافع العربي إلى سلوكه ليس التعصب الديني وإنما الرغبة في حماية نفســـه ومعتقداته وتقاليده ضد محاولات بعض الجهلة والتافهين ممن يدَّعون تمثيل الفكر المسيحي مهاجمة أفكاره وتسفيهها.

ومن جهة أخرى فإن الزنوج آخر من يهتـــم بأية عقيدة أو دين، وهم إنما يعتنقون المسيحية بســـبب ما تقدمه لهم الإرســـاليات التبشيرية من إقناعات مادية «ويســـتمر اعتناقهم لها ما اســـتمر إغداق العطايا عليهم، وقد شكى لي أحد رجال الدين الإنكليز العاملين في ممباســـا (وهي جزيرة إلى الشمال من زنجبار) بأن عدد تابعيه يختلف زيـــادةً ونقصاناً باختلاف كميات المؤن التي ترد إليه من الوطن. ولهذا، وهنا أيضاً يجـــب العمل ببطء ودأب لكي نخلق عند الزنجي الشـــعور الديني قبل أن نحاول رفعه إلى أعلى درجات الســـمو الروحي.

ولا شـك أن هناك من يعتـرض على آرائي هـذه في الرقيـق ويرميني بالانحياز وعدم الموضوعية في نظرتي إلى هذا الأمر بسـبب تربيتي العربية ونشأتي الشرقية وإلى هؤلاء أقدم شـهادات أوروبية لا يرعى الشك إلى شدة أوروبية قائليها:

فقد كتب الرحالة المستر ريشاد عام ١٨٨٠ من كوندا يقول:

«في ليلة ١٢ أكتوبر اسـتيقظتُ على صراخ امرأة تحـاول الدخول عليّ. وبعد الاسـتطلاع تبيّن لي أن هذه المرأة قد تخاصمت مع زوجها وأتلفت له بضاعة نفيسة وأنها لذلك وبموجب التقاليد المحلية تصبح أمة لنا. ولم يكن هذا هو الحادث الفريد مـن نوعه ولم يكن من النـادر أن تجد رجلاً يضيق بالحرية ويطلب الاسـترقاق. وهـذا برهان واضح قاطع علـى مبالغة وتحيز التقارير الكثيرة عن الرقيـق والتي تصف أحواله بألوان سـوداء أو ألوان لا وجود لها البتة.

ولا شك أن ظروف الحياة الجديدة للعبد أحسن بكثير من ظروف حياته الماضية والرقيق عند العرب أحسن حالاً من غيرهم، فهم يعتقون إذا خدموا سيدهم بإخلاص عشـر أو خمسة عشـرة سـنة. وهم لا يتعرضون للضرب والجلد من أسـيادهم إلا فـي الحالات التـي لا تنفع فيها وسـائل العقاب الأخرى».

وقد كتب الإنكليزي المسـتر جوزيف تومبسـون في كتابه: «رحلة إلى بحيرات أواسط أفريقيا» ما يلي:

«وفي هذه البـلاد (زنجبار) يعمُّ الحبور والهناء جميع طبقات الشـعب، وهي بلاد مثالية حيث يسـتطيع المرء أن يعيش يومه بأربع شلنات فقط. ولا وجود في هذه البـلاد للعبيد الجيـاع أو المعذبين. ذلك إنـه إذا ارتفع إلى

السلطان خبر قسوة أحد الأسياد على عبده فإنه يعتق العبد في الحال ويحميه من شـر انتقام سـيده منه. ويبدو لي أن هذه الطبقة من الناس في هذه البلاد ينعمون بوضع من الراحة والاطمئنان ويتمتعون من الحرية بعشرة أضعاف ما يتمتع به الألوف من العمال والعاملات في بلادنا».

وقد لخص لي أحـد الإنكليز الذين عملـوا لفترة طويلة فـي الأفريقيا الشـرقية وعلموا عن كثب حقائق الأشـياء، لخص لي حركة مقاومة الرقيق بمظاهرها المختلفة بأنها مجرد «دجل».

وفي الختام لا بـد أن أذكر هنا واقعة أخرى هي أن كـوردون الذي كان يوماً ما من أشـد أنصار مكافحة الرقيق بدأ فترة حكمه الثانية في السـودان بإلغاء جميع قوانينه التي أصدرها في هذا الخصـوص. وهذا لا يعني إيمانه بضرورة وجود الرقيـق في أفريقيا ولكنه يعني إدراكه اسـتحالة هدم التقاليد المتأصلة دفعة واحدة وتفضيله العمل على تشذيبها وتحسينها بالتدرج.

❁ ❁ ❁

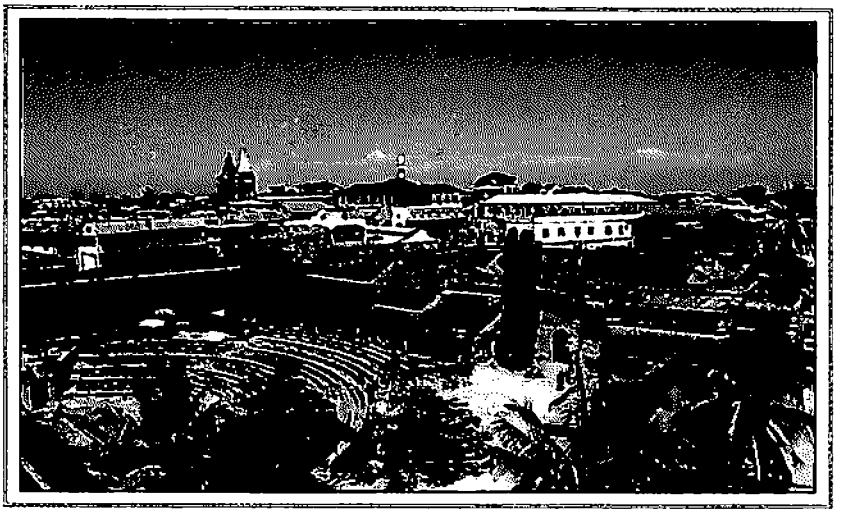

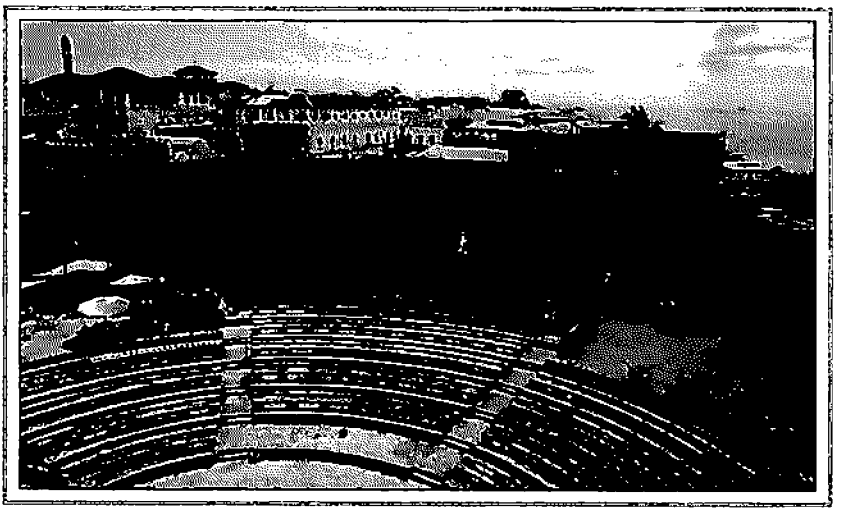

صورة جوية لبيت العجائب

الفصل الحادي والعشرون
مؤامرة وفتنة

عشـــتُ بعد وفاة أبي مع أُمي وخولـــة في قصر الثاني ســـعيدة برفقتهما وحنانهما، وقد دام هذا الهناء ثلاث ســـنوات ثم انتشر في البلد وباء الكوليرا وكان يطحن الناس طحناً ويقضي على العشرات من سكان الدار يومياً، وفي إحدى الليالي وكنا في عزِّ الصيف لم أســـتطع ســـبيلاً إلى النوم في فراشي لشـــدة الحرِّ داخل غرفتي فطلبتُ مـــن الخادمة أن تفرش لـــي على الأرض حصيرة لأضطجع عليها طلباً للبرودة والراحة.

وقد رحتُ في غفـــوة لا أدري أقصرتْ أم طالتُ ولكـــن ليتصور القارئ مقدار فزعي إذ استيقظتُ من النوم فوجدتُ أُمي الحبيبة عند قدمي تتلوى من الألم. فســـألتها مرتاعة عما بها فأجابتني بأنين وألم بأنها قضت نصف الليل على حالها هذا في فراشـــها وإذ شـــعرت أن أجلها قد حـــان فقد زحفت إليّ لتكون بقربي في لحظاتها الأخيرة.

إذن فالوباء الوبيل قد أصاب أُمي العزيزة ويوشك أن يقضي عليها، وزاد في ألمي وهلعي أنني لا أستطيع أن أقدم لها نفعاً ولا أدفع عنها ضرّاً. وظلت تقاوم الموت يومين ثم أســـلمت روحها الطاهرة وفارقتني إلى الأبد... وكان

حزني عليها يفوق كل حد وكل تصور. فقد ظللت أحضن جثمانها متشبثة بها لم أحفل بإنذاري من خطر العدوى، ذلك لأني كنت أتمنى على الله أن يأخذني إليه مع الراحلة العزيزة، ولكن المرض تخطاني ولم يكن لي إلا أن أقبل بقضاء الله الرحيم الحكيم.

وهكذا أصبحتُ وفي سن الخامسة عشرة يتيمة الأُم والأب، مثلي مثل سفينة فقدت دفتها فراحت تتخبط بين الأمواج، فقد كانت أُمي لي نِعْمَ المرشدة ونِعْمَ الهادية وكانت تجنبني المسؤوليات، والآن أقف وحدي أمام واجبات ومسؤوليات لم أعرفها من قبل لاتجاه نفسي فقط بل تجاه الآخرين ممن عليّ أن أرعاهم وأعيلهم. وشكراً لله تعالى الذي إذ شاءت إرادته أن يثقل كاهل امرئٍ بالمسؤولية أعطاه القوة والجلد لتحملها. وعلى هذا فقد أعدت النظر في وضعي بهدوء ورتبت أموري بنفسي دون عون من أحد.

❁ ❁ ❁

لكن الأمور لم تسر على هذا النحو من الهدوء وراحة البال فما عتمت أن برزت في جو حياتي متاعب جديدة أخذت تتجمع وتتراكم حتى وجدتني منساقة دون اختيار مني إلى المؤامرة ضد سلطان البلاد أخي النبيل ماجد.

وقد بدا وكأن وفاة أبي كانت الإشارة المنتظرة لاندلاع نار الشقاق والخلاف بيننا نحن بناته وأبناؤه، بدل أن تكون عاملاً للوفاق ولم الشمل بيننا. وبدا أن هذا الخلاف سيظل سائداً بيننا متحكماً في علاقاتنا، فقد يكون من الصعب حقّاً إيجاد الوفاق بين ست وثلاثين أخاً وأختاً تتقاسمهم جنسيات أمهاتهم المتعددة وتجري في عروقهم دماؤهن المختلفة.

ولهذا فقد انقسمنا بعد وفاة أبي إلى مجموعات صغيرة متطاحنة متخاصمة فيما بينها خصاماً شديداً ولا يزيد عدد أعضاء المجموعة عن

الأربعة أو الخمسة أفراد. وقد حار أصدقاؤنا ومعارفنا في فهم سر هذه الانقسامات بيننا ونالهم من رشاشها الشيء الكثير فقد خسرنا أعز الأصدقاء وأحب الأقارب لمجرد أنهم حاولوا الحفاظ على علاقاتهم الودية مع الجميع، ولم يكن للحياد معنى في أذهاننا أو مكان في تصرافتنا فمن كان صديق عدوي أو لم يكن عدو عدوي فهو في الحالين عدوي على التأكيد.

وما يصدق على الأصدقاء والمعارف يصدق وبشكلٍ أعنف وأقوى على الأخوة والأخوات فأعز إخوتي وأقربهم إلى قلبي صار من أعدائي لمجرد أنه انتمى إلى جماعة غير جماعتي. وقد أعمانا الانفعال والحماس عن الرؤية والعقل فانطلقت مشاعر المقت والبغضاء تجاه بعضنا البعض تزداد وتتفاقم دون أي وازع أو مانع. وانقطعت الزيارات الشخصية بيننا بل وانعدمت اللقاءات العابرة وحل محلها نشاط محموم لطبقة من الجواسيس والمخبرين رجالاً ونساءً ينقلون لكل فئة أخبار الفئة الأخرى وتحركاتها وأقوالها مقابل عطاء سخي ونوال كثير.

وانفتحت الأبواب والآذان والقلوب والجيوب أمام هؤلاء. فكانت العطاءات السخية تشجعهم على تلقط المزيد من الأخبار والإسراع بها إلى من يدفع أكثر من غيره وكثيراً ما طرقوا علينا الباب بعد منتصف الليل لينقلوا لنا خبراً ملفقاً أو مبالغاً فيه ولكننا كنا نتلقفه ونفرح به ونجزل من أجله العطاء، فإذا علمنا أن فلاناً سيشتري حصاناً أو داراً ذهبنا إلى البائع ودفعنا له أضعاف الثمن، وإذا اشترت سيدة منا قطعة من الحلي أوصينا الصائغ أن يعمل لنا أحسن منها، وقد تسربت أخبار هذا الصراع التافه إلى خارج أسوار بيوتنا فاستغل الباعة والتجار ذلك وبدأوا يستغلون وضعنا هذا لصالحهم وهكذا صرنا نتصرف وكأننا مجانين وعميان.

❁ ❁ ❁

وكان ماجد وخولة في تلك الأيام على أحسن حال من الوئام، وكان هذا مصدر بهجتي وسروري لأنني أحب الإثنين أصدق الحب من أعماق قلبي فكلاهما قد عاملني بعد وفاة أُمي وكأننـي طفلته الوحيدة لكن علاقات الود بينهما اعتراها بعض الفتور بسبب أخينا برغش حتى انتهى بهما الأمر إلى القطيعة التامة، ومع حبي وكلفي بأختي فيؤسفني أن اعترف بأنها هي وليس ماجد كانت المخطئة والبادئة في القطيعة.

وبالنسبة لي وقد كنت في هذه الفترة في صراع داخلي مستديم فأنا أعيش يومي كله مع خولة، نأكل ونشرب وننام معاً ولكنها لما بدأت تتجنب ماجد وتظهر له العداء بمختلف الطرق دون ما سبب تصورت أنني أستطيع أن أبقى على الحياد بينهما، وفي الواقع كنت أجرؤ أحياناً على الدفاع أمامها عن أخي البريء ماجد الذي كانت كل جريرته عندها أنه وليس برغش، الجالس على كرسي الحكم في زنجبار.

ولكن المقت كالحب أعمى فلم يكن من سبيل إلى تغيير رأيها في الموضوع. وقد مرّت عليّ شهور وشهور وأنا أتمزق بين اتجاهين وأتلظى بين نارين لا أدري أيهما أختار وإلى أيهما أنتمي فكلاهما عزيز على قلبي، ولكن حين حلّت اللحظة التي لا يحتمل فيها التأخير وجدتني أنساق دون شعور أو اختيار إلى جانب خولة مع عرفاني بأنها على خطأ وضلال. وهذا عمى العاطفة، فقد أعماني حبي لخولة عن الرؤية وسلبني إرادتي وتفكيري وجعلني أسيرتها في كل ما تقرر أو تقول. لا أملك لنفسي الخيار. ولكن هل في الحب من خيار؟ وهل نسمع لصوت الحق أو الضمير إذا ما علا صوت الحب وعربد، أو لسنا في سبيل الحب ومن أجله نتخلى عن مبادئنا وآرائنا وأفكارنا وأقدس معتقداتنا، كما تتخلى الشجرة الكبيرة عن أوراقها الذابلة في الخريف دون أن ينفعها جذعها القائم في الأرض أو يرد عنها بلاءً.

❁ ❁ ❁

وكان ماجد بنبل طبعه وطيب خلقه قد كسب حب رعيته واحترامهم، إلا أنه كان كما نعلم عليلاً لا يستطيع أن يشـرف بنفسه على كل شؤون الحكم فتولـى وزراؤه تصريـف الكثيـر منها حسـب أهوائهم واجتهادهـم، وكان سـليمان بن علي أبرز وزرائه وأكثرهم نفـوذاً، وكان بارعاً خداعاً اسـتطاع بالحيلة والدهاء أن يسـتحوذ علـى كل الأمور وأن يمد يده إلى كل شـؤون البلاد وأن يجعل كلمته هي العليا وإرادته هي النافذة، وأن يحيل بقية زملائه الوزراء أصفاراً إلى اليسـار، وكان أنانياً جشعاً مغروراً وقد دفعه غروره وحبه إلى الظهور بمظاهر السيد في كل مناسبة تسنح له رغم عدم بلوغه السن التي تؤهله للاحترام مما آثار عليه نقمة العرب الذين يقدرون للسـن قدرها. وقد دفعه الخيلاء والطمع إلى أن يخطب لنفسه إحدى أرامل أبي وكانت شركسية إسمها فاطمة وكانت في مثل عمر أُمه ولكن دافعه إلى الزواج منها كان حب الظهور والطمع في مالها، وكانت هـي من قلة العقل بحيث رضيت به زوجاً لها ولكنها بعد أن ذاقت منه الأمرين ظلّت تعض بنان الندم.

وقد اسـتطاع هذا الماكر أن يزيد من نفوذه لدى ماجـد، وأن يؤجج نار الفتن والشقاق بين أخوة السـلطان وأخواته ليضعفوا ويذهب ريحهم فيخلو لأطماعه الجو ويزداد جاهـاً ونفوذاً. وقد نجح في خطته فنشـبت بين أفراد عائلتنا المعارك وازدادت الخصومات وسـاءت أمـور الحكم وبدأت الرعية تتململ، وكان لدى ماجد لحسـن الحـظ وزير آخر هـو محمد بن عبد الله الشامسـي وكان رجلاً واسـع الذهن نبيل المظهر والمخبر غني النفس كثير المال كريماً جواداً، وكان مخلصاً لسـلطانه ولشـعبه كارهاً لسليمان بن علي فوقف في وجه المفسـدين والمنتفعين مما أثار نقمتهم عليه. ولم يكن ماجد ليثق بأحد غير سليمان لهذا لم يسـتطع محمد بن عبد الله الصمود وإصلاح الأمور والتقليل من سلطة سليمان ونفوذه.

❁ ❁ ❁

وفي هذه الأثناء تدخل أخونا برغش محاولاً أن يستغل لصالحه في نزاعه ضد أخيه ماجـد، مظاهر العداء والخصام بين أهل بيتنـا ومظاهر التذمر بين أبناء الشعب.

وسـرّ العداء بين الأخوين ماجد وبرغش، أن برغش هو المرشح للسلطنة من بعد ماجد الذي لم ينجب إلا بنتاً واحدة، وكان من المعترف به أن برغش هو ولي العهد باعتبـاره أكبر الأخوة في زنجبار، ومن عـادة أولياء العهد في الشرق أن يستعجلوا جلوسهم على العرش دون الالتفات إلى حقوق الجالسين عليه فعلاً سـواء كانوا إخوتهم أم آباؤهم ولا يتعففون في سبيل الوصول إلى السلطة عن اللجوء إلى كل وسيلة ولو خرجت عن سواء الخلق الكريم وشرف الضمير وأعراف المجتمع. وانطلاقاً من هذه القاعدة، فإن برغش الذي سـاءه أن تفشل تدابيره للقبض على أعنة الأمور عند وفاة أبيه السيد سعيد، لم يفقد أمل الإطاحة بأخيه ماجد، فظل يدبر ويخطط في سبيل هدفه هذا.

❁ ❁ ❁

وقد اتخذ سعيه منعطفاً خطيراً بعد انتقاله وأخته موجة من بيت المتوني واسـتقراره في المدينة، حيث صادف سـكناه في بيت مقابـل للبيت الذي أسكنه وخولة والذي كان يوماً ما مسكناً لفرسان الأميرة الفارسية شيزادة.

وبهذه النقلة دخلت حياتنا طوراً جديداً لا أستطيع كأخت أن أبوح وأفضح وقائعه التـي كانت تجري في الخفاء، وإن كان بعضها يسـتوجب التشـهير، ولكنني أعف عن ذلك حفاظاً على سـمعة العائلة فعلى الرغم من كل ما فعله معي برغش من القسـوة والإيـلام فإنني لا زلت أؤمن بالمثـل العربي الذي يقول أن مياه البحر كلها أضعف من أن تغطي على قطرة من دم القربى[1].

(١) لم تستطع التعرف إلى الأصل العربي لهذا المثل.

وما سكن برغش بجوارنا حتى نما الودُّ والتعاطف بينه وبين خولة، فأصبح يقضي سحابة يومه في بيتنا لا يفارقنا إلا لماماً وقد أهمل بيته وأخته موجة مما أغاظها وأثار ثائرتها، وأطلق لسانها بالنيل من خولة علناً وأمام الزائرين فكانت النتيجة شجاراً حامياً بين الأختين انتهى بالقطيعة التامة بينهما، وساءت الأمور بينهما حتى انتفى الهدوء والسلام بين البيتين، وكنت سعيدة لأنني لم أشارك في هذا النزاع ولم أتدخل فيه ولكنني لأنني كنت موضع السر للأختين فقد انجررتُ إلى النزاع رغماً عني.

ولم تكن خولة محقة في معاملتها لموجة، ولكن خولة لم تكن في طورها في تلك الأيام فقد كان برغش معبودها ومثلها الأعلى الذي لا تتأخر عن التضحية في سبيله بكل شيء، ولأنها كانت بالنسبة لي كل شيء في حياتي فقد تبعتها في هذا الطريق بفكر مغلق وعيون مسدودة، وإن كنت في بعض الأحيان أحس بالعطف الصادق والتقدير نحو موجة، فعلى الرغم من غرورها فإنني لا أستطيع أن أنكر لها استقامتها وسلامة تقديرها وحسن أدراكها، فقد كانت الوحيدة بيننا التي استطاعت أن تدرك عقم أعمالنا وسوء العواقب التي ستعود علينا نتيجة التآمر على ماجد، وكانت تنبهنا إلى ذلك وتنصحنا فيه دوماً.

وكانت شيمبو وفارشو إبنتا أخي خالد يسكنان بيتاً مقابلاً لبيتنا أيضاً وكان حبهما لي عظيماً، وبسببي وعن طريقي امتد حبهما إلى عمهما برغش ودخلا عصبته وأصبحت بيوتنا الثلاثة المتقاربة في المدينة مركزاً خطراً للتآمر على ماجد.

❁ ❁ ❁

وكان هم برغش وهدفه الأول أن يجمع حوله أكبر عدد يستطيعه من رؤساء القبائل. والنظام القبلي العربي نظام هرمي غريب في تماسكه

وانضباطه. فالعرب منقسمون إلى عدة قبائل والقبائل إلى عشائر ثم إلى أفخاذ ثم إلى بطون وتختلف كل من هذه التقسيمات من حيث عدد السكان والأهمية، والفرد في القبيلة يطيع رئيسها طاعة عمياء ليس إلى نقضها من سبيل. فالإخلاص للقبيلة وطاعة رئيسها هما جوهر كيان العربي وأبرز خصائصه. وكل عربي يحمل إلى جانب إسمه إسم قبيلته ويضع الإسمين في كل ورقة أو وثيقة يوقعها. فأنا مثلاً أوقع «سالمة البوسعيدية»، والبوسعيد هو إسم قبيلتنا الصغيرة الباسلة.

لهذا صار من الطبيعي أن يسعى كل أمير إلى كسب أكبر عدد ممكن من هؤلاء الرؤساء ليكسب بالتالي الأعداد الضخمة من أفرادها عند الحاجة ولكن كسب ولاء رئيس القبيلة ليس بالأمر الهين بل لا بد له من مفاوضات ومساومات، وعطاء ومكافآت وعهود ووعود.

وقد استطاع برغش أن يجمع حوله بعض هؤلاء الرؤساء حتى أصبح له بلاط صغير أثار الضجة والريبة في المدينة. فقد ظهر أن غالبية أتباعه هؤلاء من الانتهازيين ذوي السمعة السيئة. أما الرؤساء المحترمون ذوو السطوة والنفوذ فقد ابتعدوا عن برغش حين وضحت لهم خططه وأهداف مؤامراته، فحلَّ محلهم جمع آخر من الانتهازيين الطامعين الأنانيين الذين لا همّ لهم إلا تحقيق أطماعهم وشهواتهم في المناصب والنفوذ دون ما نظر إلى مصلحة برغش نفسه إلا على أنها وسيلة لتحقيق غاياتهم المضمرة.

ولما تجمع عند برغش عدد كافٍ من هؤلاء قرر البدء بتنفيذ خطته وتتلخص بإلقاء القبض على ماجد وتنصيب برغش سلطاناً على البلاد بدلاً عنه. وكانت الاجتماعات تعقد في بيوتنا، تعقد في جنح الظلام أو أواخر الليل ويتسلل إليها المتآمرون وكان يرأسها برغش نفسه ويبحثون فيها احتمالات الحرب الأهلية ووسائل الاستعداد لها.

وسيطر على بيوتنا في هذه الفترة جو محموم من الريبة والذعر والتكتم وفقدان الثقة فكنا نشك بأقرب الناس إلينا ونتوهم بأن الناس تراقبنا وتتجسس علينا وتنقل أخبارنا، وكنا زيادة في الحيطة والكتمان نصرف الخدم إلى بيوتهم ونقوم بأنفسنا بأشغال البيت إبعاداً لهم عن الاطلاع على أحاديثنا وخططنا. كما امتنعنا عن استقبال الزوار أو زيارة أي أحد.

وكان برغش يزداد انفعالاً وحدة طبع يوماً بعد يوم فلم يعد يطيق ضبط أعصابه وكتمان أمره، بل كان لحدة طبعه وشدة انفعاله أقلنا تكتماً وأكثرنا تسرعاً في الأقوال والأفعال وأظهرنا عداءً للسلطان.

وقد كشف النقاب عن نواياه العدوانية بانقطاعه التام عن حضور مجلس السلطان اليومي، أو البرزة التي سبق لنا الكلام عنها، وحضورها يومياً واجب على كل فرد من أفراد الأسرة الحاكمة وعلى كل رجالات البلد وعلامة من علامات الولاء والإخلاص للسلطان وهذه سُنَّة استنّها والدي منذ قدومه إلى زنجبار، وهي عادة قديمة في وطننا الأول عُمان، إلا أن برغش أخذ يتغيب عن الحضور أكثر أيام الأسبوع ثم انتهى به الأمر إلى القطيعة التامة وهو تصرف أقل ما يفسر به أنه عداء سافر للسلطان يستحق الجزاء والعقاب.

وقد أخطأ برغش في التسرع بالكشف عن نواياه، إذ نبه ذلك السلطان وأنصاره لأخذ الحيطة والحذر وتشديد الرقابة كما فرق شمل أنصاره خوفاً من انكشاف أمرهم فأضاع بذلك فرصة المباغتة في إلقاء القبض على ماجد ومن ثم أفسد خططه جمعاء.

* * *

وقد أبى نبل أخي ماجد إلا أن يبذل معي آخر محاولاته ليثنيني قبل

فوات الأوان عن المزيد من التورط في الأعمال الطائشة التي كنت منساقة إليها.

ولأنه نظراً للظروف القائمة لا يستطيع زيارتي في بيتي بنفسه، ولأنني انقطعت منذ وقت طويل عن زيارة بيته، فقد أرسل إليّ إحدى زوجات أبي، من صديقات أمهاتنا والعزيزات علينا للكلام معي في الموضوع. وقد توسل إليّ بواسطتها أن أرجع إلى جادة العقل والصواب وأن أترك العمل مع أعدائه وخصومه وهو عمل لن يعود إليّ بالنفع حتى لو قدر لجماعتي النجاح في خطتها، لأنهم يستخدموني الآن لحاجتهم إليّ ولكنهم سينبذوني حين تنتفي الحاجة وحين تتحقق مآربهم وتتكشف أطماعهم عند توزيع المغانم والأسلاب. وعند ذلك سأندم كثيراً على سوء فعلتي ولات ساعة مندم، ثم أنذرني بأنني إذا أصررتُ على جحودي وعنادي فإنني يجب أن أتحمل مسؤولية ذلك كاملة لأنه لا يستطيع أن يستثنيني ويحميني من بين الجماعة، فهو لا يستطيع أن يجعل بيتي بمنجاة من تناول المدافع إذا ما قذفت بيوتنا بالمدافع أو يمنع طلقات البنادق من الوصول إلى صدري إذا ما اشتبكنا في معركة مع جنوده.

ولكن مع الأسف فقد وصل إنذار أخي ماجد متأخراً. فقد جندت نفسي لقضية خولة وبرغش ولا أقدر عن النكوص عن وعدي لهما. وقد فارقتني زوجة أبي والدموع تنهمر من عينيها. وبعد سنوات من هذا الحادث التقيت بها فذكرتني بلقائنا هذا وبنبل ماجد نحوي وصدق تكهناته ولكن السيف كان قد سبق العذل.

ولم تمضي زيارة هذه الرسولة العزيزة دون أثر في الفكر ووخز في الضمير، وخشية من وسوسة البال أو انشغال الذهن أو من الاتهام بأني ذات

وجهين فقد قـررت أن أتجنب كل صلة أو لقاء مـع ماجد وأن أنصرف بكل جهدي وقواي إلى قضيتنا.

❁ ❁ ❁

وكان من السـهل على ماجد في هذه الفترة أن يأمـر بإلقاء القبض على أخيه برغش ورفاق السـوء ويلقي بهم في إحدى القلاع، لكن ماجد لم يكن يحب القسـوة والعنف وكان لا يزال يأمل أن يرعوي أخوه ويعود إليه معتذراً إذ لم يجد ماجد سـبباً لهذا العداء الذي يعلنه ضده أخـوه برغش. كما كان يخشـى أنه إذا عنف مع أخيه أن يؤدي ذلك إلى قطيعـة تامة بينهما لم يكن يريدها ماجد. وفوق هذا أو ذاك فقد كان ماجد يريد أن يجنبنا نحن النسـوة الأربعة المشتركات في هذه المؤامرة ـ الإهانة وعواقب الأمور.

لذلك فقد أغلق ماجد عينيه وأذنيه عما يدبـره ضده أخوه برغش ونحن معه، ولكنه تجاه تمادي برغش في كشـف نواياه العدوانية ضد السلطان لم يجد ماجد في آخر الأمـر بدّاً من فرض الرقابة على بيـت برغش، على قلة جدوى هذه الرقابة، لأن الجنود الذين أوكلت لهم المهمة كانوا من البلوش، وهم على جانب كبير من الولاء الأعمـى لعائلتنا بحيث لا يمكن أن يفرطوا بأحد أعضائهـا. وكان المتآمـرون يعرفون نقطة الضعف في جنـود المراقبة ويستغلونها أحسن استغلال. وكان الرجال معرضين للتفتيش والمتابعة وكان يلقى القبض على بعضهم بين الحين والآخر، لذلك كنا نحن النسـاء خلافاً لكل الأعراف المحلية، ننفذ المهام الخطرة في أنحاء المدينة إذ لا يجرؤ أحد على تفتيشـنا أو ملاحقتنا وكنا جميعـاً نعمل ونكد في حركـة دائبة وعمل مستمر وكأننا خلية نحل، وكلنا يسـعى لاستكمال استعداداتنا وجمع مؤونتنا في مرسـيليا مقر الثورة الجديد وخاصـة بعدما وصلت إلينـا الأنباء بقرار

الحكومة إلقاء القبض على المشبوهين من رجال حركتنا وإبعادهم خارج الجزيرة.

ومع أنني كنت أصغر النسوة المتآمرات سناً إلا أن معرفتي للكتابة أهلتني لمنصب «السكرتيرة العامة» للثورة إن صح هذا اللفظ. وكنت بهذه الصفة أقوم بكافة المراسلات مع رؤساء القبائل وأطلع على أسرار الاستعدادات والخطط وكنت في سن يسمح لي بأن أحسُّ بوخز الضمير وقلق الوجدان وأنا أصدر الأوامر لإعداد البنادق والبارود والرصاص لقتل الأبرياء من أقرب الناس إليّ وأحبهم إلى قلبي... ولكن ما العمل الآن؟ هل يمكن التراجع الآن وهل يمكن أن أنكص عن وعدي لأختي خولة وأتركها وحيدة في ساعة الخطر؟ لا لا يمكنني ذلك، لا عطفاً على القضية ولا ولاءً إلى برغش وإنما هو الحب لخولة.

كان برغش حبشي الأُم وكان لذلك حاد الطبع عصبي المزاج ولكنه كان رجلاً ذكياً يفوقنا جميعاً بالدهاء والفطنة، وكان متكبراً مستبداً وله شخصية آمرة. أما عن مقدار ما يتمتع به من حب وتقدير في عائلتنا فدليله الذي لا يخطئ أن ما من أحد من أفراد عائلتنا الكبيرة انضم إلى حركته غيرنا نحن الفتيات الأربع وغير صبي واحد قاصر هو أخي عبد العزيز الذي لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره، والذي ـ وهنا يكمن السر ـ تتولى خولة القوامة عليه. ولعل السبب في هذه النفرة والكراهية له هو ما تسبب به من دفن أبي سرّاً دون فسح المجال لتشييعه تشييعاً يليق بشخصه ومكانته.

ولم يقدر لبرغش أن يعرف حقيقة عواطف الأهل تجاهه إلا حين رأى نفرة الناس من حركته.

ورغم شدة الرقابة فلم تفتر همتنا أو يقل نشاطنا بل دأبنا على عملنا

المستمر واجتماعاتنا المتوالية بنشاط أكثر لكن بظروف أشد خطورة حتى تم تحديد يوم الثورة. ولكن ما أن تـــم تحديد هذا اليوم حتى أحيط بيت برغش وفيه صاحبـــه بمئات الجنود. مع الأوامر المشـــددة بقطـــع كل اتصال له مع العالم الخارجي حتى يستســـلم صاحبه باختياره. ورغم أن هذا الإجراء يعتبر ضربة قوية على آمالنا إلا أننا مضينا في جهدنا. وكنا ننتظر أن يحدث الشيء نفسه لبيوتنا وهذا يعني القضاء على كل آمل لنا. ولكن الواقع كما نمى إلينا بعدئذٍ أن بعض الوزراء نصحوا أخي السلطان بمحاصرة البيوت الثلاثة، وهي كل مراكـــز الخطر والتآمر، لكـــن ماجد رفض هذه النصيحـــة لأنه لم يرد أن يعرض بيوت أخواته للإهانة والتشهير.

وحالما أحاط الجنود ببيت برغش خرجنا نحـــن المتآمرون والمتآمرات الســـتة إلى نوافذ بيوتنا إثنان في كل نافذة نتداول في الأمر وكنا على وشك الانهيار والاستسلام لولا عناد برغش وصموده.

وفي هذه اللحظـــات قفزت إلى أذهاننا حقيقة مذهلـــة وهي احتمال نفاد الماء من بيت برغش. فلم تكن بيوت زنجبار آنذاك تعرف أنابيب الماء وإنما كان الماء ينقل ويُخزن فيها، وقد خزن برغش كميات كبيرة من الماء في بيته ولكن هذه الكميات لا تصلح للشـــرب بعد خزنها يوميـــن أو ثلاثة أيام في الطقس الاســـتوائي الحار. وانقطاع المياه عن دار برغش معناه عدم استطاعته المقاومة أكثر لذلك فكرنا في طريقة لنقل ماء الشـــرب إلى أسيرنا، وجادت قريحة إحدى النســـاء عن فكرة هائلة وهي عمل أنابيب من أقمشـــة أشـــرعة السفن وإيصال الماء بها. وسرعان ما جيء بالقماش وعملت عشرات الأيدي في خياطته حتى غدا صالحاً لنقل الماء ومع إطلالـــة الفجر كان الماء البارد يجري في بيت أخينا الأســـير، ولحســـن الحظ فقد كان الجنود يقفون على

الباب الذي من جهة البحر فقط فلم يروا ما كنا نصنع أو لعلهم رأونا وغضوا الأبصار.

وبعد اعتقال برغش فقد وقع علـى عاتقنا عبء كبير، فإذا كنا قبلاً مجرد مشاركات فقد أصبحنا الآن محور العمل كله وعلى جهودنا الآن تتوقف نتائج العملية ذلك إننا صرنا واسـطة الاتصال الوحيد عن طريق النافذة بين برغش وبين أتباعه في الخارج. وحين حاصر العسكر بيت برغش كان معه في البيت عدد كبير من الرؤساء فاعتقلوا معه ولم يكن مقامهم في الدار مريحاً لانعدام حرية الحركة داخل الدار لسـبب وجود موجة في داخله وكان علينا أن ننقل رسـائلهم إلى أتباعهم وأهليهـم. وكان علينا الآن أن نغيـر خططنا كافة تبعاً لتغير معطيـات الموقف ولذا فقد تقرر أن يجتمع أنصـار برغش في مقاطعة مرسـيليا قرب العاصمـة، وهي مزرعة تعـود إلى ابنتي أخـي خالد، حيث يتحصنون هناك.

ولم تكن الفكرة سـيئة ذلك لأن مرسـيليا يمكن أن تحول بسهولة إلى قلعة حصينة تضم بضع مئات من الرجال يمكنهم الصمود فيها والدفاع عنها أمداً طويلاً، ومن هذا المركز الجديد يمكن للحركة أن تتسرب إلى كل أنحاء الجزيرة ومن ثم تطبق على العاصمة من جميع نواحيها وعلى هذا الأسـاس بدأنا ننقل السـلاح والعتاد والمؤن إلى هذه البقعة بجهد دؤوب استغرق كل قوانا ولكنه انتهى بنجاح تام.

ولم يفكر أحدنا بأن يكون للثورة حساب خاص، بل كان كل منا يصرف من مـوارده الخاصة ما تقتضيه الثـورة من نفقات السـلاح والعتاد والجنود والمؤن ولما تم نقل جميع الأشـياء إلـى مقر الحركة الجديد في مرسـيليا اجتمعنا نقدح زناد أفكارنا في سـبيل ضرب ضربتنـا النهائية. وقد انتهى بنا

القرار إلى وجوب إطلاق سراح برغش من أسره أولاً ونقله إلى مركز الحركة للإشراف بنفسه على قيادتها. ومع تقديرنا للخطر الكبير المترتب على مثل هذا العمل، فإن الخوف لم يكن يعرف طريقه إلى قلوبنا المندفعة ولذلك وضعنا خطتنا لهذا الغرض وبدأنا بتنفيذها فوراً.

ففي أمسية لا ينمحي ذكراها من ذهني أبد الدهر، تركت وخولة بيتنا يتبعنا رهط من النساء، وفي الشارع التقينا حسب خطة مرسومة بابنتي أخي ومعهما حاشية من النساء أيضاً، وتوجه الركب إلى بيت برغش وما أن وصلنا عتبة الدار حتى حدث ما كنا نتوقعه فقد منعنا الجند المحيط بالدار من الولوج إليها وأمرنا بالعودة دون أن يعرف هوياتنا. وكان لا بد لنجاح خطتنا من التصرف بجرأة وإقدام، لذلك صحت بأختي خولة... «خولة دعينا نذهب إلى ضابط الحرس ونخبره بهوياتنا وسيدعنا ندخل ولا شك»، وكانت هذه الفكرة مجرد الفكرة بحد ذاتها ـ تعتبر خروجاً على العرف والتقاليد، لكن دقة الموقف لم تكن تسمح بالتردد والإحجام وخطورة المهمة تبرر كل وسيلة وإن خالفت اللياقة الأصول. وذهبتُ وخولة ودخلنا على الضباط في مقرهم، وفي لهجة صارمة ومؤثرة عرفناهم بهوياتنا وسألناهم كيف يبيحون لجنودهم أن يمنعونا من دخول بيت أخينا. وقد فتحت الدهشة عيونهم وعقدت المفاجأة ألسنتهم فلما نفذت كلماتنا إلى أدمغتهم وأدركوا معناها أقبلوا إلينا بجميل الاعتذار ويتوسلون بطلب الصفح والغفران منا.

ولقد سمحوا لنا بزيارة قصيرة وأذنوا للموكب بالدخول وقد أحسست بالخجل في نفسي وأنا أستغل طيبة هؤلاء القوم في سبيل غاية إجرامية سيدفعون هم ثمنها عقاباً صارماً إذا ما انكشف أمرها.

وقد وجدنا برغش وأخته موجة في أشد حالات الذعر والاضطراب، فقد

أبصرا من النافذة وصول موكبنا وشـهدا موقفنا مع الحرس وخشيا أن تفشل جهودنـا في الحصول علـى إذن بالدخـل فننكص على أعقابنـا ونتركهما لمصيرهما. وكان قد سـمح لنـا بزيارة قصيرة جـدّاً وكنا نرجـو أن نوفق بالخروج بأخينا الأسـير من الدار كمـا وفقنا بالدخول إليهـا. إلا أن دون خروجه مخاطر وأهوال. فمن المسـتحيل أن يخرج برغش من القصر علانية فهناك أوامـر صريحة بمنعه وبإطـلاق النار على كل من يحـاول أن يخرق الحصار أو يخرج من الدار قسـراً، ولا سـبيل لنجاتـه إلا بالتنكر بملابس النسـاء. لكن المشـكلة العويصة التي برزت أمامنا هي أن برغش بكبريائه ورجولتـه أبى أن يرتدي ملابس النسـاء ويهرب بهـا. وكان الموقف صعباً وخطيراً، ويزيد مـن خطورته قصر فسـحة الوقت الممنوحة لنـا واحتمال وصول خبر دخولنا إلى الجهات العليا فتأمـر بمداهمتنا أو اتخاذ أي إجراء مشـدد آخر يعرقل تنفيذ خطتنا، وكنا في وضعنا ذلك كمن يقف على فوهة بركان لا يدري متى ينفجر فيبتلعه.

وبعد جهـدٍ كبيرٍ رضخ برغش لمطلبنا وسـمح لنا أن نضـع عليه عباءة سـوداء على أن نترك عينيه دون غطاء وهكذا فعلنا مـع الصغير عبد العزيز أيضاً ووضعنا برغش وهو بكامل سـلاحه ـ بين أطـول امرأتين في الموكب لنخفي طولـه الفارع واتجهنا نحو الباب نتهـادى ونتجاذب أطراف الحديث متظاهرين بالانشـراح والحبور في حين كنا في الواقع نرتجـف خوفاً وقلقاً خشية أن يشك الجنود فينا فينكشـف أمرنا وتكون الواقعة السوداء والموت الزؤام ولكن الجنود أفسـحوا المجال لنـا بالإكرام اللائق لنـا ومررنا، ويا للحمد سـالمين، ونحن لا نصدق إننـا اجتزنا هذه الأزمـة ونجونا من هذه الشدة.

وكنا قد كتبنـا بخطتنا إلى بعـض الرؤسـاء وطلبنا إليهـم أن ينتظرونا

وأتباعهم في وقت معين ومكان معين خـــارج المدينة، فإذا لم نصل إليهم في ذلك الوقت والمكان فمعنى ذلك تأخير تنفيـــذ الخطة وعليهم أن ينتظروا منا تعليمات جديدة. وكان المكان بعيداً عن المدينـــة ويقع في مزرعة كثيفة نعبر للوصول إليها مزارع الحنطة والشعير لذلك كان علينا أن نسرع في سيرنا وأن نحث الخطى إلى ذلك المكان البعيد قبل فوات الوقت المحدود. وقد ســـرنا بداخل المدينة سيراً طبيعياً ولكننا ما أن وصلنا ضواحيها حتى أطلقنا سيقاننا الرقيقة بأحذيتها المطرزة بالذهب والفضة نســـابق بها الريح ونقفز ونتعثر بها وســـط ذلك الظلام فوق الحفر والحواجز وحقول القمح وســـواقي المياه... وهكذا ســـرنا حثيثاً حتى أخبرنا الخدم بوصولنا إلـــى المكان المقصود وكان علينا نحن الفتيات أن نحتشم قليلاً. ثم سمعنا ســـعالاً خفيفاً كان هو الإشارة المتفق عليها ثم علا صوت بالسؤال: صاحب السمو؟ فأجابه برغش بالإيجاب فارتفعت الهتافات «الحمد لله»... «الحمد لله» وهكذا وصلنا هدفنا سالمين.

وكان برغش طيلة الطريق متوتر الأعصاب ظاهـــر الهياج والانفعال ولم ينبس بكلمة أبداً ولكننا ما أن صرنا بين أتباعه حتى خلع وأخوه الصغير عبد العزيز لباس التنكر وإذ كان عليهما أن يواصلا السير ويصلا مرسيليا في نفس تلك الليلة فقـــط ودعانا مســـرعين واختفيا وأنصارهم عنا فـــي جنح الظلام الدامس.

وظللنا فتـــرة من الوقـــت وحيدين في ذلـــك القفر المظلـــم ننظر خلف الأشـــباح الراحلة بمزيج من الرهبة والإشفاق وقد أنهك التعب أجسامنا وهد قوانا ولكن الليل كان قد تقدم بنا وآن لنـــا أن نعود إلى بيوتنا، وكانت رحلة العودة هادئة بطيئة صامتة يتخللها الخوف من الظلام السائد الآن والفزع مما سيأتي به ضوء النهار، حتى إذا دخلنا المدينة تفرقنا جماعات صغيرة ووصلنا إلى بيوتنا عن طرق مختلفة.

ولم يكن لنا طبعاً إلى النوم من سبيل ولم يطرق أجفاننا البتة على شدة حاجتنا إليه ليخفف عن أعصابنا المشدودة توترها ويعيد إلى أجسامنا المتعبة راحتها وينسينا القلق وسوء الأفكار.

وفي غمرة الوحدة والهدوء في غرفنا بدأنا نتمثل ونستعيد شريط الأحداث المرعب ثم تنتقل بنا الأفكار إلى ما سيأتي به الغد من كوارث وشرور أو بشائر وأفراح، وبدأت متاعب الساعات الأخيرة تفعل فعلها في أجسامنا ونفوسنا فإذا كنا نستطيع إلى حد ما أن نحتمل القلق الفكري والتوتر العصبي فإن أجسادنا المترفة لا تستطيع أن تتحمل ذلك التعب الجسمي التي حفل بها هذا المساء، لهذا ونتيجة الخوف والأرق والأعياء بدأ أنيننا يتعالى وانخرط بعضنا بالبكاء من شدة الأوجاع، في حين أُغْمي على البعض الآخر منا من شدة التعب والإرهاق. وكانت فوق هذا أفكارنا السود وضمائرنا المثقلة بالإثم تتخيل صوت حوافر الخيل أو صليل السلاح في كل صوت أو نأمة وتتصور في كل حركة جنود الحكومة يقتحمون علينا دورنا ليأخذونا إلى حيث نلقى الجزاء العادل على ما صنعت أيدينا من سوء. وهكذا قضينا الليل الطويل بالقلق والأرق ولا عزاء لنا إلا أننا أتممنا أصعب أهدافنا ووهبنا أعز أصدقائنا الحرية والسلامة.

وارتفع أذان الفجر وصلّيتُ صلاة الفجر مع خولة في غرفتها وكانت عادتنا أن تصلّي كل منا في غرفتها. ولأننا لا ندري ما سيطلع علينا به النهار فقد ودعت خولة وودعتني. وقد صدق حدسنا فما حلت الساعة السابعة حتى جاءتنا الرسل بأسوأ الأخبار.

فقد علمت الحكومة بكل ما حدث أثناء الليل. فإن أحد الجنود البلوش الحراس على بيت برغش قد تعرّف عليه عند خروجه رغم تنكره، وقد منعه

ولاؤه وإخلاصه للمرحوم أبي أن يفضح إبنه ويشهر ببناته. فلم يخبر الحكومة بذلك خاصة وأنه اعتقد إن قصد برغش من مغادرة الدار هو الفرار من زنجبار والابتعاد عن المشاكل والأخطار.

وقد روى الريفيون القادمون ببضائعهم إلى السوق في الصباح أنهم شاهدوا جموعاً كبيرة من العرب المسلحين تتجه نحو مرسيليا مسرعة فربط الناس بين هذه الأخبار وأخبار المؤامرة المنتظرة على سبيل الظن لا اليقين.

وعند هذا الحد وجد الجندي البلوشي أن من واجبه الآن إخبار الحكومة بما يعرف عن هروب برغش. وقد اهتمت الحكومة بأخباره ولما سُئل بالتحقيق عن أسباب تأخره في الإدلاء بمعلوماته ولماذا لم يتخذ ما يلزم من الإجراء ضد قافلة النساء أجاب أنه يفضل أن يموت ألف مرة على أن يتسبب في أقل أذًى لبنات السيد سعيد ولا أدري ما حدث لهذا الجندي الوفي النبيل الذي أوقعه سوء أعمالنا في صراع بين ضميره وواجبه.

وإذ وصلت الأمور إلى هذا المنعطف الخطر فلم يبق للحكومة بد من أن تضع وفي الحال حدّاً حاسماً لهذه الثورة السافرة. ولذلك فقد أرسلت بضع آلاف من جنودها إلى مرسيليا لقمع الثورة وتأديب الثائرين وقد كنا نحن الثوار قد خططنا لحركتنا على أساس المباغتة أو المناوشات الطفيفة ولم تخطر في حسابنا المجابهة الواسعة مع قوات الحكومة في ميدان القتال. لذلك فما أن وصل جيش الحكومة إلى مرسيليا حتى فتحت مدافعه النار على ذلك المكان البديع فدكت قصره دكاً ثم اشتبك جنوده مع رفاقنا بمعركة ضارية سقط فيها منا مئات الضحايا، وقد فرّ من فرّ من رفاقنا واستسلم الباقون لقوة الحكومة.

وقبل أن تصلنا أخبار المعركة بالهزيمة كنا نظن أن برغش في مرسيليا

ولكن أختـــه موجة أخبرتنا أنه عـــاد مدحوراً مهزوماً ودخل بيته خلســـة وأنه يمتنع عن رؤية كل أحد. وقـــد علمنا أنه مصمم على معـــاودة الكفاح حتى النهاية. رغم أنه لم يبق إلى جانبه غير أخيه عبد العزيز الذي أبدى رغم صغر سنه أحســـن ضروب الشـــجاعة والإقدام وغير نفر قليل من أنصاره القدامى امتلأ بهـــم داره، وكان يأمل أن يســـتطيع بهم أن ينفذ خطته التي فشـــل في إنجاحها حين كانت تحت أمره عشـــرات أضعاف عدد هؤلاء.. ومع الأسف وعلى الرغم من خســـائرنا في المال والرجال والأمـــلاك والعبيد ورغم نفرة إخوتنا وأقاربنا وكل أهلينا منا فقد أعمانا الحماس والتعصب عن رؤية وقائع الأمور وعن تصور الفشل الذريع الذي ستنتهي إليه خطط برغش.

وقد شـــاع بين الناس خبر عودة برغش ومن الطبيعي أن يظن الجميع أنه ينوي الاستســـلام إلى أخيه الســـلطان رغم أن هذه الفكرة لم تخطر لبرغش على بال. وقد أراد ماجد نفســـه أن يحفـــظ لأخيه كرامته ويســـهل عليه أمر الاستسلام فبدلاً من أن يرسل إليه الجنود لاعتقاله، أوفد إليه سعود إبن أخينا الأكبر هلال ومعه رسالة بالوعد بالعفو والغفران ونسيان ما حدث شريطة أن يتعهد برغش بالإقلاع عن مثل هذه الأعمال مستقبلاً.

وكان ســـعود رجلاً محترماً ووديعاً محباً للخيـــر، وكان أكبر من برغش سناً، فذهب بنفســـه ودون حرس أو جند إلى بيت برغش تدليلاً على حسن نية السلطان وســـلامة قلبه لكن برغش رفض السماح له بدخول الدار وطلب إليه أن يقول رسالته من الشارع، ولكن ســـعود رفض ذلك طبعاً وأصرَّ على الدخول وبعد طول انتظار فتح الباب مواراباً بما يكفي لمرور ســـعود بعســـرٍ ومشـــقة، وما أن صار في صحن الدار حتى وجد نفسه مضطراً إلى أن يتسلق السلم إلى الطابق الثاني حيث كان برغش وأخته. وأقول «يتسلق» وأنا أعنيها حرفياً فقد كان الســـلم مســـدوداً بأنواع الحواجز والعراقيل والطريقة الوحيدة

للصعود هي أن يتسلق درابزين السلم وما أنهى هذه المشقة حتى كان عليه أن يزحف إلى غرفة برغش من خلال باب صغير بعد أن رُفعت من خلفه الصناديق الثقيلة. ولكن نفس برغش المغرورة لم تكتفِ بهذه الإهانة الجسيمة لابن أخيه ومبعوث السلطان بل زاد عليها رفضه التام لعروض السلطان السخيّة.

وتجاه هذا العناد والرفض لم يجد ماجد بُدّاً من استعمال العنف والقوة ضد برغش وبنفس التصميم الذي أراد أن يتجنبها به وبذل في ذلك الكثير من الصبر والانتظار.

وقد نصحه القنصل البريطاني بوجوب وضع حدٍ نهائي لهذه الاضطرابات التي طال أمدها واتسع مداها ووعده بتقديم المساعدة له في هذا السبيل والوقوف إلى جانبه حتى النهاية. وصدف أن كان في الميناء سفينة حربية بريطانية صغيرة فتم الاتفاق أن يتحول مرساها إلى قرب بيت برغش لتقوم بإنزال قوى من مشاة البحرية إلى البر للزحف على البيت فإذا لم تؤدِ هذه الإجراءات إلى استسلام برغش فعند ذلك تبدأ مدافع السفينة بالقصف الحقيقي لبيت برغش.

وقد استيقظتُ صبيحة ذلك اليوم وذهبت إلى غرفة خولة لأحييها تحية الصباح، وكانت غرفتها تطل على البحر، فوجدتها في أشد حالات الاضطراب والهلع، وما رأتني حتى بدأت تلومني وتعنفني لغيابي، ثم شرحت لي الوضع واستطعنا من نافذة غرفتها أن نرى الزورق البريطاني وبحارته.

ولم يكن في الخطر الحال شك هذه المرة. كما لم يكن عندي شك أن السبب هذه المرة هو عناد برغش العقيم، ولو أنه رضخ لمساعي أخيه

السـلطان لجنّب الجميع أحداثاً دامية جديدة لا يمكن أن تعود عليه بالنفع. ولمَّا شرحت رأيي هذا لخولة انهالت عليّ لوماً وتقريعاً واتهاماً بأنني لم أكن مع القضية في حقيقة نفسي وأعماق قلبي.

ولقد أذهلني ما سـمعته من خولة فأجبتها بحدة وانفعال: «وما الذي كان يجب علـيّ أن أفعله لأبرهن على صدق ولائي للثورة؟ ألم أضحي بنفسـي وأحملها على المكاره؟، ألم أضحـي بمالي وثروتي، هل تأخرت في أداء ما طلب إلى أداؤه. وهل ضاعت كل هـذه التضحيات وانمحت وأصبحت الآن في موضع الاتهام والظنـون لمجرد أنني في ميزان العقـل والمنطق لم أعد أرى نفعاً في الاستمرار بهذا العمل الطائش؟».

وقد آلمني هذا الاتهام، ولعلني لم أكن لأكترث له لو جاءني من شخص آخر غير حبيبتي خولة. التي في سبيل حبها وإرضائها أقدمتُ على ما أقدمتُ عليه.

❁ ❁ ❁

وفي أثناء حديثنا هـذا بدأ البحارة بإطلاق نـار بنادقهم بغزارة وتصميم على بيت برغش، وقد اخترق الرصـاص نوافذ البيت وكادت واحدة منها أن تصيب برغش نفسـه لذا فقد انسـحب وأخته وأخوه عبد العزيز إلى القسم الخلفي من الدار ابتغاء السلامة والنجاة.

وما أن سمعت خولة أصوات الرصاص حتى تشنجت أعصابها وانهمرت دموعها وانهالت تلعن وتشـتم ماجداً وحكومته والإنكليز الواحد بعد الآخر بصورة شـنيعة في حين انتشـر الرعب والفزع بين أهل الدار جميعها صغاراً وكباراً سادة وخدماً، فدارنا تقع خلف دار برغش مباشرة فنحن إذن معرضون لهذا الرصاص في النهاية ومعرضون للدمار إذا ما بدأت المدافع قصفها وقد

فقدنا في غمرة الهلع والرعب الرشد والاتزان ولم ندرِ ما نصنع بأنفسنا وإلى أين نذهب. فكنا نهيم في أرجاء الدار كالمجانين على غير هدى فمنا من أخذت تودّع الأخريات وتسألهن العفو والغفران ومنا من بدأت تجمع متاعها وحليها تأهباً للفرار وانخرط الجميع بالبكاء والنواح وعلا الضجيج والصياح وامتزج بأصوات الرصاص وشلّت قدرتنا عن التصرف والتفكير.

وكان منا من انصرفن إلى الصلاة في ممرات القصر أو باحاته. فران عليهن الهدوء والسلام، ولم يعد يشغلهن الضجيج ولا لعلعة الرصاص. وسرعان ما احتذت الأخريات أمثولتهن فأقبلن على الصلاة نشداناً لراحة البال وهدوء الأعصاب فانجاب الهياج والتوتر وحلّت محله سكينة مصدرها الإيمان بالله والتسليم إلى قضائه وإرادته والثقة بحكمته وتقبل قضائه وقدره بنفس مطمئنة راضية.

❁ ❁ ❁

ولكن الخطر ظل يزداد بمرور الدقائق وأصبح العناد حماقة تؤدي إلى كارثة جمعاء ولهذا فقد استطاعت خولة أن تحمل أخانا العنيد على القبول بالاستسلام وخلافاً لكل التقاليد وقواعد اللياقة والأصول فقد خرجت بنفسها إلى الشارع تعدو نحو بيت القنصل البريطاني لتنهي إليه الخير وتطلب إليه إيقاف إطلاق النار. وقد تساءل الكثيرون في حينه بعد هذا الحادث عن السر في ذهاب خولة إلى الإنكليز بدل الذهاب إلى أخيها ماجد، وهل بلغ عداء خولة وبرغش نحو أخيهما السلطان حداً يفضلان فيه اللجوء إلى قوة أجنبية على طلب العفو منه مباشرة؟

ولا أعلم الجواب على هذا التساؤل وقد شغلنا تداول الأحداث عن الحديث في هذا الموضوع.

وعلى كل حال فلم يكـــن للبريطانيين آنذاك النفوذ الـــذي لهم الآن في زنجبار وشـــرق أفريقيا. وكان تدخلهم في شـــؤون زنجبار المحلية محدوداً بنطاق ضيق كتدخل الأتراك أو الألمان في شـــؤون تلك البلاد. ولكن ابتداءً من عـــام ١٨٧٥ ومن هذا العام فقـــط، تغيّرت الأمور بشـــكلٍ ملحوظ لصالح بريطانيا على حساب دمار شعبنا وإفقاره واسترقاقه والفضل في ذلك للسياسة الإنكليزية في مكافحة الرقيق!!.

ولم تســـتطع خولة أن تعثر على القنصل البريطاني لكـــن جنود البحرية أوقفوا إطلاق النار إثر ســـماعهم أصوات الاســـتغاثة من بيت برغش تنادي «الأمان... الأمان...» ومشـــاهدتهم المناديل وأغطية الفراش البيض يلوّح بها سكان الدار.

وهكذا تمّ النجاة من كارثة دموية دهماء وكان ذلك قبل أن تصدر الأوامر إلى المدافـــع بإطلاق النار بدقائق قليلة. ولكن لو أن مدافع الســـفينة قصفت بيت المتآمر على العرش في ذلك اليوم، لـــكان الجالس على عرش زنجبار اليوم رجلاً غيره ولما كان قدر لي المجيء إلى أوروبا.

ولِرُبّ سائلٍ يسأل الآن، ما كان عقابنا نحن النســـاء عما فعلناه وشاركنا في فعله من شـــر ودمار؟ والجواب هو لا شـــيء. فلو لم يكـــن على عرش الســـلطنة ذو الجناب العالي والقلب الكبير أخونا ماجد لنالنا ولا ريب شـــر كثير، ولكنه بحلمه ونبله أبى أن يحاسبنا عن كل ما قدمت أيدينا ضده.

ولمنع تكرار أمثال هذه المؤمرات فقد تقـــرر بنصيحة القنصل البريطاني نفي برغش إلـــى بومباي وعلى هذا فقـــد نُقل إليها على ظهر ســـفينة حربية وذهب معه باختياره أخوه عبد العزيز. وقد زرنا برغش مودعين ذلك المساء وبالنسبة لي كان الوداع الأخير لبرغش.

ولا شك أن البريطانيين أرادوا الاحتفاظ بالمرشح الجديد وخليفة ماجد على السلطنة ليتدرب على أيديهم ويتعلم كيف يعمل لتحقيق مطالبهم حين يحين الحين. وقد فعل وأجاد. وقد قضى برغش في بومباي سنتين ثم عاد إلى زنجبار بكل هدوء وظل كذلك حتى ارتقى ـ بعد وفاة ماجد عام ١٨٧٠ ـ عرش البلاد الذي طال انتظاره له وكفاحه من أجله.

❁ ❁ ❁

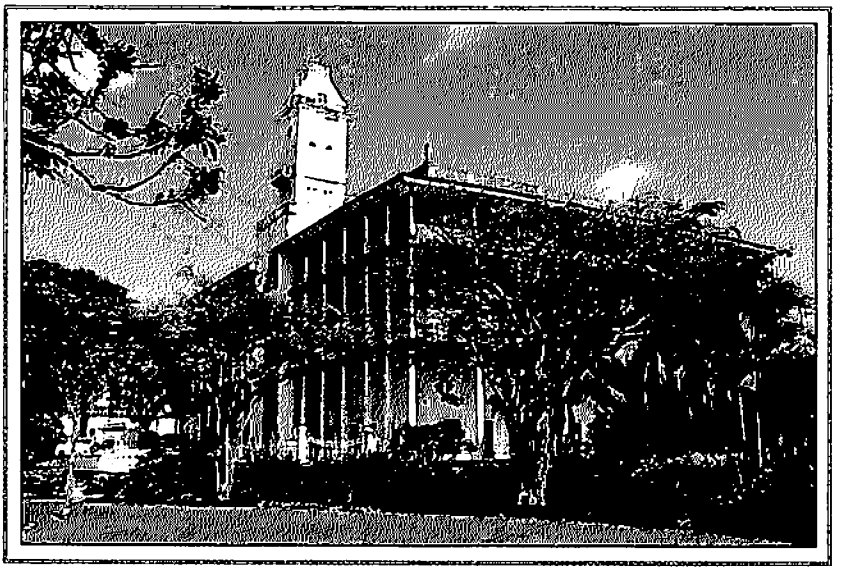

بيت العجائب

الفصل الثاني والعشرون
حصاد الشر

انتهت مغامرتنا بالفشـــل الذريع وانهارت آمالنا العُراض وانقشـــعت عن عيوننا براقع الغش والخيال وارتطمنا بالواقع القاســـي وكان علينا أن نقطف ثمار ما صنعت أيدينا وندفع ثمن سوء صنيعنا.

وكان الثمن غالياً من ناحيتيه الماديـــة والمعنوية، فقد تضعضعت أمورنا المالية وخســـرنا الكثير مـــن مواردنا، كما خســـرنا الكثير من خيـــرة عبيدنا القدامى المخلصين فمنهم من قضى نحبه ومنهم من أقعده المرض أو شوهته المعركـــة فظلوا أمامنا شـــواهد حيّة تذكرنـــا بجحودنا الذي ســـبب كل هذه الفواجع والآلام للأبرياء من الناس.

وكان الخطب أهون لو اقتصر حصاد الشـــر الذي زرعناه على الخســـارة المادية فحسب، ولكن الأدهى والأشد مضاضة هو ما لحقنا، أنا وخولة وابنتا أخي خالد ـ من قطيعة تامة ونبذ تام من جميع أفراد عائلتنا وأقاربنا وأصدقائنا جعلنا في عزلة كاملة. وكان مما يزيد الألم وقعاً في نفوســـنا هو شعورنا التام بأحقية قومنا في تصرفهم هذا تجاهنا.

وفي وســـط هذا الجو المحموم من الكراهية والبغـــض ظل ماجد وحده ذلك القلب الكبير والأخ النبيل الذي كانه دائمـــاً. فلم تغيّره الأحداث وظل

يرفض دوماً الأصوات الكثيرة المنادية بإيقـاع العقاب بنا، وكانت محقة كل الحق في إلقاء تبعـة الحوادث على كواهلنا نحن النسـاء. فلولا مشـاركتنا ودعمنا لما اسـتطاع برغش أن يصمد في مقاومته أو يقدم أعماله التي أدّت إلى سفك الدماء وقتل الأبرياء.

وكان ماجد يعترف بسلامة هذه الحجة وبصحة الوقائع، ولكن رجولته كانت تأبى عليه معاقبة النساء الغريبات فكيف إذا كن بنات أبيه ومن لحمه ودمه؟

وهذا كرم أخلاق ونبل مـن ماجد كنا أقل من أن نسـتحقه كما كان هو أعلى وأجلّ من أن يتهم من أجله بالضعف.

❁ ❁ ❁

وقد زاد بعض ضعاف النفوس على ذلك بالتجسـس علينا ونقل أخبارنا إما تشـفياً منا لعداءً أو تملقاً للسـلطة. ولـم نكن من جانبنـا نهتم لأعمال التجسـس هذه، فنحن أعرف من غيرنا بأن قضيتنا انتهت إلى غير عودة. ولم يبق لنا ما نحرص على كتمانه أو نخشـى انتشـار خبره، لكـن بقاءنا هدفاً للرقابة والشـكوك قد أبعـد عنا من تبقى لنـا من المعـارف والأصدقاء بل والخـدم أيضاً وحتى بلغ الأمر إلى حـد إن انقطع عنا نهائيـاً الباعة البانيان المتجولون الذيـن اعتادوا قبلاً أن ينسـلوا إلـى بيوتنا كل مسـاء يروجون لبضائعهم الهندية بالوقاحة والشطارة اللتين اشتهروا بهما.

وتبعاً لهذا فقـد أصبحت بيوتنا خالية موحشـة لا يطرقها أو يدلف إليها أحد قط بعد أن كانت كخليات النحل تعج وتموج بالرائحين والغادين صبح مساء. مما جعل الحياة فيها على هذا المنوال صعبة الاحتمال.

❁ ❁ ❁

ولم أكن منذ وفاة أمي قد زرت مزارعي الثـلاث إلا نادراً ولمدة قصيرة من الوقت لا تتجاوز اليوم الواحد في كل مـرة، ولكنني الآن وبعد ما نالني

من التعب والإرهاق وما مرّ عليّ من تقلب الأحوال ونفور الأهل والأصدقاء وضياع الجهد والآمال، قررتُ أن أبتعد عن الناس وأسكن إحدى مزارعي حتى تعود إليّ راحة الجسم والنفس والضمير، وقد اخترتُ لسكناي مزرعة كيسيمباني لأنه المحل الذي كانت تفضله أُمي الحبيبة والذي تمتلأ أرجاؤه بذكريات زياراتها المتكررة إليه، وتنفيذاً لهذا القرار فقد انطلق بي فجر أحد الأيام حماري الأبيض الصغير يتهادى بين المزارع والحقول متجهاً نحو كيسيمباني. ولم أكن أجهل ما سينوء به عاتقي من المتاعب التي تواجهها المرأة العربية التي تعيش وحدها بسبب العزلة التامة المفروضة عليها عن عالم الرجال.

فالتقاليد القاسية في بلادنا تحرّم علينا الكلام مع الرجال الأحرار وإن كانوا وكلاء أعمالنا أو نظار مزارعنا، ولذلك فإن الأوامر والحسابات تروح وتجيء بواسطة العبيد.

ولم يكن من المألوف قط أن تستلم المرأة من ناظر مزرعتها كشف الحساب أو ميزانية العام. فعارفات القراءة والكتابة قلة نادرة جدّاً بين نساء بلدي، والأندر من ذلك أن تجد امرأة رأت في حياتها كشفاً بوارداتها ونفقاتها. فما دام الناظر يملأ الدار طعاماً ومؤوناً، وما دام فوق ذلك يدفع إلى سيدته بعض الدولارات في نهاية العام، فهذا حسبها وفيه الكفاية.

وهذه الواردات تأتيها من بيع القرنفل وجوز الهند أما ما تنبته الأرض خلاف ذلك من حبوب أو خضار فمن العيب بيعه وإنما يترك لنظار المزارع يفعلون به ما يحلو لهم بعد أن يسدوا حاجة البيت من هذه المواد.

ولما كنت أسكن المدينة كان ناظر مزرعتي حسن بن علي يزورني مرة كل أسبوع أو إثنين ليدلي إليّ بتقريره بواسطة أحد الخدم ويتلقى عن طريقهم أيضاً أوامري وتعليماتي. وكانت لنا غرفة معدة لاستقبال هؤلاء

الرجال حيث يحلون فيها للأكل والنوم والراحة قبل أن يعودوا في المساء إلى مزارعهم.

ولكن مقام حسن في المزرعة أصبح نشازاً بعد انتقالي إليها، فقد كان المسكين يتنقل من مكان آخر بغية الاختفاء عني وعدم ظهوره أمامي. ولهذا لم أجد مفراً من نقله إلى مزرعة أخرى وتعيين أحد عبيدنا الأحباش ناظراً بدلاً عنه. وكان الناظر الجديد ـ مرجان، رجلاً نشطاً ذكياً وكان يعرف القراءة والكتابة.

وقد يسّر لي ذهاب حسن عن المزرعة حرية التجوال فيها دون ما شعور بمضايقة الناظر أو أحد غيره. وكنت أقضي ساعات نهاري بتفقد المزارع وحيواناتي الأليفة، وكنت أجد سعادة لا توصف في الترفيه عن الشيوخ والمرضى، فكنت أزورهم في أكواخهم الحقيرة وأبعث لهم بوجبات الطعام من مائدتي الفاخرة، وكنت أعتني بأطفال العبيد، وهم في حقيقة الأمر نوع من الريع لمالك الأبوين، فكنت أجمعهم يومياً وأعين من يشرف على رقابتهم وتنظيفهم وإطعامهم، وكنا نستعمل السدر للغسيل وهو ورق شجر كبير إذا ما جفف وطحن وخلط بالماء أعطى رغوة كرغوة الصابون. ويظل الأطفال يلعبون ويمرحون حتى تعود أُمهاتهم مساءً إلى بيوتهن وهذا أنفع للأطفال وللأُم من حملهم على ظهور أُمهاتهم طول النهار تحت حرارة الشمس المحرقة.

وقد أفادتني حياة الريف الهادئة المنتظمة فعادت إليّ راحة الجسم وصفاء البال وراحة الضمير وطبقاً للأصول فقد بدأ نساء أعيان المنطقة يزرنني ويقضين في ضيافتي ساعات طويلة وكذلك بدأ يفعل بعض أصدقائي القدامى في المدينة وكانت زياراتهم قد تمتد أياماً أو أسابيع. ولأن كيسيمباني كانت تقع على مفترق عدة طرق فقد كان عدد الضيوف العابرة لدينا كثيراً كل يوم. وكانت بجواري مزرعتان لاثنتين من أخواتي ومزرعة للسيد فيصل

إبن أخي الأكبر هلال. وقد قلت عن هذا الرجل من قبل أنه امرئ وديع طيب ولكن الناس لم تنصفه وكنت أول من عرفه على حقيقته وقد تعلق بي تعلق الطفل بأمه وكان يزورني يومياً.

وقد احتفظت بصلة منتظمة مع المدينة فكنت أسيّر إليها رسولاً في صباح كل يوم ليعود لي بأخبارها في المساء. كما كنت أرسل إحدى خادماتي مرة في الأسبوع لتعود إليّ بأخبار صديقاتي وقريباتي.

ولا شك أن الرجة التي أحدثتها ظروف تلك المؤامرة الفاشلة قد خفت حدتها الآن، إلا أن الحقد والنفور بين الأخوة والأخوات ما يزال قائماً وهذا ما يدعوني إلى تأخير عودتي إلى المدينة وانقطاعي عن زيارتها.

وكادت أن تكون سعادتي كاملة تامة لو لم أفتقد شيئاً واحداً... هو البحر، الذي اعتدت أن أشاهده في كل لحظة من لحظات حياتي. فمزارعي الثلاث تقع كلها في البر بعيدة عن البحر، لذلك فقد قررت أن أشتري مزرعة قرب البحر مهما كلفني ذلك من جهد أو ثمن ولم يكن العثور على مثل هذه المزرعة بالأمر السهل فالذين يملكون أمثالها لا يفرطون بها لموقعها لا إيرادها. ورغم الوعود التي كالها إليّ الدلال فقد عاد إليّ يعلن لي عجزه عن العثور على ما أُريد.

وما أن أبلغني الدلال أخباره المزعجة حتى جاءتني أحد صديقاتي وأخبرتني أن لابن عم لها مزرعة صغيرة على شاطئ البحر لا يستفيد منها لأنه يسكن المدينة وأنها ستحاول إقناعه ببيع هذه المزرعة أو إيجارها لي.

وفي اليوم الثاني قررتُ الذهاب لأرى بنفسي بوبوبو ـ وهذا إسم

المزرعة الجديدة. وقد وجدتها جميلة رائعة، يتوسطها دار فسيح جيد البناء قائم على شاطئ البحر بحيث تغسل الأمواج جدرانه صبح مساء، وتطل غرفه العليا على منظر رائع أخاذ للبحر، وترتفع في حديقته أشجار النخيل والجوز ويجري فيها جدول صغير يذكرني بالمتوني العزيز وهو في حد ذاته ربح كبير في مثل جو بلادنا الحار. وإلى الخلف من الدار تقع ساحة صغيرة يقوم فيه المطبخ وجناح الخدم.

وقد قررتُ شراء هذه المزرعة أو استئجارها وبعد مفاوضات صعبة دامت أسبوعين فقد ابتعتُ هذه المزرعة وانتقلتُ إليها مع دواجني وماشيتي الذين استغربوا ولا شك وجودهم على ساحل البحر بعد أن ظلوا في الأكياس والأقفاص فترة النقل من كيسيمباني إلى بوبوبو.

والظاهر أنهم احتفوا بالتغيير وتمتعوا به كما احتفيتُ وتمتعتُ به وكنت أجلس أتفرج عليهم ساعات طويلة إذ أذهب أتمشى على ساحل البحر أملي نظري بزرقته الصافية وبمنظر السفن تمخر فيه جيئةً ورواحاً وصيادي الأسماك بزوارقهم الصغيرة يمرون من أمامه تباعاً.

ولم يكن ينغص عليّ سعادتي الكاملة إلا فراق إبن أخي فيصل، فقد تألم لفراقي وحزن له أشد الحزن فلم يكن له في هذا الريف من رفيق غير زوجة أبيه العجوز.

وكانت بوبوبو قريبة إلى المدينة ويمكن الوصول إليها بسهولة براً وبحراً وكان ثلاثة من إخوتي، وهم عبد الوهاب وحمدان وجمشيد يزورونني يومياً على ظهور الخيل أو على متن قواربهم وكنا نقضي الوقت سوية بالأكل والشرب والحديث واللعب واللهو البريء.

وصارت حياتي الاجتماعية في بوبوبو أصخب منها في كيسمباني فما

كان يمر عليّ يوم واحد إلا وتزورني فيه واحـدة أو اثنتان وربما يصل العدد إلى عشرة من صديقاتي وقد تستغرق الزيارة ساعات أو تطول أياماً.

❁ ❁ ❁

وكانت إقامتي في بوبوبو خالصة السـعادة والهناء وسأبقى أذكرها على أنها أهنأ أيام حياتي، لكن لم يقدر لمقامي فيها أن يطول كثيراً.

فقد جاءني أخي عبد الوهاب في أحد الأيام وحيداً وعلى ملامحه علائم العبوس فاستغربتُ منه ذلك وسألته عما يشغل باله فأجاب:

«إننـي أحملُ لك يا سـالمة رسـالة وددت ألا أحملهـا. ولكن احزري ممن؟». فلما ألححتُ عليه بطلب الإيضاح أخبرني أن قنصلاً بريطانياً جديداً قد وصل البلاد فقلت له:

ـ وما يهمني من أمره وهل أنت مرسل من قبله؟ تكلم ولا تراوغ.

ولما رأى غضبي وهياجي رجاني الهدوء والروية وقال:

ـ إنني أحمل لك رسالة من ماجد نفسـه الذي يرجوك إن كنت ما زلت تحملين له الحب القديـم أن تهبيه بوبوبو فالقنصـل البريطاني يريدها مقراً صيفياً له وقد طلبها منه أمس.

وكان هذا الطلب صدمة قاسـية لي. ولو أتاني من أي شـخص بالوجود لكان مصيره الرفض المباشر والتام. ولكن ماجد!! هذا الأخ والسلطان الذي أعماني الطيش والجحود فتنكرتُ لأحلى الروابط والذكريات ولم أقصّر في الإسـاءة إليه والتآمر للقضاء على حياته وملكه،... ثم قابل كل ذلك بالصفح النبيل والعفو الكريم... هل أسـتطيع الآن أن أرفض له طلباً...؟ وطلباً مهماً بدا لي غالياً وعزيزاً فهو في أعراف أسرتنا طلب بسيط لا تتجاوز كلفته بضع آلاف من الدولارات، لذلك آثـرتُ التضحية بالمكان وعـدم التفريط بأول

فرصة تسنح لي لإظهار الولاء لسلطاني وإعادة أواصر الصداقة والودّ القديم مع أخي.

وقد أنهيتُ قراري إلى أخي عبد الوهاب الذي عاد وأخبر به ماجداً. وقد قررتُ أن أعود إلى مزرعتي كيسيمباني إلا أن إخوتي الثلاثة عادوا إليّ صباح اليوم التالي وأخبروني أن ماجد قد أمر عبد الوهاب بأن يشتري لي بيتاً في المدينة لأنتقل إليه. فلما أخبرتهم بقراري بالعودة إلى كيسمباني ثاروا عليّ وتوسلوا إليّ أن أعود للسكن معهم في المدينة ونقلوا إليّ رجاء أُمهاتهم ـ وكلهن شركسيات ـ بالعودة أيضاً. وأضاف جمشيد بروحه الفكهة بأنه سيحرق المزرعة إذا ما عدتُ إليها.

وتجاه هذا التوسل والإلحاح تركتُ بوبوبو بعد أسبوع عائدة إلى المدينة وسكنتُ البيت الذي اختاره لي إخوتي ودفع ثمنه ماجد.

❁ ❁ ❁

وبعد وصولي بأسبوع زارتني خولة في إحدى الأمسيات ومن دون سابق إنذار، فاستقبلتها بالود والترحاب ولكنها قابلتني بالتجهم والعبوس ورفضت الجلوس في مقام الصدارة الذي قدمته لها، ففطنتُ إلى أن سفارتها إليّ عدائية ما في ذلك شك، ولم يفتني أن ألحظ على محياها وفي حركات يديها شدة الهياج والانفعال، وقبل أن تبدأني بالسلام بادرتني بنعوت الجحود والخيانة والنفاق، لموافقتي على بيع المزرعة للقنصل البريطاني أملاً في الحصول على رضا ماجد وعطفه وطمعاً في الانتفاع منه، وإنني لم أعد للسكن معها في بيتنا الأول ـ بيت الثاني ـ نفرة منها وتجنباً لسخط ماجد عليّ إلى غير ذلك من الاتهامات. وقد حاولت بكل هدوء وعطف أن أردها إلى هدوء المزاج والروية والتعقل فذكرتها بأني شرحت لها ظروف القضية

في رسالة بعثتها لها في نفس اليوم الذي وصل إليّ فيه أخي عبد الوهاب برسالة ماجد ـ وإن إخوتي هم الذين اختاروا لي هذا البيت وأسكنوني فيه وأنني كما تعرفني هي نفسها أكثر الناس حباً لها وتعلقاً بها وقد جر عليّ حبها وولائي لها المصائب والويلات وإنني كما تعرف هي ذلك أيضاً أبعد الناس عن التملق والخضوع وأقلهم جرياً وراء المنافع والأطماع.

لكن جهودي في تهدئتها وإقناعها ذهبت عبثاً، وأصرت على أني بتصرفي في قضية المزرعة قد خنت قضيتنا وأصحابها تملقاً واسترضاءً لماجد «الملعون» كما كانت تسميتها ثم ازدادت هياجاً وانفعالاً فصرخت بي وهي خارجة من منزلي:

إسمعي يا سالمة، ليس أمامك إلا الاختيار بيني وبرغش وبين عبد الكفار الإنكليز... مع السلامة.

وخرجت في أشد حالات الانفعال، وكانت هذه آخر مقابلة لي في حياتي مع أعز خلق الله عندي فلم أرَ خولة بعد ذلك مدة بقائي في المدينة، ولم تغيّر موقفها مني إلا بعد أن ضربت بيننا الأيام جدار الغربة والبيّن وقصمت الأحداث ظهري بوفاة زوجي فعادت رسائلها الحبيبة تصلني في بلاد الغربة فتنزل على نفسي الحزينة نزول الطل على الزهر في صيف بلادنا الحار.

❁ ❁ ❁

وكنت قد انقطعتُ منذ أمدٍ طويلٍ عن لقاء ماجد وخديجة، وقررتُ أن أستمر في تجنب لقائهما خجلاً منهما لسوء ما قدمت ضدهما ودفعاً للشبهات التي قد تؤكد إتهامات خولة لي بالخيانة. ولكن القدر كان يخبىء لي مفاجأة لم تكن في الحسبان.

ولم تكن المفاجأة إلا زيارة ماجد لي على حين غفلة ودون موعد

سـابق!! فقد دخل على الدار وحاشـيته الكبيرة في أحد الأيام فهرعتُ إلى اسـتقباله كما تقضي بذلك أبسـط قواعد المجاملة والآداب. وقد أقبل عليّ باسم الثغر منشرح الأسارير بشوشـاً مرحباً من أعماق قلبه قائلاً إنه وإن كان الأكبر سناً فقد جاء إليّ ليشكرني لإنقاذي له من ورطة كبيرة كانت ستحرجه مع القنصل البريطاني لو أني رفضتُ طلبه.

وقد طغـت فرحتي بهـذه الزيارة وبرؤية أخـي ماجد على مـا عداها من المشـاعر والأحاسـيس، فتمتمتُ بكلمات غير مفهومة شـاكرة له حسن ظنه وزيارته ثم تشعب بنا الحديث إلى مواضيع شتّى، وكان ماجد ينتقل من موضع إلى آخر ويتطرق إلى أشـياء كثيرة من ذكريات الماضي ومشاغل الحاضر لكنه لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى أحداث المؤامرة الأخيرة وعواقبها موحياً لي بكل كرم ونبل أنه لم يعد يحمل لي عنها حقداً ولا غضاضة.

وقد افترقنا بعد ساعة كاملة قضيناها في خير حال من الود والوئام وقال لي وهو يودعني على عتبة الدار.

ـ أرجو إلا تبخلي علينا بالزيارة يا سـالمة. فخديجة تنتظرك مشتاقة إلى رؤياك كما أن عمتي عائشـة التي تسـكن معنا الآن والتي تحبك كل الحب تريد أن تراك أيضاً.

* * *

ولم يكن مـن المعقول ولا المقبول في شـريعة الأدب والمجاملة دعك عن شريعة الأخوة والقربى، أن امتنع عن رد الزيارة للسلطان فكيف بتجاهل دعوته الصريحة. ولذلك فقد ذهبتُ إلى بيت السـلطان وجلسـتُ إليه وإلى أخته وإلى عمتنا، ولم أكن أدري أن قيامي بأقـل واجبات اللياقة والمجاملة هذا سـيكلفني غالياً جداً، فقد اعتبر عملي هذا جريمة وخيانة وأثار عليّ وما

يزال حتى اليوم كل أنواع النقمة والحقد والبغضاء من نفس الأشخاص الذين بذلتُ حياتي ومالي وجهدي لإنجاح مؤامرتهم الرامية إلى خلع أو قتل ماجد وتنصيب برغش. لكن الحقد الدفين والبغض الأعمى كانا ـ ويا للأسف، من أبرز صفات عائلتنا ولا سيما تحت وطأة مثل هذا النزاع الحاد.

فقد استمر الفريقان كما كانا سابقاً يكيد ويدس كل منهما للآخر، ولكن بشكلٍ أخفى وبضجة أقل فقد كان الصراع بينهما أوسع من أن يرأب والكسر أكبر من أن يجبر وعواطف البغضاء أقوى من أن تلجم فلم يتورع كل فريق عن المجاهرة برأيه في الفريق الآخر.

والعربي صريح واضح بطبعه ولا يعرف المصانعة والمداورة التي يتقنها الأوروبيون فهو عنيف قاسٍ في عدائه لكنه واضح غير مخاتل.

وقد منّ الله علينا بمناسبتين سعيدتين أنستنا بعض الحين خصوماتنا التافهة وعداءنا السخيف وأعادت لحياتنا العائلية بعضاً من بهجتنا السابقة وهنائها الغابر، وكانت المناسبتان زفاف إثنتين من أخواتي على أخوين من أبناء عمومتنا فقطعت الأفراح والحفلات مسلسل الحقد والكيد بيننا لآنٍ قصيرٍ.

وقد سعدت إحدى العروسين في زواجها وعاشت مع زوجها حياة سعيدة هانئة، في حين لم تكتب السعادة للأخرى. ومن مفارقات الحياة أن الأولى لم ترزق طفلاً على شدة لهفتها وزوجها إليه في حين رزقت الثانية بالبنين والبنات.

❁ ❁ ❁

والعربي أسير عاطفته دوماً فكما ترى الحقد في أسوأ أشكاله عند العرب ترى عندهم الصداقة والوفاء على أروع صورها. فمن أراد الصداقة الحقة في

أشكالها: ـ عمق وداد وصدق إخاء وإيثاراً وطيب وفاء، فليذهب إلى الشرق. لا لأن هذه العاطفة وقفاً على العرب فقط من دون الشعوب الأخرى، بل لأنها هناك تصدر عن معدن أنقى وعاطفة أصفى، وعلى الرغم من شدة التمييز الطبقي في الشرق فإن هذه الفوارق الطبقية تذوب وتمحى تماماً أمام الصداقات الحميمة وتبقى العلاقة بين الطرفين علاقة إنسانية رقيقة وعلى قدم المساواة لا فرق إن كان أحد الطرفين أميراً حراً أو سيدة من بنات السلطان وكان الطرف الآخر عبداً رقيقاً أو أمة مشتراة.

فقد كانت أصدق صديقات أختي موجه بنتاً فقيرة أخذتها أختي برعايتها وأسكنتها معها في القصر وظلت علاقتها بهذه البنت الفقيرة ـ والذكية ـ مستمرة حتى فرق الموت بينهما.

ولا بد لي أن أذكر بالعرفان والامتنان صديقة لي من خدمي ظلت تلازمني إلى آخر لحظة من لحظات بقائي في زنجبار وأصرت على أن تصحبني في رحلة الغربة لو لم أمنعها من ذلك بالقوة والتهديد. وكانت هذه الخادمة من أوفى الصديقات ومن أعزهن منزلة عندي.

وأبرز ما تتجلى ظواهر الصداقة في الشرق في وقت الشدة، فإذا سجن شخص ما مثلاً فإن صديقه يشاركه الحبس أكثر ساعات النهار. وإذا أبعد شخص عن البلاد خرج معه أصدقاؤه أيضاً. ولا يدع الأصدقاء صديقاً لهم يحس بالعسر أو الحاجة بل يتنادون إلى جمع النقود وتقديمها له بشكلٍ لا يجرح عزته وكرامته وهم يفعلون هذا من تلقاء نفوسهم وفي السر... ذلك لأننا ننشأ في الشرق منذ الصغر على إكرام الجار والصديق.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث والعشرون
الفرار من زنجبار

في خلال تلك الأيام الحالكة الحافلة بالكيد والشجار بين أفراد عائلتنا، أسعدني الحظ بالتعرف على شاب ألماني كان ممثلاً لأحد المحال التجارية الألمانية في زنجبار وهو الذي كُتب له أن يكون زوجي في قابل الأيام، ولأن كثيراً من القصص الكاذب واللغو الباطل قد روى عن هذا الموضوع فأرى من الأفضل أن أوجز حقيقة هذه القصة في هذا المكان.

تمتع الأوروبيون في زنجبار أثناء حكم أخي ماجد بمركز اجتماعي لم يكن لهم من قبل، فكانوا يحلّون ضيوفاً معززين مكرمين على أخي في قصره أو مزرعته. وقد أقمنا أنا وأختي خولة علاقات طيبة مع بعض العائلات الأوروبية في زنجبار تتجلى في تبادل المجاملات والزيارات قدر ما تسمح به عادات البلد وتقاليدها. وكانت زيارات السيدات الأوروبيات تقتصر عليّ وعلى أختي خولة من دون نساء القصر.

وقد تعرفتُ على زوج المستقبل[1] بعد عودتي من بوبوبو، فقد كانت

---

(١) هو هذريخ روث.

الدار التي سكنتها مجاورة لداره، وكان سطح داره أوطأ من سطح داري. وكنت غالباً ما أرقب من نافذتي حفلاته الرجالية الباذخة التي كان يتعمد إقامتها في الأماكن التي يقع عليها نظري لعلمه برغبتي في الاطلاع على هذه الاحتفالات الغريبة. وسرعان ما شاع في البلد خبر صداقتنا التي تطورت في النهاية إلى حب متبادل فسمع بها أخي ماجد، ولم يحرك ساكناً، وكل ما تقوله الإشاعات في هذا الصدد عن عدائه لي أو سجني فهو محض خيال لا أساس له من الصحة.

وكان طبيعياً لي أن أحاول الخروج من البلاد سرّاً طالما يستحيل زواجي فيها، وقد فشلت محاولتي الأولى ثم تهيأت لي الفرصة ثانية بفضل المسز «س» زوجة الدكتور والقنصل الإنكليزي التي نقلتني في إحدى الليالي بزورق مع المستر «ب» ربان الباخرة الحربية البريطانية هاي فابر[١]، التي كانت جاهزة للحركة فما أن صرت على ظهرها حتى غادرت الميناء على التو، واتجهت متجهة نحو الشمال حيث أوصلتني إلى هدفي المقصود وهو ميناء عدن[٢].

وفي عدن نزلت بضيافة عائلة إسبانية تعرفتُ عليها في زنجبار وظللت أنتظر بفارغ الصبر قدوم زوجي الذي لم يلحق بي إلا بعد عدة أشهر قضاها في زنجبار لتصفية أعماله في شركته[٣]، وفي فترة الانتظار هذه أخذتُ أتلقى تعاليم الدين المسيحي، وما أن وصل زوجي حتى تم تعميدي باسم إميلي روث في الكنيسة الإنكليزية في عدن وتبعته في الحال مراسم الزواج طبقاً

---

(١) هو الكابتن باسلي.

(٢) كان ذلك في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٦٦.

(٣) وصل عدن في مارس ١٨٦٧ وغادراها في نفس الشهر إلى ألمانيا.

للشعائر الإنكليكانية. ثم سافرتُ وزوجي إلى وطنه هامبورغ حيث استقبلنا والده وأهله بترحابٍ حار.

وفي الحال حملتُ نفسي على التكيف على العيش في المحيط الأجنبي الجديد وبدأت بكل لهفة وحماس أتعلم كل ما يمكن ليساعدني في حياتي المستقبلة. وكان زوجي العزيز يراقب بكل متعة وسرور مراحل تقدمي في هذا المجال. يهمه بوجه خاص أن يرى انطباعاتي بالنسبة للحياة الأوروبية وقد سجلتُ انطباعاتي في مذكرات خاصة أرجو أن أتمكن من نشرها يوماً ما.

لكن حياتنا السعيدة الهانئة لم تستمر إلا فترة قصيرة. فلم يمضِ على استقرارنا في هامبورغ إلا ثلاث سنوات وبعض السنة حتى أُصيب زوجي العزيز الحبيب بحادث خطر أثناء قفزه من عربة الترام، وبعد ثلاث أيام قضاها في ألمٍ مبرحٍ وافاه الأجل المحتوم وهكذا قدّر لي أن أبقى وحيدة في هذا القطر الكبير الغريب ومعي ثلاثة أطفال لم يتجاوز عمر أصغرهم الثلاثة شهور[1].

وقد فكرتُ في العودة إلى وطني ولكن القدر شاء أن يلاحقني بالفواجع فقد توفي بعد شهرين أخي ماجد الذي عودني منذ الصغر على العطف والحنان. حتى بلغ من حلمه أنه لم يستنكر هروبي من زنجبار.

وقد أبدى برهاناً حسّاساً على عواطفه الأخوية الفياضة إذ أرسل لي قبل وفاته مركباً محملاً بأنواع الهدايا لتسلم إليّ في هامبورغ. ولكني مع الأسف لم أتسلم شيئاً منها وقد علمتُ بعد سنوات أن المركب وصل الميناء فعلاً

(١) كانت وفاته في ١٨٧٠.

ولكن أوامر ماجد لم تنفذ. وهنا يجب أن أقرر أيضاً أنه بعد رحيلي المفاجئ من زنجبار لم يضايق زوجي بل تركه في حريته حتى أنجز أعماله وصفاها وغادر البلاد لاحقاً بي إلى عدن.

وبقيتُ بعد هذا سنتين في هامبورغ لم يفارقني فيها سوء الحظ، وقد فقدتُ مقداراً كبيراً من ثروتي، بسبب أخطاء بعض الناس الذين وثقتُ بهم. وأحسستُ بالنفرة من هذا المكان الذي شهد الكثير من أيام سعادتي وزاد في ألمي ازورار بعض أهل البلد عني وعدم معاملتهم لي المعاملة التي تليق بي.

ولهذا انتقلتُ إلى دريسدن، حيث التقيتُ بأطيب عواطف الصداقة في كل مكان. ثم سافرتُ إلى لندن، كما سأروي ذلك في الفصل التالي. وأخيراً وفي تاريخ متأخر تبينتُ رغبتي في السكن بهذه المدينة الجميلة الصغيرة رودول ستات وهنا أيضاً قوبلتُ بأصدق عواطف الوداد والإخلاص خلال سني إقامتي من قبل الأمير الذي عمل كل ما يستطيع ليجعل إقامتي هانئة سعيدة. وقد تحسنت صحتي في رودول ستات فقررتُ أن تكون برلين مقري ليستطيع أولادي متابعة دراستهم فيها وهنا أيضاً وجدتُ أصدقاء كثيرين أدخلوا على حياتي البهجة والسرور. وقد أظهرت العائلة المالكة نفسها اهتماماً سامياً بي سأبقى أذكره لها بكل وفاء وعرفان ما حييت.

❁ ❁ ❁

السلطان برغش وحاشيته في لندن

الليدي فرير تستقبل السيد برغش وحاشيته في حديقة دارها

الفصل الرابع والعشرون
دبلوماسية إنكليزية

لم تنقطع صلتي ببلادي طيلة فترة وجودي في أوروبا ولم يفتر شوقي إليها وإلى أهلي وكنت أمنّي النفس بالعودة إليها يوماً ما، ولم أرد أن أفقد هذا الأمل اللذيذ وإن غدا تحقيقه مستحيلاً طالما ظل أخي برغش سلطاناً على البلاد.

ولم يكن دافع نقمته السوداء المتأصلة هو اعتناقي المسيحية وخروجي عن دين الآباء كما كان يحلو له أن يردد ذلك دوماً. لكن الدافع الحقيقي لهذا العداء المستمر والغل الدفين هو حقده الكبير عليّ بسبب استئناف علاقات المودة بيني وبين خصمه اللدود ماجد.

لكن هذا الموقف الظالم لم يكن ليقلل شوقي إلى أهلي وحنيني إلى بلادي ولم يكن ليؤثر على ما يضطرم في أعماق النفس من عزم وأمل بالعودة إليهم والعيش بينهم.

لهذا فلا عجب إذا ما ثارت شجوني واضطربت مشاعري واهتزّ كياني كله للأنباء التي أوردتها الصحف في ربيع عام ١٨٧٥ عن قرب زيارة أخي برغش بن سعيد سلطان زنجبار إلى لندن، ولا عجب أيضاً أن تتنازعني شتّى العواطف والأفكار ومختلف المشاعر والآمال. فهل تكون هذه الفرصة بداية

الفرج والانفتاح أم تكون مقبرة الآمال ونهاية المطاف. وهل أقدم على انتهاز هذه الفرصة بأمل التوفيق والنجاح أم أنكص عنها خشية الفشل والإخفاق.

لكن قسوة ظروفي آنذاك ومرارة تجاربي في الحياة لم تدعا لي ما أخشى عليه من الفقدان لو أنني أقدمتُ على تجربة هذه الفرصة السانحة. لهذا عقدتُ عزمي على السفر إلى لندن سعياً لتحقيق آمالي. وقد شجعني على هذا القرار الكونت بولوف وزير الخارجية الألماني ووعدني بالعون الدبلوماسي من السفير الامبراطوري في لندن الكونت مونستر والذي اتضح لي فيما بعد أنه قليل النفع والجدوى.

وأمضيتُ فترة الأسابيع القليلة قبل سفري بمحاولة تعلم اللغة الإنكليزية لتعينني في مهمتي في بلاد الغربة الجديدة، فكنت أسهر الليل حتى الفجر أقرأ الكتب وأحفظ الكلمات والتعابير عن ظهر قلب، وكان شاغلي إلى جانب ذلك تفكيري في أولادي الذين لم يسبق لي أن فارقتهم من قبل.

وبعد رحلة طويلة مضنية وصلتُ لندن، وليس لي فيها من المعارف إلا الدكتور «ب» وزوجته اللذان لم يبخلا عليّ بالترحاب الودي والمساعدات الجمّة وقد أصرا على انتقالي من الفندق إلى بيتهم في ضواحي لندن.

وكان وصولي إلى لندن قبل الموعد المقرر لوصول السلطان إليها بأسبوعين وقد قضيتُ هذين الأسبوعين بالتعرف على معالم المدينة وبالتعرف على الأشخاص ذوي العلاقة بقضيتي وأولهم بطبيعة الحال الكونت مونستر الذي وعد بمساعدتي قدر إمكانه.

وقد نصحني بعض أصدقائي الألمان أن أتصرف بلباقة وحذر، وأن أحاول أولاً وقبل كل شيء ضمان مساعدة الحكومة البريطانية لقضيتي لأن بيديها لا بيد غيرها مفتاح الحل، وقد صدق نصحهم.

ولكنني امرأة صريحة مكشوفة لا أستطيع إلا الثقة بالناس والركون إليهم

رغم ما علمتنيه ظروف الحياة من جحود الصديق وانعدام الوفاء ولا أخشى أن أعترف هنا أن إحساسي بالرهبة والخوف من العالم الجديد الغريب الذي أقف على أبوابه الآن، عالم الدبلوماسية بغموضه ومتاهاته ودقة قواعده وأصوله والتواء لغته وفخامة تعابيره الجوفاء، إن الإحساس بالرهبة من هذا العالم الجديد قد دفعني بعد التوكل على الله إلى الركون على بعض الأصدقاء. وليتني لم أفعل.

ولم يمضِ على وصولي إلى لندن وقت طويل حتى دعيت لمقابلة السير بارثل فرير. ولم أكن أعرف هذا الرجل الذي أصبح الحاكم العام لمستعمرة الكاب ـ إلا بالإسم فقط، ولكنني إذا كنت لم أؤمن بالطيرة والتشاؤم بعد، فقد آمنت بهما حال وقع بصري على هذا السياسي الذي يحكم بلدي ويسيطر على سلطانه. فقد بعثت بي نظرتي الأولى إليه إحساس بأن أعز آمالي قد انهارت وأن السبل أمام مستقبل أولادي قد سُدّت.

وبعد جلوسي إليه وتبادل التحيات والمجاملات بادرني السير بارثل بالسؤال عن مهمتي وطبيعة هدفي من القدوم إلى لندن. ورغم يقيني التام بمعرفته المسبقة لكل شيء فقد أخبرته بهدفي المعين والذي لم أحتج إلى كلام طويل لتبيانه فهو بكل اختصار وبساطة رغبتي في المصالحة مع أهلي والعودة إلى بلادي.

وبكل برود سألني السير بارثل أيهما أكثر أهمية لي هذه المصالحة المنشودة أم ضمان مستقبل أولادي؟

وليتصور القارئ مقدار استغرابي وذهولي من هذا السؤال المفاجئ. وأكاد أعجز لحد الآن عن تحليل العواطف والانفعالات التي انتابتني والتي أثارها فيّ هذا السؤال. فقد كنت أتوقع كل خيبة أم وكل صدمة ولكنني لم أكن أتوقع سماع هذا السؤال بما يرمي إليه ويعنيه من أبعاد سياسية وتهديد مبطن. ولا أظن أحداً يتهمني بالجبن والتخاذل إذا ما صعقت وانهارت قواي

في تلك اللحظة، ذلك إن مستقبل أولادي وسلامتهم أهم وأولى دون أي شك أو جدال من أي رغبة أو عاطفة شخصية لي.

وبعد أن أفقتُ قليلاً من هول الصدمة التي أوقعتني فيها مناورة هذا الدبلوماسي الماكر رجوت السير بارثل أن يشرح لي دوافع هذا الموقف. وعند ذلك أكدّ لي بصراحة حاسمة لأن الحكومة البريطانية لا رغبة لها بالتوسط بيني وبين أخي، ولأنه ضيفها في لندن فإنها ستعمل على تجنيبه كل إزعاج. ومن الجهة الثانية، فإنني إذا وعدتُ بعدم الاتصال بأخي أثناء زيارته إلى بريطانيا شخصياً أو عن طريق الرسائل فإن الحكومة البريطانية تضمن مستقبل أولادي.

وأنه لمما يحيرني حتى اليوم أن أعلم أيهما كان أكثر إزعاجاً للسلطان وأيهما كان يفضل ويختار لو ترك له الخيار: ـ إزعاج توقيع اتفاقية الرقيق التي وضعت بلاد زنجبار تحت السلطة البريطانية أم إزعاج مد يد الصفح والغفران إلى أخته المستعطفة النادمة.

خيبة أمل مريرة بسراب جديد... ووقوف من جديد في مفترق الطرق بين اختيارين:

فأما المضي لوحدي فيما صممت عليه من دون معونة حكومة الإنكليز وهي لن تتركني حرة أفعل ما أشاء بل ستضع أمامي من العراقيل والعقبات ما تنوء بحمله امرأة وحيدة مثلي. وأما أن أقبل العرض البريطاني وأعود من حيث أتيت ولكني ضامنة لأولادي مستقبلهم وسلامتهم.

وعملاً بوعدي إلى البارونة «د» في دريسدن بألا أظهر أمام أخي وحيدة ودون حماية (ولو أني أعرف أنه لا يستطيع مخالفة القوانين الإنكليزية حتى ولو ظهرت أمامه فجأة) وحرصاً على مصلحة أولادي فقد أعلنتُ للسير بارثل قبولي عرض الحكومة البريطانية.

❁ ❁ ❁

وقد دفعت هذه الأحداث بأحد أصدقائي أن يسأل السير بارثل عن سر اهتمام الحكومة البريطانية المفاجئ بمصالحي، فأجابه الدبلوماسي الحصيف إن وراء ذلك ثلاثة أغراض:

الأول: إننا نسدي للسلطان خدمة يرتاح إليها.

الثاني: إننا نطمئن الأميرة إلى وضعها لفترة من الوقت.

الثالث: إننا نسلب من المستشار الألماني (بسمارك) حجة التدخل في هذه القضية.

وهي أسباب تبدو منطقية معقولة.

❁ ❁ ❁

وتمسكاً بوعدي فقد عملتُ على تجنب رؤية برغش في الأماكن العامة كالمتاحف والحدائق وما أشبه، وذلك بالتزام البيت والامتناع عن الخروج منه ولكن مضيفتي أصرّت على وجوب خروجي معها، لأن صحتي المتداعية أصبحت أحوج ما تكون إلى الحركة والهواء النقي، لذلك بدأت أقرأ الصحف لأعرف أماكن زياراته مقدماً فأعمل على تجنبها فإذا ذهب السلطان شرقاً رحت غرباً وبالعكس. وقد فرضت هذا الإجراء على نفسي خشية ألا أستطيع ضبط نفسي من الاندفاع إليه إذا ما التقيت به في مكان ما، وإلا فلو وقع نظره عليّ فمن المستحيل أن يستطيع معرفتي وأنا باللباس الأوروبي والذي لو بعثت أمي المرحومة لما استطاعت أن تعرفني به، فكيف بأخٍ لم يرني إلا بلباسي الشرقي ومن وراء حجاب.

وكان من الأفضل لي بالطبع أن أترك هذا المكان الذي شهد خيبة أمالي وأن أعود إلى ألمانيا حيث أطفالي الأعزاء وأصدقائي الكرام.

ولكن هذا الخيار مُنع عني أيضاً وكان عليّ أن أظل نهب آلام مبرحة

أسابيع وأسابيع في بلد لا أعرف فيها أحداً ولم ألقَ فيها غير الخيبة والكمد والحرارة. فقد طلب إليّ السير بارثل أن أضع له مذكرة مفصلة في الموضوع ولعدم خبرتي في كتابة هذه التقارير الرسمية وعدم إلمامي باللغة ولتشتت أفكاري وانهيار أعصابي وانقباض نفسي، وأملاً في أن يعود هذا التقرير على قضيتي ببعض الخير، فقد طلبتُ إلى بعض أصدقائي كتابته نيابةً عني، وبعد أن قدّمته إلى السير بارثل غادرتُ لندن بعد سبع أسابيع حزينة النفس كسيرة الفؤاد ضائعة الأمل.

❁ ❁ ❁

وكان البريطانيون قد بدأوا ينظرون إلى زنجبار على أنها مستعمرة بريطانية مقبلة، لذلك فقد أحيلت مذكرتي إلى حكومة الهند في بومباي. وبقيتُ أشهراً وأشهراً أعيش في أحلام النجاح وخيالات الثراء حتى جاءني الرد البريطاني عن طريق السفير الألماني في لندن، وكان الرد جافاً مقتضباً ويتضمن رفض الحكومة البريطانية لطلبي الذي أصرّ السير بارثل على الإسراع في تقديمه، وكانت حجة الرفض أنني الآن مواطنة ألمانية بسبب زواجي من ألماني وعيشي في ألمانيا، ولهذا فإن النظر في مطالبي من اختصاص السلطات الألمانية.

وكان هذا الرد أدنى ما يمكن أن يصل إليه الخلق وتبريره أوهى وأسخف ما يمكن أن يتوصل إليه الفكر.

فليس مما يليق بدولة كبرى مثل بريطانيا أن تعامل امرأة وحيدة منكوبة مثلي هذه المعاملة الملتوية التي لا يرتضيها إدراك سليم ولا ضمير منصف وخاصة وأني لم أطلب صدقة أو إحساناً من هذه الحكومة أو تلك وإما طلبت تأييدها المعنوي لقضيتي العادلة وحقوقي المشروعة. ثم إنني لم أكتب هذه المذكرة إلا باقتراح وإلحاح عليّ من السير بارثل فرير نفسه، ذلك الدبلوماسي

البارع الذي أخذ عليّ موثقاً بأن أمتنع عن رؤية أخي أو الاتصال به مقابل وعده بضمان رفاهية أولادي وعونهم. وكنت أتصور أن مذكرتي هذه ستكون وسيلتها إلى الوفاء بوعودها... وإذا بالحكومة البريطانية تكتشف إنني ألمانية.

وكيف اكتشفتُ ذلك ومتى؟ هل كانت الحكومة البريطانية وممثلها السير بارثل فرير تجهل أمر جنسيتي حين فاوضتني وأغرتني بالوعود على مقاطعة أخي. أم أنني حين كنت في مركز القوة وفي موقف القدرة على الاتصال بأخي فإنني لم أكن مواطنة ألمانية بل كنت امرأة مهمة لبريطانيا. فقد كنت آنذاك أخت السلطان القادرة على الاتصال به والإضرار بالمصالح البريطانية فاشتروني بالوعود والرشاوى، أما الآن وقد نفذوا مآربهم وعاد السلطان إلى بلاده ولم أعد أستطيع الإضرار بمصالحهم فقد اكتشفوا أنني مواطنة ألمانية.

ولم يعد السر خافياً في سبب هذه المعاملة غير الكريمة. فالسياسة لا أخلاق لها وقد كان دافع الحكومة البريطانية إلى منع اتصالي مع أخي السلطان برغش هو رغبتها في توريط برغش بتوقيع بعض الاتفاقيات التي عادت بالشؤم والبلاء على زنجبار، وكان السلطان يجهل أية لغة أجنبية ولا يستطيع أن يفهم ألاعيب السياسة البريطانية لذلك كان جهد البريطانيين وهمهم إبقاؤه في الظلام وإبعاد كل من يمكن أن يمحضه النصح والإرشاد عنه لكي لا يتردد في توقيع ما طلب إليه توقيعه. لذلك ولمعرفتي البسيطة بالفكر الأوروبي والسياسة العالمية فقد خشيت بريطانيا أن يؤدي قربي من أخي السلطان إلى إفهامه ما لا تريده أن يفهم وإلى معرفته ما لا تريده أن يعرف من أشياء من صالح زنجبار أن يعرفها ولكن ليس من مصلحة بريطانيا أن يعرفها. على أنني في الختام أود أن أميّز بين الحكومة البريطانية والمجتمع البريطاني الذي لقيت منه أصدق العواطف والذي غمرني أفراده بالفضل والمعروف والذي سأبقى مدينة لهم بالشكر وعرفان الجميل ما حييت.

❁ ❁ ❁

الأسواق التقليدية في زنجبار

الفصل الخامس والعشرون
عودٌ إلى زنجبار

عندما كتبتُ الفصل السابق قبل عدة سنوات لم يكن يدر بخلدي أبداً أن حلم حياتي وأملي العزيز الذي شغل ذهني وملأ قلبي كل هذه السنين الطوال سيتحقق يوماً ما.

وقد كانت السنوات الطوال الحافلة بالأحداث والتي عشتها منذ أن تركتُ وطني في الجنوب فترة كفاح ونضال مررت خلالها بأقسى التجارب وأعنفها مما لا يتمناها المرء لأشـد خصومه عداء والتي كانت حصيلتها نفساً مرهقاً وجسماً متعباً.

ولقد ساعدتني أول الأمر بنيتي القوية على احتمال الشدائد والنوازل كما ساعدتني على احتمال قسوة الجو الشمالي الذي لم أعتد عليه من قبل.

لكن تعاقب المشـاكل والصدمات هدَّ من كياني وأضر بصحتي فكان لا بد لي من تغيير الجو، وبهذا عادت إليّ منذ سـنتين فكرة اصطحاب أولادي في زيارة للوطن الأول.

وقد حدثت إبنتيّ في الأمر فحذرتني إحداهما مـن مغبة تكرار محاولة هذا الأمر الذي لم يعد علينا في السـابق بطائل، في حين شجعتني الأخرى على المضي في تحقيق هذه الفكرة.

وقد بدأتُ العمل فعلاً من جديد بعزمٍ واستبسالٍ، ولقيتُ من السلطات الألمانية كل عون وتشجيع، ولكن رغم هذا وذاك فإن الأمر قد طال وتعقد حتى أوشكت أن أفقد الأمل منه من جديد.

وحين شارفتُ على اليأس أو أوشكتُ وصلت إليّ على غير انتظار رسالة عاجلة من وزارة الخارجية الامبراطورية تطلب إليّ الاستعداد للسفر إلى زنجبار في موعد قريب. وكانت هذه الرسالة بالنسبة لي كأنها البشرى أو العيد فلا عجب إذا ما طار صوابي فرحاً واستخفتني النشوة والانفعال. فالحمد لله على توفيقه وهدايته وشكراً لامبراطورنا العظيم المحبوب وحكومته الرشيدة الذين سأبقى وأولادي نذكر فضلهم بالامتنان العميق والعرفان بالجميل.

ولا حاجة بي إلى سرد تفاصيل الاستعدادات اللازمة فهي أمر معروف لكل من جرب أمثال هذه الرحلة الطويلة المدى، كما لا لزوم لتكرار القول عن الجوانب السياسية لهذه الرحلة فقد أوفتها بحثاً الصحف الصادرة تلك الأيام.

❁ ❁ ❁

وفي اليوم الأول من شهر تموز عام ١٨٨٥ بدأنا رحلتنا الطويلة من برلين نحو بريسلو ثم ڤيينا ومنها إلى تريست التي وصلناها في اليوم الثالث من الشهر ومنها أقلعت بنا الباخرة ڤينوس في نفس اليوم. وكان الطقس رائعاً والبحر ساكناً فكانت رحلتنا هادئة ممتعة وكانت بهجة الأطفال بما يشهدوه تفوق الوصف والبيان، وكذلك كانت بهجتي فلم أتحرر من القلق والهمّ وأشعر براحة البال التي افتقدتها مع الأسف طيلة السنوات الأخيرة إلا بعد أن مخرت بنا الباخرة عباب اليم.

وتوقفنا صبيحة اليوم الخامس من الشهر في جزيرة كورفو حيث أتيح لنا بجولة قصيرة أن نتمتع برؤية أحلى مشـــاهد تلك الجزيرة الرائعة، ثم سارت بنا ســـفينتنا فمررنا على أثينا في جنوب اليونان ثم على كانديا ومنها اتجهنا صوب الإسكندرية في مصر.

❁ ❁ ❁

وما أن وطأت قدماي أرض الإسكندرية وصرت بين مساجدها ومنائرها ونخيلها حتى طغى عليّ شـــعور غامر بالشـــوق والحنيـــن للأهل والأوطان، شـــعور لا يعرفه إلا من كابد مثلي الغربة عن بلده هذه السنين الطوال وشوق لا يحسّ به إلا من عانى مثل الظروف النحســـة التي عانيتها، فها هي عيناي تكتحل برؤية الجنوب العزيز بعد غياب دام تسعة عشر عاماً مليئة بالأوصاب والهموم وبلوعة الذكرى وحرقة الشوق والحنين. قضيتُ أكثر أيامها ولياليها الباردة أجالس موقد النار في بيتي.

فمع أني أصبحتُ مواطنة ألمانية من ســـكان هذا الشمال القارس البرد، ينوء كاهلـــي بالواجبـــات العديـــدة المتباينة التـــي تقوم بها ربـــات البيوت الألمانيات، إلا أنني خلال هذه المدة كلها كنت أعيش بأفكاري ومشـــاعري في الجنوب... بعيداً جداً عن المكان الذي أسكن وأعيش فيه، فما من تسلية أو تزجية فراغ كانت أفضل لي من الانكباب على قراءة كتاب يصف الجنوب أو يبحث عن أحوالـــه. ولهذا فلا عجب إذا ما ملك منظر الإســـكندرية عليَّ مشاعري وأخرجني من طوري فوقفت أشـــهد مذهولة مسرورة ضجة الميناء وجلبته وكأنني في حلم لذيذ أخشى أن ينتهي.

وحين مررنا في دائرة الجمرك طلبوا إلينا إبراز هوياتنا، ولكني قررتُ أن لا أكشف عن هويتي الحقيقية ما وسعني ذلك، فاستعرتُ من إحدى رفيقات السفر هويتها وأبرزتها للموظف المسؤول، فاكتفى بها وسط دهشتي واستغرابي.

وما أن خرجنا من دائرة الجمارك حتى أطبق علينا جمع من الناس غفير بحصار شديد يزهق الأنفاس وكدنا أن نضيع وسط جلبتهم وضوضائهم، فقد أحاط بنا عشرات العشرات من الرجال والفتيان يتصايحون ويتنابذون ويتخاصمون ويتشاتمون فميا بينهم وهم يعرضون علينا خدماتهم بإلحاح يبلغ حد الإكراه.

ولم نستطع فك هذا الحصار المطبق وشق الطريق لأنفسنا إلا بمساعدة البوليس كما استطعنا بمساعدته وبشق الأنفس الحصول على عربة تقلنا إلى الأوتيل.

ولم يخلو سيرنا في العربة من مفاجآت وفكاهات. ففي كل دقيقة وأخرى، يقفز إلينا أحد الرجال عارضاً خدماته علينا دليلاً أو ترجماناً، ومنذراً بالويلات والمتاعب التي يلقاها من لا يتكلم العربية في البلاد، ولكني ما كنت أرد عليهم باللغة العربية حتى يولوا الأدبار مذهولين.

وقد نزلنا في الإسكندرية في أوتيل بالغ الوساخة غالي للثمن وأمضينا فيها يومين مرّا كلمح البصر، وقد كنت أقضي جلّ وقتي في الأحياء العربية حيث أتمتع بجوها الشرقي العبق وعواطف أهلها الودودة، الذين كانوا يتأملوني في شكٍّ وريبة أول الأمر ولكني ما أن أتكلم العربية معهم حتى تنطلق أسارير وجوههم بالبشر والفرح فينطلقون معي في أحاديث ودّية. وكانوا يعجبون من اتقاني اللغة العربية ويسألونني «كيف تعلمت لغتنا بهذه الدرجة من الإتقان؟ لا بد أنك كنت في بغداد مدة طويلة؟».

وكان الأسطى عبده سائق العربة التي استأجرناها فترة مكوثنا في الإسكندرية، رجلاً طيباً محباً للحديث وللمزاح والانبساط، وكان ميالاً إلينا حتى أنه عرض علينا أن يأتي معنا إلى ألمانيا خادماً، وقد أقسم بشرفه أن

يبقى لي مخلصاً طيلة حياته وأن لا يسرق قطرة واحدة من نبيذي. ولكن الرجل المسكين مُني بخيبة أمل كبيرة حين اعتذرت عن اصطحابه في نهاية اليومين.

إن الإسكندرية التي اشتهرت على مرّ العصور بعظمتها وجمالها قد غدت الآن خرائب وأطلالاً، بفضل «إنسانية» الإنكليز وحبهم نشر الحضارة والمدنية في كل مكان!؟. ولذلك يندر أن تجد بين المصريين من يحب الإنكليز، وما عدا خديوي مصر ووزرائه ـ وكلهم من صنائع الإنكليز ـ فالباقون من أهل مصر يكرهون الإنكليز ويتناقلون عنهم في الشوارع والأسواق ألذع التعليقات وأشنع الشتائم. وقد سمعتُ بعضاً منها بنفسي، وكنت أسأل دائماً عما إذا كنت إنكليزية فلما أجيب بأني ألمانية أشعر بالحال بتحسن معاملتهم نحوي وارتفاعي في نظرهم، ولم يكن هذا رأي المصريين وحدهم في الإنكليز إذ ما كان رأي الجالية الأوروبية في الإسكندرية فيهم بأطيب من ذلك.

❁ ❁ ❁

ومن الإسكندرية انتقلنا إلى بور سعيد في سفرة استغرقت ثمانية عشر ساعة، حيث انتقلنا فيها إلى السفينة «أدلر» التابعة إلى الوحدة البحرية الألمانية في شرق أفريقيا.

ومع أن بور سعيد بلدة صغيرة إلا أن المتاجر فيها كثيرة بحيث يجد المرء فيها كل ما يريد ويشتهي. وبور سعيد أيضاً هي بداية الصحراء الواسعة التي تخترقها قناة السويس التي توصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر.

والقناة ضيقة جداً بحيث لا تتسع لمرور سفينتين في وقت واحد. ولهذا تقوم على مسافات متقاربة محطات لوقوف السفن الصاعدة ومثلها للسفن

النازلة. حيث تقضي السفينة في كل محطة ساعة أو ساعات تنتظر مرور السفن الأخرى القادمة من الاتجاه الثاني.

ولا يستطيع السير في القناة إلا الربابنة التي يعرفون مسالكها ودروبها. لذلك يصعد إلى ظهر السفن في بور سعيد ربابنة إنجليز يقودون السفن أثناء سيرها في القناة. وقد أكسبهم التمرين المستمر والخبرة الطويلة معرفة دقيقة بشؤون الملاحة في هذا الممر المائي الضيق، فهم يعرفون من الإشارات الطافية على سطح الماء، ما إذا كان عليهم المرور أو الانتظار وما هي مدة الانتظار وكم عدد السفن العابرة في الاتجاه الثاني.

والسفن لا تمشي في القناة بكامل سرعتها خشية أن تؤدي قوة الأمواج وتلاطمها على الشاطئين إلى انهيار جوانبهما الرملية. كما ويقف السير في القناة كلية أثناء الليل لانعدام القدرة على قراءة الإشارات.

وتعرض القناة عند مدينة السويس حيث تكون نهايتها ومدخلها إلى البحر الأحمر الذي ما أن تلجه السفن حتى تعود فتنطلق بأقصى سرعتها.

ومع أن حرارة الجو في القناة كانت مرهقة جداً إلا أنها في البحر الأحمر أكثر من أن تطاق. فكنا نتصبب عرقاً ليل نهار ولم تكن أنواء البحر لتسمح لنا بفتح نوافذ الغرف فكنا نضطر إلى قضاء الليل على ظهر السفينة على كراسي قلقة غير مريحة. وما كان هذا بالأمر الكثير الإزعاج لي، فأنا إبنة هذه الأجواء وقد طال اشتياقي لها بعد أن نخر برد الشمال عظامي طيلة هذه السنين، ولكن الجو لم يرق لأولادي وكان أكثر من أن يطيقوه فأصيبوا بالتعب والإرهاق.

❁ ❁ ❁

واستمرت رحلتنا من بور سعيد إلى ميناء عدن سبعة أيام كاملة وأقمنا

في ميناء عدن خمسة أيام قبل السماح لنا بمواصلة السفر. وما أن فارقنا هذا الميناء الصخري حتى كنا في مهب الرياح الجنوبية الغربية التي يسمونها الرياح الموسمية، وفي نفس المنطقة التي اغرقت الأعاصير فيها قبل أسابيع الباخرة الحربية «أوكستا»، وهبّت علينا ريح عاتية لعبت بالسفينة يمنةً ويسرةً ثم صارت الريح إعصاراً قوياً مدمراً دام ثلاثة أيام بلياليها رأينا الموت فيها وجهاً لوجه من شدة الفزع والرهبة ومن شدة آلام الرأس والمعدة وإرهاق البدن. فقد كانت سفينتنا خلال هذه الأيام الثلاثة كريشة في مهب الريح، فعلاً وعملاً لا وصفاً وقولاً، فكان الإعصار يرفعها إلى أعلى ثم يقذف بها إلى أسفل ثم إلى ذات اليمين أو ذات الشمال ونحن فيها أشباه أموات لا حول لنا ولا قوة تكاد أمعاؤنا أن تتقطع وعقولنا أن تجن وأرواحنا أن تزهق. لا نملك من أمرنا شيئاً إلا الاستسلام للقدر وانتظار مشيئة الله.

واستمر الرزء أياماً ثلاثاً كانت أطول من دهور فلما طلع علينا اليوم الرابع خفت هذا الإعصار وأن ظلّت الرياح تلاعب السفينة بين الحين والآخر فتطوح بها يميناً وشمالاً ولكن الأمر على شدته لا يقاس بالهول الذي شهدناه.

❁ ❁ ❁

والحمد لله في كل حال على حسن الختام. ففي اليوم الثاني من شهر آب بدت للعيان ـ ويا للفرحة ـ سواحل جزيرة بمبا، وهي على بعد ثلاثين ميلاً من زنجبار وتقطع الباخرة المسافة بينهما بثلاث ساعات. ولكن حلول الليل حظر دخول الميناء في الظلام لوجود العوارض الرملية مما اضطر سفينتنا أن تقضي ليلتها في نورث كامب شمالي زنجبار.

ولم يغمض لي جفن طول الليل أو يستقر لي جنب فقد فاضت الذكريات وجاشت العواطف وازدحمت النفس بشتى الخواطر والانفعالات. واستيقظ

أولادي في اليـوم التالي مبكرين وحين خرجنا إلى سـطح السـفينة كانت السـفينة تزحف رويداً رويداً نحو الميناء وكانت أسـداف الظلمة تنزاح أمام أنوار الفجر فتنكشـف للعيان أشـجار النخيل في الأفق البعيـد وكأنها تتلع نحونا بأجيادها لترنو إلينا أو لتحيينا من بعيد وكلما زدنا اقتراباً من الشـاطئ ظهرت البساتين الكثة الأشجار وتحتها قرى الزنوج مبعثرة هنا وهناك.

وقد سـلب لبي هذا المنظر الرائـع منظر البحر والفجـر وأرض الوطن العزيز وكان أرق الليل وفيض العاطفة وجيشـان الفكـر واضطرام الفؤاد قد جعل مني روحاً رقيقاً شفافاً فرحتُ أتأمل المنظر حتى غبتُ عن الوجود في تأمـلات وذكريات فانهالـت أمام ناظري صـور طفولتي وشـبابي في هذه الأوطان ثم مـا جرى لي بعد ذلك مـن غرائب الأحداث وصـروف الزمان فعجبتُ لتفاهة الإنسان في هذا الكون ولغرابة الصدف في هذه الحياة. فالمرء في هذه الحياة لا يملك من أمر نفسـه شـيئاً ولا يعرف ما يضمر له الغد من غير وأحداث.

فهنا وُلدت ونشأتُ عربية مسلمة وفي أعزّ دار، ثم حكمت الظروف عليّ بالهجرة إلى بلاد لم أكن قد سـمعتُ بها أو رأيتها من قبل، وها أنا أعود إلى بلادي نصف مسـيحية ونصف ألمانية ومن غرائب الصدف أن تكون عودتي إلى وطني بعـد هذا الاغتراب الطويل في نفس الشـهر الذي غادرته فيه قبل تسعة عشـرة عاماً، ولعل الأغرب أن يتفق هذا اليوم يوم وصولي زنجبار مع نفس اليوم بل ونفس الساعة التي توفي فيها زوجي قبل خمسة عشر عاماً.

وقد شـهد أولادي ذهولي وانشـغال بالي فظلّوا ينظـرون إليّ بصمت وتقدير ولم يقطعوا عليّ حبل أفكاري. ولكن عيونهـم الذكية اللماعة كانت تفيض حباً وحنانـاً وأنني لأحمد الله تعالى أن وهبني هؤلاء الأولاد سـلوى وقرة عين بعد أن سلبتني الحياة أعز ما أملك.

❁ ❁ ❁

وكان المنيـــاء يبدو من بعيد وكأنـــه غابة من الصواري والأشـــرعة. فقد سبقتنا إلى الوصول أربع قطع من الأســـطول الألماني الشرقي والذي تشكل باخرتنا أدلر قطعة منه، ثم هناك باخرتان كبيرتان تابعتان للأسطول البريطاني وخمس ســـفن من ســـفن الســـلطان وعدد لا يُحصى من المراكب الشراعية الصغيرة والكبيرة.

ولم يشـــأ الكومودور باســـجن ربان باخرتنا أن يســـمح لي بالنزول إلى المدينة وإنما أراد أن يعتبرني ـ على حد قوله ـ «حمولة ســـرية» وهي تسمية أثارت التنكيت والاســـتهزاء. لكن وصول الأميرال كنـــور على ظهر الباخرة الحربية بسمارك أصلح الأمور وأعاد لي حريتي في النزول إلى المدينة وقت ما أشاء[1].

وقد نزلتُ إلى المدينة وتجولتُ في أنحائهـــا. وكان مجرد وجودي ثانية على أرض بلدي وتجوالي في شوارعه مبعثاً لشتى الانفعالات والأحاسيس.

لكن أقوى هذه الأحاسيس إثارة كان شـــعوري بالغرابة والدهشة لقدرتي على السير في شوارع المدينة في وضح النهار وبرفقة جمع من الرجال، وأنا التي اعتدتُ ألا أخرج إلى هذه الشـــوارع إلا محجبة الوجه ملفوفة الجســـم وتحت جنح الظلام وبين صفوف من الحراس العبيد. وكنت أظن أن حياتي تســـعة عشـــر عاماً في أوروبا قد أنســـتني هذا الماضي وعودتني على الحياة الجديدة، لكن تجوالي في شوارع زنجبار أشعرني من جديد بتحرري بشكلٍ لم أكن أشـــعر به من قبل حتى فـــي خلال زيارتين ســـابقتين قمت بهما إلى مصر.

---

(١) لم يشأ ربان الباخرة الإفصاح عن وجود الأميرة في باخرته، لكن عيون القنصل الإنكليزي اكتشـــفت وجودها. وإن الربان أراد إخفاء وجودها لأن الغرض من ذهابها إلى زنجبار كان غرضاً سياسياً أسلفنا القول عنه في المقدمة.

ومنذ جولتي الأولى في شـوارع المدينة بدأ النـاس يتجمهرون حولي ويحيطون بي من كل جهة ويرافقونني إلى كل مكان. وكنت ألمح في عيونهم وعلى وجوههم علائم حنان عميق ولهفة مكبوتة ودهشة واضحة. ولم يستطع بعضهم كتم عواطفهم فكانوا يسلمون عليّ بالعربية أو السواحلية ويسألونني عن صحتـي ويؤدون لي مظاهر الاحتـرام والتقدير. وبمـرور الأيام بدا هذا الجمع المرافق لنا ـ باختياره ـ يزداد عدده ويطغى حماسة وبعمقٍ وداده، ولم يكن هذا في طبيعة الحال مما يرضي السـلطان ومستشاره السياسي القنصل البريطاني العام.

وقد عمد السـلطان إلى إيقاع أقصـى العقاب كالحبـس والجلد ببعض المسـاكين الأبرياء ممن كانوا يرافقون مسيرتنا. ولم يكتفِ بذلك بل اشتكى هو والقنصـل البريطانـي العام لـدى قائد الوحـدة البحريـة الألمانية من التظاهرات التي ترافق جولاتي في المدينة.

وعند سماعي هذه الأخبار، وإشفاقاً مني على هؤلاء الأبرياء الطيبين فقد حذرتهم من مرافقتي ورجوتُ إليهم الامتناع عنها، إلا أنهم أجابوا أن ما من عقاب يستطيع أن يصدهم عن إظهار شعورهم بالولاء والوفاء نحوي.

وكان العبيد يحملـون إليّ أخبار إخوتي وأخواتـي وأقاربي وأصدقائي، وينقلون إليّ تحياتهم واستمرار ودهم وإخلاصهم وأن دورهم مفتوحة أمامي وأنهم يرغبون في زيارتي على ظهر الباخرة وكان بعض هؤلاء العبيد يحملون إليّ معهم رسـائل مكتوبة من بعض أخواتي، وكانوا يخفون الرسـائل تحت عمائمهم ثم يدسـونها في يدي على حين غفلة من العيون. وكانت رسـائل أخواتي تفيض شوقاً ولوعةً وحنيناً يطلبن إليّ أن أزورهن في بيوتهن.

ولكنني كنت أرفض الاسـتجابة لهذه النداءات أو تلك، لا عن جفاء بل نزولاً عند حكم الظروف السائدة وإبعاداً للطرفين عن المشاكل والمتاعب.

وفي أثناء تجوالي في المدينة، كنت ألمح السيدات يتجمعن خلف أبواب دورهن ليلقين إليّ بالتحية أو بكلمات الإعجاب والتشجيع.

وكنا إذا مررنا بالزوارق أمام القصر، أو سرنا تحت نوافذ غرف الحريم السلطاني، نشاهد نساء السلطان يلوحن إلينا بأيديهن بالتحية والسلام. وكنت أرجو من معي من ضباط وبحارة أن يتجاهلوا هذه الإشارات وألا يردوا التحية بمثلها، وكنت بدوري أتجنب النظر صوب القصور، وذلك من أجل سلامة هاته النسوة الطيبات وإنقاذهن من عقاب مميت. فقد كان يلذ لسيدهن السلطان أن يخفي نفسه في مكان ما في القصر يستطيع منه أن يراقب النسوة المتفرجات على البحر أو الشارع، فإذا بدرت من إحداهن إشارة بريئة أو تحية مجاملة عابرة فالويل كل الويل لهذه المسكينة من عقاب سيدها السلطان.

وليس في هذا الكلام تلفيق أو اختلاق، بل هو حقيقة واقعة يعرفها الجميع بل ويعرفها الأوروبيون الساكنون في زنجبار حق المعرفة.

ومن الحكايات المشهورة في هذا الصدد القصة التي وقعت أحداثها في السنة السابقة على وصولي إلى زنجبار، فقد لمح السلطان وهو في مرصده السري إحدى محظياته الشركسيات، وكانت على جانب كبير من الملاحة والجمال ـ تلوح بالتحية إلى بحار برتغالي كان يمر بزورقه أمام القصر.

ولم يكن في عمل هذه السيدة ما يستوجب الشك والمؤاخذة فالعقاب. إذ أذكر أننا كنا ـ أيام طفولتي قبل ثلاثين عاماً ـ نتقبل سلام الضباط والبحارة الإنكليز والفرنسيين ونرد عليهم تحيتهم بالشكر، ولم تثر تصرفاتنا هذه اعتراض أحد من سادتنا.

لكن للسيد برغش رأياً آخر في الموضوع فقد ذهب إلى حسنائه الشركسية وبدأ يجلدها بالسوط عن ذنبٍ لا وجود له، وبقسوة متناهية لم تحتملها فأسلمت الروح بعد أيام قلائل. وقد قيل أنه ندم على فعلته بعد أن رأى شناعة نتيجتها وبشاعة جريمته فأقبل على ضحيته يطلب منها الصفح والغفران فأبتهما عليه حتى أسلمت الروح، وتكفيراً عن ذنبه فإنه ما زال يقيم على قبرها تلاوة القرآن يومياً.

ورغم اشتهار السلطان بالقسوة وشدة العقاب فإن ذلك لم يمنع الناس من استمرار توددهم إليّ وإظهار شعورهم نحوي، ولعل مما كان يغيظ السلطان أن يسمع الجماهير تهتف لي «كواهيري بيبي... كواهيري بيبي» أي مع السلامة سيدتي، يهتفون بها تحت نوافذ غرف قصره كلما ركبنا زوارقنا عائدين إلى السفينة.

ومن الطبيعي أن ينطلق في أثرنا الجواسيس والمخبرون، وكان جل هؤلاء من الهندوس والذين لا يستطيعون أن يفهموا عنا شيئاً لأننا نتكلم الألمانية التي لا يفهمن منها حرفاً. وفي الليلة السابقة على يوم رحيلي تسلل إلى السفينة تحت جنح الظلام إثنان من أصدقائي لتوديعي، وجلبا انتباهي إلى رجل ضئيل الحجم كان يتردد كثيراً على باخرتنا كبائع متجول وأخبراني أنه جاسوس بيرادوجي الذي أصبح الآن رجل القصر الأول في حين كان في أول أمره حلاقاً ومنظفاً للمصابيح في القصر.

وبيرادوجي هذا هندوسي خبيث الطبع وضيع الأصل وضع نفسه تحت تصرف السلطان خادماً وضيعاً حتى غدا رجل السلطان الأول الذي ينهض عنه بالأمور جميعها صغيرة وكبيرة من المفاوضات الدبلوماسية إلى الخدمة على مائدة الطعام. ويتقاضى بيرادوجي راتباً قدره ثلاثون دولاراً في الشهر فقط وهو باعتراف الجميع مبلغ ضئيل لا يكفي نفقات عيشه الباذخ ولباسه

النفيس، ومن الطبيعي بعد هذا أن يتلفت هذا الهندوسي يمنةً وشمالاً للبحث عن مـوارد جديدة بالحرام وكان يسـتغل لهـذا الغرض نفوذه الواسـع عند السـلطان ليوقع أشـد الأذى بمن يتأخر عن تلبية مطاليبه فمن ذلك مثلاً أن مجهز القصر بالجواهر رفض أن يدفع إلى موظف المصابيح هذا عمولة على مشتريات السلطان، فأقنع بيرادوجي السلطان بالتحول عن هذا الجوهري إلى آخر أكثر استجابة لمطالب بيرا من الأول.

❁ ❁ ❁

ومن غرائب الصدف أن يقع عيد ميلادي في هـذه الأيام وأن أحتفل به على ظهر سفينتنا، وهذه أول مرة أحتفل فيها بعيد ميلادي في زنجبار إذ ليس من عادة بني قومي الاحتفال في هذه المناسبات.

❁ ❁ ❁

وتبدو مدينة زنجبار من البحر أكثر جمـالاً مما كانت عليه من قبل. فقد بنيت فيها عدة بيـوت جديدة ومما زاد من جمال منظرهـا الفنار القائم أمام القصـر والمضاء بالكهربـاء والذي يصفه ضبـاط بحارته بأنه «شـجرة عيد الميلاد السلطانية» لكثرة مصابيحه.

ولكن يتـراءى لي ـ ولعل هذا مـن أثر إقامتي الطويلة فـي أوروبا ـ أن داخل المدينة قد سـاء أمره وأصبح في حال يرثى لـه من الخراب والإهمال فالخرائب تنتشر في شـوارع المدينة الضيقة والوسخة وقد نما عليها العشب والحشيش بل ونبتت بها بعض الشجيرات أيضاً. ولا تجد من يلتفت إلى هذا الحال أو يكترث بها بـل يمر الناس بها وكأنها أمر غيـر ذي بال. ويبدو أن إنشـاء مجلس بلدي ليس بالأمر اليسـير وإلا لاستطاع السـلطان أن يعالج الأحوال وخاصة وانه شاهد نظافة المدن وشوارعها في بمباي ولندن وباريس.

على أنه أدخل إلى البلاد معملاً لصنع الثلج ومحطة للكهرباء والقطار وأشياء أخرى ليس أقلها الطباخون الفرنسيون ولا الأطباق الفرنسية.

ولقد صدمني سوء حال المدينة وخرابها وآلمني أشد الألم ولم أكن أدري إن صدمتي ستكون أشد وآلمي أكثر حين أرى قصري الحبيب بيت المتوني، ولكنني حين زرتُ مسقط رأسي وملعب طفولتي ورأيتُ ما حلَّ به من خراب تقطعت نياط قلبي وأحسستُ بغصةِ الفجيعة والفقدان. فقد تحوّل البيت المنيف إلى ركام وأطلال فقد زال أحد السلالم من مكانه نهائياً وأوشك الآخر على الانهيار. والجدران قد انهد بعضها وبعضها الآخر مائل للانهدام، أما باحة الاستحمام فقد طارت عن الحمامات سقوفها وانهارت جدرانها وامتلأت ساحاتها بالنفايات والأوساخ ونبتت فيها الحشائش. ولم يبق ما يذكر المشاهد بعظمة القصر السابقة ومجده الغابر، ولم أجد لي منقذاً من الحزن والذهول الذين أطبقا عليّ إلا مغادرة المكان.

وعند مغادرتنا القصر تقدّم منا شاب عربي وسيم الخلقة حسن المظهر وقدّم إلينا نفسه على أنه رئيس الحرس. وقد اصطحبنا إلى زوارقنا. وعند مرورنا على نهر المتوني وجدتُ رجلاً أعمى يتوضأ من ماء النهر. ولم يكن من عادتي منذ أن وصلتُ إلى زنجبار أن أبدأ الناس بالسلام أو الكلام، ولكني رأيتُ أن أكسر القاعدة مع هذا الرجل الأعمى، فسلمتُ عليه دون أن أقترب منه كثيراً لئلا أقطع عليه وضوءه أو أفسده بصفة كوني مسيحية، ولكنه ما أن سمع صوتي حتى مد إليّ يديه وأخذ يدي ورفعها إلى شفتيه وقبلهما ثم وضعهما على وجهه بكل حرارة وشوق. ومع تأثري البالغ بهذه العواطف فقد خشيت أن يكون الرجل قد أخطأ في معرفتي فسألته إن كان يدري من أنا فأجاب، أنت سيدتي سالمة، التي طالما حملتك وأنت طفلة بيدي هاتين واستمر هذا الرجل الأعمى الطيب يحييني في كلمات ودية رقيقة.

وقد أخبرني الضابط المرافق إن الرجل هو المؤذن في مسجد بيت المتوني وقد عينه السلطان مؤخراً لقراءة لقرآن على قبر علي بن سعود الذي أذاقه السلطان شر العذاب في حياته.

وقد أثار كلام الضابط شجوني وذكرني بما كنت أعرفه من قسوة برغش ولؤمه تجاه علي بن سعود وخالته اختنا الكبرى رجة.

فقد كان علي ـ كما يذكر القرّاء ـ إبن أكبر أخواتنا زينة، وكانت رجة الأخت الشقيقة لأُمه، وقد نزحت إلينا من مسقط منذ زمن طويل فأقطعها السلطان بيتاً وأجرى عليها راتباً.

وكان علي ـ الذي صبّ عليه برغش جام حقده وبغضه دون ما سبب ـ قد سقط طريح الفراش في بيت المتوني في مرضه العضال الذي أودى به، ولم يكن له زوج أو بنت لتعنى به فكان من الطبيعي لرجة أن تعنى بابن أختها وتسهر على راحته في فراش مرضه.

لكن برغش الذي لا يعرف قلبه الرحمة ولا الشفقة ولا يفهم لعواطف الودّ والحنان معنى والذي أعماه حقده الأسود ونفسه المريضة، أغاظه تصرف أخته تجاه علي، ولكي يظهر نقمته وسطوته لأكبر أخواته والتي ربما تكبر أمه عمراً، فقد قطع عنها راتبها وجردها في أخريات عمرها من دارها.

ولما توفي علي لم يظهر برغش في تشييع جنازته وهو أمر لا يقدم عليه المرء حتى مع أشد خصومه عداوة... ولكنه الآن يأمر بقراءة القرآن وإقامة الصلاة على قبر علي... فيا للمكر والخداع.

وما دمت قد تطرقتُ إلى الكلام عن رأس عائلتنا في زنجبار أخي السيد برغش، فأجد لزاماً أن أزيح الستار عن بعض أعماله الأخرى، وأنه ليسؤني ـ والحق ـ أن أندد علناً بفرد من عائلتي هو أخي وهو الآن رأس العائلة

وسلطان البلاد، فرغم سنين الفرقة والبعاد عن أهلي وبلادي ورغم قسوة برغش تجاهي وحقده ضدي ومعاملته غير الإنسانية لي، أنا التي ضحيتُ يوماً ما بمالي وحياتي في سبيل إنجاح قضيته وتنصيبه سلطاناً، على الرغم من كل هذا فأنا ما أزال أحمل بين جنبي قلباً يضطرم بالحنان والوفاء لأهلي وبني قومي ويحترم ذكراهم ويمنعني من التنديد بهم لو لم يكن المقصود هو برغش نفسه الذي لا يحمل أية عاطفة لأي من أهله وبني قرباه.

فمن قصصه الشائعة في زنجبار ما فعله بأخينا خليفة، وهو أكبر الموجودين في زنجبار من أبناء أبينا بعد برغش والمرشح الطبيعي بعده للسلطنة، لذلك فما أن تولى برغش عرش البلاد عام ١٨٧٠ حتى رمى بأخيه هذا إلى غياهب السجن دون سبب أو مبرر إلا أن يكون خوفه من أن يعمد خليفة ـ وهو خليفته وولي عهده إلى استعجال الأمور فيتآمر ضده كما أراد هو أن يستعجل الأمور فتآمر ضد أخيه ماجد.

وظل الأخ المسكين يرسف بالقيود والأغلال ثلاث سنوات طوال دون أن يعرف السبب ودون أن يتحرك خلالها قلب أخيه بالرحمة والإشفاق.

ثم اضطر إلى إخلاء سبيله اضطراراً، فقد انتوت إحدى أخواتنا التي ذاقت نفسها الكثير من جور برغش وقسوته ـ الذهاب إلى أداء فريضة الحج في مكة، فتيقظ ضمير السلطان فجأة فجاءها مستعطفاً منها الصفح والغفران لتذكره بالخير في بيت الله وأمام قبر الرسول . إلا أنها أبت أن تغفر له آثامه معها ما لم يطلق سراح أخيهما خليفة[1].

---

(١) وبلغ من حقد السيد برغش أنه لم يكلم أخاه ماجد منذ عودته من منفاه، لكنه لما سمع بخبر وفاته ذهب إلى غرفته ورفع الغطاء عن وجهه ليتأكد من وفاته وكانت علامات الشماتة واضحة على ملامحه.

وقد أطلق سراحه فعلاً ولكنه ظل يراقبه ورفاقه ويرصد حركاتهم، وسرعان ما اكتشف أن لأخيه صديقاً مخلصاً وثرياً في نفس الوقت، ولا شك أن الذاكرة عادت بالسيد برغش إلى أيام مؤامراته على أخيه ماجد وما عادت عليه روابطه بالرؤساء الأغنياء من نفع وغنائم. لذلك قرر أن يحرم خليفته على العرش من مثل هذا الولاء المدعوم بالمال. لهذا فقد أرسل على صديق أخيه وقال له:

«إنني سمعتُ أنك تنوي بيع مزارعك لذلك خبرني عن الثمن الذي تريده فإنني أريد شراءها».

ولكن الرجل أجابه: ـ لا بد أن هناك خطأ ما يا سيدي فأنا لم أفكر مطلقاً في بيع أملاكي: ولكن السلطان ردَّ عليه «إن من مصلحتك أن تبيعني أراضيك وأرجو أن تفكر في الأمر مليّاً».

وبعد أيام قلائل دُعي الرجل ثانيةً إلى حضرة السلطان الذي بادره بالسؤال عن الثمن الذي يريده لأملاكه، وأعاد الرجل تأكيده بأنه لا يفكر في مثل هذا البيع مطلقاً، ولكن جاءه الرد الحاسم من السلطان: «ليس لنواياك أية أهمية في تقرير الأمر. بل إني أدفع لك عنها ٥٠ ألف دولار وهاك أمراً لاستلام المبلغ».

وبقلب كسير ملؤه الحسرة والألم سلم الرجل السيء الحظ أمره لله وخرج من القصر ليجد بانتظاره مفاجأة أخرى أشد وأعظم، ذلك أنه لما ذهب لصرف الأمر السلطاني واستلام الثمن أخبره الموظف المسؤول إن المبلغ سوف يدفع له بعشرين قسطاً سنوياً وأن ما يستحقه الآن هو القسط الأول فقط وقدره ألفان وخمسمائة دولار. فانهار الرجل وتحطم وهو بالضبط ما كان يهدف إليه السلطان.

وهناك حادثة أخرى يحمّر وجهي خجلاً وتمتلئ نفسي حسرةً وألماً وأنا أرويها، تلك هي قصة إحدى أخواتي التي تقدّم لخطبتها أحد الرجال المعروفين فرفض السيد برغش تزويجها له، ثم سرت إشاعة مغرضة كاذبة عن علاقة حب بين أختي وهذا الرجل، فذهب السلطان إلى أخته وواجهها بالتهمة فحاولت عبثاً أن تثبت له جهلها التام بالموضوع وبراءتها المطلقة من كل ما يقال حولها. ولكن هذا الأخ الرقيق القلب الحريص على واجبات الأخوة والقائم على واجبات الأمانة انهال بيده الكريمة على أخته البريئة بخمسين سوطاً تركتها ركاماً محطم الجسم والنفس، وما زالت منذ سنين طريحة الفراش تقاسي بصمت آلامها المبرحة في ظاهر جسمها وفي مكنون نفسها، ولعلها حين تموت أن يأمر الأخ الكريم فيقيم على قبرها الصلاة وتلاوة القرآن كما فعل مع زوجته الشركسية أو إبن أخته علي بن سعود[1].

وبعد ما تقدّم فلعل القارئ، حين يقرأ أو يسمع ما يغدقه الأوروبيون من المديح عن سلوك هذا السلطان ورقة طبعه وطيبة خلقه، أن يتذكر هذه القصص ليحكم بنفسه على حقيقة هذا الرجل وحقيقة ما ينثره الأوروبيون

---

(١) كانت نهاية برغش مؤلمة أيضاً. فقد أنهكه انهماكه في ملاذه الجسدية وكان له سبعون جارية من الأحباش والشركس وزوجة شرعية واحدة هي السيدة موزة بنت حمد بن سالم أخ السيد سعيد بن سلطان. وأصيب بداء السل فلما اشتد به الداء قيل له إن في إحدى بلاد عُمان عين ماء حار كل من استحم منها يجد الشفاء من هذا الداء. وسار السيد برغش إلى عُمان واستحم في ماء العين فلم يجد فيها نفعاً فعاد بمركبه ورسى بمسقط فلما رأى أخوه تركي حال أخيه أراد أن يحجر عليه ويعتقل مركبه ولم يكن السيد برغش من شدة المرض يفهم ما يدور حوله ولكن زوجه رأت ضعف حاله وعلمت بنيات أخيه فأمرت ربان الباخرة بالإقلاع فجأة ودون علم من أي أحد.
وفي عرض البحر في الطريق إلى زنجبار وافاه أجله ودفن في زنجبار.

حوله من ثناء ومديح وهو لا يكره أحداً أو شيئاً ـ على كثرة ما يكره ومن يكره ـ مثل كرهه لكل من هو أوروبي يستوي في ذلك الإنكليز والألمان وبقية الأُمم كلها.

❁ ❁ ❁

ومن المفهوم بعد ما تقدّم أن لا أتوقع خيراً أو إنصافاً من أخي السلطان بخصوص طلباتي الخاصة. ولا عجب أن أرجع من زنجبار خالية الوفاض لم أتسلم شيئاً من حقوقي المشروعة فيها. ولا صحة أبداً بطبيعة الحال لما نشرته الصحف من قصص خيالية موضوعة عن الثروات الخيالية التي عدت بها إلى ألمانيا نتيجة استلامي أثمان كافة أملاكي التي ورثتها عن أبي ومن بينها ثمن ثمان وعشرين داراً. فالحقيقة أني لم أستلم فلساً واحداً قط. فإن طلباتي التي اعترف بأحقيتها القنصل البريطاني العام نفسه ـ وأنه لأمر لو تعلمون عظيم ـ ما زالت معلقة لم يبت فيها حتى اليوم. إن المبلغ «العظيم» الذي عرضه عليّ أخي «الشهم الجواد» كتسوية نهائية لكل حقوقي، هو ستة آلاف روبية وقد رفضته رفضاً نهائياً مع الشكر وبكل إباء[1] فهو لا يساوي عشر معشار ما أطالب به شرعاً وقانوناً. فمنذ أن تولى برغش عرش السلطنة توفي خمسة من إخوتي وخمس من أخواتي وعمتي عائشة وثلاث من بنات الأخوة وأحد أبناء إخوتي، وإحدى زوجات أبي الثريات. وخلف جميع هؤلاء أموالاً طائلة وأنا أرث شرعاً في تركاتهم جميعاً[2].

ولقد تذرع السلطان بحجج باطلة وتافهة لرفض التسوية التي اقترحتها

---

(١) طالبت السيدة سالمة بمبلغ ٢٠ ألف باوند إسترليني تعويضاً عن مطالبها ولكن الأدميرال الألماني نزل بالمبلغ إلى ستة آلاف باوند فقط في حين لم يرضى السيد برغش أن يدفع أكثر من ستمائة باوند.

(٢) بعد أن أصبحت السيدة سالمة مسيحية فإنها شرعاً لا ترث إخوانها وأخواتها.

عليــه الحكومة الألمانية. ولعل ســروره قد بلغ حــده الآن حين طغت على مصلحتها في قضيتي مصالحها السياسية في المنطقة.

ولا بد لي هنا أن أروي قصة أخرى عن الدبلوماسية الإنكليزية تدلّ على حصافتها «المؤســفة». فمن المعروف لكل فرد في زنجبار أن سلطة السلطان قاصرة على توافه الأشياء، أما القول الفصل في الأمور الهامة فهو بيد القنصل البريطاني العام الذي يعترف له الجميع ـ بما فيهم أعداؤه ـ بأنه دبلوماســي حصيف مــن الطراز الأول. وقد وعد هــذا الرجل أن يطلب موعــداً لمقابلة الســلطان ليعرض عليه قضيتي التي أعتقد بمشروعيتها والظاهر أنني ما أزال غرة جاهلة بالأساليب واللغة الدبلوماسية كما كنت قبل عشر سنين لذلك فقد صدّقت ما قاله القنصل البريطاني لأحد ضباط الأســطول الألماني عن أسفه لعدم استطاعته أن يعمل شــيئاً في قضيتي لأنه لم يجد لسوء الحظ أية فرصة لمقابلة السلطان وبحث قضيتي معه.

ولكن سرعان ما انكشف لي جهلي وطيبة قلبي حين علمتُ أن القنصل المذكور قد قضى الأســبوعين الســابقين على هذا الحديث مع السلطان في أحد مزارعه. عدا عما يتحدث به الناس عن وجود خط تليفون مباشــر يربط قصر صاحب العظمة السلطان بقنصلية صاحبة الجلالة البريطانية.

❁ ❁ ❁

ولم يترك الســلطان وســيلة إلا واســتعملها ضدي فقد طلب إليّ رفاق سفري أن أساعدهم في شــراء بعض الحلي لزوجاتهم فترددتُ وإياهم على دكان أحــد الصاغة، فلما وصل خبر ذلك للســلطان عن طريــق رجله الأول بيرادوجي، أرســل فــي طلب الصائغ وصــبَّ عليه جام حقــده وغضبه لأن الصائغ رضي أن يســتقبلني في دكانه ويبيعني بعض الأشياء. إلا أن الصائغ

أجاب ببراءة بأنه لا يستطيع أن يطرد من دكانه أخت السلطان مما أثار المزيد من غضب السلطان فهدده بغلق متجره وإخراجه خارج البلاد فما كان من الصائغ الجريء إلا أن رد عليه أنه يفضل غلق المحل وترك البلاد على أن يعرضني لأية إهانة.

ونزل السلطان إلى مستوى أقل من هذا بكثير فقد أمر بسجن عبيدي الذين جاؤوني مسلّمين عندما علموا بوصولي زنجبار.

إلا أن إجراءاته وتصرفاته كانت مثار النقمة والاستهزاء ضده ولم يحاول الناس إخفاء شعورهم العدائي نحوه إذ كانوا يغنون إذا ما شاهدوني:

«بيجا كانا كاسي جاواتوتو بيبي» أي «لا تعتبي عليه يا سيدتي فإنه يتصرف كالأطفال».

ولم أكن حين وصلت زنجبار في شك من طبيعة الاستقبال الذي سألقاه من أخي السلطان، ولكنني كنت واثقة أيضاً أن أخي لا يستطيع أن يهمل تنفيذ الرغبات الواضحة للحكومة الألمانية. ولم أكن مخطئة في تقديري فهو على الأقل قد احتمل وجودي في زنجبار. احتراماً لهم، ولا يمكن أن أتوقع منه أكثر من ذلك بعد الذي سمعته ورأيته من سوء معاملته لإخوتي وأخواتي الموجودين معه في زنجبار.

أما بقية الناس فقد تلقوا خبر وصولي بالترحاب وأحاطوني مدة بقائي بكل عواطف الأخوة والوداد وهذا ما سأبقى أذكره لهم بكل اعتزاز وامتنان، فالعرب والهندوس والبانيان وكل أبناء البلاد اشتركوا سوية في الرجاء إليّ أن أبقى وأولادي في زنجبار نقضي فيها بقية حياتنا.

وقد تعمدتُ مرة في حديثي مع إثنين من أقاربي أن أتجاهل رابطة

القربى بيننا ولكنهما ذكراني بها وعتبا عليّ لجهلـي أو تجاهلي بها. فبينت لهم أن تجاهلي للأمـر كان متعمداً لأن أكثر أقاربي ليسـوا على وئام معي. فأجابا بلسـان واحد بأنهما لا يضمران لي إلا الاحترام والتقدير فعلى الرغم من كل ما حدث فإنني ما أزال إبنة السيد سعيد. أما عن تغيير الدين فقد قالا إنه أمر مكتوب عليّ منـذ البداية، وكذلك فإن هروبي مـن زنجبار وعودتي إليها كلها أمور مقسومة بإرادة الله. ثم سألاني أن أبقى وأولادي في زنجبار.

وفي هذا الحديث الدلالة كل الدلالة على انتفاء التحيز الديني عند هؤلاء القوم.

إن مظاهر الـوداد والوفاء التي أحاطت بي مـن جميع الأهل والأصدقاء وأبناء البلد مع النعمة الوافرة باكتحال عينيّ برؤية وطني العزيز مرة ثانية قد جعلت رحلتي هذه حدثاً سعيداً سأبقى أذكره بالسعادة والغبطة والحبور على مدى الأيام وليس لي إلا أن أكرر الشـكر والحمد لله تعالى على كبير نعمته وواسع رحمته.

ولكن سـاعة العودة والرحيل قد آنت وكانت سـاعة أليمة مليئة بالغصة والألم بالنسبة لي وبالنسبة لأصدقائي القلائل الذي آلمهم الوداع كما آلمني وبرح بهم البين كما برح بـي وأرى إن خير ما أختتم به هـذا الفصل وهذا الكتاب كله هو نشـر بعض رسـائل وداعهم شـعراً ونثراً في لغتنـا العربية الجميلة أو في اللغة السواحلية:

أيها النازحون عنا في سفينتكم عودوا إلينا فمكانكم مهجة القلب ومقلة العين.

لو كنت أعلم قبل البين عزمكم، على النوى، لسـار فؤادي خلفكم تبعاً، وصارت عيوني للحبيب هدية وصارت روحي له الفداء.

أيها الراحلون عنا قد سـلبتم منا الروح ومزقتم الجسـد ولم تبق لي إلا الدموع تجري كأمواج البحر.

أيها السـفين النازح رويداً تمنيـتُ أن أكون طيراً فأطيـر حواليك ولكن كيف يطير الطير وقد هاض منه الجناح.

إلٰهي يا رب العالمين إجمعنا ثانية قبل الممات أو دع أرواحنا تلتقي في جنات سمائك.

❁ ❁ ❁

السيدة سالمة مع زوجها وأبنائها

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الفاتحة: ١-٧ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. ١٤٧

فهرس الأعلام

أ

- أحمد بن سعيد البوسعيدي، الإمام ١٤، ١٥، ٣٤، ٦٤
- أحمد بن سعيد مؤسّس السلالة الحاكمة في عُمان ٨
- أم فارشو ٢١١، ٢١٢
- إميلي روث، البرنسيس ٥، ٧، ٥٧، ٣٣٦
- أندرو جاكسون، المستر ٣١
- أوجيني، الامبراطورة ١٩٥
- أوين، الكابتن ٢٧
- أيوب عليه السلام ٢٣٤

ب

- بارثل سير ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٣، ٣٤٧
- باسجن، الكومودور ٣٥٧
- بدر ١٨، ١٩، ٢١
- بدر بن سيف، السيّد ١٧، ٢٨
- «ب»، الدكتور ٣٤٢
- «ب»، المستر ٣٣٦
- برغش بن سعيد، سلطان زنجبار ٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤٦، ٤٧، ٤٧، ٤٨، ٥٢، ١١٤، ١٨٣، ١٨٤، ٢١٣، ٢٨١، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦
- بسمارك، المستشار الألماني ٣٤٥
- بقراط ٢٧٧
- بولوف وزير الخارجية الألماني، الكونت ٣٤٢
- بيرادوجي ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٨

ت

- تاج ٢٠٨، ٢٠٩
- تركي بن سعيد ٣٥، ٣٦، ٢٢١، ٢٢٢
- تيمور بن فيصل ٣٦

ث

- ثاني ٨٩
- ثويني ٣٥، ١٨٤
- ثويني بن سعيد ٣٣، ١٦٧، ١٨٨، ١٨٩، ٢١٣، ٢١٩
- ثويني بن هلال ٢١٨

ج

- جان ستريوس، الرحالة الهولندي ٩٠
- الجلندى بن مسعود ١٢
- جمشيد بن سعيد ٤٣، ٩٢، ١٠٨، ٢٠٢، ٣٢٨، ٣٣٠
- جوخة بنت محمّد بن الإمام أحمد ٢٨
- جورج، الملك ٤٢
- جوزيف تومبسون، المستر ٢٩٤
- جوهر ٨١، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٧
- جيليفدان ٧٨

ح

- حسن بن علي ٣٢٥، ٣٢٦
- حمد بن ثويني ٤٠
- حمد بن سعيد بن أحمد ١٥، ١٦
- حمدان بن سعيد ٦٢، ٧٨، ٣٢٨
- حمود ٢٠٧
- حمود بن عزان بن قيس بن الإمام ٢٣، ٢٨
- حمود بن محمّد بن سعيد ٤١، ٤٢

خ

- خالد ٣١٠
- خالد بن برغش ٤٠، ٤١، ٤٢، ٥٢
- خالد بن سعيد ٣٣، ١٠٣، ١٠٤، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٨٤، ٢١٠، ٢١٢، ٣٠٣، ٣٢٣
- خالد بن محمّد ٤٢
- خديجة بنت سعيد ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٨٢، ٨٣، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩١، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ٢٠١، ٢١٤، ٣٣١، ٣٣٢
- خليفة بن حارب بن ثويني سلطان زنجبار ٤٢، ٥٠
- خليفة بن السيد سعيد، السلطان ٣٩، ٥١، ٥٢، ٣٦٤
- خورشيد أم خالد ١٠٤
- خولة بنت سعيد ٤٦، ٤٧، ٥٣، ٧٠، ٩٤، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٧، ١١٦، ١١٧، ١٧٢، ١٩٠، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٢١، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٤، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٥

د

- د، البارونة ٣٤٤

ر

- راشد بن سالم، الشيخ ٣٢
- رالوب بن سعيد ١٩٠، ٢٠٥
- رانا فولوتا ماتجاكا الملكة ٣١
- رجة بنت سعيد ٣٦٣
- الرسول ﷺ ٢٧٢
- روجز، المستر ٤٢
- رولاب بنت سعيد ٧٨
- رولاب بن سعيد ٢٠٤
- ريشاد، الرحالة المستر ٢٩٤

ز

- زجان بنت سعيد ٧٤، ٢٠٥، ٢٠٦
- زعفران، طباختي النوبية ١٩٨
- زمزم بنت سعيد ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨
- زينة بنت سعيد ٦٩، ٢١٢، ٢٤٢، ٣٦٣

س

- س، المسز ٣٣٦
- سارة بنت سعيد ٧٤، ٧٧
- سالم ٢٨، ٢٩، ٣٥، ٣٦، ٨٩، ٢٣٤
- سالم بن أحمد ١٧
- سالم بن ثويني ٢٢٠، ٢٢١
- سالم بن سلطان ١٧
- سالمة سالمة بنت سعيد بن سلطان ٥، ٧، ٨، ٤٤، ٥٠، ٥٧، ٧٠، ٩٩، ١٢٠، ٣٠٤، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٦٢، ٣٧٢
- سالم، الشيخ ٣٢
- سعود ٢٩، ٢٤١
- سعود بن علي ٢٨
- سعود بن هلال ٢٠٠، ٢١٦، ٢١٧، ٣١٦
- سعيد ٥١
- سعيد بن أحمد ١٥، ١٦، ١٧
- سعيد بن تيمور ٣٦
- سعيد بن سلطان، السيد ١٧، ٢٣، ١٧٨، ١٨٢
- سعيد روتي ٥١
- سعيد رودولف روث ٥٠
- سعيد، السلطان السيد ١١، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٤٦، ٥٠، ٦٤، ٩٤، ٢٣٤، ٢٧٠، ٢٨٧، ٣٠٢، ٣٧٠
- سعيد النوبي ٩١، ٩٢، ١١٨
- السفير الألماني في لندن ٣٤٦
- سلطان ١٨، ٣٤
- سلطان بن أحمد ١٥، ١٦، ١٧
- سلطان بن سيف اليعربي، الإمام ١٣، ٢٥
- سلطان بن صقر شيخ القواسم ٢٩
- سلطان عُمان وزنجبار ١٧٨
- سليمان عليه السلام ١٠٤
- سليمان بن علي ٣٠١
- سيف بن أحمد ١٥

ش

- شريفة بنت سعيد ٧٠، ١٠٣، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥
- الشريفة مصباح حيدر ١٠
- شوان ١٩٤
- شومبو بنت خالد ٢١٠، ٢١١
- شيزادة، أميرة فارسية ١١٧، ١١٨
- شيمبو بنت خالد ٣٠٣
- شيوان بنت سعيد ١٠٩، ١٩٠، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٥

ط

- طالب بن أحمد ١٥
- طالب بن الإمام ٢٨

ع

- عائشة ٩٩، ١١٥، ١١٦، ١٩٠، ٢٣٤، ٢٧٧، ٢٨١، ٣٣٢، ٣٦٧
- عائشة بنت سعيد ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٠، ٢١٠، ٢١٤
- عامرة، عربية عمياء ١٢٨
- عبد الرب، أحد التجار الهنود ٢٢١
- عبد العزيز ٢٢١
- عبد العزيز بن سعيد ٣٠٨، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٠
- عبد الله ٨٩
- عبد الله بن خليفة ٤٣
- عبد المجيد القيسي ٧، ٥٦
- عبده، الأسطى ٣٥٢
- عبد الوهاب بن سعيد ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١
- عثمان بن عفّان ١٢
- عزان ٢٢١
- عزة ٦٨، ١٧٩
- عزة بنت سيف ٦٧، ٧١، ٨٠، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٧١، ٢١٦، ٢٣٤
- علي بن حمود ٤٢
- علي بن سعود ٦٩، ٣٦٣، ٣٦٦

- عليّ بن سعيد ٤٠، ٢٠٢، ٢٠٣
- علي بن عثمان ٢٦

ف

- فارشو بنت خالد ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٣٠٣
- فاطمة ٣٠١
- فرير، الليدي ٣٤٠
- فيصل بن تركي ٣٦
- فيصل بن هلال ٢١٦، ٢١٧، ٣٢٦، ٣٢٨

ق

- قابوس، السلطان ٣٦
- قبطان الرحماني ٧٩
- القنصل الإنكليزي ٣٣٦
- القنصل البريطانـــي ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٢
- القنصل البريطاني العام ٣٥٨، ٣٦٧، ٣٦٨
- قيس بن أحمد ١٥، ١٧، ١٨، ٣٦

ك

- كلير، ابنة طبيب القنصلية الفرنسية ١٦٤
- كنور، الأميرال ٣٥٧
- كوردون ٢٩٥

م

- ماتيوز، المستر ٤٠
- ماجد ٣٩، ٣٠٩، ٣١٨
- ماجد بن سعيد ٣٦، ٣٧، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨٣، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٨، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٧١، ١٧٣، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٣، ٢١٩، ٢٢١، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤١، ٣٦٤، ٣٦٥
- ماجد، السيّد ٣٥
- ماريا تريزا ١٥٧
- محمَّد ٢٩
- محمَّد بن أحمد ١٥
- محمد بن سعيد ١٨٩
- محمد بن عبد الله الشامسي ٣٠١
- محمَّد بن عثمان ٢٥، ٢٦
- محمد بن هلال ٢١٦، ٢١٧
- محيي الدين القرطبي ٤٣
- مدينة بنت سعيد ٧٤، ١٠٢
- مرجان ٣٢٦
- ملتة بنت سعيد ٢٠٤، ٢٠٥
- ملك زنجبار ٢١٩
- موجة بنت سعيد ٣١٦
- موزة بنت الإمام أحمد ١٥، ١٨، ٢٨، ٢٩
- مونستر، الكونت ٣٤٢

ن

- نائب السلطان محمَّد ٢٨
- نابليون ٢١
- نادر خان ١٤
- ناصر بن سعيد ٢٠١
- ناصر بن مرشد اليعربي، الإمام ١٣
- نجمة الصبح ٩٥، ٢٧٠
- نونو بنت سعيد ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠

هـ

- هاي فابر ٣٣٦
- هذريخ روث ٣٣٥
- هلال ٢٨، ٢٩
- هلال بن أحمد ١٥
- هلال بن ســعيد ٢٠٠، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٨، ٣١٦، ٣٢٧
- هلال بن محمد بن الإمام أحمد ٢٨

فهرس الطوائف والجماعات

أ

- الآباء الروحانيين ١٤٨
- الأسيويون ١٢٨
- الآغوات ٥٣
- آل نبهان ٢٦
- الأئمة ١٢، ١٣، ٢٥
- الأئمة المتأخرين ١٤
- أئمة المساجد ٢٦٣
- الأئمة اليعاربة ٢٥
- الإباضي ٢١٣
- الإباضيون ١٨
- الأبرياء ٣٠٨
- أبناء الجواري ٦٨
- أبناء السلطان ٥٥، ٦٨، ١٦٨، ١٩٣
- أبناء السيد سعيد ٢٣
- الأتراك ٣٢٠
- الأثرياء ٢٠٧
- الأجانب ١٦
- الأحباش ٢٠٢، ٣٢٦
- أخوات خالد ١٧٢
- أخوة السلطان ٣٠١
- الأرامل ١٨٦
- أرباب المزارع ١٦٥
- الأزد ١٢
- الأزد القحطانيون ١٢
- الإسبان ١٢٢
- الأسرة البوسعيدية ١٧
- الأسرة اليعربية ٢٥
- الأشباح ٣١٣
- أشباح هائمة ١٦٥
- أشراف العرب ٤٣
- أصحاب الفضول ٢٥١
- الأطباء ١١١، ٢٨١، ٢٨٤
- أطفال العبيد ٣٢٦
- الأفارقة ٢٧١
- الألمان ٤٩، ٥٠، ١٢٢، ٣٢٠، ٣٤٢، ٣٦٧
- الإماء ٦٧
- الأمراء ٤٤، ٧٤، ١٤٢، ١٤٨، ٢٣٣
- الأمراء السعوديين الوهابيين ١٧
- الأمراء الشرقيين ٢٢٢
- الأموية ١٢
- الأميرات ٤٤، ١٤٢، ١٤٨
- الأميرات اليافعات ٣١
- الأمينات ١٧٢
- إناث القصر ١٦٩
- الأنانيون ٣٠٤
- الانتهازيون ٣٠٤
- الإنسانيون ٢٨٨
- الإنكليز (الإنكليزيون) ٢٣، ٢٧، ٣٠، ٣٧، ٣٩، ٤١، ٤٨، ٤٩، ١٢٢، ١٨٨، ٢٨٧، ٢٩١، ٢٩٥، ٣١٨، ٣١٩، ٣٣١، ٣٤٤، ٣٥٣، ٣٦٧
- أهالي حضرموت ٢٨٠
- أهل الجنوب ١٢٢، ١٢٣، ١٣٧
- أهل زنجبار ٤٠
- أهل الشمال ١١٢، ١٢١، ١٣٧
- أهل العلم والمعرفة ١٧٦
- أهل عُمان ١٢، ٢٤، ٥١، ٢٨٤
- أهل مصر ٣٥٣

- أهل الورع ١٢٦
- أهل الورع والتقوى ٢٧٦
- الأوروبيات ١٢٤، ١٩٤، ٢٦٩
- الأوروبيات المثقفات ١٥٨
- الأوروبيـــون ١٦، ٣٨، ١٢٦، ١٥٢، ١٨٩، ٢١٧، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٥٩، ٣٦٦
- الأوغاد ٢٥١
- أولاد الجواري ١٠٠
- أولاد السلطان ١٣٥، ٢٥٨
- الإيطاليون ١٢٢

ب

- البائسات ١٨٦
- الباعة البانيان ٣٢٤
- البانيان ٢٨٨، ٣٦٩
- البانيان (الهنود) ٢٦٤، ٢٦٧
- البدو ٢٢١
- البربرية ١١١
- البرتغاليون ١٣، ١٢٢
- البريطانيـــون ٣٧، ٤٠، ٤١، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٤٦، ٣٤٧
- البلاغيون ١١
- البلوش ٣٠٧
- بنات السلطان ٤٥، ١٥٧، ١٦٩، ٣٣٤
- بنات السيد سعيد ٣١٥
- بنات الشركسيات ١٠٣
- بنو بو علي ٢٣
- البوسعيد ١١، ٤٣، ٤٤، ٥٠

ت

- التجار الهنود ٢٢١
- التركية ١٠٢
- التقوى ١٢٦

ث

- الثوار ٢٣٥، ٢٣٦، ٣١٥

ج

- الجالية الأوروبية في الإسكندرية ٣٥٣
- الجان ١٤١
- الجبابرة ١٣
- الجراحين ٢٨١
- الجزارون ٢٦٦
- الجمعية الآسيوية ٥٠
- الجمعية التبشيرية ٢٩١
- الجمهور الألماني ٥٤
- جمهور الأمة من الإباضيين ١٨
- الجن ٦٣
- الجنوبيات ١٣٠
- الجنوبيون ١٢٢
- الجنود البلوش ٣١٤
- جنود الحكومة ٣١٤
- الجواري ٥٣، ٦٧، ١٠٠، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩
- جواري السلطان ٩٩، ١٥٧
- الجواسيس ٢٩٩، ٣٦٠
- جواسيس العدو ٢٣٦
- جيش الحكومة ٣١٥
- جيش سعودي ١٧
- الجيش الفارسي ١٤
- جيوش الخلافتين الأموية والعباسية ١٢
- جيوش السيد سعيد ٣٢
- جيوش الفرس ١٤
- جيوش الملك الفارسي المغامر نادر خان ١٤

ح

- الحبشيات ١٠٢، ٢٠٩، ٢٨٣
- الحبشيات السوداوات ١٠٠
- الحبشية ٨٧، ١٠٢، ١٠٣
- الحراس العبيد ٣٥٧
- الحرس الزنوج ٢٥٧
- حرس السلطان ١٢٨
- الحريم السلطاني ٣٥٩
- الحكّام العرب ١٦

خ

- الخادمات ٨٤، ٨٨، ١٣٦، ١٨٦، ٢٥٤، ٢٦٦
- الخدم ٦٤، ١٢٤، ١٢٩، ١٣٣، ١٧١، ٢٠٣، ٢٢٦، ٢٥٥، ٣١٣، ٣٢٤
- خديوي مصر ٣٥٣
- الخصيان ٩٧، ١٦٣، ١٨١، ٢٤٤، ٢٥٧، ٢٧٠، ٢٧٧، ٢٨٢

د

- الدايات ١٣٦
- الدلال ٣٢٧

ذ

- ذوات العزم والهمة ١٩٥
- ذوو اليسار ١٢٦

ر

- الرؤساء الأغنياء ٣٦٥
- رؤساء القبائل ٣٠٣، ٣٠٨
- الربابنة ٣٥٤
- ربابنة إنكليز ٣٥٤
- ربات البيوت الألمانيات ٣٥١
- الرجال الأحرار ٣٢٥
- رجال الدين ٢٤٥، ٢٥٧
- رجال الدين الإنكليز ٢٩٣
- الرقيق ٢٣، ٢٧، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٥٤، ٢٢٨، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٢٠
- الروم ٦٢
- الرومان ١٤٩
- الريفيون ٣١٥

ز

- الزائرات الأوروبيات ٢٣٢
- الزنج ٤٣
- الزنجباريات ١٦٩
- الزنجيات ١٢٩، ١٦٩
- الزنوج ٣٩، ٤٢، ٤٣، ٩٦، ١٢٨، ١٦٥، ١٦٩، ٢٢٩، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٥٦
- الزنوج المتوحشين ٢٨٤
- الزوار ٢٦٣

س

- السائحات ١٢٤
- السائحون ١٢٤
- السراري ٢٢٧
- السعوديون ١٨، ١٩، ٢٠
- سكان بيت المتوني ٦٦
- سكان شبه الجزيرة العربية ١٢٨
- سكان القصور السلطانية ١٥٧
- السكيرين ٢٩٠
- السلاطين ٥٢، ٦٤، ٦٥
- سلاطين زنجبار ٥٢
- السلاطين المتأخرين ٤٢
- السواحليون ٤٢، ٧٠، ١٠٢، ١١١
- السوداوات ٢٩١

- السيدات الأوروبيات ٣٣٥
- سيدات المزارع ١٦٣، ١٦٤

ش

- الشابات الحسناوات ١٢٧
- الشابات اليافعات من بنات القصر ١٢٧
- الشحاذات ٧٢
- الشحاذون ١٧٥، ٢٧٣
- شرفاء مكة ١٠
- الشرقيات ٢٣٢، ٢٥٣
- الشرقيون ٢٥٤، ٢٩١، ٢٩٣
- الشركسيات ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ٣٣٠، ٣٥٩
- الشركسية ٤٥، ٦٥، ٧٢، ١٠٢
- الشقراوات ١٠٠
- الشماليات ٢٥٤
- الشماليون ١٢٢
- الشيوخ ٢٣٣، ٢٥٧، ٣٢٦

ص

- الصائمون ٢٦٢
- صاحبات السمو ١٠٣
- الصليبيّة ٣٨
- صيادو الأسماك ٣٢٨
- الصينيون ١٢٢

ض

- ضباط الأسطول الألماني ٣٦٨
- الضباط العُمانيين ٢٣٤
- الضباط والبحارة الإنكليز والفرنسيين ٣٥٩
- الضرائر ٤٤، ٥٣
- ضعاف النفوس ٣٢٤
- الضيوف الأوروبيين ١٣٢

ط

- الطباخون الفرنسيون ٣٦٢

ع

- عائلة البوسعيد ٨
- العاطلين عن العمل ٢٨٨
- العباسية ١٢
- العبدة المتدينون ٩٣
- العبيد ٤٢، ٤٤، ٥٣، ٦٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩٦، ٩٨، ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٢، ١٤٠، ١٤٧، ١٥٦، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٧١، ١٨١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٢٦، ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤، ٣١٦، ٣٢٥، ٣٥٨
- العبيد الرقيق ١٤٠
- العدنانيين ١٢
- العرافات ١٧٤، ١٧٦، ١٧٩، ٢٨٣
- العرب ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٣٩، ٥٧، ٩١، ١١٢، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٨، ١٧٤، ٢٣٩، ٢٧١، ٢٧٧، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٠٤، ٣١٥، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٦٩
- عرب البادية ٩٩
- عرب الشمال العدنانيين ١٢
- عرب عُمان وزنجبار ٥١
- العفاريت ١٤١
- العمالقة ٦٣
- العُمانيات ٢٨٤
- العُمانيون ٢٥

غ

- الغافرية ١٢
- الغجر ١٧٦
- الغجريات ١٧٤

- الغربيون ٨، ٩، ٢٤، ٥٣، ٥٤، ١٣٠، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٨٤
- الغريبات ٢٥٤
- الغشاشون المماطلون ٢٦٤
- غلاة المتدينين ٦١

ف

- الفاتحون الجُدد ٢٥
- الفارسية ١٠٢
- الفرس ١٤، ٣٥، ١١٨، ١٦٧، ١٦٨، ٢١٩
- فرسان الأميرة الفارسية شيزادة ٣٠٢
- الفرنسيون ٢١، ٣٠، ٣٧، ٢١٢
- الفقراء ١٥٠، ١٨٥، ٢٠٣، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٧٢، ٢٧٣

ق

- القابلات العربيات والسواحليات ١٣٦
- القابلات الهنديات ١٣٦
- القبائل العربية ٢١٩
- القبائل العُمانية ٢٥
- قبيلة الحارث ٣٧
- القرّاء ٢٦١
- القرّاء العرب ٨
- قرّاء العربية ٨
- القرود البيض ٢٠١
- قوات بدر السعودية ١٨
- القواسم ٢٢، ٢٧، ٢٩، ٣٥

ك

- الكتّاب ١٧٠

ل

- اللصوص ٢٨٨
- اللصوص المشردين ٢٩٠

م

- المؤمنون ٢٧٢
- مارمونيسم وهي طائفة مسيحية ٢٢٨
- مالكو العبيد ٢٨٨
- المتآمرات ٣٠٩
- المتآمرون ٣٠٤، ٣٠٧، ٣٠٩
- المتدينون ١٢٦
- المتسكعين ٢٨٨
- المتنبئات ١٧٥
- المحجبات ٢٣٢
- المخبرون ٢٩٩، ٣٦٠
- المذهب الإباضي ١٢، ٢٤٦
- مربيات الأطفال ٨٤
- المربيات الألمان ١٤٠
- المربيات السود ١٤٠
- المربيات الغربيات ١٤٠
- المربيات في الشرق ١٤١
- المزارع ٢٥، ٣٠، ٣٢
- المزروعيون ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣
- المسلمات ٢٥٠
- المسلمون ١٢، ٦١، ٨٤، ٩١، ١٥٢، ١٨٧، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٩٣
- المسيحية ٢٩٣، ٣٤١
- المسيحيون ٢١٤، ٢٢٨
- المشعوذون ٢٨٠
- المصريون ٣٥٣
- المغنيات العبيد ١٦٤
- المكتشفون ٣٨
- الملاحين العرب ٨١
- الملوك ٣١، ٦٥
- ممرضات المرضى ٨٤

- المنجمين ٢٨٠
- المنحرفون ٢٢٩

ن

- النبهانيون ٢٥
- النزارية ١٢
- النساء الأوروبيات ١٥٩
- نساء بيت الساحل ١٠٢
- النساء الجنوبيات ٢٥٤
- نساء السلطان ١٨٦، ٣٥٩
- نساء السلطان سعيد ٤٦
- النساء الشرقيات ١٠، ٩٤، ٢٣٢
- النساء العربيات ٤٣، ١١٨، ٢٥٤
- النساء الغربيات ٣٢٤
- النساء الفارسيات ١١٨
- نساء القصر ١٣٥، ٢٣٢، ٣٣٥
- النساء المدلات بجمالهن ١٦٤
- النسوة المتآمرات ٣٠٨
- النشالون ٢٩٠
- النوبية ١٠٢

هـ

- الهنائية ١٢
- الهندوس ٢٨٨، ٣٦٠، ٣٦٩
- الهنديات ١٣٩
- الهنود ١٦

و

- الوزراء ٢٣٥، ٣٠٩
- الوصيفات ١٢٦، ١٣٠، ٢٠٠
- الوهابية ١٧، ١٨
- الوهابيون ١٦، ٢٠، ٢٩، ٣٠، ٣٥

ي

- اليونان ١٤٩

فهرس الأماكن والبلدان

أ

- الآستانة ١٢٤
- آسيا ٩٣
- أبو ظبي ٥٦
- أثينا ٣٥١
- أدغال إفريقيا ٣٨
- أرض العرب ١٣
- أرض عُمان ١٤
- إستانبول ١٠
- الإسكندرية ١١، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣
- إفريقيا ٢٤، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٨، ٤٩، ٩٣، ٢٩٥
- أفريقيا الشرقية ٢٦، ٤٨
- الأقطار الشرقية ١٢٥
- ألمانيا ٣٩، ٤٧، ٤٨، ٥٢، ٦١، ٦٩، ١١٢، ١٢٣، ١٣٨، ١٤٩، ١٥٠، ٢٢٣، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٢، ٣٦٧
- ألمانيا الإمبراطورية ٥٢
- الإمارات العربية ٢١
- الأناضول ١٩٦
- إنجلترا ٢٠، ٢١، ٢٢، ٣٩، ٤٢
- الأندلس ١١، ٤٣
- أواسط إفريقيا ٢٩٠
- أواسط الجزيرة العربية ٢١٩

- أوروبـا ٧، ٢٠، ٢٤، ٨٤، ٨٦، ٩٣، ١١١، ١١٢، ١٢٢، ١٣٧، ١٣٨، ١٤١، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٦، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٧٥، ٢٨٥، ٣٢٠، ٣٤١، ٣٥٧، ٣٦١
- إيران ٢٣، ١٩٧
- إيطاليا ٣٩

ب

- باريس ٢١، ٣٦١
- الباطنة ٢٨
- بتة ٢٥
- البحار الشرقية ١٣
- البحر الأبيض ٣٥٣
- البحر الأحمر ٣٥٣، ٣٥٤
- بحر العرب ٢٠
- البحر الهندي ٢٠
- البحرين ٢٢، ٢٣
- بحيرات أواسط إفريقيا ٢٩٤
- البر الإفريقي ٢٥، ٣٣، ٣٩
- البر العربي ٣٠
- البرازيل ٢٨٨
- براوه ٢٤
- البرتغال ١٣، ٢٥، ٣٩
- برج بابل ١٠٢
- برلين ٧، ٥٢، ٥٧، ٣٣٨، ٣٥٠
- بروتستانتية ٢٩٢
- بريسلو ٣٥٠
- بريطانيا ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٧، ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤٣، ٤٨، ٢٨٩، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٧
- البصرة ٢٢، ٥٤
- بغداد ٣٥٢
- بلاد الإسلام ٢٢٥
- بلاد الرافدين ١٩٥
- بلاد الشرق ٢٩١
- بلاد العرب ٢٣٩
- بلاد الغرب ٥٤، ١٥٠
- بلجيكا ٣٩
- البلدان الإسلامية الشرقية ٢٨٩
- بلوشستان ٢٢١، ٢٢٢
- بمبا (الجزيرة الخضراء) ٢٤
- بمباي ٣٦١
- بندر عباس ٣٣، ١١٨، ١٦٧، ٢١٩
- بوبوبو ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٥
- بور سعيد ٣٥٣، ٣٥٤
- بومباي ٣٠، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٤٦
- بيت الله (الحرام) ٣٦٤
- بيت برغش ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٠
- بيت الثاني ١١٧، ١٩١، ١٩٧، ٢١١، ٢٧٨، ٣٣٠
- بيت الحريم ١٢١
- بيت الحريم في الأستانة والقاهرة ١٢٤
- بيت الراس ١٠١
- بيت الساحل ٧٥، ٨٣، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٢، ١١٣، ١١٧، ١٢٥، ١٤٥، ١٧١، ١٧٩، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٣، ٢١٠، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٧١، ٢٧٨
- بيت العجائب ٢٩٦، ٣٢٢
- بيت ماجد ١٨١، ١٨٤
- بيت المتوني ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٩٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١١١، ١٣١، ١٤٥، ١٧١، ١٧٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٢، ٢٤٢، ٢٧١، ٢٧٥، ٣٠٢، ٣٦٢، ٣٦٣

- بيت الواتورو ٧٧، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٩، ١١٢، ١١٥، ١١٦
- بيروت ٨

ت

- تريست ٣٥٠
- تونس ٢٢٤

ج

- جزر إفريقيا الشرقية ١٣، ٢٥، ٣٤
- الجزر الأفريقيا ١١، ٣٠
- جزر زنجبار ٣٩
- الجزر الفرنسية في المحيط الهندي ٢١
- جزيرة بته ٢٦
- جزيرة بمبا ٢٦
- الجزيرة الخضراء ٢٦
- جزيرة زنجبار ٢٦، ٥٩، ٩٣، ١٦١، ٢٩١
- جزيرة سومطرة ٩٧
- جزيرة كلوه ٢٦
- جزيرة كورفو ٣٥١
- جزيرة مدغشقر ٣١
- جزيرة ممباسا ٢٦، ٢٧
- جزيرة موريشيوس ٣٣
- جلفار (رأس الخيمة) ٢٠
- الجنوب ١٢٣، ١٣٧، ١٧٣، ٣٤٩، ٣٥١
- جنوب اليونان ٣٥١

ح

- الحجر الأسود ٢٦٠
- الحرث ٢٥
- حضرموت ٢٨٠

خ

- الخليج ٢٠، ١٦٨
- الخليج العربي ١٣، ١٧، ١٩، ٢٢، ٢٣، ٣٣
- الخليج الفارسي ١١٨
- خورفكان ٢٩

د

- دار السلام، مدينة ٣٩
- دبا ٢٩
- الدرعية ١٧
- دريسدن ٣٣٨، ٣٤٤
- الدول الأوروبية ٣٤، ٣٧، ٢٧٠
- الدول العربية ٤٤

ر

- رأس الخيمة ٢٠
- رأس الرجاء الصالح ٢٢
- الرستاق ١٥، ١٦، ١٧
- رودول ستات ٣٣٨

ز

- زنجبار ٨، ١٠، ١١، ١٥، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٤، ٦٥، ٧٢، ٩٦، ١٠٠، ١١١، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١٢٣، ١٢٥، ١٣٠، ١٣٤، ١٣٨، ١٤٢، ١٤٥، ١٥٠، ١٥٥، ١٦٠، ١٦٩، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٢، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٥، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠

س

- الساحل الإفريقي ١٧٤
- الساحل الإفريقي الشرقي ٢٢، ٢٤
- سجن بندر عباس ٣٣
- السعودية ١٧
- السواحل الأفريقيا الشرقية ٣١
- سواحل إنكلترا ١٥٥
- سواحل جزيرة بمبا ٣٥٥
- سواحل الخليج العربي ١٦، ٢٢
- سواحل عُمان ١٣
- السودان ٢٩٥
- السويس، مدينة ٣٥٤
- السويق ٢٨

ش

- شاطئ زنجبار ٤١
- الشام ١٢، ٢٢٤
- شبه الجزيرة العربية ٩٩، ١٢٨
- الشرق ٧، ٨، ٢٢، ٥٤، ٦٤، ٨٧، ٩٩، ١٢١، ١٢٨، ١٣٣، ١٣٨، ١٤٥، ١٤٩، ١٥٨، ١٦٥، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٦٢، ٢٩١، ٣٠٢، ٣٣٤
- الشرق الإسلامي ٢٨٩
- شرق إفريقيا (الإفريقي) ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٣٠، ٣٣ ٣٢٠، ٣٥٣
- الشرق العربي ٢١
- الشمال ١٢٢، ١٢٣، ٣٣٦، ٣٥١، ٣٥٤
- شمال أمريكا ٢٨٨، ٢٨٩
- شوارع بيروت ٨
- شوارع زنجبار ٣٥٧

ص

- صحار، مدينة ١٤، ٢٣، ٢٨
- الصين ١٥٥

ض

- ضواحي لندن ٣٤٢

ع

- العالم المسيحي ٢٨٤
- عدن ٤٧، ٣٣٨
- العراق ١٢، ٢٢
- عُمان ٨، ١٢، ١٥، ١٦، ١٩، ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٤٤، ٥٠، ٥٤، ٦٧، ٧٢، ٨٥، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٩، ١١٥، ١١٦، ١٢٥، ١٤٢، ١٤٥، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٤، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ٢٠٠، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٧١، ٢٨٤، ٣٠٥
- عين شمشم ٢٨١

غ

- غابات أفريقيا ٣٤، ٢٨٩
- الغرب ٧، ٨، ٥٤، ٦٩، ١٢٢، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٥، ٢٣٤
- الغرب الأوروبي ٣٨
- الغرب المسيحي ٢٢٥

ف

- فارس ١٥٥
- فرنسا ٢٠، ٢١، ٣٩، ١٥٥
- فلسطين ١١
- فيينا ٣٥٠

ق

- القارة الأفريقيا ٢٤، ٣٨، ٦٠
- القارة السوداء ٢٤، ٣٧، ٣٨، ٤٨
- القاهرة ١٢٤، ٢٢٤

- قبر الرسول ﷺ ٣٦٤
- القسطنطينية ٢٢٤
- قصر الثاني ٢٩٧
- قصر الحريم ٢٣٢
- قصر المتوني ٣٠
- قناة السويس ٣٥٣
- القواسم ٢٠

ك

- كاثوليكية ٢٩٢
- كانديا ٣٥١
- الكعبة (المشرفة) ٢٧٢
- كوندا ٢٩٤
- كيسيمباني ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٠

ل

- لامو ٢٤
- لندن ٧، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٦١

م

- مالندي ٢٤
- المتوني ٣٢٨
- مجاهل سيبيريا ٢٩٠
- المحيط الهندي ٢١
- المدن العربية ٥٤
- مرسيليا ٢١٢، ٣٠٧، ٣١٠، ٣١٣، ٣١٥
- مزرعة خولة ١٩٨
- مزرعة كيسيمباني ٣٢٥
- مستعمرة الكاب ٣٤٣
- مسجد بيت المتوني ٣٦٣
- مسقط ١١، ١٣، ١٥، ١٧، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٥، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٥، ٣٦، ٥٢، ٦٤، ٧٢، ١٠٤، ١١٦، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٤، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٣٦٣
- مصر ١٠٨، ٣٥١، ٣٥٧
- مقديشو ٢٤، ٢٧
- مكة المكرّمة ١٠، ٢٠١، ٢٦٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٣٦٤
- مكتبة هامبورج في ألمانيا ٥٠
- ممباسا ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٩، ٢٩٣
- المناطق الاستوائية ١٢٢
- المنطقة الاستوائية ١٥٧
- الموانىء الأوروبية والآسيوية ٣٤
- موانئ البحر الأبيض المتوسط ٢٢
- موزمبيق ٢٤
- ميناء عدن ٣٣٦، ٣٥٤، ٣٥٥
- ميناء مسقط ٢٢

ن

- نجد ١٦
- نهر المتوني ٥٩، ٨٥، ٣٦٢
- نورث كامب شمالي زنجبار ٣٥٥
- نيويورك ٣٤، ٥٥

هـ

- هامبورغ ٣٣٧، ٣٣٨
- هرمز ١٣
- الهند ١٦، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٧، ٣٠، ٣٦، ٦٢، ٨٤، ٨٥، ١٥٥، ٣٤٦

و

- الولايات المتحدة الأمريكية ٣١

ي

- اليمن ١٢، ٢٤

فهرس المصطلحات الغامضة

أ

- الاتجاه المعاكس ٢٢٦
- اتفاقية الرقيق ٣٤٤
- أحسن نظام ضرائبي في العالم ٢٧٣
- أحكام الإسلام ٢٢٥
- الأرجوحة السواحلية أو الاستوائية ١٠٩
- الإرساليات التبشيرية ٢٩٣
- الأرواح الخيرة ٢٨٣
- الأرواح الخيرة والشريرة ٢٨٢
- أزياء النساء ١٥٨
- الإسلام يبيح الزواج بأكثر من واحدة ٢٢٨
- الإصابة بالعين ٢٨١
- الاضطهاد السياسي ٢٤
- الاعتدال والتوسط بين الأمور ٢٥٥
- ألاعيب السياسة البريطانية ٣٤٧
- الامبة (المانجو) ٩٨
- إنسانية ٣٥٣
- أوجاع البطن ٢٧٧
- أوجاع الرأس ٢٧٧

ب

- البحث العلمي ٢٩١
- البرزة؛ أي: مجلس السلطان ١٢٧، ٢٥٦
- برنسيس ٤٩
- بزورق كرنيلاند ١١٢
- البنتكو ١٠٩
- البنجلة ٧٠
- بندر عباس إقليم فارسي صغير... ١٦٧
- بيبي ٦٥، ٦٨

ت

- التبشير ٣٨
- التخلف الفكري ٢٩٣
- التدخين ٢٤٦
- التدليك ٢٧٦
- تربية الأطفال ٢٣١
- تعدد الجنسيات ٧٢
- تعدد الزوجات ٢٣١
- التعصب الديني ٢٩٣
- تفاهة الإنسان ٣٥٦
- التيفوئيد ٢٧٨

ث

- الثقافة السامية ١٤٩
- ثورة زراعية ٣٣
- ثورة السيِّد حمود بن عزان بن قيس بن الإمام ٢٣
- ثورة في صحار بقيادة قيس ١٧
- الجبة ٢٥٦
- الجدري ٢٥٨، ٢٧٥

ح

- الحج ٢٧٢
- الحجاب ٢٤٠
- حجاب المرأة ٢٢٥
- الحجامة ٢٧٥
- الحرب الأهلية ٣٠٤
- حرب عائلية ١٨٨
- حرية المرأة واستقلالها ٢٣٠

- الحسد ٢٨١
- الحليق ٢٥٦
- الحمّام الفارسي ٦٠، ٦١
- حمولة سرية ٣٥٧
- الحمية ٢٧٨
- الحناء ٢٦٨
- الحياة الأوروبية ٣٣٧
- الحياة الشرقية ١٢٥
- حياة العزلة ٢٢٥
- حياة المرأة الشرقية ٢٥٣
- الخرافات الجنونية ٢٨٤
- الخزانة العامة ١٨٩

د

- الدبلوماسية الإنكليزية ٣٤١، ٣٦٨
- الدرداوات ٦٥
- الدرن الرئوي ٢٧٩
- الدولة ١٨٩
- الديزانتري ١٦٨
- الدين أباح للمسلم أن يتزوج أربع زوجات في آنٍ واحد ٢٢٧
- الدين المسيحي ٣٣٦

ر

- ركوب الشيطان ٢٨٢
- الروح الخبيث ٢٨٣
- الرياح الموسمية ٣٥٥
- الرياضة ٢٥٩

ز

- زراعة القرنفل ٣٤
- الزكاة ٢٧٢
- الزيارات المفاجئة ٢٤٩

س

- السحارات ٨٤
- السحر ٢٨١
- السعال الديكي ٢٧٩
- السكرتيرة العامة ٣٠٨
- السل ٢٧٩
- السمو الروحي ٢٩٣
- السياسة العالمية ٣٤٧
- السياسة لا أخلاق لها ٣٤٧
- سياسة مكيافيلية ملتوية ٢٢

ش

- شجرة عيد الميلاد السلطانية ٣٦١
- الشحاذة ٢٧٣
- الشريعة الإسلامية ١٨٩، ٢٣٣، ٢٧٢
- الشريعة المسيحية ٢٢٨
- الشعائر الإنكليكانية ٣٣٧
- شعائر الحداد ١٨٥
- شعائر الدين المسيحي ٢٥٩
- الشعوب المتخلفة ١٥٢
- الشعوذة والدجل ٢٧٥
- الشغور ١٣
- شهر رمضان ٢٦١
- شهر العسل ٢٤٧
- الشيطان الرجيم ٢٨٢
- الشيلة ـ أي: العباءة ١٥٨، ٢٣٥، ٢٥٢

ص

- صداق المرأة ٢٤٣
- الصدفة ٧٨
- الصلاة ٢٦٩
- الصليبيّة السياسيّة ٣٨
- الصيام ٢٦١
- الضيافة العربية ٢٣٢

ط

- الطب ٢٧٥
- الطبيعة ٧٨
- الطشوت ١٣٢
- الطلاق ٢٢٧
- الطلاق في الإسلام ٢٣٣

ع

- عالم الدبلوماسية ٣٤٣
- عبدة البقر أو النجوم ٢٦٧
- العروس الأوروبية ٢٤٣
- العروس الجنوبية ٢٤٣
- العروس الغربية ٢٤٣
- العطور ٢٦٨
- العطور الشرقية ٢٤٣
- عقد القران ٢٤٥
- العود ٢٤٤
- عيد الأضحى ٢٧٢
- العيد الكبير ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢
- الغربة ٣٥١

ف

- فريضة الحج ٢٧١
- الفصد ٢٧٥
- الفكر الأوروبي ٣٤٧
- الفكر المسيحي ٢٩٣

ق

- قضاء من الله ٧٨
- القهوة ٢٥٨
- القيء ٢٧٦

ك

- كواهيري بيبي ٣٦٠
- الكوليرا ٢٥٨، ٢٧٥، ٢٧٨

ل

- الليالي الأفريقيا ٢٦٤
- ليالي رمضان ٢٦٢
- ليلة القدر ٢٦٥

م

- المئزرة ١٥٩
- مأساة المرأة الشرقية ٢٢٧
- مدافع الرحماني ٢٦٢
- المدة ٢٥٢
- المدرسة ١٤٦
- المرأة الأوروبية ١٢٣، ١٣٠، ٢٢٦
- المرأة الشرقية ١٢٣، ١٢٤، ١٣٠، ٢٢٣، ٢٢٩
- المرأة العربية ١٢٤
- المرأة العربية لا تكشف عن وجهها ٢٤٩
- المركب الرحماني ٧١
- المس الشيطاني ٢٨٣
- المعاملة الملتوية ٣٤٦
- معاهـدات مكافحة الرقيق (عـام ١,٨٢١) وعُرفت بمعاهدة مورسبي ٢٣
- المنقلة ١٥٩
- الموتوبي ١١١، ١١٢

ن

- الناقورة ١٦١
- النذور ٢٧٣، ٢٨١
- نظام الزواج المسيحي ٢٢٤

هـ

- الهجرات العربية ٢٤

و

- الواجب البيتي ١٤٨

ي

- اليومبا وهو نوع من النبيذ ٢٥١

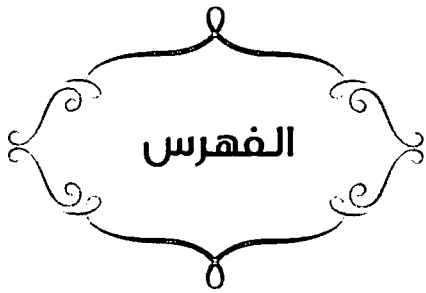

مقدِّمة المترجم ٧
مقدمة المؤلِّفة ٥٧
الفصل الأول: بيت المتوني ٥٩
الفصل الثاني: بيت الواتورو ٧٧
الفصل الثالث: بيت الساحل ٩١
الفصل الرابع: الحياة في بيت الساحل وبيت الواتورو ١٠٧
الفصل الخامس: البيت الثاني ١١٥
الفصل السادس: الحياة اليومية في بيتنا ١٢١
الفصل السابع: ولادة الأطفال وتربيتهم ١٣٥
الفصل الثامن: المدرسة والتدريس ١٤٥
الفصل التاسع: أزياء النساء في بيوت السلطان ١٥٥
الفصل العاشر: النزهة في المزارع ١٦١
الفصل الحادي عشر: رحلة السلطان إلى عُمان ١٦٧

الفصل الثاني عشر: وفاة السلطان ١٧٩
الفصل الثالث عشر: شعائر الحداد ١٨٥
الفصل الرابع عشر: من أخبار الأخوة والأخوات ١٩٣
الفصل الخامس عشر: وضع المرأة في الشرق ٢٢٣
الفصل السادس عشر: الخطوبة والزواج في بلاد العرب ٢٣٩
الفصل السابع عشر: زيارات النساء ومجالس الرجال ٢٤٩
الفصل الثامن عشر: الصيام والأعياد في الإسلام ٢٦١
الفصل التاسع عشر: الطب والعلاج والنذور والأرواح ٢٧٥
الفصل العشرون: الرقيق ٢٨٧
الفصل الحادي والعشرون: مؤامرة وفتنة ٢٩٧
الفصل الثاني والعشرون: حصاد الشر ٣٢٣
الفصل الثالث والعشرون: الفرار من زنجبار ٣٣٥
الفصل الرابع والعشرون: دبلوماسية إنكليزية ٣٤١
الفصل الخامس والعشرون: عودٌ إلى زنجبار ٣٤٩
الفهارس العامة ٣٧٣